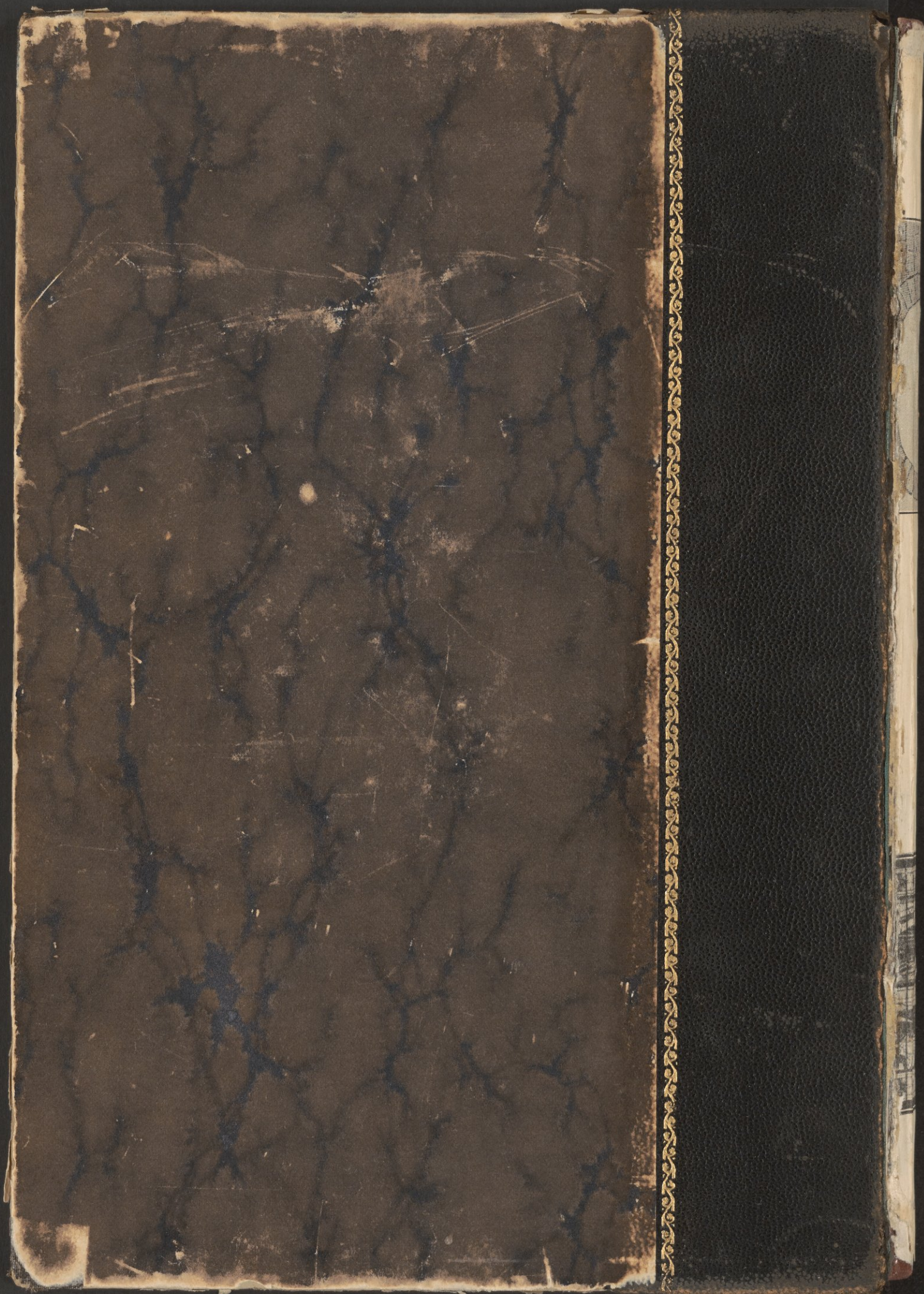




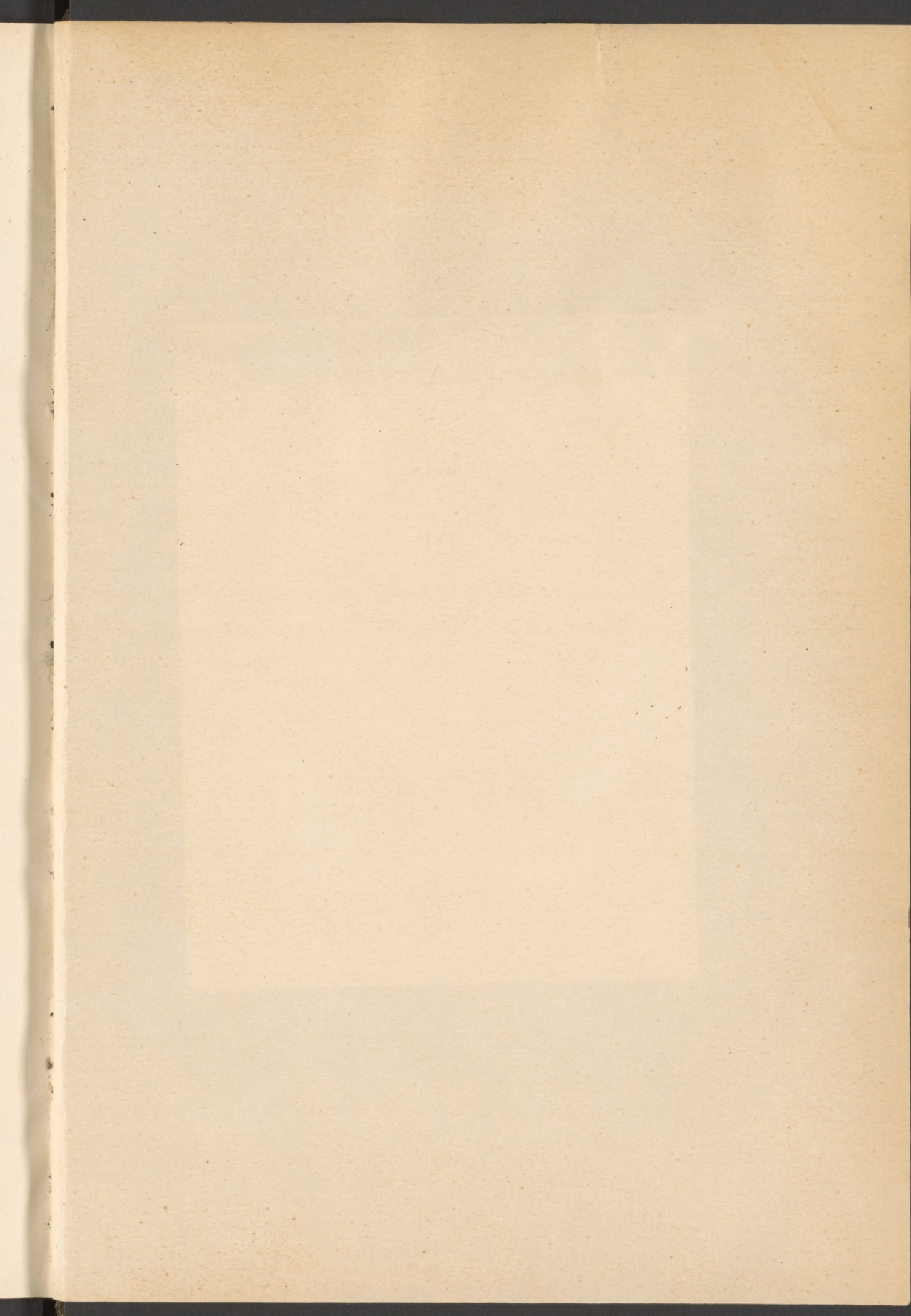
BOBST LIBRARY



3 1142 02748 6185

C.C. [unclear]

DATE DUE



al-Nuwayrī, Aḥmad ibn 'Abd al-Wahhāb
/Nihāyat al-Arab fī funūn al-adab/

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الأول

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م

توضیحات

توضیحات

AE

90

.A7

N8

Y. 1

c.1

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

فكر سرى

السفر الأول

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنويزى

صحيفة

مقدمة الكتاب ... ١

الفرس الأول

في السماء والآثار العلوية، والأرض، والمعالم السفلية ... ٢٧

القسم الأول

في السماء وما فيها، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

مبدأ خلق السماء ... ٢٨

ذكر ما قيل في أسماء السماء وخلقها ... ٢٩

» ما حكى في سبب حدوثها ... ٢٩

الباب الثانى :

في هيئة السماء ... ٣٠

في الأمثال التى ورد فيها ذكر السماء ... ٣٢

في وصف السماء وتشبيهها ... ٣٣

ما قيل فى الفلك ... ٣٤

الباب الثالث :

فى ذكر الملائكة ... ٣٦

الباب الرابع :

- ٣٨ ... في الكواكب السبعة المتحيرة ...
- ٤٠ ... ذكر ما قيل في الشمس ...
- ٤٢ ... » ما يمثل به مما فيه ذكر الشمس ...
- ٤٤ ... » ما جاء في وصف الشمس وتشبيهها ...
- ٤٦ ... » شيء مما وصفت به على طريق الذم ...
- ٤٨ ... » ما قيل في الكسوف ...
- ٤٨ ... » أسماء الشمس اللغوية ...
- ٤٩ ... » عباد الشمس ...
- ٤٩ ... » ما قيل في القمر ...
- ٥٠ ... » » » (من استهلاله الى آتقضاء الشهر وأسماء لياليه) ...
- ٥١ ... » أسماء القمر اللغوية ...
- ٥٢ ... » ما يمثل به مما فيه ذكر القمر ...
- ٥٢ ... » ما قيل في وصف القمر وتشبيهه ...
- ٥٥ ... » شيء مما قيل فيه على طريق الذم ...
- ٥٦ ... » عباد القمر ...
- ٥٧ ... » ما قيل في الكواكب المتحيرة ...
- ٥٧ ... » عباد الروحانيات ...
- ٦٠ ... » بيوت الهياكل وأماكنها ونسبتها الى الكواكب ...

الباب الخامس :

- ٦٣ ... في الكواكب الثابتة ...
- ٦٤ ... ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الكواكب ...
- ٦٥ ... » ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها ...

القسم الثاني

في الآثار العلوية ، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

- ٧٠ ... في السحاب ، وسبب حدوثه ، وفي الثلج والبرد ...
- ٧١ ... ذكر ما قيل في ترتيب السحاب ، وأسمائه اللغوية وأصنافه ...
- ٧٣ ... » في ترتيب المطر ... »
- ٧٣ ... » في فعل السحاب والمطر ... »
- ٧٣ ... » أسماء أمطار الأزمنة ... »
- ٧٤ ... » المطر اللغوية ... »
- ٧٥ ... » ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر ... »
- ٧٦ ... » شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر ... »
- ٨٠ ... » ما ورد في وصفها ثرا ... »
- ٨٤ ... » شيء مما وصف به الثلج والبرد ... »

الباب الثاني :

- ٨٥ ... في النيازك ، والصواعق ، والرعد ، والبرق ، وقوس قزح ...

الباب الثالث :

- ٩٢ ... في أسطقس الهواء ...
- ٩٣ ... ذكر ما قيل في حدّ الهواء ...
- ٩٥ ... » أسماء الرياح اللغوية ... »
- ٩٦ ... فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع ...
- ٩٧ ... ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الهواء ...
- ٩٧ ... » ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه ... »

الباب الرابع :

- ١٠٠ ... في أسطقس النار، وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران ...
- ١٠١ ... ذكر أسماء النار ...
- ١٠٢ ... » عباد النار ...
- ١٠٤ ... بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس ...
- ١٠٦ ... ذكر نيران العرب ...
- ١١٠ ... » النيران المجازية ...
- ١١١ ... » النيران التي يضرب المثل بها ...
- ١١٢ ... » ما جاء منها على لفظ أفعال ...
- ١١٣ ... » ما قيل في وصف النار وتشبيهها ...
- ١١٦ ... » شيء مما قيل في الشمعة والشمعدان، والسراج، والقنديل ...
- ١١٩ ... ما ورد في وصفها ثرا ...
- ١١٩ ... ما قيل في السراج ...
- ١٢٠ ... رسالة القنديل والشمعدان ...

القسم الثالث من الفن الأول

في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد،

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

- ١٢٥ ... في الليالي والأيام ...
- ١٢٦ ... ذكر ما قيل في الليل وأقسامه ...
- ١٢٧ ... فصل وقد عبر بالليالي عن الأيام ...
- ١٢٧ ... ذكر الليالي المشهورة ...
- ١٢٨ ... » ما يتأمل به مما فيه ذكر الليل ...

١٢٩	...	...	...	...	...	...	...	...	...	ذكر ما قيل في وصف الليل وتشبيهه
١٣٠	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» ما وصف به الليل من الطول
١٣٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» » من القصر
١٣٦	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» » من الإشراق
١٣٧	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» » من الظلمة
١٣٨	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» شيء مما قيل في تبشير الصباح
١٤١	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» ما قيل في النهار
١٤٢	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» الأيام التي خصت بالذكر
١٤٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» أيام أصحاب الملل الثلاث
١٤٤	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» ما يتمثل به مما فيه ذكر النهار
١٤٥	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه
١٤٧	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» » وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات

الباب الثاني :

١٥٠	...	...	...	...	...	...	...	...	...	في الشهور والأعوام
١٥٠	...	...	...	...	...	...	...	...	...	ذكر الشهور وما قيل فيها
١٥١	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» الأشهر العربية وما يختص بها من القول
١٥٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	شهور اليهود
١٥٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	الشهور العجمية
١٥٧	...	...	...	...	...	...	...	...	...	ذكر ما يختص بالسنة من القول
١٥٩	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» النسيء ومذهب العرب فيه
١٦٠	...	...	...	...	...	...	...	...	...	» السنين التي يضرب بها المثل

الباب الثالث :

١٦٢	...	...	...	...	...	...	...	...	...	في الفصول وأزمعتها
١٦٣	...	...	...	...	...	...	...	...	...	ذكر ما قيل في وصف الفصول وتشبيهها نظماً ونثراً

صحيفة

الباب الرابع :

- في ذكر مواسم الأمم وأعيادها ، وأسباب اتّخاذهم لها ، وما قيل في ذلك ١٧٦
 ذكر الأعياد الإسلامية ١٧٧
 » أعياد الفرس ١٧٨
 » » النصارى القبط ١٨٣
 » » اليهود ١٨٧

القسم الرابع من الفن الأول

في الأرض ، والجبال ، والبحار ، والجزائر ، والأنهار ، والعيون ،
 والغدران ، وفيه سبعة أبواب

الباب الأول :

- في مبدأ خلق الأرض ١٩٠

الباب الثانى :

في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها ، فى الاتساع ، والأتواء ، والبعد ،
 والغلط ، والصلابة ، والسهولة ، والحزونة والارتفاع ، والانخفاض ،

- وغير ذلك ١٩١
 ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته ١٩٤
 » » الغبار وأوصافه ١٩٥
 » » الطين ١٩٥
 » » الترمال ١٩٦
 » ترتيب كمية الرمل ١٩٧
 » تفصيل أسماء الطرق وأوصافها ١٩٨

الباب الثالث :

في طول الأرض ومساقفها ١٩٩

الباب الرابع :

في الأقاليم السبعة ٢٠١

ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الأرض ٢٠٥

» شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها ٢٠٦

الباب الخامس :

في الجبال ٢٠٩

ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض الى أن يبلغ الجبيل ٢١١

» ترتيب أبعاض الجبل ٢١٢

» » مقادير الحجارة ٢١٤

» ما يمثل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة ٢١٦

» شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها ٢١٧

الباب السادس :

في ذكر البحار والجزائر ٢١٩

ذكر بحار المعمور من الأرض ٢١٩

» ما يتفرع من البحر المحيط ٢٢١

» الخلجان التي تخرج من البحر الرومي ٢٢٦

بحر الهند وجزائره ٢٢٧

ذكر خلجان البحر الهندي ٢٣٣

بحر مانيطش ٢٣٦

بحر الخزر وجزائره ٢٣٧

صفحة

- ذكر ما فى المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب ... ٢٣٩
- » ما يتمثل به مما فيه ذكر البحر ... ٢٤٣
- » شىء مما قيل فى وصف البحر وتشبيهه ... ٢٤٤
- » » وصف به البحر والسفن ... ٢٤٥
- » ما وصفت به البحار والسفن نثرا ... ٢٤٧

الباب السابع :

فى العيون والأنهار والغدران ، وما وصفت به البرك ، والدوايب ،

- والتواعير ، والجداول ... ٢٥٠
- نهر النيل ... ٢٥١
- » الفرات ... ٢٥٥
- » دجلة ... ٢٥٧
- » سجستان ... ٢٥٨
- » مهران ... ٢٥٩
- » جيحون ... ٢٥٩
- » سيحون ... ٢٦٠
- » الكلك ... ٢٦١
- » الكتر ... ٢٦٢
- » إتل ... ٢٦٢
- ذكر ما فى المعمور من الأنهار والعيون التى يتعجب منها ... ٢٦٣
- » ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء ... ٢٦٦
- » شىء مما قيل فى وصف الماء وتشبيهه ... ٢٧٠
- » » وصف به الأنهار ... ٢٧١
- » » البرك ... ٢٧٤

صحيفة

- ٣٠١ ... ذكر أسماء الكعبة ومكة
- ٣٠٢ ... ما جاء في فضل الركن الأسود
- ٣٠٤ ... » » آستلام الركن الأسود، واليماني
- ٣٠٥ ... » » الطواف بالكعبة
- ٣٠٥ ... » » زمزم
- ٣٠٧ ... » » من آتساع مني أيام الحج، ولم سميت مني
- ٣٠٧ ... » » في فضائل مقبرة مكة
- ٣٠٨ ... » شئ من خصائص مكة
- ٣٠٨ ... المدينة المشرفة (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)
- ٣١١ ... ذكر شئ من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها
- ٣١٣ ... البيت المقدس، والمسجد الأقصى
- ٣١٣ ... البدء بذكر الأرض المقدسة
- ٣١٦ ... فضل بيت المقدس
- ٣١٨ ... » زيارة بيت المقدس، وفضل الصلاة فيه
- ٣٢٠ ... ما ورد في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه
- ٣٢٠ ... فضل السكنى فيه والإقامة والوفاء به
- ٣٢١ ... ما بيت المقدس من قبور الأنبياء، ومحراب داود وعين سلوان
- ٣٢٢ ... ما ورد في أن الحشر من بيت المقدس
- ٣٢٣ ... » في فضل الصخرة والصلاة الى جانبها
- ٣٢٤ ... » في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس الى السماء
- ٣٢٦ ... ثواب الإهلال من بيت المقدس
- ٣٢٧ ... ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة
- ٣٢٧ ... اليمن وما يختص به
- ٣٢٨ ... الشام وما يختص به

صحيفة

- ٣٢٨ ... مسجد دمشق وما قيل فيه
- ٣٣١ ... مصر وما يختص بها من الفضائل
- ٣٣٦ ذكر مَنْ وُلِدَ بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وَمَنْ كان بها منهم
- ٣٣٦ « » كان بها من الصديقين والصديقات، رضى الله عنهم ...
- ٣٣٧ « » صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ...
- ٣٣٨ « » أظهرته مصر من الحكماء ...
- ٣٤١ ومن فضائل مصر
- ٣٤٤ ما وصفت به مصر ...
- ٣٤٥ جزيرة الأندلس ...
- ٣٤٦ البصرة وما آختصت به
- ٣٤٧ بغداد وما آختصت به
- ٣٤٨ الأهواز وما آختصت به
- ٣٤٨ فارس وما آختصت به
- ٣٤٨ أصفهان وما آختصت به
- ٣٤٩ جرجان وما آختصت به
- ٣٤٩ نيسابور وما آختصت به
- ٣٥١ طوس وما آختصت به
- ٣٥١ بلخ وما آختصت به
- ٣٥١ بست وما آختصت به
- ٣٥٢ غزنة وما آختصت به
- ٣٥٢ سنجستان وما آختصت به
- ٣٥٣ الهند وما آختصت به
- ٣٥٣ الصين وما آختصت به
- ٣٥٤ سمرقند وما آختصت به

صحيفة

٣٥٤ ... بلاد الترك وما آختصت به

٣٥٤ ... خوارزم وما آختصت به

٣٥٥ ... ذكر الخصائص التي تجرى مجرى الطلسمات

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة (وهي العلم، والعمل، والجواهر،

والملايس، والأوبار، والفرش، والمراكب، والحيوانات ذوات

السموم، والخلوى، والثمار، والرياحين، والخلق، والأخلاق،

٣٥٥ ... والأمراض والآثار العلوية)

الباب الثالث :

٣٥٩ ... في المباني القديمة

٣٥٩ ... ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض

٣٥٩ ... « خبر إرم ذات العماد

٣٦١ ... « خبر سدّ يأجوج ومأجوج

٣٦٥ ... ذكر مباني الفرس المشهورة

٣٦٦ ... من مباني الفرس إيوان كسرى

٣٦٧ ... « المباني القديمة الحضر

٣٦٨ ... « « القليس

٣٦٩ ... « « المشهورة قنطرة صنجة

٣٧٠ ... « « القديمة ملعبا بعلبك

٣٧٠ ... ذكر مباني العرب المشهورة

٣٧٠ ... غمدان

٣٧١ ... حصن تيماء

٣٧٢ ... الخورنق والسدير

٣٧٣ ... الغريان

٣٧٤ ... ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية

الأهرام		٣٧٤
حائط العجوز		٣٧٨
ملعب أنصنا		٣٧٩
مدينة عين شمس		٣٧٩
البرابي		٣٨٠
حنية اللازورد		٣٨١
منارة الاسكندرية		٣٨١
رواق الإسكندرانيين		٣٨٤
ذكر شيء من عجائب المباني		٣٨٤

الباب الرابع :

فيما وصفت به المعقل والحصون		٣٨٦
-----------------------------	--------	-----

الباب الخامس :

فيما وصفت به القصور والمنازل		٣٩١
ما وصفت به المنازل الحالية		٣٩٦
ذكر شيء مما قيل في حب الأوطان		٣٩٩
» » » في الحمّام		٣٩٩
نسخة ما هو مكتوب في آخر الأصل بخط المؤلف		٤٠٠

تمّ فهرس السفر الأوّل

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى

.....	(٢٤)
.....	٢٥٥
.....	٢٧٧
.....	٢٧٩
.....	٢٨٢
.....	٢٨٦
.....	٢٨٧
.....	٢٨٨
.....	٢٨٩
.....	٢٩٠
.....	٢٩١
.....	٢٩٢
.....	٢٩٣
.....	٢٩٤
.....	٢٩٥
.....	٢٩٦
.....	٢٩٧
.....	٢٩٨
.....	٢٩٩
.....	٣٠٠

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤٨١ / ١٩٢٧ / ١٠٠٠)

.....	٣٠١
.....	٣٠٢
.....	٣٠٣
.....	٣٠٤
.....	٣٠٥
.....	٣٠٦
.....	٣٠٧
.....	٣٠٨
.....	٣٠٩
.....	٣١٠
.....	٣١١
.....	٣١٢
.....	٣١٣
.....	٣١٤
.....	٣١٥
.....	٣١٦
.....	٣١٧
.....	٣١٨
.....	٣١٩
.....	٣٢٠
.....	٣٢١
.....	٣٢٢
.....	٣٢٣
.....	٣٢٤
.....	٣٢٥
.....	٣٢٦
.....	٣٢٧
.....	٣٢٨
.....	٣٢٩
.....	٣٣٠
.....	٣٣١
.....	٣٣٢
.....	٣٣٣
.....	٣٣٤
.....	٣٣٥
.....	٣٣٦
.....	٣٣٧
.....	٣٣٨
.....	٣٣٩
.....	٣٤٠
.....	٣٤١
.....	٣٤٢
.....	٣٤٣
.....	٣٤٤
.....	٣٤٥
.....	٣٤٦
.....	٣٤٧
.....	٣٤٨
.....	٣٤٩
.....	٣٥٠
.....	٣٥١
.....	٣٥٢
.....	٣٥٣
.....	٣٥٤
.....	٣٥٥
.....	٣٥٦
.....	٣٥٧
.....	٣٥٨
.....	٣٥٩
.....	٣٦٠
.....	٣٦١
.....	٣٦٢
.....	٣٦٣
.....	٣٦٤
.....	٣٦٥
.....	٣٦٦
.....	٣٦٧
.....	٣٦٨
.....	٣٦٩
.....	٣٧٠
.....	٣٧١
.....	٣٧٢
.....	٣٧٣
.....	٣٧٤
.....	٣٧٥
.....	٣٧٦
.....	٣٧٧
.....	٣٧٨
.....	٣٧٩
.....	٣٨٠
.....	٣٨١
.....	٣٨٢
.....	٣٨٣
.....	٣٨٤
.....	٣٨٥
.....	٣٨٦
.....	٣٨٧
.....	٣٨٨
.....	٣٨٩
.....	٣٩٠
.....	٣٩١
.....	٣٩٢
.....	٣٩٣
.....	٣٩٤
.....	٣٩٥
.....	٣٩٦
.....	٣٩٧
.....	٣٩٨
.....	٣٩٩
.....	٤٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رافع السماء وفاتق رتقها ، ومنشئ السحاب وموكف ودقها ، ومجري
الأفلاك ومدبرها ، ومطلع النيرات ومكورها ، ومرسل الرياح ومسخرها ، ومزين
سما الدنيا بزينة الكواكب ، وحافظها عند استراق السمع بإرسال الشهب الثواقب ،
وهادي السارى بمطالع نجومها في ظلم الغياهب ؛ وجاعل الليل سكنا ولباسا ، ومبدل
وحشة ظلماته بقلق الإصباح إيناسا ، وماحى آيته بآية النهار المبصرة ، ومذهب دجنته
بإشراق شمس النيرة ، وباسط الأرض فراشا ومهادا ، ومرسى الجبال وجاعلها
أوتادا ، ومفجر العيون من جوانبها وخلالها ، ومضحك تغور الأزهار بيبكاء عيون
الأمطار وأنهمالها ؛ ومكرم بني آدم بتفضيلهم على كثير من خلقه ، ومذل الأرض
لهم ليمشوا في مناكبها وليأكلوا من رزقه ؛ وحاملهم على ظهر اليم في بطون الجوارى
المنشآت ، ومعوّضهم عن أعواد السفن غوارب اليعملات . خلق كل دابة من ماء^(١)
وأودعها من خفي حكمه ما أودع ، وباين بين أشكالهم (فمنهم من يمشى على بطنه
ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع) . وهدى الطير إلى ما آتخذته
من الأوكار وآتخذ لها من المباني ، وجعلها من رسائل المنيا ووسائل الأمانى .

أحمده على نعمه التي كم أولت من منة ؛ ومننه التي كم وآلت من نعمة ، وأشكره
على ألطافه التي كم كشفت من غمة ، وأزالت من نقمة .

(١) اليعلة (بفتح الياء والميم) : الناقة النجبية المعتملة المطبوعة والجل يعمل . وهو أسم لاوصف .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة عبدٍ نطق بها لسانه وقلبه ،
وأنس بها ضميره ولبه .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذي جعلت له الأرض مسجداً وتراًها طهوراً ،
وأُنزل عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجاً مُنِيرًا ﴾ . صلى الله وسلم عليه وعلى آله الذين رَقُوا بنسبهم إليه أعلى المراتب ،
وتسَنَّموا من ذِرْوَةِ الشرف والثناء كاهل الكواكب ، وعلى أصحابه الذين اتَّطعت
بهم قواعد الشريعة وعلا منارها ، وهُدِدت معاقل الكفر وعَفَّت آثارها ، وأنفقوا
من قَبْلِ الفتح وقاتلوا ، وجالدوا في دين الله وجادلوا : صلاةً ترفع منار قائلها ، وترسل
عليه سحائب المغفرة بوابها !

وبعد ، فمن أولى ما تَدَبَّحَتْ به الطروس والدفاتر ، ونطقت به ألسنة الأقلام
عن أفواه المجابر ، وأصدرته ذوو الأذهان السليمة ، وأنسبت إليه ذوو الأنساب
الكريمة ، وجعله الكاتب ذريعةً يتوصَّل بها إلى بلوغ مقاصده ، ومَحَجَّةً لا يَضِلُّ
سالكها في مصادره وموارده : فنَّ الأدب الذي ماحلَّ الكاتب بَوَادِيه ، إلَّا وعَمَرَتْ
بَوَادِيه ، ولا وَرَدَ مشارعه ، إلَّا واستعَدَّ شرائعه ، ولا نَزَلَ بساحته إلَّا واتَّسعت له
رحابها ، ولا تأمل مشكلاته إلَّا وتبينت له أسبابها .

وكنْتُ ممن عدل في مباديه ، عن الإلزام بناديه ، وجعل صناعة الكتابة فنَّه
الذي يستظلُّ بوارفه ، وفنَّه الذي جُمِعَ له فيه بين تليده وطارفه . فعرفتُ جليها ،
وكشفتُ خفيها ، وبسطتُ الخرائد ^(١) ونظمتُ منها الارتفاع ، وكنْتُ فيها كموقد نارٍ على

(١) لعلها : الجرائد . أى جرائد الحسابات التي يستخرج منها الارتفاع أى مقدار الإيراد . وبقيّة
الكلام تدل على ذلك لأنه استعار اصطلاحات أهل الحساب .

يَفَاعُ ؛ وَاسْتَرْفَعْتُ الْقَوَانِينَ ، وَوَضَعْتُ الْمَوَازِينَ ؛ وَعَانَيْتُ الْمُقْتَرَحَاتِ ، وَاعْتَمَدْتُ عَلَى الْمَقَالِسَاتِ ؛ وَقَذَلَكْتُ عَلَى الْأَصْلِ وَمَا أُضِيفُ إِلَيْهِ ، وَحَرَرْتُ مَا بَعْدَ الْقَذَلَكَةِ فَكَانَ الْعَمَلُ عَلَى مَا اسْتَقَرَّتْ الْجُمْلَةُ عَلَيْهِ ؛ وَاسْتَخْرَجْتُ وَحَصَّلْتُ ، وَجَمَلْتُ مِنْ عَرْضِهِ وَخَصَّلْتُ ؛ وَسُقْتُ الْحَوَاصِلَ ، وَأُورِدْتُ الْحَاسِبَ وَقَذَلَكْتُ عَلَى الْوَاصِلِ ؛ وَطَرِدْتُ مَا آتَسَاقَ إِلَى الْبَاقِي وَالْمَوْقُوفِ ، وَنَضَّدْتُ شَوَاهِدَ الْمَصْرُوفِ ؛ وَشَطَبْتُ شَوَاهِدَ الْأَرْتِفَاعِ ، وَقَرَّرْتُ أَعْمَالَ الْمَبِيعِ بِالْمَبْتَاعِ ؛ وَاسْتَوْفَيْتُ أَعْمَالَ الْأَعْتَصَارِ وَتَوَالَى الْغَلَّاتُ ، وَتَأَمَّلْتُ سِيَاقَ الْأَصْنَافِ وَالْآلَاتِ ؛ وَنَظَرْتُ فِي سِيَاقَاتِ الْعُلُوفَاتِ وَالْعَوَامِلِ ، وَأَجَبْتُ عَنِ الْمُخْرَجِ وَالْمُرْدُودِ فَأَعْجَزْتُ الْمُنَظَرَ وَالْمُنَاضِلَ ؛ وَأَتَقْنْتُ مَوَادَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَتَاجَرْتُ فِيهَا بِأَنْفُسِ بَضَاعَةٍ .

١٠ ثُمَّ نَبَذْتُهَا وَرَاءَ ظَهْرِي ، وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِهَا فِي سِرِّي دُونَ جَهْرِي ؛ وَسَأَلْتُ اللَّهَ تَعَالَى الْغِنَى عَنْهَا ، وَتَضَرَّعْتُ إِلَيْهِ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا . وَرَغِبْتُ فِي صِنَاعَةِ الْآدَابِ وَتَعَلَّقْتُ بِأَهْدَابِهَا ، وَأَنْتَظَمْتُ فِي سَلَكِ أَرْبَابِهَا ، فَرَأَيْتُ غَرَضِي لَا يَتِمُّ بِتَلْقِيهَا مِنْ أَفْوَاهِ الْفَضَلَاءِ شَفَاها ، وَمُورِدِي مِنْهَا لَا يَصِفُو مَالِمَ أُجَرِّدَ الْعِزْمَ سَفَاها .

١٥ فَأَمْتَطَيْتُ جَوَادَ الْمَطَالَعَةِ ، وَرَكَضْتُ فِي مَيْدَانِ الْمَرَاجَعَةِ . وَحَيْثُ ذَلَّ لِي مَرْكَبُهَا ، وَصَفَا لِي مَشْرَبُهَا ، آثَرْتُ أَنْ أُجَرِّدَ مِنْهَا كِتَابًا أَسْتَأْنِسُ بِهِ وَأَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَأُعَوِّلُ فِيهَا بِعَرَضٍ لِي مِنَ الْمَهَمَّاتِ عَلَيْهِ . فَاسْتَخَرْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَثْبَتُ مِنْهَا خَمْسَةَ فَنُونَ حَسَنَةَ التَّرْتِيبِ ، بَيِّنَةَ التَّقْسِيمِ وَالتَّبْوِيبِ : كُلُّ فَنٍّ مِنْهَا يَحْتَوِي عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ :

الفن الأول

في السماء والآثار العلوية، والأرض والمعالم السفلية

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في السماء وما فيها .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — في مبدأ خلق السماء .

الباب الثاني — في هيئتها .

الباب الثالث — في الملائكة .

الباب الرابع — في الكواكب السبعة .

الباب الخامس — في الكواكب الثابتة .

القسم الثاني — في الآثار العلوية .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج، والبرد .

الباب الثاني — في الصواعق، والنيازك، والرعد، والبرد .

الباب الثالث — في أسطُقس الهواء .

الباب الرابع — في أسطُقس النار، وأسمائها .

القسم الثالث — في الليالي، والأيام، والشهور، والأعوام، والفصول،

والمواسم، والأعياد .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في الليالي، والأيام .

الباب الثاني — في الشهور، والأعوام .

الباب الثالث — في الفصول .

الباب الرابع — في المواسم، والأعياد .

القسم الرابع — في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون .

وفيه سبعة أبواب :

٥

الباب الأول — في مبدأ خلق الأرض .

الباب الثاني — في تفصيل أسماء الأرض .

الباب الثالث — في طول الأرض، ومساحتها .

الباب الرابع — في الأقاليم السبعة .

الباب الخامس — في الجبال .

١٠

الباب السادس — في البحار، والجزائر .

الباب السابع — في الأنهار، والغدران، والعيون .

القسم الخامس — في طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها، وخصائصها، والمباني

القديمة، والمعقل، والقصور، والمنازل .

وفيه خمسة أبواب :

١٥

الباب الأول — في طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها .

الباب الثاني — في خصائص البلاد .

الباب الثالث — في المباني القديمة .

الباب الرابع — فيما وُصِفَتْ به المعقل .

الباب الخامس — فيما وُصِفَتْ به القصور، والمنازل .

٢٠



الفرس الثاني

في الإنسان وما يتعلق به

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في اشتقاقه ، وتسميته ، وتنقلاته ، وطبائعه ، ووصف

أعضائه ، وتشبيهها ، والغزل ، والنسيب ، والمحبة ،

والعشق ، والهوى ، والأنساب .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في اشتقاقه ، وتسميته ، وتنقلاته ، وطبائعه .

الباب الثاني — في وصف أعضائه ، وتشبيهها . وما وُصف به

١٠ طيب الريق ، والنكحة ، وحسن الحديث

والنعمّة ، واعتدال القُدود . ووصف

مشئ النساء .

الباب الثالث — في الغزل ، والنسيب ، والهوى ، والمحبة ، والعشق .

الباب الرابع — في الأنساب .

١٥ القسم الثاني — في الأمثال المشهورة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ،

وعن جماعة من الصحابة (رضى الله عنهم) ، والمشهور

من أمثال العرب ، وأوابد العرب ، وأخبار الكهنة ،

والزجر ، والفأل ، والطيرة ، والفِرَاسَة ، والذكاء ،

والكَيّات ، والتعريض ، والأحاجي ، والألغاز .

٢٠ وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — في الأمثال .

الباب الثاني — في أوابد العرب .

الباب الثالث — في أخبار الكهنة ، والزجر ، والفأل ، والطيرة ،
والفراسة والذكاء .

الباب الرابع — في الكايات والتعريض .

الباب الخامس — في الأحاجي ، والألغاز .

القسم الثالث — في المدح ، والهجو ، والمجون ، والفكاهات ، والملح ،
والنمير ، والمعاقرة ، والنُدمان ، والقيان ، ووصف
آلات الطرب .

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأول — في المدح .

وفيه ثلاثة عشر فصلا . وهي :

حقيقة المدح ، وما قيل فيه .

ما قيل في الجود ، والكرم ، وأخبار الكرام .

ما قيل في الإعطاء قبل السؤال .

ما قيل في الشجاعة ، والصبر ، والإقدام .

ما قيل في وفور العقل .

ما قيل في الصدق .

ما قيل في الوفاء ، والمحافظة .

ما قيل في التواضع .

ما قيل في القناعة ، والتزاهة .



ما قيل في الشكر، والثناء .

ما قيل في الوعد، والإنجاز .

ما قيل في الشفاعة .

ما قيل في الاعتذار، والاستعطاف .

الباب الثاني — في الهجاء .

وفيه أربعة عشر فصلا :

ما قيل في الهجاء، ومن يستحقه .

ما قيل في الحسد .

ما قيل في السعاية، والبغى .

ما قيل في الغيبة، والنميمة .

ما قيل في البخل واللؤم، وأخبار البخلاء ،

واحتجاجهم .

ما قيل في التطفل . ويتصل به اخبار الأكلة

والمؤاكلة .

ما قيل في الجبن، والفرار .

ما قيل في الحُجُوق، والجهل .

ما قيل في الكذب .

ما قيل في الغدر، والخيانة .

ما قيل في الكبر، والعُجب .

ما قيل في الحرص، والطمع .

ما قيل في الوعد، والمطل .

ما قيل في البغي، والحصر .

الباب الثالث — في المَجُون، والنوادر، والفكاهات، والملح.

الباب الرابع — في الخمر، وتحريمها، وآفاتهما، وجنباياتها،

وأسمائها . وأخبار مَنْ تنزه عنها في الجاهلية،

ومن حَدَّ فيها من الأشراف، ومن أشتهر بها،

وليس ثوب الخلاعة بسببها . وما قيل فيها

من جيد الشعر، وما قيل في وصف آلاتها،

وآتياتها، وما قيل في مبادرة اللذات، وما

وُصفت به المجالس، وما يجري هذا المجرى .

الباب الخامس — في التذمات، والسقاة .

الباب السادس — في الغناء، والسماع، وما ورد في ذلك من الخطر

والإباحة، ومن سمع الغناء من الصحابة

(رضوان الله عليهم) والتابعين، والأئمة،

والعباد، والزهاد، ومن غنى من الخلفاء،

وأبنائهم، والأشراف، والقواد، والأكابر،

وأخبار المغنين ممن نقل الغناء من الفارسية

إلى العربية .

الباب السابع — فيما يحتاج إليه المغني، ويضطر إلى معرفته،

وما قيل في الغناء، وما وُصفت به القيان،

وما وُصفت به آلات الطرب .

القسم الخامس — في المَلِك ، وما يُشترط فيه ، وما يحتاج إليه ، وما يجب له على الرعية ، وما يجب للرعية عليه . ويتصل به ذكر الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاح ، وولاية المناصب الدينية ، والكتّاب ، والبُلغاء .

وفيه أربعة عشر بابا :

الباب الأول — في شروط الإمامة : الشرعية ، والعرفية .

الباب الثاني — في صفات المَلِك وأخلاقه ، وما يفضل به على غيره . وذكر ما نُقل من أقوال الخلفاء والملوك الدالة على علوّ همّتهم ، وكرم شيمتهم .

الباب الثالث — فما يجب للملك على الرعايا من الطاعة ، والنصيحة ، والتعظيم ، والتوقير .

الباب الرابع — في وصايا الملوك .

الباب الخامس — فيما يجب على المَلِك للرعايا .

الباب السادس — في حُسن السياسة ، وإقامة المملكة . ويتصل به الحزم ، والعزم ، وأتهاز الفرصة ، والحلم ، والعفو ، والعقوبة ، والانتقام .

الباب السابع — في المشورة ، وإعمال الرأي ، والاستبداد ، ومن يُعتمد على رأيه ، ومن كره أن يستشير .

الباب الثامن — في حفظ الأسرار ، والإذن ، والمجاب .

الباب التاسع — فى الوزراء ، وأصحاب الملك ،

الباب العاشر — فى قادة الجيوش ، والجهاد ومكايد الحروب ؛

ووصف الوقائع ، والرباط ، وما قيل

فى أوصاف السلاح .

الباب الحادى عشر — فى القضاة ، والحكام .

الباب الثانى عشر — فى ولاية المظالم ، وهى نيابة دار العدل .

الباب الثالث عشر — فى نظر الحسبة ، وأحكامها .

الباب الرابع عشر — فى ذكر الكتاب والبلغاء ، والكتابة ، وما تفرع

عنها من الوظائف والكتابات ، وهى :

كتابة الإنشاء ، وكتابة الديوان ، والتصرف ،

وكتابة الحكم ، والشروط ، وكتابة النسخ ،

وكتابة التعليم .

الفرس الثالث

في الحيوان الصامت

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في السباع، وما يتصل بها من جنسها .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — في الأسد ، والببر ، والنمر .

الباب الثاني — في الفهد ، والكلب ، والذئب ، والضبع ،
والنمس .الباب الثالث — في السنجاب ، والثعلب ، والدب ، والهر ،
والخنزير .

القسم الثاني — في الوحوش ، والظباء ، وما يتصل بها من جنسها .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — فيما قيل في الفيل ، والكركدن ، والزرافة ،
والمهامة ، والإيل^(١) .

الباب الثاني — في الحمر الوحشية ، والوعل ، واللمط .

الباب الثالث — فيما قيل في الطّي ، والأرنب ، والقرد ، والنعام .

(١) ويقال أيضا : الأيل والأيل (قاموس) .

القسم الثالث — وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — في الخيل .

الباب الثاني — في البغال ، والحمير .

الباب الثالث — في الإبل ، والبقر ، والغنم .

القسم الرابع — وفيه بابان :

الباب الأول — في ذوات السموم القوائل .

الباب الثاني — فيما هو ليس بقاتل بفعله ، من ذوات السموم .

القسم الخامس — وفيه سبعة أبواب : ستة منها في الطير ، وباب في السمك .

(وذيلت عليه بباب ثامن ، أوردت فيه ما قيل في آلات

صيد البر ، والبحر) .

١٠



الباب الأول — في سباع الطير ، وهي : العقبان ، والبوازي ،

والصقور ، والشواهين .

الباب الثاني — في كلاب الطير ، وهي : النسر ، والرخم ، والحداة ،

والغراب .

الباب الثالث — في بهائم الطير ، وهي : الدراج ، والجباري ،

والطاووس ، والدِّيك ، والدجاج ، والإوز ،

والبط ، والنحام ، والأنيس ، والقناوند ،

والخُطَّاف ، والقيق ، والزرزور ، والسمان^(١) ،

والهدهد ، والعقَّع ، والعصافير .

١٥

(١) في الأصل : السمان . وقال في الصحاح : والسمان ولا تشدد الميم .

الباب الرابع — في بُغَاث الطير ، وهو القُمَيْرِيّ ، والدُّبْنِيّ ،
والوَرَشَاتُ ، والفَوَاخِثُ ، والشَّفِينِ ،
والعَبْطَبُ ، والنَّوَّاحِ ، والقَطَاةُ ، واليَمَامِ ،
وأصنافه ، والبيَّغَاءُ .

٥ الباب الخامس — في الطير الليليّ ، وهو : الخُفَّاشُ ، والكِرَّوانُ ،
والبُومُ ، والصَّدى .

الباب السادس — في الهمَجِّ ، وهو : النمل ، والزَّنْبُورُ ، والعنكبوت ،
والجراد ، ودود القَرَزِ ، والدُّبَابُ ، والبعوض ،
والبراغيث ، والحُرْقُوصُ .

١٠ الباب السابع — في أنواع الأسماك .

الباب الثامن — يشتمل على ذكر شيء مما وُصِفَتْ به آلات
الصيْد في البر ، والبحر ، ووصف رُماة البُنْدُقِ ،
وما يجري هذا المجرى .

الفرع الرابع

في النبات

ويشتمل على خمسة أقسام :

(وذيلت على هذا الفن ، في القسم الخامس ، بشيء من أنواع الطيب ، والبحُور ، والغوالي ، والتدود ، والمستطرات ، وغير ذلك) .

القسم الأول — في أصل النبات ، وما تختص به أرض دون أرض .
(ويتصل به ذكر الأقوات ، والخضراوات ، والبقولات) .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — في أصل النبات ، وترتيبه .

الباب الثاني — فيما تختص به أرض دون أرض ، وما يستأصل
شأفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة .

الباب الثالث — في الأقوات ، والخضراوات ، والبقولات .

القسم الثاني — في الأشجار .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — فيما لثمره قشر لا يؤكل .

الباب الثاني — فيما لثمره نوى لا يؤكل .

الباب الثالث — فيما ليس لثمره قشر ولا نوى .

القسم الثالث — في الفواكه المسمومة .

وفيه بابان :

الباب الأول — فيما يُشَمُّ رَطْبًا ، وَيُسْتَقَطَرُ .

ويشتمل على أربعة أنواع : وهي "الورد،

والنَّسْرِينُ، والخَلَّافُ، والتِّلَوْفُ" .

الباب الثاني — فيما يُشَمُّ رَطْبًا ، ولا يُسْتَقَطَرُ .

ويشتمل على ما قيل في البَنْفَسِجِ ، والنَّجَسِ ،

والياسمين ، والآس ، والزعفران ، والحبَّق .

القسم الرابع — في الرياض ، والأزهار .



(ويتصل به الصُّمُوغُ ، والأَمْنَانُ ، والعصائر) .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في الرياض ، وما وُصِفَتْ به نظمًا ونثرًا .

الباب الثاني — في الأزهار ، وما وُصِفَتْ به .

الباب الثالث — في الصُّمُوغِ .

وفيه ثمانية وعشرون صنفًا .

الباب الرابع — في الأَمْنَانِ .

القسم الخامس — في أصناف الطيب ، والبَخُورَاتِ ، والغوالي ، والندود ،

والمُسْتَقَطَرَاتِ ، والأدهان ، والنَّضُوحَاتِ ، وأدوية

الباه ، والخواص .

وفيه أحد عشر بابًا :

الباب الأول — في المسك ، وأنواعه

- الباب الثاني — في العنبر، وأنواعه، ومعادنه .
- الباب الثالث — في العود، وأصنافه، وأنواعه، ومعادنه .
- الباب الرابع — في الصندل، وأصنافه، ومعادنه .
- الباب الخامس — في السنبُل الهندى، وأصنافه، والقرنفل،
وجوهره .
- الباب السادس — في القسط، وأصنافه .
- الباب السابع — في عمل الغوالى، والتدود .
- الباب الثامن — في عمل الرامك، والشك من الرامك والأدهان .
- الباب التاسع — في عمل النضوحات، والمياه المستقطرة، وغير
المستقطرة .
- الباب العاشر — في الأدوية التى تزيد فى الباه، وتُلذذ الجماع،
وما يتصل بذلك .
- الباب الحادى عشر — فيما يفعل بالخاصية .

القرن الخامس

في التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في مبدأ خلق آدم (عليه السلام) وحواء ، وأخبارهما ،

ومن كان بعد آدم الى نهاية خبر أصحاب الرس .

وفيه ثمانية أبواب :

الباب الأول — في مبدأ خلق آدم (عليه السلام) ، وموسى

(عليه السلام) ، وما كان من أخبارهما الى

حين وفاتهما .

١٠ الباب الثاني — في خبر شيث بن آدم (عليهما السلام) ، وأولاده .

الباب الثالث — في أخبار إدريس النبي (عليه السلام) .

الباب الرابع — في قصة نوح (عليه السلام) ، وخبر الطوفان .

الباب الخامس — في قصة هود (عليه السلام) مع عاد ، وهلاكهم

بالريح العقيم .

١٥ الباب السادس — في قصة صالح (عليه السلام) مع ثمود ، وعقرهم

الناقة ، وهلاكهم .

الباب السابع — في أخبار أصحاب البئر المعطلة ، والقصر المشيد ،

وهلاكهم .

الباب الثامن — في أخبار أصحاب الرس ، وما كان من أمرهم .

القسم الثاني — في قصة إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وخبره مع نمرود؛
وقصة لوط؛ وخبر إسحاق، ويعقوب؛ وقصة يوسف؛
وأيوب؛ وذى الكفل؛ وشُعيب (عليهم السلام).
وفيه سبعة أبواب :



الباب الأول — في قصة إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام)،
وأخبار نمرود بن كنعان .

الباب الثاني — في خبر لوط (عليه السلام) مع قومه ، وقلب
المدائن .

الباب الثالث — في خبر إسحاق ، ويعقوب (عليهما السلام) .

الباب الرابع — في قصة يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) .

الباب الخامس — في قصة أيوب (عليه السلام)، وأبنتائه، وعافيته .

الباب السادس — في خبر ذى الكفل بن أيوب (عليهما السلام) .

الباب السابع — في خبر شُعيب (عليه السلام) ، وقصته مع
مَدْيَن .

القسم الثالث — يشتمل على قصة موسى بن عمران (عليه السلام) ،

وخبره مع فرعون؛ وخبر يوشع، ومن بعده؛ وخرقيل،

وإلياس، وآل يسع، وعيلا، وأشمويل، وطالوت،

وجالوت، وداود، وسليمان بن داود، وشعيا،

وأرميا، وخبر بخت نصر، وخراب بيت المقدس،

وعمارته؛ وما يتصل بذلك من خبر عزير؛ وقصة

يُونُس بن مَتَّى ، وخبر بلوقيا ، وزكريا ، ويحيى ،
وعمران ، ومريم وعيسى (عليهم السلام) ، وقصص
الحواريين ، وما كان من أمرهم فيمن أُرسِلوا إليه ،
وخبر جرجيس .

وفيه ستة أبواب :

(وذيلت على هذا القسم ذيلًا يشتمل على أربعة أبواب ، ذكرت فيها
ما قيل في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى - عليه السلام - إلى
الأرض ومدة إقامته بها ، ووفاته ، وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار
الحشر والمعاد) .

- ١٠ الباب الأول — في قصّة موسى بن عمران ، وهرون ، وغرق
فِرْعَوْن ، وأخبار بني إسرائيل ، وأخبار
قارون ، وخبر بلعم بن باعوراء ، والجبّارين
وغير ذلك .

- الباب الثاني — فيما كان بعد موسى بن عمران ، (عليه السلام)
١٥ من أخبار يوشع بن النون ، ومن بعده ، وخبر
حزقييل ، وإلياس ، وأليسع ، وعيلا ،
وأشمويل ، وطالوت ، وجالوت ، وداود ،
وسليمان .

- الباب الثالث — في أخبار شعيا ، وأرميا ، وخبر بُحْتُ نَصْر ،
٢٠ وخراب بيت المقدس ، وعمارته ، وما يتصل
بذلك من خبر عُزَيْر .

الباب الرابع — في قصة ذى النون يؤنس بن متى (عليه

السلام) ، وخبر بلوقيا .

الباب الخامس — في خبر زكريّا ، ويحيى ، وعمران ، ومريم ابنته

وعيسى بن مريم (عليهم السلام) .

الباب السادس — في أخبار الحواريّين الذين أرسلهم عيسى (عليه

السلام) ، وما كان من أمرهم بعد رفعه ؛

وخبر جرجيس .

التذييل على هذا القسم — ويشتمل على أربعة أبواب :

الباب الأول — في ذكر الحوادث التي تظهر قبل

نزول عيسى بن مريم .

الباب الثاني — في خبر نزول عيسى الى الأرض ؛

وقتل الدجال ؛ وخروج يأجوج ،

ومأجوج ، وهلاكهم ؛ ووفاة

عيسى (عليه السلام) .

الباب الثالث — في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى

ابن مريم الى النفخة الأولى .

الباب الرابع — في أخبار يوم القيامة والحشر ،

والمعاد ؛ والنفخة الثانية في الصور

القسم الرابع — في أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم، والطوائف؛

وخبر سبل العرم؛ ووقائع العرب في الجاهلية .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — في أخبار ذى القرنين، المذكور في سورة الكهف .

الباب الثاني — في أخبار ملوك الأصقاع، وهم : ملوك مصر،

والهند، والصين، وجبل القتح .

الباب الثالث — في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم : ملوك

الفرس الأول، وملوك الطوائف منهم؛

والملوك الساسانية؛ وملوك اليونان والسريان؛

والكلدانيين؛ والصقالبة؛ والبوكرد؛

والإفرنجية؛ والجلائقة؛ وطوائف السودان .

الباب الرابع — في أخبار ملوك العرب .

(ويتصل به خبر سبل العرم) .

الباب الخامس — في أيام العرب، ووقائعها في الجاهلية .

القسم الخامس — في أخبار الملة الإسلامية؛ وذكر شيء من سيرة نبينا محمد

(صلى الله عليه وسلم) ، وأخبار الخلفاء من بعده

(رضى الله عنهم) ؛ وأخبار الدولة الأموية؛

والعباسية؛ والعلوية؛ ودول ملوك الإسلام :

وأخبارهم، وما فتح الله (سبحانه وتعالى) عليهم — على

ما سنين ذلك — إن شاء الله (تعالى) .

وفيه اثنا عشر بابا :

الباب الأول - في سيرة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
 الباب الثاني - في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر، وعمر،
 وعثمان ، وعليّ وأبنيه الحسن (رضي الله عنهم
 أجمعين) .

الباب الثالث - في أخبار الدولة الأموية بالشأم وغيره .
 الباب الرابع - في أخبار الدولة العباسية بالعراق، ومصر .
 الباب الخامس - في أخبار الدولة الأموية بالأندلس ، وأخبار
 الأندلس بعد انقراض الدولة الأموية .
 الباب السادس - في أخبار إفريقية ، وبلاد المغرب ، ومن وليها
 من العُملّ ، ومن استقلّ منهم بالملك .

الباب السابع - في أخبار من نهض في طلب الخلافة من
 الطالبيين ، في مدة الدولتين : الأموية والعباسية ،
 فقتل دونها ، بعد مقتل الحسين بن علي (رضي
 الله عنهما) .

الباب الثامن - في أخبار صاحب الزنج ، والقرامطة ، والخوارج
 بالموصل .

الباب التاسع - في أخبار من استقلّ بالملك ، والممالك ، بالبلاد
 الشرقية والشامية ، في خلال الدولة العباسية ،
 وهم : ملوك خراسان ، وما وراء النهر ،
 والجبّال ، وطبرستان ، وغزنة ، والغور

وبلاد السند، والهند : كالدولة السامانية،
والصفارية، والغزنوية، والغورية، والديلمية
الختلية .

الباب العاشر — في أخبار ملوك العراق، وما والاها، وملوك
الموصل، والديار الخيرية، والبكرية، والبلاد
الشامية، والحلبية : كالدولة الحمدانية،
والديلمية والبويهية، والسلاجقية، والأتابكية.
الباب الحادي عشر — في أخبار الدولة الخوارزمية، والجنكرخانية،
وهي دولة التتار وما تفرع منها .

الباب الثاني عشر — في أخبار ملوك الديار المصرية الذين ملكوا
في خلال الدولة العباسية، نيابة عن خلفائها،
وهم : الملوك العبيديون الذين آنتسبوا إلى
علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وما كان
من أمرهم، وما ملكوه من بلاد المغرب،
وكيف استولوا على الديار المصرية، والبلاد
الشامية، والحلبية، والنفور، والسواحل،
وغير ذلك إلى أن انقرضت دولتهم، وقيام
الدولة الأيوبية، وأخبار ملوكها بمصر، والشام
إلى حين انقراضها، وقيام دولة الترك، ومن
ملك منهم من أنبأهم، وما حازوه من الأقاليم،
وما فتحوه من الممالك، وغير ذلك من

أخبارهم، وما آستقر في ملك ملوك هذه الدولة
إلى حين وضعنا لهذا التأليف في سنة
وسبعماية (في أيام مولانا السلطان السيد
الأجل المالك الملك الناصر، ناصر الدنيا
والدين، سلطان الإسلام والمسلمين،
أبي الفتح محمد، بن السلطان الشهير، الملك
المنصور، سيف الدنيا والدين، أبي المظفر
قلاوون، الصالحى . خلد الله ملكه على ممر
الزمان، وسقى عهد والده صوب الرحمة
والرضوان، ببركة سيد ولد عدنان !)

هذا مجموع ما يشتمل عليه هذا الكتاب، من فنون وأقسام وذيل وأبواب .
ثم ينطوى كل باب منها على فصول وأخبار، ويحتوى على وقائع وآثار .
ولما آتته أبوابه وفصوله، وانحصرت جملة وتفصيله، ترجمته :

بنهاية الأرب في فنون الأدب

وأيت فيه بالمقصود والغرض، وأثبت الجوهر ونفيت العَرَض، وطوَّقته بقلائد
من مقول، ورصَّعته بفرائد من منقول . فكلامى فيه كالسارية تلتها السحاب، أو السرية
ردفتها الكائب . فما هو إلا مترجم عن فنونه، وحاجب لعيونه .

وما أوردت فيه إلا ما غلب على ظنى أن النفوس تميل إليه، وأن الخواطر تشتمل
عليه . ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بنانى، وغضضت طرفى، ولو خبرت طريق

المعترض لعظفت عِناي ، وثبتت عِظفي . لكنني تبعْتُ فيه آثار الفضلاء قبلي ،
وسلكتُ منهمجهم فوصلتُ بحبالهم حبلي . فإن يكن اعتراض ، فلي علاهم لا عليَّ
العار . وقد علمتُ أنه من صنف كتابا فقد استهدف ، وأصمَّ الأسماع وإن كان
لبعضها قد شنف .

- ٥ . وخليق للواقف عليه أن يُستد ما يجد به من خلل ، وأن يغفر ما يلمح فيه من زلل .
فَأَسْبِلُ عليها سترَ معروفك الذي * سَتَرْتُ به قِدْماً على عَوَارِي
والذي أدى إليه آجتهادي من تأليفه فقد أصدرته ، والذي وَفَّقْتُ عنه غايي
فقد أوردته . قد تبلَّغتُ فيه وسعي ، لكن ليس من عثرة الكتاب أمان . وبالله
سبحانه المستعان ! وعليه أتوكل ، واليه أتضرع في التيسير وأتوسل ؛ ومن فضله
أستمد الصواب ، وبأسمه أستفتح الكتاب ^(١) !
- ١٠ .

(١) ورد في النسخة الفوتوغرافية التي اعتمدنا الطبع عليها (وهي المحفوظة بكتبخانة الكوبري بالقسطنطينية)
ما نصه في هذا الموضع : هذا آخر الفهرست لهذا الكتاب . ولنبتهدي إن شاء الله تبارك وتعالى بما بدأ به
مؤلفه عفا الله تعالى عنه وهو الفن الأول . ورجو بعون الله وحوله وقوته الإتمام بسلام . وصلى الله
وسلم على أشرف الأنام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام — وهي من زيادات الناسخ .

(١١)

الفن الأول

في السماء والآثار العلوية، والأرض والمعالم السفلية

وقد أوردت في هذا الفن نبذة من وصف السماء، التي هي قبلة الدعاء، وباب
الرجاء، والكواكب السيّارات ذوات السنا والسناء، والملائكة الذين هم أولو أجنحة،
مثنى، وثلاث، ورباع، والسحاب التي تجود بوبلها فتعدل في قسمها بين السهل
واليفاع، والرعْد الذي إن وَتَّ يَحُثُّها، والريح الذي إن آجتمعت يُبْثُّها، والبرق الذي
شُبِّهَ ببنان الحاسب والكفّ الخضيب، والثلج الذي خَلَعَ على الأرض رداء المشيب،
وقوس السحاب الذي تَكَبَّهُ الجَوْ فأفرغ عليه مُصَبَّغَاتِ الحُلَل، ورمى الجذْبَ ببنادق
البرد فتباشرت بالخصب أهل الحِلَل، والنيران وعِبَادُها وعددها، والمياه وأعدادها^(١)
ومددها، والليالي والأيام، والشهور والأعوام، والسَّنة وفصولها ومبادئها، والأعياد
والمواسم ومُتَخِذِهَا، والأرض والجبال، والبراري والرمال، والجزائر والبحار، والعيون
والأنهار، وطبائع البلاد، وأخلاق مَنْ سَكَنَهَا مِنَ الْعِبَادِ، والمباني والمعاقل،
والقصور والمنازل.

وجعلته خمسة أقسام يُسْتَدَلُّ بها عليه، ويتوصَّل من أبوابها إليه.

(١) جمع (عد) بالكسر وهو الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع. وفي الأصل: «وأمدادها»

ولا معنى له لتكرره مع ما بعده.

القسم الأول

في السماء وما فيها
وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في مبدأ خلق السماء

قال الله تعالى : ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ .

§ والسماء تُذَكَّرُ وتُنُوثٌ .

فشاهد التذكير قول الله (عز وجل) : ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ ؛ وقول الشاعر :

فلورفع السماء إليه قودا ، * لحقنا بالسماء مع السحاب !

وشاهد التأنيث ، قوله (تبارك وتعالى) : ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ ؛ وقول الشاعر :

(١)
* ياربَّ ، ربَّ الناس في سماته ! *

(١) هكذا في الأصول ، أى بالناء المشناة . ولو همزت . لفات الشاهد .

٢ — ذكر ما قيل في أسماء السماء وخلقيها

قد نطقت العرب للسماء بأسماء :

منها : الجرباء . وسميت بذلك لكثرة النجوم بها ؛

ومنها : الخلقاء . لملاستها .

وبرقع .^(١) والرقيع . ومنه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن معاذ :

”لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة“ . أى من فوق سبع سماوات .

ومنها : الطرائق . قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ .

والسماء مخلوقة من دُخان .

٣ — حكي في سبب حدوثه

أنَّ الله تعالى خلق جوهره ، وصَف من طولها وعرضها عظام . ثم نظر إليها نظرَ
هيبه ، فأتامعت ، وعلاها من شدة الخوف زَبَدٌ ودُخان . فخلق الله من الزبد الأرض ،
وفتقها سبعا ، ومن الدخان السماء ، وفتقها سبعا . ودليله قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى
السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ . قال : ولما فتق الله تعالى السماوات ، أوحى في كل سماء أمرها .
وآختلف المفسرون في الأمر ، ما هو ؟ فقال قوم : خلق فيها جبلا من برد وبحارا ؛
وقال قوم : جعل في كل سماء كوبا ، قدر عليه الطلوع والأفول ، والسير والرجوع .
وقال قوم : أسكنها ملائكة يخبرهم للعالم السفلى ، فوكل طائفة بالسحاب وطائفة
بالريح ، وجعل منهم حَفَظَةَ لَبْنِي آدَمَ وكاتبين لأعمالهم ومستغفرين لذنوبهم .

(١) برقع : كزبرج وقفذ كما في القاموس .

الباب الثاني

١ - في هيئتها

ذهب المفسرون لِكَتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ السَّمَاءَ مَسْطُوحَةٌ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرِيلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ .

وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ .

وَيُطَاقُ عَلَى مَجْمُوعِهَا فَلَكٌ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ .

وذهب الحسن إلى أن الفلك غير السماوات ، وأنه الحامل بأمر الله تعالى للشمس

والقمر والنجوم .

قالوا : ولما فتق الله تعالى رتق السماوات ، جعل بين كل سماء وسماء مسيرة

خمسمائة عام .

وروى عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، قال : بينما رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) جالس هو وأصحابه ، إذ أتى عليهم سحاب . فقال النبي^(١) (صلى الله عليه وسلم)

«هل تدرون ما هذا» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «هذا العنان ، هذه رَوَايا

الأرض ، يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه» . ثم قال : «أتدرون

ما فوقكم» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «هذا الرقيع : سقف محفوظ ، وموج

مكفوف» . ثم قال : «هل تدرون ما بينكم وبينها» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : «بينكم وبينها خمسمائة سنة» . ثم قال : «هل تدرون ما فوق ذلك» ؟

(١) العنان : السحاب . واحدته بهاء . (قاموس) .

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «سَمَاءٌ فِي بَعْدِ مَا بَيْنَهُمَا خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ» . قال ذلك حتى بلغ سبع سموات ، ما بين كل سماءين ، ما بين السماء الأرض . ثم قال : «هل تدرون ما فوق ذلك» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «إِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بَعْدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءَيْنِ . ثم قال : «هل تدرون ما تحتكم» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «إِنَّهَا الْأَرْضُ» . ثم قال : «أَتَدْرُونَ مَا تَحْتَ ذَلِكَ» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «إِنَّ تَحْتَهَا أَرْضًا أُخْرَى ، بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ» . حتى عَدَّ سَبْعَ أَرْضِينَ ، بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ وَأَرْضٍ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ» . أخرجه أبو عيسى الترمذی ، في «جامعه» .

ويُروى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) كَانَ جَالِسًا بِالْبَطْحَاءِ ، بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، إِذْ مَرَّتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ . فَنَظَرُوا إِلَيْهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : «هل تدرون ما أَسْمُ هَذِهِ» ؟ قالوا : نعم . هذا السحاب فقال (صلى الله عليه وسلم) : «وَالْمُزْنُ» . قالوا : وَالْمُزْنُ . قال : «وَالْعَنَانُ» . قالوا : وَالْعَنَانُ . فقال : «هل تدرون ما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ؟ قالوا : لَانْدَرِي . قال : «خَمْسَمِائَةِ عَامٍ» . وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ الَّتِي فَوْقَهَا كَذَلِكَ . (حتى عَدَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) . ثم قال : وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ ، بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ كَمَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ (وَفِي لَفْظٍ : كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) . وَفَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ ، بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكْبِهِمْ ^(١) مِثْلَ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ ، ثُمَّ فَوْقَ ^(١) ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» .

وجاء في رواية أخرى ذكر الكُرْسِيِّ ، وقال : «ثم ما بين السماء السابعة والكرسيّ مسيرة خمسمائة عام . ثم ما بين الكرسيّ إلى الماء مسيرة خمسمائة عام والعرش فوق الماء .» ولم يذكر الأوعال .

(١) في الترمذی : أَظْلَافَهُنَّ وَرُكْبَهُنَّ ظُهُورَهُنَّ .

وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسي، وأن السماوات في ضمنه . وهي بالنسبة إليه
كحُلقة مُلقاة في أرض فلاة، والكرسي بالنسبة الى العرش كذرة مُلقاة في أرض فلاة
فيحاء . (وفي رواية كحلقة) .

وروى أن أبا ذر (رضي الله عنه) قال : يا رسول الله : أي آية أنزلت عليك
أعظم ؟ قال : «آية الكرسي» . ثم قال : «يا أبا ذر ! أتدري ما الكرسي» ؟ قلت : لا ؛
فعلمني يا رسول الله ، مما علمك الله . فقال : «ما السماوات والأرض وما فيهن
في الكرسي» ، إلا كحلقة ألقاها مُلقٍ في فلاة . وما الكرسي في العرش ، إلا كحلقة ألقاها
مُلقٍ في فلاة . وما العرش في الماء ، إلا كحلقة ألقاها مُلقٍ في فلاة . وما الماء في الريح ،
إلا كحلقة ألقاها مُلقٍ في فلاة . وجميع ذلك في قبضة الله كالحبة ، وأصغر من الحبة ،
في كف أحدكم . تعالى الله سبحانه . رواه أبو حاتم في كتاب العظمة . ١٠

والقول في هيئة السماء ، على مذاهب أصحاب علم الهيئة ، كثير . أغضينا عنه ،
لأنه لا يقوم عليه دليل واضح . فلذلك آقتصرنا على ذكر المنقول دون المعقول .
فلنذكر ما جاء في الأمثال التي فيها ذكر السماء ، وما وصفها الشعراء به وشبهوها .

٢ - أما الأمثال

١٥

فقولهم : أرفع من السماء ، للبالغة .

وقول الشاعر :

من ذا رأى أرضاً بغير سماء ؟

إن السماء تُرجى حين تحتجبُ .

إن السماء اذا لم تبك مُقلتها * لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

٣ - وأما الوصف والتشبيه

ففيه قول عبد الله بن المعتز :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا لَمَّا تَجَلَّتْ * خِلَالَ نُجُومِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ
رِيَاضُ بَنَفْسَجٍ خَضِلٍ نَدَاهُ * تَفْتَحُ بَيْنَهُ نَوْرُ الْأَقَاحِ

وقال آخر :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا وَالشَّهْبُ فِيهَا * وَأَصْغَرُهَا لِأَكْبَرِهَا مُزَاحِمُ
بِسَاطِ زُمُرْدٍ ثُرْتُ عَلَيْهِ * دَنَائِيرُ تُخَاطِطُهَا دَرَاهِمُ

ونحوه قول الآخر :

كَأَنَّ سَمَاءَ الْأَرْضِ نَطْعُ زُمُرْدٍ * وَقَدْ فُرِشَتْ فِيهِ الدَّنَائِيرُ لِلصَّرْفِ

وقال آخر :

وَرَأَيْتُ السَّمَاءَ كَالْبَحْرِ إِلَّا * أَنَّ مَرَسُوبَهُ مِنَ الدَّرِّ طَافِي
فِيهِ مَا يَمَلَأُ الْعُيُونَ كَبِيرٌ * وَصَغِيرٌ مَا بَيْنَ ذَلِكَ خَافِي

وقال التنوخي يصف ليلة :

كَأَنَّمَا نُجُومُهَا * نُصَبَّ عُيُونَ الرُّمَقِ
دَرَاهِمٌ قَدْ ثُرْتُ * عَلَى بَسَاطِ أَزْرَقِ

وقال أبو طالب الرقي :

وَكَاَنَّ أَجْرَامَ السَّمَاءِ لَوَامِعًا * دُرَرٌ ثُرْنَ عَلَى بَسَاطِ أَزْرَقِ

وقال ظافر الحداد :

كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ لَمَّا تَبَلَجَتْ * تَوَقَّدُ جَمْرٌ فِي خِلَالِ رَمَادِ
حَكِي فَوْقَ مَمْتَدِّ الْمَجَرَّةِ شَكْلُهَا * فَوَاقِعَ تَطْفُو فَوْقَ لُحَّةِ وَايِدِ

وقال آخر:

كَانَ النُّجُومَ نَجُومَ السَّمَاءِ * وَقَدْ لُحِنَ لِلْعَيْنِ مِنْ قَرَطٍ بَعْدِ
مَسَامِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ سُمِّرَتْ * عَلَى وَجْهِ لَوْحٍ مِنَ اللَّازُورِدِ

وقال محمد بن عاصم:

تَرَى صَفْحَةَ الْخَضِرَاءِ وَالنَّجْمَ فَوْقَهَا * كَكَفِّ سُدُوسٍ بَدَأَ فِيهِ دُرُّهُمُ
تَرَى وَعَلَى الْآفَاقِ أَثْوَابُ ظُلُمَةٍ * وَأَزْرَارُهَا مِنْهَا سِمَاكٌ وَمِرْزَمُ^(١)

٤ - وَمَا قِيلَ فِي الْفَلَكَ

قال أبو العلاء المعري:

يَالَيْتَ شِعْرِي وَهَلْ لَيْتَ بِنَافِعَةٍ * مَاذَا وَرَاءَكَ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فَلَكَ
كَمْ خَاضَ فِي إِثْرِكَ الْأَقْوَامُ وَاخْتَلَفُوا * قَدَمًا فَمَا أَوْضَحُوا حَقًّا وَلَا تَرَكَوْا
شَمْسٌ تَغِيبُ وَيَقْفُو إِثْرَهَا قَمَرٌ * وَنُورٌ صَبَحَ يُوَافِي بَعْدَهُ حَلَكُ
طَحَنَتْ طَحْنِ الرَّحَى مِنْ قَبْلِنَا أُمًّا * شَتَّى وَلَمْ يَدْرِ خَلْقُ آيَةٍ سَلَكَوْا
وَقَالَ إِنَّكَ طَبَعَ خَامِسٌ نَفَرٌ * عَمْرِي لَقَدْ زَعَمُوا بَطْلًا وَقَدْ أَفْكُوْا
رَأَمُوا سَرَائِرَ لِلرَّحْمَنِ حَجَّيْهَا * مَا نَاهَرَتْ نَبِيٌّ لَا وَلَا مَلَكُ

وقال الرئيس أبو علي بن سينا^(٣):

يَرْبِّكَ أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ * أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرِ أَمْ أَضْطَرَارُ
مَدَارُكَ، قُلْ لَنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ * فَنِي أَفْهَمِنَا مِنْكَ أَنْبَارُ

(١) في الكواكب سماكان: راح وأعزل، وفي الأصل: «شمال» ولم نجد في أسماء النجوم ما يسمى شمالا فالظاهر أنه محترف عما أثبتناه. (٢) المرزم: اسم لنوء بارد.

(٣) قال صاحب عيون الأنباء (ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩): إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة لابن سينا وليست له، ونص على أنها لابن الشبل البغدادي وقد أوردها في خمسين بيتا.

وَعِنْدَكَ تُرْفَعُ الْأَرْوَاحُ أَمْ هَلْ * مَعَ الْأَجْسَادِ يُدْرِكُهَا الْبَوَارُ
وَفِيكَ الشَّمْسُ رَافِعَةٌ شُعَاعًا * بِأَجْنِحَةٍ قَوَادِمُهَا قِصَارُ
قُطُوفُ ذِي النُّجُومِ أَمْ اللَّالِي * هَلَالٌ أَمْ يَدٌ فِيهَا سِوَارُ
وَشُهْبٌ ذِي الْمِجْزَةِ أَمْ ذَبَالٌ ^(١) * عَلَيْهَا الْمَرْخُ يُقَدِّحُ وَالْعَفَارُ ^(٣)
وَتَرْصِيعُ نُجُومِكَ أَمْ حَبَابٌ * تُؤَلِّفُ بَيْنَهَا الْأَلْبَجَجُ الْغِزَارُ
تَمْدُّ رُقُومَهَا لَيْلًا وَتُطْوِي * نَهَارًا، مِثْلَ مَا طَوَى الْإِزَارُ
فَكَمْ بِصَقَالِهَا صَدَى الْبَرَايَا * وَمَا يَصْدَدُ لَهَا أَبَدًا غَرَارُ
وَتَبْدُو ثَمَّ تَخْنِسُ رَاجِعَاتٍ * وَتَكْنِسُ مِثْلَ مَا كَنَسَ الصُّوَارُ ^(٤)
فَبَيْنَا الشَّرْقُ يُقَدِّمُهَا صُعُودًا * تَلْقَاهَا مِنَ الْقَرْبِ أَنْجِدَارُ
هِيَ الْعَشَوَاءُ مَا خَبَطَتْ هَشِيمٌ * هِيَ الْعَجَمَاءُ مَا جَرَحَتْ جَبَارُ ^(٥)

وقال أبو عبادة البُحْتَرِيُّ :

أَنَاةٌ أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ * أَتَهَبُ مَا تُصَرِّفُ أَمْ خِيَارُ
سَتَبَلٍ مِثْلَ مَا نَبَلَى وَتَفَنَّى * كَمَا نَفَنَى وَيُؤْخَذُ مِنْكَ نَارُ

(١) الذبال : الفتائل .

(٢) المرخ : شجر سريع الوري كثيره . وقد وصفه المؤلف فيما بعد (ص ٣٩) بأنه شجر تحتك بعض

أغصانه ببعض فتورى نارا .

(٣) العفار : شجر يتخذ منه الزناد وهو من شجر النار .

(٤) الصوار كالصيار بكسر الصاد وضمة : القطيع من البقر .

(٥) الجبار (بضم الجيم) الهدر .

الباب الثالث

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في ذكر الملائكة

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُ .
 ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد » .

والملائكة أولو أجنحة : مثنى، وثلاث، ورباع، وأكثر من ذلك . فإنه قد
 ورد أن جبريل (عليه السلام) له ستمائة جناح . وهى الصورة التى رآه النبى
 (صلى الله عليه وسلم) فيها مرتين :

إحداهما فى الأرض ، وقد سد ما بين الخافقين . ووصفه الله تعالى بالقوة ،
 فقال تعالى : « ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ » . ومن قوته ، أنه أقتلع مدائن
 قوم لوط ، وكانت خمس مدائن ، من الماء الأسود ، وحملها جناحه ، ورفعها الى
 السماء ، حتى إن أهل السماء يسمعون نباح كلابهم ، وأصوات دجاجهم ، ثم قلبها .
 والمرة الثانية رآه (صلى الله عليه وسلم) عند سِدْرَةِ الْمُنتَهَى . قال الله تعالى :
 « وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أَنْحَرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى » .

وكان هبوط جبريل (عليه السلام) على الأنبياء (صلوات الله عليهم) ورجوعه
 فى أَوْحَى مِنْ رَجْعِ الطَّرْفِ .

(١) أط : صوت .

(٢) أسرع .

وعُظَاء الملائكة أربعة، وهم: إسرافيل، وميكائيل، وجبرائيل، وعزرائيل .
وأقربهم من الله تعالى منزلةً، إسرافيل .

فإذا أراد الله تعالى بوحي، جاء اللوح المحفوظ حتى يقرع جبهة إسرافيل، فيرفع رأسه، فينظر فيه . فإن كان إلى السماء دفعه إلى ميكائيل ؛ وإن كان إلى الأرض دفعه إلى جبرائيل ؛ وإن كان بموت أحد أمر به عزرائيل : صلوات الله عليهم .

وقد روى في قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، هم أربعة من الملائكة :
جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل . فجبريل على الجنود والرياح ،
وميكائيل على القطر والنبات ، وعزرائيل على قبض الأرواح ، وإسرافيل يبلغهم
ما يؤمرون به .

وجعل الله لهم أن يتثلوا للبشر على ما شاءوا من الصور، كما كان جبريل يتثل
لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على صورة دحية الكلبي مراراً، وفي صورة
غيره من الرجال ؛ وكما تمثل لمريم عليها السلام بشراً سوياً . ونزلت الملائكة في غزوة
بدر على الخيول المسومة ، وقد سدلوا ذوائب عمامتهم على مناكبهم . وهم مخلوقون
من نور صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكانت الملائكة تسجد لله سجدةً ، فأنزل الله من السماء ماءً فاستسقى بها نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .
وكانت الملائكة تسجد لله سجدةً ، فأنزل الله من السماء ماءً فاستسقى بها نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .
وكانت الملائكة تسجد لله سجدةً ، فأنزل الله من السماء ماءً فاستسقى بها نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .
وكانت الملائكة تسجد لله سجدةً ، فأنزل الله من السماء ماءً فاستسقى بها نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

الباب الرابع

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في الكواكب السبعة المتحيرة

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْخَوَارِ الْكُنُوسِ ﴾ . ذهب المفسرون الى

أنها هي الكواكب السبعة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ،
وعطارد ، والقمر .

وقالوا : إن هذه الكواكب هي المعنية بقوله تعالى : ﴿ فَلَمُدَّبَرَاتٍ أَمْرًا ﴾ .

وسميت كُنُوسًا لأنها تجري في البروج ثم تَكُنُوسُ أى تستتر كما تَكُنُوسُ الأطباء ؛

وَكُنُوسًا لاستقامتها ورجوعها . وقيل الْخُنُوسُ وَالْكُنُوسُ منها خمسة دون الشمس

والقمر . وسميت كُنُوسًا لأن الْخُنُوسَ في كلام العرب الانقباض . وفي الحديث
الشريف " الشيطانُ يُوسُوسُ للعبد ، فإذا ذكر الله تعالى خَنَسَ " أى انقبض ورجع .
فيكون في الكوكب بمعنى الرجوع . وَكُنُوسًا من قول العرب كَنَسَ الظبي إذا دخل
الِكِنَاسَ ، وهو مقره ؛ ويكون في الكوكب اختفائه تحت ضوء الشمس .

وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقة من صفاتها .

§ فقالوا في زحل : زَحَلُ فلان إذا أبطأ ، وبذلك سُمِّيَ هذا الكوكب لبطئه

في السماء . وقيل الزَّحَلُ والزَّحِيلُ الحقد وهو في طبعه . وهذا الكوكب عند المفسرين

هو المعنى بقول الله عز وجل : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النُّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .

(١) كذا في الأصل والكتابون في طبائع الكواكب يقولون في الحديث عن زحل : « إذا كان مسعودا

دل على صدق المودة والتأني ، وإذا كان منحوسا فاللجاجة والحقد والجور » انظر الفصل الثاني في طبائع

الكواكب السبعة من كتاب المدخل الى أحكام صناعة النجوم الموجود بدار الكتب المصرية ، ولكننا لم نجد
في كتب اللغة التي بأيدينا أن الحقد من معاني الزحل والزحيل والوارد فيها أنه قيل للكوكب زحل لأنه
زحل أى بعد ، ويقال إنه في السماء السابعة

§ وقالوا في المشتري : إنه إنما سمي بذلك لحسنه ، كأنه اشترى الحسن لنفسه .
لأنه نجم الشراء والبيع ، ودليل الأموال ، والأرباح .

§ وقالوا في المريخ : إنه مأخوذ من المرخ (وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا) فسمي بذلك لأحمراره وقال آخرون : المريخ سُمِّىَ لا ريش له إذا رُمِيَ به لا يستمر في ممره . وكذلك المريخ فيه آلتواء كثير في سيره وحكمه ، فشبه بذلك .

§ وقالوا في الشمس : إنها لما أن كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية وثلاثة سفلية ، سميت بذلك لأن الواسطة التي في المِخْنَقَةِ تسمى "شمسة" .

§ وقالوا في الزهرة : إنها مشتقة من الزاهر ، وهو الأبيض النير من كل شيء .

§ وقالوا في عطارد : إنه النافذ في الأمور ، ولهذا سُمِّىَ بالكاكب . وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع ما يلابسه ويقارنه .

§ وقالوا في القمر : إنه مأخوذ من القمرة ، وهي البياض ، والأقمر الأبيض .

§ والفرس تسمى هذه الكواكب باغتيا "كيوان" ، ويعنون به زحل ؛ و"تير" ، ويعنون به المشتري (وبعضهم يسميه "البرجيس") ؛ و"بهرام" ، ويعنون به المريخ ؛ و"مهر" ، ويعنون به الشمس ؛ و"أناهيد" ، ويعنون به الزهرة (وبعضهم يسميها : "بيدخت") ، و"هرمس" (ويعنون به عطارد) ، و"ماه" (ويعنون به القمر) .

§ وقد جمع بعض الشعراء أسماء هذه الكواكب في بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال :

لا زلت تبق وترقى للعلا أبداً * ما دام للسبعة الأفلاك أحكامُ
مهرٌ وماءٌ وكيوانٌ وتيرٌ معاً * وهرمسٌ وأناهيدٌ وبهرامُ

وقال أبو إسحاق الصبائي :

نَلِ الْمُنَى فِي يَوْمِكَ الْأَجُودِ * مُسْتَنْجِحًا بِالطَّالِعِ الْأَسْعَدِ
وَأَرْقَ كَمَرَقَى زُحَلٍ صَاعِدًا * إِلَى الْمَعَالِي أَشْرَفَ الْمَقْصِدِ
وَفُضَّ كَفَيْضِ الْمُشْتَرَى بِالْنَدَى * إِذَا أَعْتَلَى فِي أَفْقِهِ الْأَبْعَدِ
وَزِدَّ عَلَى الْمِزْنِ سَطَوًا بِمَنْ * عَادَاكَ مِنْ ذِي نَحْوَةِ أَصِيدِ
وَأَطْلَعُ كَمَا تَطْلُعُ شَمْسُ الضُّحَى * كَأَسْفَفِ الْخُنْدِيسِ الْأَسْوَدِ
وَحُذِّ مِنْ الزُّهْرَةِ أَفْعَالَهَا * فِي عَيْشِكَ الْمُسْتَقْبَلِ الْأَرْغَدِ
وَضَاهِ بِالْأَفْلامِ فِي جَرِيهَا * عُطَارِدَ الْكَاتِبِ ذَا السُّودِ
وَبَاهِ بِالْمَنْظَرِ بَدْرَ الدُّجَى * وَأَفْضُلُهُ فِي بَهْجَتِهِ وَأَزْدِ

- ١٠ وقد آخِضَ كُلُّ كَوْكَبٍ مِنْ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ بِقَوْلِ سَنَدٍ كَرَّ مِنْ ذَلِكَ مَا تَقُومُ بِهِ
الْحُجَّةُ، وَيَنْهَضُ بِهِ الدَّلِيلُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَمَا يُمَثِّلُ بِهِ مِمَّا فِيهِ ذِكْرُهَا، وَمَا وَرَدَ
فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَوْصَافِ وَالتَّشْبِيهَاتِ نَظْمًا وَنَثْرًا مِمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي أَشَاءِ مَطَالَعِي لِكُتُبِ
الْفَضَلَاءِ وَتَصَانِيفِهِمْ وَدَوَائِيهِمْ. وَعَدَلْتُ عَنْ أَقْوَالِ الْمُتَجَمِّعِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ سُوءِ الطَّوِيلَةِ
وَقَبِيحِ الْأَعْتِقَادِ، لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ لِلنَّجُومِ فِي الْوُجُودِ تَأْثِيرَاتٍ وَأَفْعَالًا. أَعَاذَنَا اللَّهُ
تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ.

١٥

٢ - ذِكْرُ مَا قِيلَ فِي الشَّمْسِ

(وَالشَّمْسُ هِيَ النَّيِّرُ الْأَعْظَمُ)

وقد ذهب بعض المفسرين لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى أَنَّ نَوْرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي سَائِرِ
السَّمَاوَاتِ بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

وجاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "الشمس والقمر وجوههما الى السماء وأقفاؤهما الى الأرض" وفي حديث آخر "وجوههما الى العرش وأقفاؤهما الى الأرض". وفي حديث آخر "أن الشمس تكون في الصيف في السماء الخامسة، وفي الشتاء في السماء السابعة تحت عرش الرحمن".

ووزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حمة. ومعنى حمة ذات حمة. وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ((وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)) أى الى موضع قرارها، لأنها تجرى الى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع؛ ومن قرأ "للمستقر" لها أى هي دأبة السير ليلا ونهارا. وهي قراءة شاذة.

وقد قال الله تعالى: ((وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ)) وروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنها تجرى لمستقر لها تحت العرش، فتختر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يؤذن لها في الطلوع، ويوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها».

وذهب وهب بن منبه الى أن الشمس على عجلة لها ثلثمائة وستون عروة، وقد تعلق بكل عروة ملك، يجزونها في السماء ودونها البحر المسجور في موج مكفوف كأنه جبل ممدود في الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ما على وجه الأرض من شيء حتى الجبال والصخور. وروى عن كعب أنه قال: "خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار".

(١) هذا الرأي هو الذى استقر عليه علماء الفلك أخيرا، بعد التحقيق والتدقيق. فله در صاحبه! فإنه، وإن كان قد خالفه فيه الدهماء، لكنه قد أقتره الراسخون في العلم الآن.

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ . والسراج لا يكون إلا من نار، وهما مضيآن لأهل السماوات كما يضيآن لأهل الأرض .
وقد تقدّم الدليل على ذلك .

٣ - ذكر ما يمثّل به مما فيه ذكر الشمس

يقال : أشهر من الشمس . أحسن من الشمس . أدل على الصبح من الشمس .

ومن أنصاف الأبيات :

- | | |
|---------------------------------|-------------------------------------|
| * وهل شمس تكون بلا شعاع * | * في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل * |
| * ولولم تغب شمس النهار لملت * | * الشمس نمامة والليل قواد * |
| * الشمس طالعة إن غيب القمر * | * وربما تنكسف الشمس * |
| * والشمس تنحط في المجرى وترفع * | * إذا الشمس لم تغرب فلا طلع البدر * |

ومن الأبيات قول الطائي :

فإني رأيت الشمس زيدت محبة * إلى الناس اذ ليست عليهم بمرمد

وقال علي بن الجهم :

والشمس لولا أنها محجوبة * عن ناظريك لما أضاء الفرقد

وقال أبو تمام :

وإن صريح الرأي والحزم لأمرئ * إذا باغته الشمس أن يتحوّل

وقوله :

وَكُلُّ كُصُوفٍ فِي الدَّرَارِي شَنِيعَةٌ * وَلَيْكِنَّهُ فِي الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ أَشْنَعُ

وقوله أيضا :

أَعِنْدَكَ الشَّمْسُ تَجْرِي فِي مَنَازِلِهَا * وَأَنْتَ مُشْتَغِلٌ بِالْخَاطِ بِالقَمَرِ

وقال البحتري :

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى * وَيَذْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال ابن الرومي :

وَرَأَيْتُهُ كَالشَّمْسِ إِنْ هِيَ لَمْ تَتَلَّ * فَالذَّفءُ مِنْهَا وَالضَّيَاءُ يُنَالُ

وقال أيضا :

كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا * حَتَّى تُغَشَّى الْأَرْضُ بِالظُّلَمِ

وقال أيضا :

كَالشَّمْسِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ مَحَلُّهَا * وَشُعَاعُهَا فِي سَائِرِ الْآفَاقِ

وقال العباس بن الأحنف :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكُنُهَا فِي السَّمَاءِ * فَعَزَّ الْفُؤَادَ عَزَاءً بِجَمِيلِ

وقال أبو عبيد البكري :

وَالشَّمْسُ يُسْتَعْنَى إِذَا طَلَعَتْ * أَنْ يُسْتَضَاءَ بِغُرَّةِ الْبَدْرِ

وقال أبو الطيب المتنبي :

كَالشَّمْسِ لَا تَبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ * مَنَفَعَةً عِنْدَهُمْ وَلَا جَاهَا

وقال ابن لَنَكَّك البصرى :

وَهَبَكَ كَالشَّمْسِ فِي حُسْنِ أَلَمِ تَرَهَا * يُقَرُّ مِنْهَا إِذَا مَالَتْ إِلَى الضَّرَرِ

وقال ابن عَبَّاد :

فَقُلْتُ وَشَمْسُ الضُّحَى تُحْتَمَى * إِذَا بَسَطَتْ فِي الْمَصِيفِ الْأَذَى

وقال ابن مسعويه الخالدي :

لَا يُعْجِبُنِيكَ حُسْنُ الْقَصْرِ تَنْزِلُهُ * فَضِيلَةُ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي مَنَازِلِهَا

وقال أبو الفتح البستي :

فَالْحَرُّ عَزِيزُ النَّفْسِ حَيْثُ ثَوَى * وَالشَّمْسُ فِي كُلِّ بُرْجٍ ذَاتُ أَنْوَارِ

٤ - ذكر ما جاء في وصف الشمس وتشبيهها

§ من ذلك قول الوزير المهلبى :

الشَّمْسُ فِي مَشْرِقِهَا قَدْ بَدَتْ * مُنِيرَةً لَيْسَ لَهَا حَاجِبٌ

كَأَنَّهَا بُوْدَقَةٌ أُحْمِيَتْ * يَحْوُلُ فِيهَا ذَهَبٌ ذَائِبٌ

وقال ظافر الحداد :

أَنْظُرْ لِقَرْنِ الشَّمْسِ بَارِغَةً * فِي الشَّرْقِ تَبْدُو ثَمَّ تَرْتَفِعُ

كَسَيْبِكَةِ الزَّجَّاجِ ذَائِبَةً * حُمْرَاءَ يَنْفُخُهَا فَتَنْسَعُ

وقال أبو هلال العسكري :

وَالشَّمْسُ وَاحِدَةٌ الْجَبِينِ كَأَنَّهَا * وَجْهُ الْمَالِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَزْرَقِ

وكأنها عند أنيساط شعاعها * تَرُّ يَدُوبٌ على فُرُوعِ المَشْرِقِ

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي :

أوما ترى شمس الأصيلِ عَليَهِ * تَرْدَادُ من بَيْنِ المَغَارِبِ مَغْرِبَا
ما لَتَ لتَحْجُبَ شَخْصَهَا فكأنها * مَدَّتْ على الدُّنْيَا مُلَاءً مُدْهَبَا

§ ومما وصفت به — وقد قابلت القمر — قول الشاعر :

أما ترى الشمسَ وهى طَالِعَةٌ * تَمْنَعُ عَنَّا إِدَامَةَ النِّظَرِ
حَمْرَاءَ صَفْرَاءَ فى تَلَوْنِهَا * كأنها تَسْتَكِي من السَّهَرِ
مِثْلَ عَرُوسٍ غَدَاةَ لَيْلِهَا * تُمَسِّكُ مِرْآتَهَا من القمرِ

وقال مؤيد الدين الطغرأى، عفا الله عنه ورحمه :

وكأنما الشمسُ المُنِيرَةُ إِذْ بَدَتْ * والبَدْرُ يَحْنَحُ لِلْغَيْبِ وما غَرَبَ
مُتَحَارِبَاتٍ لِدَا يَحْنُ صَاغَهُ * من فِضَّةٍ وَلِذَا يَحْنُ من دَهَبِ

§ ومن أحسن ما وصفت به فى الطلوع والزوال والغروب قول أعرابي :

مُحِبَّةٌ أَمَا إِذَا اللَّيْلُ جَنَّهَا * فَتَخْفَى وَأَمَا فى النَّهَارِ فَتَظْهَرُ
إِذَا انْشَقَّ عَنْهَا سَاطِعُ الفَجْرِ وَانْجَلَى * دُجَى اللَّيْلِ وَانْجَابَ الحِجَابُ المُسْتَرْ
وَأَلَيْسَ عَرَضُ الأفقِ لَوْنًا كَانَهُ * على الأفقِ الغربى ثَوْبٌ مَعْصَفَرُ
عَلَيْهَا دُرُوعُ الزَّعْفَرَانِ يَشُوبُهُ * شُعَاعُ تَلَالَا فَهُوَ أَيْضُ أَصْفَرُ
تَرَى الظَّلَّ يُطَوِّى حِينَ تَبْدُو وَتَارَةً * تَرَاهُ إِذَا زَالَتْ عَنِ الأَرْضِ يُنْشَرُ
فَأَنْتَ قُرُونَا وَهَى فى ذَاكَ لَمْ تَزَلْ * تَمُوتُ وَتَحْيَا كُلَّ يَوْمٍ وَتُنْشَرُ

وقال آخر :

وبدلتا تُرْس من الذهب الذي * لم يُنتزع من معدن بتعمل
مرآة نور لم تُشْن بصياغة * كلاً ولا جليت بكف الصيقل
تسمو الى كبد السماء كأنها * تبغى هناك دفاع أمرٍ مُعضل
حتى اذا بلغت الى حيث انتهت * وقفت كوقفه سائل عن منزل
ثم انشئت تبغى الحدور كأنها * طير أسف مخافة من أجدل

§ ومما وصفت به ، وقد قابلت الغيم ، قول ابن المعتز :

تظل الشمس ترمقنا بطرف * خفي لحظه من خلف ستر
تحاول اتق غيم وهو يابى * كعين يحاول نيل بكر

وقال آخر :

وعين الشمس تزو من بعيد * رنو البكر من خلف الستور

وقال محمد بن رشيق :

فكان الشمس بكرٌ حجت * وكان الغيم ستر قد ستر^(١)

٥ — ذكر شيء مما وصفت به على طريق الذم

١٥ فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن عمير ، وقد سئل عنها فقال : مظهره للداء ،
مثقلة للهواء مبالاة للشوب ، جالبة للهث .

وقال آخر : الشمس تشحب اللون ، وتغير العرق ، وترنجي البدن ، وتثير المزة .
اذا احتجمت فيها أمرضتك ، وان أطلت النوم فيها أفلجتك ؛ وان قربت منها
صرت زنجياً ، وان بعدت عنها ، صرت صقلياً .

(١) كذا بالأصل ولعل يد النسخ حرفته عن "سدل" كما هو ظاهر .

وقال ابن سنا الملك :

لا كانت الشمسُ فكمْ أصدأت * صفحة خد كالحسام الصَّقيل
وكمْ وكمْ صَدَّتْ بِوَادِي الكرى * طيف خيالٍ جاءني عن خليل
وأعدمتني من نُجوم الدجى * ومنه روضاً بين ظلِّ ظليل
تكذبُ في الوعد وبرهانه * أن سراب القفر منها سليل
وهي إذا أبصرها مبصر * حديد طرفٍ راح عنها كليل
يا عِلَّةَ المهومِ يا جِلدة الـ * محموم يا زفرة صبَّ نجيل
يا قرحة المشرق عند الضحى * وسلحة المغرب عند الأصيل
أنت عَجُوزٌ لم تَبرجت لي * وقد بدا منك لعاب يسيل

وقال التيفاشي، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

في خَلْقَةِ الشمس وأخلاقها * شتى عيوب ستة تُذكر
رَمْدُ عَمَشَاءَ إذا أصبحت * عَمَاءُ عِنْدَ اللَّيْلِ لَا تُبْصِرُ
وَيَعْتَدِي البدر لها كاسفاً * وَجْهَهَا مِنْ جِزْمِهِ أَكْبَرُ
حُرُورُهَا فِي الْقَيْظِ لَا تُتَقَّى * وَدِفْؤُهَا فِي الْقُرِّ مُسْتَحَقَرُ
وَحُلُقُهَا خُلُقُ الْمَلِيكِ الَّذِي * يَنْكُثُ فِي الْعَهْدِ وَلَا يَصِيرُ
لَيْسَتْ بِحَسَنَاءَ وَمَا حُسْنُ مَنْ * يَعْسِرُ عَنْهُ اللَّحْظُ لَا يُبْصِرُ

وقال أبو الطيب المتنبي :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنْ بَيَضَ أَوْجُهَنَا * وَلَا تُسَوِّدُ بَيَضَ الْعُذْرِ وَاللِّمَمِ
وكان حائهما في الحكم واحدة * لو اختصمنا من الدنيا إلى حكم

٦ - ذكر ما قيل في الكسوف

رُوى أن الشمس كُست في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووافق ذلك موت إبراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الناس : إنما كست الشمس لأجله فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، وَإِنْهُمَا لَا يَكْشِفَانِ مَوْتَ أَحَدٍ وَلَا حَيَاتَهُ . فَاذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا حَتَّى يَكْشِفَ مَا بَكُمْ » .

وقال محمد بن هاني في الكسوف :

هِيَ الْحَوَادِثُ لَا تُبْقَى وَلَا تَدْرُ * مَا لِلْبَرِيَّةِ مِنْ مَحْتَوَمِهَا وَزَرُ
لَوْ كَانَ يُنْجَى عُلُوٌّ مِنْ بَوَائِقِهَا * لَمْ تُكْشَفِ الشَّمْسُ بَلْ لَمْ يَحْصَفِ الْقَمَرُ

٧ - ذكر أسماء الشمس اللغوية

وللشمس أسماء نطقت بها العرب . فمنها : ذُكَاءُ ، والجارية ، والجونة ، والغزالة ،
(١) واللاهة ، والضُّحَى ، والضُّحْ ، ويوح (بالياء المشناة والباء الموحدة) ، والشرق ، وحناذ ،
والعين ، والمؤوبة ، والسراج .

(١) الذي في كتب اللغة أن اللاهة اسم للحية . وأما الشمس فاسمها إلهة مثلثة وألوهة . فلعن ما هنا

تصحيح من النسخ .

٨ - ذكر عباد الشمس

قال الشهرستاني في كتابه المترجم "بالمثل والنحل": إن عبدة الشمس طائفة من الهنود يُسمون الديكينية^(١) أى عباد الشمس، ومذهبهم مذهب الصابئة، وتوجههم الى الهياكل السماوية دون قصر الإلهية والربوبية عليها. ويزعمون أن الشمس ملك من الملائكة، وأن لها نفسا وعقلا، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكون الموجودات السفلية. وهى ملك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاء. ومن سنتهم أنهم آخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاص بنوه باسمه ووقفوا عليه ضياعا، وله سدة وقوام. فتأتى هذه الطائفة الى البيت، ويصلون فيه ثلاث كرات. ويأتى أصحاب العلل والأمراض فيصومون له، ويصلون، ويدعون، ويستشفون به.

٩ - ذكر ما قيل فى القمر

(وهو النير الثانى)

ذهب وهب بن منبه أن القمر موضوع على عجلة فى فلك، والفلك يدور بأمر الله تعالى الى ناحية المغرب، والعجلة يجزها ثلثمائة وستون ملكا الى ناحية المشرق، وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة. ويقال: إن القمر كان كالشمس فى الضياء، فلم يكن يعرف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يمز عليه بجناحه، فمز عليه، فبحاه. فهو ما ترى فيه من السواد.

(١) الذى فى الشهرستانى طبع لوندرد: "الديكينية". وهو الأقرب للصواب ويقول مترجمه الألمانى

٢. العلامة هاربر دكرانه ولعله من (ديناكرت) ومعناه «صانع النهار».

وبهذا القول فسر قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ .

قالوا : ولا يسمى قمرا إلا بعد مضي ثلاث ليال من استهلاله . والأقمر هو الأبيض .

١٠ - ذكر ما قيل في القمر

(من استهلاله الى انقضاء الشهر وأسماء لياليه)

قالوا : وللقمر من أول الشهر الى آخره خمس حالات ؛ ولياليه عشرة أسماء .
§ أما حالاته الخمس :

فالأولى : الهلالية، وهي خروجه من تحت شعاع الشمس وظهوره في الغرب في أول الشهر .

١٠

الثانية : أن يفضل فيه النور على الظلمة، وذلك في الليلة السابعة من الشهر .

الثالثة : الاستقبال، وهو كونه في البرج السابع من بروج الشمس، ويسمى الامتلاء

لامتلاء القمر فيه نورا، وذلك في الليلة الرابعة عشرة من الشهر، ويسمى القمر فيها بدرا لكمالها، ويسمى بذلك لامتلائه، وقيل لمبادرته الشمس بالطولوع، وتسمى الليلة

التي قبلها (وهي الثالثة عشرة) ليلة السواء لاستواء القمر فيها، وقيل : لاستواء ليالها ونهارها في الضياء، وهي ليلة التمام .

١٥

الرابعة : أن تفضل الظلمة فيه على النور، وذلك في الليلة الثانية والعشرين

من الشهر .

الخامسة : المحاقية، وهي مدة استتاره بشعاع الشمس، ويسمى ذلك أيضا سرارا،

١٩

وذلك في الليلة التاسعة والعشرين، ويمكن أن يغيب ثلاث ليال لا يرى ويهمل في اليوم

٢٠

الرابع، ويسمى حينئذ قمرًا لا هلالًا، والشمس تعطيه من نورها كل ليلة ما يستضيء به نصف سبع قرصه حتى يكمل، ثم يسلبه من الليلة الخامسة عشرة، في كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر.

و أما أسماء لياليه، فإنه يقال لأول ثلاثة منها غرر، والثانية شهب، والثالثة زهر، والرابعة بهر، والخامسة بيض، والسادسة درع،^(١) والسابعة حنادس، والثامنة ظلم، والتاسعة دآد، والعاشر ليلتان منها محاق و ليلة سرار، ويسمون الليلة الثامنة والعشرين الدنجاء، والليلة التاسعة والعشرين الدهماء، والليلة الموفية ثلاثين اللياء، ويسمونها ليلة البراء لتبرئ القمر من الشمس.

١١ - ذكر أسماء القمر اللغوية

وللقمر أسماء نطقت بها العرب. فمنها: القمر، والباهر، والبدر، والطوس، والجلم، والغاسق، والوباص، والزبرقان، والمذشق،^(٢) والواضح، والباحور، والأبرص، والزمهرير. ومنه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ وقول بعض العرب:

وليلة ظلامها قد اعتكر * قطعها والزمهرير ما ظهر

ومن أسمائه: السنمار، والساهور.

و الفخت ضوءه،^(٣) والأخذ منزله. وكذلك الوكس، وهي المنزلة التي يكشف فيها. والهالة دارته.

(١) الذي في اللسان والقاموس: أن الظلم، ثلاث ليال بين الدرع. والحنادس، ثلاث ليال بعد الظلم. ويؤيده ما في الصحاح: أن الحندس الليل الشديد الظلمة. وقد ذكر ابن سيده هذه الأسماء في المخصص (ج ٩ ص ٣٠ - ٣١) وأوردها على هذا الترتيب. وعليه فصواب العبارة هكذا: (والسادسة درع، والسابعة ظلم، والثامنة حنادس الخ) ٥١.

(٢) الذي في كتب اللغة، أن اسم القمر الوضح بدون الألف فاعل ز يادة الألف تحريف من النسخ.

(٣) عبارة اللسان مادة (أخذ): ونجوم الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها ٥١.

١٢ - ذكر ما يمثّل به مما فيه ذكر القمر

يقال في أمثالهم :

أَضِيعُ من قمر الشتاء ! قيل : لأنه لا يُجَلَسُ فيه .

إن يَبْغِ عليك قَوْمُكَ ، لا يَبْغِ عليك القمر .

ويقال : أضوا من القمر ؛ وأتم من البدر .

ومن أنصاف الأبيات :

* أَرِيهَا السَّهَاءَ وَتَرِيْنِي الْقَمَرَ * لا تَخْرُجُ الْأَقْمَارُ مِنْ هَالَتِهَا *

* هَكَذَا الْبَدْرُ فِي الظَّلَامِ يُوَافِي * كَذَلِكَ كُسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ *

ومن الأبيات قول الطائي :

إِنَّ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ ثُمُوهُ * أَقْنَتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا

وقال ابن أبي البغلة ، والبيت الثاني لابن بحر :

المرءُ مِثْلُ هِلَالٍ حِينَ تُبْصِرُهُ * يَبْدُو ضَعِيفًا ضَعِيلًا ثُمَّ يَتَّقِ

« يَزْدَادُ حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ أَعْقَبَهُ * كَرُّ الْجَدِيدِينَ نَقْصًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ »

وقال أبو الفرج البغاء :

سَتَخْلُصُ مِنْ هَذَا السَّرَّارِ وَأَيُّهَا * هَلَالٍ تَوَارَى فِي السَّرَّارِ فَمَا خَلَصَ

١٣ - ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

من ذلك قول عبد الله بن المعتز في الهلال :

وَأَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ * قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنَبٍ

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقلي :

وَرُبَّ صُبْحٍ رَقَبْنَاهُ وَقَدْ طَلَعَتْ * بَقِيَّةُ الْبَدْرِ فِي أُولَى بَشَائِرِهِ
كَأَنَّمَا أَذْهَمُ الْإِظْلَامِ حِينَ نَجَا * مِنْ أَشْهَبِ الصُّبْحِ أَلْقَى نَعْلَ حَافِرِهِ

وقال آخر :

قَدْ أَنْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ * بَشَّرَ سُقْمُ الْهَلَالِ بِالْعِيدِ
يَتَلَوُّ الشُّرْيَا كِفَاغِيرَ شَرِّهِ * يَفْتَحُ فَاهُ لِأَكْلِ عُنُقُودِ

وقال أبو هلال العسكري :

فِي هِلَالٍ كَأَنَّهُ حَيَّةُ الرَّمِّ * لِي أَصَابَتْ عَلَى الْيَفَاعِ مَقِيلًا
بَاتَ فِي مِعْصَمِ الظَّلَامِ سَوَارًا * وَعَلَى مَفْرِقِ الدُّجَى إِكْلِيلًا

وقال آخر :

وَالْجَوْ صَافٍ وَالْهَلَالُ مُشَنَّفٌ * بِالزُّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ نَحْوَ الْمَغْرِبِ
كَصَحِيفَةٍ زَرْقَاءَ فِيهَا نُقْطَةٌ * مِنْ فُضَّةٍ مِنْ تَحْتِ نُونٍ مُذْهَبِ

وقال آخر :

قُلْتُ لَمَّا دَنَتْ لِمَغْرِبِهَا الشَّمُّ * سُسُ وَلاَحَ الْهَلَالُ لِلنُّظَارِ
أَقْرَضَ الشَّرْقُ صَنُوهَ الْغَرْبِ دِينًا * رَافَأَ عَطَاهُ الرَّهْنُ نِصْفَ سِوَارِ

وقال أبو العلاء المعري :

وَلاَحَ هِلَالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجَادَهَا * بِذُوبِ النَّضَارِ الْكَاتِبِ أَبْنِ هِلَالِ

وقال آخر :

وَكَانَ الْهَلَالُ نُونٌ لِحَيْنٍ * غَرِقَتْ فِي صَحِيفَةِ زَرْقَاءِ

وقال أبو عاصم البصريّ من شعراء اليتيمة :

رَأَيْتُ الْهَلَالَ وَقَدْ أَحَدَقَتْ * مُجُومُ الثَّرَيَّا لِكِي تَسْقِيهِ
فَشَبَّهَتْهُ وَهُوَ فِي إِثْرِهَا * وَبَيْنَهُمَا الزُّهْرَةُ الْمُشْرِقَةُ
بَقَاوِسٍ لِرَامٍ رَمَى طَائِرًا * فَاتَّبَعَ فِي إِثْرِهِ بُنْدُقه

وقال آخر :

وَلَا حَ لَنَا الْهَلَالَ كَشَطْرِ طَوَاقٍ * عَلَى لَبَاتٍ زَرْقَاءِ اللَّبَاسِ

وقال الواوُ الدمشقيّ رحمه الله :

وَكَاثَ الْهَلَالَ تَحْتَ الثَّرَيَّا * مَلِكٌ فَوْقَ رَأْسِهِ إِكْلِيلُ

وقال إبراهيم بن محمد المراديّ، من شعراء الأئمة، ملغزا فيه :

دَعُ ذَا وَقُلْ لِلنَّاسِ مَا طَارَقُ * يَطْرُقُكُمْ جَهْرًا وَلَا يَتَّقِي
لَيْسَ لَهُ رُوحٌ عَلَى أَنَّهُ * يَرْكَبُ ظَهَرَ الْأَدْهِمِ الْأَبْلَقِ
شَيْخٌ رَأَى آدَمَ فِي عَصْرِهِ * وَهُوَ إِلَى الْآنِ بَخْدٍ نَقِي
وَمَدَّ وَسَطَ السَّجْنِ مَعَ قَوْمِهِ * لَا يَنْبَرِي مِنْ نَهْجِهِ الضَّيِّقِ
هَذَا وَيَمْشِي الْأَرْضَ فِي لَيْلَةٍ * أَعْجَبَ بِهِ مِنْ مُوثِقٍ مُطْلَقِ
فَتَارَةً يَنْزِلُ تَحْتَ الثَّرَى * وَتَارَةً وَسَطَ السَّمَاءِ يَرْتَقِي
وَتَارَةً يُوجَدُ فِي مَغْرِبٍ * وَتَارَةً يُوجَدُ فِي الْمَشْرِقِ
وَتَارَةً تَحْسَبُهُ سَائِحًا * يَسْرِي بِسَاطِئِ الْبَحْرِ كَالزَّوْرَقِ
وَتَارَةً تَحْسَبُهُ وَهُوَ فِي * أَسْتَارِهِ وَالْبَعْضُ مِنْهُ بَقِي
ذُبَابَةٌ مِنْ صَارِمٍ مُرْهَفٍ * بَارِزَةٌ مِنْ جَفْنِهِ الْمُطْبَقِ
يَذْنُو إِلَى عَرْسٍ لَهُ حُسْنُهَا * يَخْتَلِفُ الْأَبْصَارُ بِالرَّوْتَقِ

حتى إذا جامعها يرتدى * بحلة سوداء كالمحرق
وهو على عادته دائماً * يجامع الأثني ولا يتقي
ثم يحوب القفر من أجلها * مشتملاً في مطرف أزرق
حتى إذا قابلها ثانياً * تشكك بالرخ في المفرق
وبعد ذا تلبسه حلة * يا حسنها في لونها الموق
بفسمه من ذهب جامد * وجلده صيغ من الزئبق
وهو إذا أبصرته هكذا * أملح من صاحبة القرق

وقال ابن المعتز :

نظرت في يوم لذة عجباً * وافي به للسعود مقدار
يقابل الشمس فيه بدر دجى * يأخذ من نورها ويمتار
كصيرفي يروح متقدداً * في كفّه درهم ودينار

وقال عبد الله بن علي الكاتب :

كشف البدر وجهه لتمام * فوجوه النجوم مستترات
وكان البدر التمام عروس * وكان النجوم مستقبات

١٤ - ذكر شيء مما قيل فيه على طريق الذم

حكى أن أعرابياً رأى رجلاً يرقب الهلال . فقال له : ماترقب فيه ، وفيه عيوب
لو كانت في الحمار كُردّها ! قال : وما هي ؟ فقال : إنه يهدم العمر ، ويقرب الأجل ،
ويحل الدين ، ويقرض الكنان ، ويشحب اللون ، ويفسد اللحم ، ويفضح الطارق ،
ويدل السارق .

(٢١)

ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام في ضوءه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل، ويهيج عليه الزكام والصداع؛ وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة في ضوءه، تغيرت طعومها وروائحها.

وقال ابن الرومي :

رُبَّ عَرِضٍ مُتَرِّهٍ عَنْ قَبِيحٍ * دَسَّسَتْهُ مُعْرِضَاتُ الْهَجَاءِ
لَوْ أَرَادَ الْأَدِيبُ أَنْ يَهْجُوَ الْبَدَّ * رَمَاهُ بِالْخُطَّةِ الشَّنْعَاءِ
قَالَ يَا بَدْرُ أَنْتَ تَغْدِرُ بَالِسَا * رِي وَتُرِي بَزْوَرَةَ الْحَسَنَاءِ
كَلَّفَ فِي شُحُوبٍ وَجْهَكَ يَحْكِي * نُكْثًا فَوْقَ وَجْنَةٍ بِرِصَاءِ
يَعْتَرِيكَ الْحِقَاقُ ثُمَّ يُخَلِّدُ * مَكَ شَبِيهَ الْقُلَامَةِ الْمُجْنَاءِ
وَيَلِيكَ النُّقْصَانُ فِي آخِرِ الشَّهْرِ * رَفِيعُ حُوكٍ مِنْ أَدِيمِ السَّمَاءِ
فَإِذَا الْبَدْرُ نِيلَ بِالْهَجْوِ هَلْ يَا * مَنْ ذُو الْفَضْلِ أَلْسُنَ الشُّعْرَاءِ
لَا لِأَجْلِ الْمَدِيحِ بَلْ خِيفَةَ الْهَجْرِ * وَأَخَذْنَا جَوَازَ الْخُلَفَاءِ

هذا ما أمكن إيرادَه في القمر، فلنذكر خبر عبَّاد القمر.

١٥ ذكر عبَّاد القمر

قال الشهرستاني^(١) : عبَّاد القمر طائفة من الهنود يسمون الحندر بكثية، أي عبَّاد القمر. يزعمون أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، ومنه نُضج الأشياء المتكونة واتصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات؛ وهو تلو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته

(١) في الشهرستاني طبع لوندريه : "الحندر بكثية". وأفادنا مترجمه إلى الألمانية أن "جندراكا"

معناه القمر في لغتهم.

ونقصانه؛ ومن سَتَّهم أنهم آتخذوا صنما على عجلة تجرّه أبعة، وبيده جوهرة؛^(١)
ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفتروا
حتى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه وينظرون
إلى القمر، ويسألونه حوائجهم؛ فإذا آسَهل الشهر علّوا السطوح، وأوقدوا الدُخَنَ،
ودعوا عند رؤيته. ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح
والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة. وفي نصف الشهر إذا فرغوا من
الإفطار، أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر.

١٦ - ذكر ما قيل في الكواكب المتحيرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمّى المتحيرة. ثلاثة منها علوية
تعلو أفلاكها فلك الشمس، وهى : زحل، والمشتري، والمريخ؛ واثنان سفلية
فلكهما تحت فلك الشمس، وهى : الزهرة، وعطارد.
وسميت هذه الكواكب المتحيرة لأنها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة
الشرقية، وتبعب الغربية. فهذا الارتداد فيها شبه التحير.

١٧ - ذكر عباد الروحانيات

(وما آحتجوا به فى سبب عبادتهم لها)^(٢)

وعباد الروحانيات هم الصابئة. يقال : صبا الرجل إذا مال وزاغ.
ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثان.

(١) الذى فى الشهرستانى : صنما على صورة عجل وبيد الصنم الخ.

(٢) نقل المؤلف هنا بعض عبارات الشهرستانى فى الملل والنحل مع تقديم وتأخير (انظر ص ٢٠٣)

من طبعة الأب كرتون الانكليزى فى لندرة سنة ١٨٤٢ - ١٨٤٦

(٢٢)

وكانت الصابئة تقول : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه ، إلى متوسط ، ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لاجسمانيا . وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ، يماثلنا في الصورة والمادة .

قالوا : « وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ » .

وقالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقرّبين لديه ، وهم الروحانيون المقدّسون المطهرون ، جوهرها وفعلا وحالة .

أما الجوهر فهم المقدّسون عن الموادّ الجسمانية ، المبرّؤون عن القوى الجسدانية ، أى متزهون عن الحركات المكانية ، والتغيرات الزمانية ، قد جبلوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسييح « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

وإنما أرشدنا إلى هذا معلمنا الأول ، عاذيمون ، وهرمس ، فنحن نتقرب إليهم ، ونتوكل عليهم ، وهم أربابنا ، وأهلتنا ، ووسائلنا ، وشفعاؤنا عند رب الأرباب ، وإله الآلهة . فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية ، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية ، حتى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات . فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ، ونعرض أحوالنا عليهم ، ونصبأ في جميع أمورنا إليهم . فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ، ورازقنا ورازقهم . وهذا التطهير والتهديب ليس إلا بآكتسابنا ، ورياضتنا ، وفطامنا لأنفسنا عن دنيّات الشهوات ، باستمداد من جهة الروحانيات ، والاستمداد هو التضرّع والابتهال بالدعوات ، وإقامة الصلوات ، وبذل الزكوات ، والصيام عن المطعومات والمشروبات ، وتقريب

القرابين والذبايح ، وتبخير البخورات ، وتعظيم العزائم . فيحصل لنفوسنا استعداد أو استعداد من غير واسطة ، بل يكون حكمنا وحكم من يدعى الوحي واحدا .

قالوا : والأنبياء أمثالنا في النوع ، وأشكالنا في الصورة ، ومشاركونا في المسألة .
ويأكلون مما نأكل ، ويشربون مما نشرب ، ويساهموننا في الصورة ، . أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ، وبأية مزية لهم لزم مشايعتهم ! ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ .

قالوا : وأما الفعل ، فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع ، والإيجاد ، وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية .

في منها - مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها . وهى هياكلها . فلكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك . ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذى أختص به نسبة الروح إلى الجسد . فهو ربه ومديره ومدبره .

وكانوا يسمون الهياكل أربابا (وربما يسمونها آباء) ، والعناصر أمهات .

ففعّل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها أنفعالات في الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات فتتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها نفوس روحانية ، مثل أنواع النبات والحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي . فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك .

في ومنها - مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ؛ وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب ؛

وما يحدث في الجوّ من الرعد والبرق والسحاب وقوس قُزَح ذوات الأذنان والهالة والمَجَرَّة؛ وما يحدث في الأرض من الزلازل والمياه والأبجَرَّة إلى غير ذلك .

§ ومنها — متوسطات القوى السارية في جميع الموجودات، ومدبرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات، حتى لا ترى موجودا ما خاليا عن قوّة وهداية، إذا كان قابلا لها .

قالوا : وأما الحالة، فأحوال الروحانيات من الرّوح، والرّيحان، والنعمة، واللذة، والراحة، والبهجة، والسرور في جوار رب العالمين، كيف تخفى ! ثم طعامهم وشرابهم التسبيح والتّقدّيس والتّهلّيل والتّمجيد؛ وأنّهم بذكر الله وطاعته، فن قائم وراكم وساجد، ومن قاعد لا يريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة، ومن خاشع بصره لا يرفع، ومن ناظر لا يغمض، ومن ساكن لا يتحرّك، ومتحرّك لا يسكن .
وَكُرُوْنِي فِي عَالَمِ الْقَبْضِ، وَرُوحَانِي فِي عَالَمِ الْبَسْطِ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ .
وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين الروحاني المحض والبشرية النبوية، ليس هذا موضع إيرادها .

فلنذكر إن شاء الله تعالى بيوت الهياكل، تلو ما ذكرناه من عباد الروحانيات ومحتجّاتهم .

١٨ - ذكر بيوت الهياكل

(وأما كنّها ونسبتها إلى الكواكب)

٢٣

قالوا : ثم لم تقتصر الصابئة على التّقرّب إلى الروحانيات بأعيانها، والتلقّي بذواتها حتّى آتخذوا أصناما على هيئة الكواكب السبعة، وجعلوا لها بيوتا، وسمّوا البيوت

(١) الكروبيون سادة الملائكة المقربون .

بالهياكل ، وجعلوا الهياكل بمنزلة الأفلاك للكواكب . وعظموا هذه الأصنام التي صنعوها ، وزعموا أنهم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ما يريدون .

وحكى المسعودي في كتابه المترجم "بمروج الذهب ومعادن الجوهر" أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكلاً زُحَل ، وإنما طال بقاء هذا البيت على مرور الدهور ، معظماً في سائر العصور ، لأن زُحَل تولاه ، إذ من شأنه الثبوت .^(١)
ومن البيوت المشهورة :^(٢)

§ بيت على رأس جبل أصفهان ، يسمى مارس ، ثم آتخذ بعض ملوك الجوس بيت نار ؛

§ وبيت ببلاد الهند ؛ ١٠

§ وبيت ببلخ ، بناه منوشهر على اسم القمر ، وكان الموكل بسدائنه يسمونه برمك ، وإليه تنسب البرامكة ؛

§ وبيت عُمدان باليمن ، بناه الضحاك على اسم الزهرة ؛

§ وبيت بقرغانة ، على اسم الشمس ، يعرف بكاسات ، بناه كاس أحد ملوك^(٥) الفرس ، وخر به المعتضد بالله ؛^(٦) ١٥

(١) راجع الشهرستاني طبعة كرتن (ص ٤٣٠ - ٤٣١) .

(٢) وراجع الشهرستاني (ص ٤٣١ ، ٤٣٢) .

(٣) في الشهرستاني : فارس .

(٤) من مدن خراسان .

(٥) في الأصل : مكوس [وهو خطأ من النسخ . والتصويب عن المسعودي وعن الشهرستاني] .

(٦) في الشهرستاني أنه المعتصم .

§ وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل^(١) بن يافث، وقيل بناه بعض ملوك الترك^(٢).

§ وحكى غير المسعودي أن البيت الأول الكعبة . ويذكرون أن إدريس (عليه السلام) أوصى به، وأوصى أن يكون الحج إليه وهو عندهم بيت زحل؛ والبيت الثانى وهو بيت المريخ، يزعمون أنه كان بصور من الساحل الشامى؛ والبيت الثالث وهو بيت المشتري، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأموى؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية إلى وقتنا هذا؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمنبج وخرب؛ والبيت السادس بيت عطارد، وكان بصيدا من الساحل الشامى وخرب؛ والبيت السابع وهو بيت القمر، كان بخران؛ وهو بيت الصابئة الأعظم.

١٠

(١) فى بعض نسخ المسعودي : شوبل (بالسين المهملة) .

(٢) انظر الباب الرابع والستين من مروج الذهب، ففيه تفصيل لما أورده النويرى هنا بغاية التلخيص .

(٣) زالت هذه الآثار الآن .

الباب الخامس من القسم الأول من الفن الأول

١ - في الكواكب الثابتة

ذهب بعض من تكلم في ذلك أن هذه الكواكب معلقة في سماء الدنيا كالقنديل ،
وأنها مخلوقة من نور .

وقال آخرون : إنها معلقة بأيدي ملائكة . وفسر بهذا القول قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ . يقال آنتثارها يكون بموت من كان يحملها من
الملائكة .

وهذه الكواكب في سماء الدنيا بنص الكتاب العزيز ، لقول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ
زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ .

وقال قتادة : خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاثة : جعلها زينة للسماء ، ورجوما
للشياطين ، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر . فمن تأول غير هذا فقد أخطأ .
قالوا : وإنما سميت بالشوابت ، وإن كانت متحركة لأنها ثابتة الأبعاد على الأبد ،
لا يقرب أحدها من الآخر ، ولا يبعد عنه ، ولا يزيد ، ولا ينقص ، ولا تتغير عن
جهاتها . لأنها تتحرك بحركتها الطبيعية حول قطبي العالم . ولهذا سميت ثابتة . وهي
في فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيارة . ودليل ذلك أن للكواكب
السبعة حركات أسرع من حركات هذه .

ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الكواكب

يقال : أنأى من كوكب ، أبعد من مناط النجم ، أهدي من النجم .

ومن أنصاف الأبيات :

* وَأَيْنَ تَزِيلُ الْأَرْضِ عِنْدَ الْكَوَاكِبِ * * وَأَيْنَ الثَّرِيَّا مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ *

* وَالْكَوْكَبُ النَّجْمُ يَسْقِي الْأَرْضَ أحيانًا *

ومن الأبيات قول أبي تمام عفا الله عنه :

كَالنَّجْمِ إِنْ سَافَرْتَ كَأَنْ مَوْأَبَا * وَإِذَا حَطَّطَ الرَّحْلَ كَانَ جَلِيسَا

وقال أبو نؤاس :

أَيْنَ النَّجُومُ الشَّائِتَا * تُمْنِ الْأَهْلَةَ وَالْبُدُورَ

وقال آخر :

وَكَمَا فِي أَجْتِمَاعٍ كَالثَّرِيَّا * فَصَرْنَا فُرْقَةً كَبَنَاتِ نَعَشٍ

وقال آخر :

كَالْفَرَقْدَيْنِ إِذَا تَأَمَّلَ نَاطِرٌ * لَمْ يُعَلِّ مَوْضِعَ فَرَقْدٍ مِنْ فَرَقْدٍ

وقال الوزير أبو الفتح البستي :

وَاللَّيْجَمُ مِنْ بَعْدِ الرَّجُوعِ اسْتِقَامَةٌ * وَلِلشَّمْسِ مِنْ بَعْدِ الْغُرُوبِ طُلُوعٌ

وقال جحظة :

مِثْلَ الَّذِي يَرْجُو الْبُلُو * غَا إِلَى الْكَوَاكِبِ وَهُوَ مُقْعَدٌ

وقال عمر بن أبي ربيعة :

أيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سَهِيلاً * عَمَّرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَهَلَّتْ * وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَهَلَّ يَمَانِي

وقال آخر :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ * لَعَمْرُ أَيْكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ

٥

٣ - ذكر ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ما قاله ابن حجاج في المجرة :

يَا صَاحِبِيَّ اسْتَيْقِظْ مِنْ رَقْدَةٍ * تُزْرِى عَلَى عَقْلِ اللَّيْلِ الْأُكَيْسِ
هَذِي الْمَجْرَةُ وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا * نَهْرٌ تَدْفُقُ فِي حَدِيقَةِ نَرْجِسٍ

وقال آخر :

وَكَأَنَّ الْمَجَرَ جَدُولُ مَاءٍ * تَوَرَّ الْأَخْوَانُ فِي جَانِبَيْهِ

١٠

وقال المهذب بن الزبير فيها :

وَتَرَى الْمَجْرَةَ وَالنُّجُومَ كَأَنَّهَا * تَسْقِي الرِّيَاضَ بِجَدُولٍ مَلَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نَهْرًا لَمَّا عَامَتْ بِهِ * أَبَدًا نُجُومُ الْحَوْتِ وَالسَّرَطَانِ

وقال أبو هلال العسكري :

تَبْدُو الْمَجْرَةُ مُنْجَرَا ذَوَائِبِهَا * كَلِمَاءُ يَنْسَاحُ أَوْ كَالْأَيْمِ يَنْسَابُ^(١)

١٥

وقال هشام بن إلياس في الجوزاء :

فَكَأَنَّهَا جَوْزَاؤُهُ فِي غَرْبِهَا * بَيْضَاءُ سَابِجَةٌ بِرَكَّةٍ زُبْقِ
وَكَأَنَّهَا أَوْمَتْ ثَلَاثُ أَنْامِلٍ * مِنْهَا تَقُولُ : إِلَى ثَلَاثٍ نَلْتَقِ

(١) الأيم، والأين : ضرب من الحيات . (عن النوادر في اللغة) .

٢٠

وقال آخر :

وَكأنَّ الْجَوْزَاءَ لَمَّا اسْتَقَلَّتْ * وَتَدَلَّتْ سُرَادِقُ مَمْدُودُ

وقال العلوى فيها أيضا :

هَا إِنَّمَا الْجَوْزَاءُ فِي أَفْقِهَا * وَاهِيَةً نَاعَسَةً تُسْحَبُ
نِطَاقُهَا وَاهٍ لَدَى أَفْقِهَا * يَنْسِلُ مِنْهَا كَوْكَبٌ كَوْكَبُ

وقال ابن وكيع فيها :

قُمْ فَاسْقِنِي صَافِيَةً * تَهْتِكُ جُنْحَ الْغَسَقِ
أَمَّا تَرَى الصُّبْحَ بَدَأَ * فِي ثَوْبٍ لَيْلٍ خَلَقِ
أَمَّا تَرَى جَوْزَاءَهُ * كَأَنَّهَا فِي الْأَفَقِ
مِنْطَقَةً مِنْ ذَهَبٍ * فَوْقَ قَبَاءٍ أَزْرَقِ

وقال كعب الغنوى :

وَقَدْ مَالَتِ الْجَوْزَاءُ حَتَّى كَأَنَّهَا * فَسَاطِيطُ رَكِبٍ بِالْفَلَاةِ تَزُولُ

وقال امرؤ القيس في الثريا :

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ * تَعَرَّضَ أَشْنَاءُ الْوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ

وقال ابن الطَّيْرِيَّة :

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا * جُمَانٌ وَهَى مِنْ سِلْكِهِ فِتْبَدَدَا

وقال المبرد :

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ * يَرَاهَا حَدِيدُ الْعَيْنِ سِتَّةَ أَنْجُمِ
عَلَى كَيْدِ الْجَرْبَاءِ وَهَى كَأَنَّهَا * جَبِيْرَةٌ دُرٌّ رُكِبَتْ فَوْقَ مِعْصَمِ

وقال عبد الله بن المعتز :

فناولنيها والثريا كأنها * جنى نرجس حيا الندامى بها الساقى

وقال أيضا :

كأن الثريا في أواخر ليلها * تفتح نور أو لحام مفضض

وقال السلمي شاعر اليتيمة فيها :

فسمونا والفجر يضحك في الشر * ق إلينا مبشرا بالصباح

والثريا كراية أو لحام * أو بنان أو طائر أو وشاح

وكأن النجوم في يد ساق * يتهدى تهدي الأقداح

وقال ابن المعتز :

ولاحت لسايرها الثريا كأنها * على الأفق الغربى قرط مسلسل

وقال أبو نضلة :

وتأملت الثريا * في طلوع ومغيب

فتخيرت لها الشمس * يديه في المعنى المصيب

وهي كأس في شروق * وهي قرط في غروب

وقال آخر :

كأن الثريا هودج فوق ناقة * يسير بها حاد مع الليل مزيج

وقد لمعت بين النجوم كأنها * قوارير فيها زئبق يترجح

وقال ابن سكرة الهاشمي :

ترى الثريا والغرب يجذبها * والبدر يهوى والفجر ينفجر

كف عروس لاحت خواتمها * أو عقد در في البحر ينتثر

وقال محمد بن الحسن الحاتمي :

وَحَلَّتْ الثَّرِيَا كَفَّ عَذْرَاءَ طُفْلَةٍ * مُحْتَمَّةٍ بِالذَّرِّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ
تَحِلَّتْهَا فِي الْجَوِّ طُرَّةَ جَعْبِيَةٍ * مُلَوَّكِيَةٍ لَمْ تَعْتَلِقْهَا حَمَائِلُ
كَأَنَّ نَبَالَ سِتَّةٍ مِنْ لَالِيٍّ * يُوَافِي بِهَا فِي قُبَّةِ الْأُفُقِ نَائِلُ

وقال أحمد بن إبراهيم الضبي ، شاعر اليتيمة :

حَلَّتْ الثَّرِيَا إِذْ بَدَتْ * طَالِعَةً فِي الْحِنْدِسِ
مُرْسَلَةً مِنْ لَوْلُؤٍ * أَوْ بَاقَةً مِنْ نَرْجَسِ

وقال أبو العلاء المعري في سهيل :

وَسَهِيلٌ كَوْجَنَةُ الْحَبِّ فِي اللَّوِّ * نَوَقَلِبِ الْمِحْبِّ فِي الْخَفَقَانِ
مُسْتَبِدًّا كَأَنَّهُ الْفَارِسُ الْمُعْ * لَمْ يَبْدُو مُعَارِضَ الْفُرْسَانِ

وقال عبد الله بن المعتز :

وَقَدْ لَاحَ لِلسَّارِي سَهِيلٌ كَأَنَّهُ * عَلَى كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ رَقِيبُ

وقال الشريف بن طباطبا :

وَسَهِيلٌ كَأَنَّهُ قَلْبُ صَبٍّ * فَاجَأَتْهُ بِالْخَوْفِ عَيْنُ الرَّقِيبِ

وقال أبو عبادة البحرى :

كَأَنَّ سَهِيلًا شَخْصَ ظَمَانَ جَانِحٍ * مِنْ اللَّيْلِ فِي نَهْرٍ مِنَ الْمَاءِ يَكْرَعُ

وقال ابن طباطبا :

كَأَنَّ سَهِيلًا، وَالتُّجُومُ أَمَامَهُ * يُعَارِضُهَا، رَاجِعَ أَمَامَ قَطِيعِ

وقال الشريف الرضي في الفرقدين :

وَهَبْتَ لَصَوِّ الْفَرْقَدَيْنِ نَوَاطِرِي * إِلَى أَنْ بَدَأَ صَوُّهُ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
كَأَنَّهُمَا الْفَانِ قَالَ كَلَاهِمَا * لِشَخْصِ أَخِيهِ قُلْ فَإِنِّي سَامِعُ

وقال آخر :

قُلْتُ لِلْفَرْقَدَيْنِ وَاللَّيْلِ مُرْجٍ * سِتْرَ ظَلَمَائِهِ عَلَى الْآفَاقِ
إِبْقِيَا مَا بَقِيَتْهُمَا سَوْفَ يُرْمَى * بَيْنَ شَخْصَيْكُمَا بَسْمُ الْفِرَاقِ

وقال القاضي التَّنُوخِيُّ :

وأشقر الجَوْ قَدْ لَاحَتْ كَوَاكِبُهُ * فِيهِ كَدْرٌ عَلَى الْيَاقُوتِ مَنثور

وقال القاضي الفاضل عبد الرحيم من رسالة :

سِرْنَا، وروضة السماء فيها من الزَّهْرِ زَهْرٌ، ومن المجرة نَهْرٌ، والليل كالْبَنْفَسَجِ
تخلله من النجوم أَفَاحٌ، أو كالزَّيْجِ شَعْلُهُ من الرِّيحِ جَرَّاحٌ، والكواكب سائرَاتُ
المواكب لَأَمْعَرَسَ لها دون الصَّباحِ؛ وسهيل كالظَّمَانِ تَدَلَّى إلى الأرض ليشرب،
أو الكريم أَنَفٌ من المَقَامِ بدار الدُّلِّ فتَغَرَّبَ؛ فكأنه قَبَسٌ تُتَلَاعَبُ به الرياحُ،
أو زينة قدمها بين يَدَيِ الصَّباحِ؛ أو ناظر يُنْضِئُ الغَيْظَ ويفتحه، أو معي يُغْمِضُهُ
الحسن ثم يشرحه؛ أو صديق لجماعة الكواكب مغاضبٌ، أو رقيبٌ على المواكب
مُوَاكِبٌ؛ أو فارسٌ يحمي الأعقابَ، أو دأجٌ به إليها وقد شَرَدَتْ عن الأصحابِ .
والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب؛ أو الشجرة المنورة، أو الجبر
المصورة . والثريا قد همَّ عُقُودُهَا أَنْ يَتَدَلَّى، وجيش الليل قد همَّ أَنْ يَتَوَلَّى .

١٠

١٥

القسم الثاني

من الفن الأول في الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب



الباب الأول

من القسم الثاني من الفن الأول

١ - في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج والبرد

والسحاب من الآثار العلوية .

روى أبو الفرج بن الجوزي بإسناد يرفعه إلى عبيد بن عمير أنه قال : يبعث الله ريحا فتُقَمُّ الأرض ، ثم يبعث الميثيرة فتثير السحاب ، وذلك أنها تحمل الماء فتَمَجُّه في السحاب ، ثم يَمْرِيه فيُدْرِكها تدرّ اللقحة .

وقد روى في الأثر أن الرياح أربع : ريح تَقُمُّ ، وريح تُثِيرُ ، فتجعله كَسَفًا ، وريح تُؤَلِّفُ ، فتجعله رُكَّامًا ، وريح تُمَطِّرُ .

وروى عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : إن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحابا ، وينزل عليه المطر فتتمخض به الرياح كما تتمخض التتوج بولدها .

وروى عن عكرمة (رضي الله عنه) أنه قال : ينزل الله الماء من السماء السابعة فتقع القطرة على السحاب مثل البعير ، والسحاب للمطر كالغربال ينزل منه بقدر . ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض .

وقال الزمخشري في تفسيره : السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا تكزعم
من يزعم أنه يأخذ من البحر . ويؤيد ذلك قوله عز وجل ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ .

٢ - ذكر ما قيل في ترتيب السحاب

وأسمائه اللغوية وأصنافه

قال أبو منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبي في فقه اللغة، ينقله عن أئمتها :

أول ما ينشأ السحاب، فهو نَشْء .

فإذا آنسحب في الهواء، فهو السَّحَابُ .

فإذا تغيرت وتغممت له السماء، فهو الغَمَامُ .

فإذا كان غيم ينشأ في عَرْض السماء فلا تبصره وإنما تسمع رعدده، فهو العَقْرُ .

فإذا أطل وأظل السماء، فهو العَارِضُ .

فإذا كان ذا رعد وبرق، فهو العَرَّاصُ .

فإذا كانت السحابة قطعاً صغاراً متدانياً بعضها من بعض، فهي النِّمْرَةُ .

فإذا كانت متفرقة، فهي القَرَعُ .

فإذا كانت قطعاً متراكمة، فهي الكِرْفِيُّ (واحدتها كِرْفَةٌ) .

فإذا كانت قطعاً كأنها قطع الجبال، فهي قَلَعٌ، وَكَنْهَوْرٌ (واحدتها كَنْهَوْرَةٌ) .

فإذا كانت قطعاً رِقَاقاً، فهي الطَّخَارِيرُ (واحدتها طُخْرورٌ) .

فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مُكَلَّلَةٌ .

فإذا كانت سوداء، فهي طَخِيَاءٌ، وَمُتَطَخِطَةٌ .

فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُحِيلَةٌ .

فإذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضا، فهو المكفهر .
 فإذا ارتفع ولم ينسط، فهو النشاص .
 فإذا تقطع في أقطار السماء وتبدد بعضه فوق بعض، فهو القرد .
 فإذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبّق، فهو العماء، والعماية، والطّاء، والطّخاف والطّهء .

فإذا اعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحى .
 فإذا عتّ، فهو العنان .
 فإذا أظل الأرض، فهو الدّجن .
 فإذا أسودّ وتراكب، فهو المحمومي^(١) .
 فإذا تعلق سحاب دون السحاب، فهو الربّاب .
 فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغفارة .
 فإذا تدلى ودنا من الأرض مثل هذب القטיפعة، فهو الهيدب .
 فإذا كان ذا ماء كثير، فهو القنيف .
 فإذا كان أبيض، فهو المزن، والصّبير .
 فإذا كان لرعده صوت، فهو الهزيم .
 فإذا اشتدّ صوت رعده، فهو الأجش .
 فإذا كان بارداً وليس فيه ماء، فهو الصّراد^(٢) .
 فإذا كان ذا صوت شديد، فهو الصيّب .
 فإذا أهرق ماءه، فهو الجهام . (وقيل بل الجهام الذى لا ماء فيه) .

٢٠ (١) اسم فاعل من أحوى الشئ. إذا أسودّ . يوصف به نحو السحاب والليل .
 (٢) فى فقه اللغة بعده : فإذا كان خفيفا تفسره الريح فهو الزبرج . وبعده : فإذا كان ذا صوت الخ .

٣ - ذكر ما قيل في ترتيب المطر

قال الثعالبي رحمه الله : أخف المطر وأضعفه الطل، ثم الرذاذ، ثم البغش والدث ومثله الرُّك، ثم الرِّهمة .

ويقال أيضا : أوله رثش وطش، ثم طل ورذاذ، ثم نضح ونضخ، وهو قطر بين قطرين، ثم هطل وتهتان، ثم وابل وجود .



٤ - ذكر ما قيل في فعل السحاب والمطر

يقال إذا أتت السماء بالمطر اليسير الخفيف : حَفَشَتْ^(١)، وحَشَكَتْ .

فإذا استمر قطرها، قيل : هَطَلَتْ، وهَتَّتْ .

فإذا صببت الماء، قيل : هَمَعَتْ، وهَضَبَتْ .

فإذا ارتفع صوت وقعها، قيل : أَنَهَلَتْ، واستَهَلَتْ .

فإذا سأل المطر بكثرة، قيل : أَنَسَكَبَ، وَأَنَبَقَ .

فإذا سال يركب بعضه بعضا، قيل : أَثَعَنَجَرَ، وَأَثَعَنَجَجَ .

فإذا دام أياما لا يُقْلِعُ، قيل : أَنَجَّمَ، وَأَغْبَطَ، وأُدْجَنَ .

فإذا أقلع، قيل : أَنَجَّمَ، وَأَفْصَمَ، وَأَفْصَى .

٥ - ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب : أول ما يبدأ المطر في إقبال الشتاء، فاسمه الخريْف، ثم يليه الوَسْمِيّ، ثم الربيع، ثم الصَّيْف، ثم الحَمِيم .

وقيل المطر الأول هو الوَسْمِيّ، ثم يليه الوليّ، ثم الربيع، ثم الصَّيْف، ثم الحَمِيم .

(١) كذا في فقه الثعالبي . وعبرة اللسان : حَفَشَتْ السماء تحفش حَفْشا : جاءت بمطر شديد ساعة ثم أقلعت .

ومثله حشكت وأغبت، فالحفشة والحشكة والغبة بمعنى واحد .

٦ - ذكر أسماء المطر اللغوية

قال الثعالبي :

- إذا أحيا الأرض بعد موتها، فهو الحَيَا .
 فإذا جاء عقيبَ الخَل أو عند الحاجة إليه، فهو الغَيْثُ .
 فإذا دام مع سكون، فهو الدَّيْمَةُ . والضَّرْب فوق ذلك قليلا، والهَطْلُ فوقه .
 فإذا زاد، فهو الهَتَلان، والهَتَان والتَّهَتَانُ .
 فإذا كان القطر صغارا كأنه شَدْرٌ، فهو القَطِطُ .
 فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهي الرَّهْمَةُ .
 فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهي الغَيْبَةُ، والحَفْشَةُ، والحَشْكَةُ .
 فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهي الذَّهَابُ، والهَمِيمَةُ ^(١) .
 فإذا كان المطر مستمرا، فهو الودَق .
 فإذا كان ضَخْمَ القطر شديد الوقع، فهو الوَابِل .
 فإذا آنَبَقَ بالماء، فهو البُعَاق .
 فإذا كان يروى كل شيء، فهو الجَوْد .
 فإذا كان عاما، فهو الجَدَا .
 فإذا دام أياما لا يُقْلِع، فهو العَيْن .
 فإذا كان مسترسلا سائلا، فهو المُرْتَعْنُ .
 فإذا كان كثير القطر، فهو الغَدَق .
 فإذا كان شديد الوقع كثير الصَّوب، فهو السَّحِيفَةُ .
 فإذا كان شديدا كثيرا، فهو العِزُّ، والعُبَاب .

(١) في فقه الثعالبي : الحيمه، بإسقاط الميم الأولى، وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس .

- فإذا جَرَفَ ما مَرَّ به ، فهو السَّحِيقَةُ ^(١) .
 فإذا قَشَرْتُ وجه الأرض ، فهي السَّاحِيَةُ .
 فإذا أَثَّرَتْ في الأرض من شِدَّةِ وقعها ، فهي الحَرِيصَةُ .
 فإذا أَصَابَتْ القطعة من الأرض وأخطأت الأخرى ، فهي النُّفْضَةُ .
 فإذا جاءت المطرة لما يَأْتِي بعدها ، فهي الرَّصْدَةُ ، والعِهَادُ نحوُ منها .
 فإذا أَتَى المطر بعد المطر ، فهو الوَلِيُّ .
 فإذا رَجَعَ وتكرَّر ، فهو الرَّجْعُ .
 فإذا تَتَابَعَ ، فهو اليَعْلُولُ .
 فإذا جاءت المطرة دَفَعَات ، فهي الشَّائِبُ .

٧ - ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر

يقال : أبردُ من غِبِّ المطر . أرقُّ من دَمَعِ الغمام . أسرعُ من السيل إلى الحدُّور . أطنَى من السيل . أغشَمُ من السيل . أمضى من السيل . يذهب يومُ الغيم ولا يُسْعَرُ به . قد بلغ السيل الزَّبَى . اضطرَّه السيل إلى مَعْطَشِهِ . أَرْنِيهَا تَمْرَهُ ، أَرِيكَهَا مِطْرَهُ . سبق سيلُهُ مِطْرَهُ . قبل السحاب أصابني الوَكْفُ .

ومن أنصاف الأبيات :

- * هَلْ يَرْتَجَى مَطَرٌ بَغَيْرِ سَحَابٍ * * وَأَوَّلُ الْغَيْثِ طَلٌّ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *
 * سَحَابُهُ صَيْفٌ عَنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ * * فَدَرَّ كَمَا دَرَّ السَّحَابُ عَلَى الرَّعْدِ *

(١) نقل صاحب اللسان في مادة (س ح ف) عن الأصمعي : (أن السحيفة بالفاء : المطرة الحديدية التي تجرف كل شيء ، والسحقة بالقاف : المطرة العظيمة القطر الشديدة الوقع القليلة العرض) . وهو عكس ما نقله النويري عن الثعالبي .

* أَسْرَعُ السَّحَابِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ * وَمَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ الْعَارِضِ الْهَطِلُ؟ *
 * سَحَابٌ عَدَانِي فَيُضِهُ وَهُوَ صَيِّبٌ * يَحْسَبُ الْمَمْطُورُ أَنْ كُلَّ مُطَرٍّ *
 * سَالَ بِهِ السَّيْلُ وَمَا يَذَرِي بِهِ *

ومن الأبيات قول الطائي :

وكذا السحابُ قلَّما تَدْعُو إِلَى * مَعْرُوفِهَا الرُّوَادَ مَا لَمْ تَبْرُقْ

وقال البحتري عفى عنه :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ * مَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ فِي إِيَّانِهِ

وقال أبو الطَّيِّب :

لَيْتَ الْغَامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ * يُزِيلُهُنَّ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيمُ

وقال كثير :

كَمَا أَبْرَقَتْ يَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةً * فَلَمَّا رَجَوْهَا ، أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتْ

وقال آخر :

أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأُظَاهَا ! * إِنَّ هَذَا لَوْصَمَةٌ فِي السَّحَابِ

وقال آخر :

وَاللَّهِ يُنْشِئُ سَحَابًا تَطْمَئِنُّ بِهِ النَّفُوسُ مِنْ قَبْلِ بَلِّ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ

٨ - ذكر شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر

قال أبو تمام الطائي :

سَحَابُهُ صَادِقَةٌ الْأَنْوَاءُ * تَجُرُّ أَهْدَابًا عَلَى الْبَطْحَاءِ
 تَجْمَعُ بَيْنَ الصَّحْبِ وَالْبُكَاءِ * بَدَتْ بِنَارٍ وَنَتَتْ بِمَاءِ

وقال أبو عبادة البُحْتَرِيُّ عفا الله تعالى عنه :

ذات أَرْتَجَاسٍ يَحْنِينِ الرَّعْدِ * مَجْرُورَةَ الذَّيْلِ صَدُوقِ الْوَعْدِ
مَسْفُوحَةَ الدَّعْغِ بَغَيْرِ وَجْدٍ * لَهَا نَسِيمٌ كَنَسِيمِ الْوَرْدِ
وَرَنَةٌ مِثْلُ زَيْبِ الْأَسَدِ * وَلَمْعٌ بَرَقَ كَسَيُوفِ الْهِنْدِ
جاءت بها رِيحُ الصَّبَا مِنْ نَجْدٍ * فَأَتَتْ ثَرْتٌ مِثْلَ أَنْتَارِ الْعَقْدِ
وراحتِ الْأَرْضُ بَعِيثَ رَغْدٍ * مِنْ وَشْيِ أَنْوَارِ الثَّرَى فِي بُرْدِ
كأَنَّمَا غُدرَتْهَا فِي الْوَهْدِ * يَلْعَبْنَ تَرْحَابًا بِهَا بِالرَّندِ

وقال أبو الحسن علي بن القاسم القاشاني من شعراء اليتيمة عفى عنه :

إِذَا الْغُيُومُ أَرْبَحْنَ بِاسْقِهَا * وَحَفَّ أَرْجَاءُهَا بِوَارِقِهَا
وُعِيَّتْ لِلثَّرَى كَتَائِبُهَا * وَأَنْتَصَبَتْ وَسْطَهَا عَقَائِقُهَا
وَجَلَّجَلَ الرَّعْدُ بَيْنَهَا خَفَى * خَفَقَ طُبُولٌ أَلَحَّ خَافِقُهَا
وَأَبْتَسَمَتْ فَرَحَةً لَوَامِعُهَا * وَأَخْتَلَفَتْ عِبْرَةً حَمَالِقُهَا
وَقِيلَ طُوبَى لِبَلَدَةٍ تُنَجِّتُ * يَحْوِ أَوْ كَافِهَا بِوَارِقِهَا
أَيُّ نَعْمَاءَ لَا تَحُلُّ بِهَا؟ * وَأَيُّ بَأْسَاءَ لَا تُفَارِقُهَا؟

وقال القاضي التَّنُوخِيُّ :

سَحَابٌ أَتَى كَلَامًا مِنْ بَعْدِ تَخَوُّفٍ * لَهُ فِي الثَّرَى فِعْلُ الشِّفَاءِ بِمُدْنَفٍ
أَكْبَّ عَلَى الْآفَاقِ إِنْجَابَ مُطْرِيقٍ * يُفَكِّرُ أَوْ كَالنَّادِمِ الْمُتَلَهِّفِ
وَمَدَّ جَنَاحَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ جَانِحًا * فَرَّاحَ عَلَيْهَا كَالْغُرَابِ الْمُرْفَرِفِ
غدا البرُّ بِحِرَازٍ أَخْرَأَ وَأَنْتَى الضُّحَى * بِظُلُمَتِهِ فِي ثَوْبِ لَيْلٍ مُسَجِّفِ
فَعَبَسَ عَنْ بَرَقٍ بِهِ مُتَبَسِّمٍ * عُبُوسٌ بِخَيْلٍ فِي تَبَسُّمٍ مُعْتَفِ
تُحَاوِلُ مِنْهُ الشَّمْسُ فِي الْجَوْ مَحْرَجًا * كَمَا حَاوَلَ الْمَغْلُوبُ تَجْرِيدَ مُرْهَفِ

وقال ابن الرومي :

سَحَابٌ قَيْسَتْ بِالْبِلَادِ فَأُفِيَتْ * غِطَاءً عَلَى أَغْوَارِهَا وَجُودِهَا
حَدَّثَهَا النَّعَامُ مُقْبِلَاتٍ فَأَقْبَلَتْ * تَهَادَى رُويْدًا سَيْلُهَا كَرُودِهَا

وقال أبو هلال العسكري :

وَبَرْقٍ سَرَى وَاللَّيْلُ يُحْيِي سَوَادَهُ * فَقُلْتُ سِوَارُ فِي مَعَاصِمِ أَسْمَرَا
وَقَدْ سَدَّ عُرْضَ الْأَفْقِ غَيْمٌ تَحَالَهُ * يَزُرُّ عَلَى الدُّنْيَا قَيْصًا مُعْنَبَرَا
تَهَادَى عَلَى أَيْدِي الْجَنَائِبِ وَالصَّبَا * تَحْرِقُ مِنَ الْفِتْيَانِ نَازِعَ مُسْكِرَا
تَحَالُ بِهِ مَسْكًا وَبِالْقَطْرِ لُؤْلُؤَا * وَبِالرَّوْضِ يَاقُوتًا وَبِالْوَحْلِ عَنَبَا
سَوَادُ غَمَامٍ يَبْعَثُ الْمَاءَ أَيْضًا * وَغُرَّةُ أَرْضٍ تُنْبِتُ الزَّهَرَ أَصْفَرَا
أَتْنَكٌ بِهِ أَنْفَاسُ رِيحٍ مَرِيضَةٍ * كَمُفْطَعَةٍ رَعْنَاءٍ تُسْتَأَقُ عَسْكَرَا
فَأَلْقَى عَلَى الْغُذْرَانِ دَرْعًا مُسَرَّدَا * وَأَهْدَى إِلَى الْقَيْعَانِ بُرْدًا مُحْبَرَا
تَحَالُ الْحَيَا فِي الْجَوْدُرِ مَنْظَمًا * وَفِي وَجَنَاتِ الرُّوْضِ دُرًّا مَنَثَرَا
وَأَقْبَلَ تَشْرُ الْأَرْضِ فِي نَفْسِ الصَّبَا * فَبَاتَ بِهِ ثَوْبُ الْهَوَاءِ مُعْطَرَا
إِذَا مَا دَعَتْ فِيهِ الرُّعُودُ فَاسْمَعَتْ * أَجَابَ حُدَاةً وَاسْتَهَلَّ فَأَغْرَارَا
وَيَبْكِي إِذَا مَا أَضْحَكَ الْبَرْقُ سِنَهُ * فَيَجْعَلُ نَارَ الْبَرْقِ مَاءً مُفَجَّرَا
كَأَنَّ بِهِ رُؤْدَ الشَّبَابِ خَرِيدَةً * قَدْ اتَّخَذَتْ ثَنَى السَّحَابَةِ مِعْجَرَا
فَتَغْرِ يُرِينَا مِنْ بَعِيدٍ تَبَلُّجًا * وَدَمْعُ يُرِينَا مِنْ بَعِيدٍ تَحَدُّرَا

وقال مؤيد الدين الطُّغْرَائِي :

سَارِيَّةٌ ذَاتُ عُبُوسٍ بَرْقُهَا * يَضْحَكُ وَالْأَجْفَانُ مِنْهَا تَهْمَلُ
حُكْلَةٌ دَكَّاءٌ فِي حَاشِيَةٍ * فِيهَا طِرَازُ مَذْهَبٍ مُسْلَسَلُ
إِذَا دَنَتْ عِشَارُهَا صَاحَ بِهَا * قَاصِفٌ رَعْدٌ وَحَدَّثَهَا الشَّمَالُ

وقال عبد الله بن المعتز:

وَمُزْنِيَّةٌ جَادَ مِنْ أَجْفَانِهَا الْمَطَرُ * فَالْرَوْضُ مَسْتَظِمٌّ وَالْقَطَرُ مَسْتَتِرٌ
تَرَى مَوَاقِعَهُ فِي الْأَرْضِ لِأَحْتَةٍ * مِثْلَ الدَّرَاهِمِ تَبْدُو ثَمَّ تَسْتَتِرُ

وقال أيضا:

مَا تَرَى نِعْمَةَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ * ضِيقٌ وَشُكْرُ الرِّيَاضِ لِلْأَمْطَارِ؟
وَكَأَنَّ الرَّيِّعَ يَحُلُّو عَرُوسًا * وَكَأَنَّ مِنَ قَطْرِهِ فِي نِشَارِ

وقال ابن عوف الكاتب في إطباق الغيم وقربه:

فِي مُزْنِيَّةٍ أَطْبَقَتْ فَكَادَتْ * تُصَاحِفُ التُّرْبَ بِالْغَمَامِ

وقال آخر:

تَبَسَّمَتِ الرِّيحُ رِيحُ الْجَنُودِ * بِ فِيهَا هَوًى غَالِبًا وَادِّكَارًا
وَسَاقَتْ سَحَابًا كَمَثَلِ الْجِبَالِ * إِذَا الْبَرْقُ أَوْمَضَ فِيهِ أَنْارًا
إِذَا الرَّعْدُ جَلَجَلَ فِي جَانِبَيْهِ * مَهْ رَوَى النَّبَاتَ وَأَرَوَى الصَّحَارَى
تَطَايَعْنَا الشَّمْسُ مِنْ دُونِهِ * طِلَاعَ فَتَاةٍ تَخَافُ اشْتِهَارًا
تَخَافُ الرَّقِيبَ عَلَى نَفْسِهَا * وَتَحْذَرُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَغَارَا
فَنَسْتَرُ غُرَّتَهَا بِالْخِمَارِ * رِطُورًا وَطُورًا تُزِيلُ الْخِمَارَا
فَلَمَّا رَأَاهُ هُبُوبُ الْجَنُودِ * بِ وَانْهَمَرَ الْمَاءُ فِيهِ انْهَمَارَا
تَبَسَّمَتِ الْأَرْضُ لَمَّا بَكَتْ * عَلَيْهَا السَّمَاءُ دُمُوعًا غِزَارَا

وقال الأسعد بن بليطة من شعراء الذخيرة:

لَوْ كُنْتُ شَاهِدَنَا عَشِيَّةَ أَمْسِنَا * وَالْمُزْنَ تَبَكَّيْنَا بَعْنَى مُذْنِبِ
وَالشَّمْسُ قَدْ مَدَّتْ أَدِيمَ شُعَاعِهَا * فِي الْأَرْضِ تَجَنُّحُ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَذْهَبِ
خَلَّتِ الرِّذَاذَ بُرَادَةً مِنْ فِضَّةٍ * قَدْ غُرِبَتْ مِنْ فَوْقِ نِطْعٍ مُذْهَبِ

وقال أبو عبد الله محمد بن الحياط من شعرائها :

رَاحَتْ تُدَكُّرُ بِالنَّسِيمِ الرَّاحَا * وَطَفَاءُ تَكْسِرُ لِلْجُنُوحِ جَنَاحَا
أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّالِمُ فَأَوْقَدَتْ * مِنْ بَرَقِهَا كِي تَهْتَدِي مِضْبَاحَا
وَكُنَّ صَوْتِ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحَابِهَا * حَادٍ إِذَا وَنَتْ السَّحَابُ صَاحَا
جَادَتْ عَلَى التَّلْعَاتِ فَأَكْتَسَتِ الرُّبَا * حُلَّالًا أَقَامَ لَهَا الرِّبِيعُ وَشَاحَا

وقال ابن برد الأصغر الأندلسي من شعرائها :

وَمَا زِلْتُ أَحْسَبُ فِيهِ السَّحَابَ * وَنَارُ بَوَارِقِهَا تَلْتَلِبُ
بَحَاثِي تُوضَعُ فِي سَيْرِهَا * وَقَدْ قُرِعَتْ بِسَيَاطِ الدَّهَبِ

ومما ورد في وصفها نثرا

§ قال بعض الأندلسيين من رسالة :

١٠

ثم أرسل الله الرياح من كوائنها، وأخرجها من خزائنها، فجرت ذبولها، وأجرت
خيولها، خافقة بنودها، متلاحقة جنودها، فأثارت الغمام، وقادته بغير زمام،
وأشأت بحرية من السحاب، ذات أتراب وأصحاب، كثيرا عددها، غزيرا مددها،
فبشّرت بالقطر كل شائم، وأنذرت بالورد كل حائم، والريح تنثها، والبرق يحثها،
كأنه قضيب من ذهب، أو لسان من لهب، وللسحاب من ضوء البرق هاد، ومن
صوت الرعد حاد، والريح توسع بأحمتها سداها، وتُسرع في حياكتها يداها. فلما
التحم فتقها، والتأم رتقها، وامتدت أشطانها، واتسعت أعطانها، وانفسحت
أجنابها، وانسدلت أطنابها، وتهدل حملها، وتمخض حملها، ومدت على آفاق
السماء نطاقيها، وزرت على أعناق الجبال أطواقها، كأنها بناء على الجو مقبوب،
أو طبق على الأرض مكبوب، تمشي من الثقل هونا، وتستدعي من الريح عونا،

٢٠

ومخايلها تقوى ، وعارضها أحوى . فلما أذن الله لها بالانحدار، وأنزل منه الودق بمقدار ، أرسلت الريح خيوط القطر من رُود السحاب ، وأسبلتها إسبال الذوائب . فدرت من خلف مضرور، ونثرت طللها نثر الدرور . ثم انخرق جيها ، وانبتق سبيها ، وصار الخيط حبلا ، والطلّ وبلا . فالسحاب يتعلّق ، والبرق يتألق ؛ والرعد يرتجس ، والقطر ينبجس ؛ والنقط تترامى طباقا ، وتبارى اتساقا ؛ فيردف السابق المصلي ، ويتصل التابع بالمولي ؛ كما يقع من المنخل البر ، وينثر من النظام الدر ؛ بغيوب السماء تسقطه ، وأكف الغدران تلقطه ؛ والأرض قد فتحت أفواها ، وجرعت أمواها ، حتى أخذت ريها من المطر ، وبلغت منه غاية الوطر ، خفي من الرعد تسبيحه ، وطفت من البرق مصابحه ، وحسرت السماء نقابها ، وولت المطر أعقابها ؛ وحكت في ردها طلق السابق ، وهرب الآبق . ١٠

§ ومن رسالة لمحمد بن شرف القيرواني :

برئ عليل البرى ، وأثرى فقير الثرى ، وتاريخ ذلك انصرام ناجر ، وقد بلغت القلوب الحناجر ، محارّة احمرت لها خضرة السماء ، واغبرت مرآة الماء ، حتى انهل طالع وشي ، وتلاه تابع ولي ، دنا فأسف ، ووكف فما كف . فما قئ مسكوبا قطره ، محجوبا شمسه وبدره ، وجلت عروس الشمس ، معتذرة عن مغيبها بالأمس . فعندها مرق عن الدقعاء صخيخ إهابها ، واختزن دُر البرق أصداف ترابها . فما مرت أيام إلا والقيعان مسندسة ، والآكام مطوسة . ١٥

§ ومن رسالة لأبي القاسم ، محمد بن عبد الله بن أبي الجحد في وصف مطر

بعد حَقَط :

(١) رجب أو صفر . وكل شهر من شهور الصيف (قاموس) .

قال : لله تعالى في عباده أسرار، لا تدركها الأفكار، وأحكام، لا تناهها الأوهام .
تختلف والعدل مُتَّفِقٌ، وتفترق والفضل مجتمِعٌ مُتَّسِقٌ . ففي مَنَحِهَا نفائس المأمول،
وفي مَحْنِهَا مَدَاوِسُ الْعُقُولِ^(١) . وفي أَشْأَاءِ فَوَائِدِهَا حَدَائِقُ الْإِنْعَامِ رَائِقَةٌ، وبين أرجاء سرائرِها
بوارق الإِعْذار والإِنْذار خافِقَةٌ . وربما تفتحت كجائِمِ النَوَائِبِ، عن زَهْرَاتِ الْمَوَاهِبِ .
وانسكبت غمائم الرزايا، بنفحات العطايا . وصدع ليل اليأس صبحُ الرجاء، وخلع
عاملُ البأس وإلى الرخاء . ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدير العزيز القدير .

ولما ساءت بتبطل الغيث الظُّنُونُ، وانقبض من تبسط الشك اليقين، واسترابت
حياض الوهاد، بعهود العهاد، وتأهبت رياض النجاد، لبرود الحداد، واكتحلت
أجفان الأزهار، بإئتمد النقع المثار، وتعطلت أجياد الأنوار، من حُلَى الديمة المذرار،
أرسل الله بين يدي رحمته ريحا بَلِيلَةَ الْجَنَاحِ، مُخِيلَةَ النَّجَاحِ، سريعة الإلقاء . فنظمت
عقود السحاب، نظم السَّخَابِ، وأحكمت برود الغمام، رائقة الأعلام . وحين ضربت
تلك المِخِيلَةُ في الأفق قِبَابَهَا، ومدت على الأرض أَطْنَابَهَا، لم تلبث أن انهتك رواقها
وانبتكت وَشِيكًا نِطَاقَهَا، وانبرت مدامعُها تبكي بأجفان المُشْتَقِ، غداة الفراق، وتحكي
بنان الكرام، عند أريجِ المدام، فاستغربت الرياض ضحكا يبسكائها، واهتررفت
النبات طربا لتغريد مكائها، واكتست ظهور الأرض من بيض إنائها، خُضْرَ مَلَأَهَا .
فكأن صنعاء قد نشرت على بسيطها بِسَاطًا مُقَوِّفًا، وأهدت إليها من زخارف بزها
ومطارف وشيها ألطافا وتحافا . وخيل للعيون أن زواهر النجوم، قد طلعت من مواقع
التُّخُومِ، ومباسم الحسان، قد وصلت باقترار الغيطان . فيا بَرْدَ مَوَاقِعِهَا على القلوب
والأبْجَاد ! ويا خلوص ريبها إلى غُلَلِ النفوس الصَّوَادِ ! كأنما استعارت أنفاس
الأحباب، أو ترشفت شنب الثنايا العذاب، أو تحملت ماء الوصال، إلى نار البلبال .

(١) جمع مَدَّوَس، أى مصافل العقول .

أوسرت على أنداء الأسحار وريحان الآصال . لقد تبين للصنع الجليل ، من خلال
ديمها تنفس ونصول ، وتمكن للشكر الجميل ، من ظلال نعمها معترس ومقبل .
فالحمد لله على ذلك ما انسكب قطر ، وانصدع بحر ، وتوقد قيس ، وتردد نفس ؛
وهو الكفيل تعالى بإتمام النعمى ، وصلة أسباب الحياة والحيا بعزته !

§ وقال الوزير أبو عمرو الباجي في مثل ذلك :

إن لله تعالى قضايًا واقعةً بالعدل ، وعطايًا جامعةً للفضل ؛ ونعمًا يبسطها إذا شاء
إنعامًا وترفيها ، ويقبضها متى أراد إلهامًا وتنبيهًا ؛ ويجعلها لقوم صلاحًا وخيرًا ،
ولآخرين فسادًا وضيرًا . ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ
وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ . وإنه كان من امتسك السقيا ، وتوقف الحيا ، ما ريع به
الآمن ، واستطير له الساكن ؛ ورجفت الأبجاد فزعا ، وذهلت الأبواب جزعا ؛
وأذكت ذكاء حرها ، ومنعت السماء درها ؛ واكتست الأرض غيرة بعد خضرة ،
ولبست شجوبا بعد نضرة ؛ وكادت برود الرياض تطوى ، ومدود نعم الله تزوى ؛
ثم نشر الله تعالى رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح ميثه ، وأزاح محنته . فبعث الرياح
لواقح ، وأرسل الغمام سوافح ؛ بماء يتدفق ، ورواء غدق ، من سماء طبق . استهل جفنها
فدمع ، وسمح دمعها فهمع ، وصاب وبلها فتقع . فاستوفت الأرض رياء ، واستكملت
من نباتها أئنا ورياء ؛ فزينة الأرض مشهورة ، وحلة الزهر منشورة ، ومنة الرب
موفورة ؛ والقلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه ضاحكة إثر عبوسها ؛ وآثار الجزع
محوقة ، وسور الشكر متلوة ؛ ونحن نستريد الواهب نعمة التوفيق ، ونستمدية في قضاء
الحقوق الى سواء الطريق ؛ ونستعيد به من المنّة أن تعود فتنة ! والمنحة أن تصير
محنة ! والحمد لله رب العالمين !

٩ - ذكر شيء مما وصف به الثلج والبرد

قال أبو الفتح كشاجم :

الثلج يسقط أم لجين يسبك * أم ذا حصي الكافور ظل يفترق
 راحت به الأرض الفضاء كأنها * في كل ناحية بتغر تصحك
 شابت ذوائبها فبين ضحكها * طرباً وعهدى بالمشيب ينسك
 وتردت الأشجار منه ملاءة * عما قليل بالرياح تهتك

وقال أيضا :

ثلج وشمس وصوب غادية * فالأرض من كل جانب غره
 باتت وقيعانها زرجدة * فأصبحت قد تحولت دزه
 كأنها والثلوج تضحكها * تعار من أحبه تغره
 شابت فسرت بذلك وابتهجت * وكان عهدى بالشيب يستكره

وقال الصاحب بن عباد :

أقبل الثلج في غلائل نور * تتهدى بلؤلؤ منشور
 فكان السماء صاهرت الأثر * ض فصار النثار من كافور

وقال النمرى :

أهدى لنا برداً يلوح كأنه * في الجوحب لآلي لم يثقب
 أو تغر حواء الثلث تبسمت * عن واضح مثل الأفاحي أشنب

الباب الثاني

من القسم الثاني من القرن الأول

في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قُرح

(١) فأما النيازك، فهو ما يرى من الذوائب المتصلة بالشهب والكواكب.

روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال لجماعة من الأنصار: "ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرى به" قالوا: يا رسول الله، كنا نقول إذا رأيناها يرمى بها: مات ملك، ولد مولود. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "ليس ذلك كذلك ولكن الله تعالى كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعه الملائكة فيسبحون فيسبح من تحتهم لتسبيحهم فيسبح من تحت أولئك حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحون ثم يقولون ألا تسألون من فوقكم ثم يسبحون فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا للأمر الذي كان فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ثم يأتون به الكهّان فيصيبون بعضا ويخطئون بعضا ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يُقذفون بها فانقطعت الكهانة فلا كهانة اليوم".

والشهب التي يُقذف بها الشياطين غير النجوم الثوابت التي منها البروج والمنازل لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

وقال بعض الشعراء:

وَكُوكِبٍ نَظَرَ الْعَفْرِيتَ مُسْتَرْقَا * لِلسَّمْعِ فَانْقَضَ يَدُكِي إِثْرُهُ لَهَبِهِ
كِفَارِيسَ حَلٍّ مِنْ تِيهِ عِمَامَتِهِ * وَجَرَّهَا كُلُّهَا مِنْ خَلْفِهِ عَدَبِهِ

وكتب ابن الحرون الى صديق له ، وقد كثر انقضاض الكواكب ، وذلك في أيام المتوكل على الله :

أما بعد ، فإن الفلك قد تفرى عن شهب ثواقب ، كنيان الحباب ، متقدة كشر الزنود ، وشعل زبر الحديد ، مازجها عرض حمرة البهرمان ، وصفرة العقيان^(١) .
فهي كارسال جراد منتشر ، وهشيم ذرته ريح صرصر ، في سرعة الكف ، ووحى لحظ الطرف .

(ب) وأما الصواعق ، فهي ما قاله الزمخشري في تفسيره : الصاعقة قصفة من رعد ينقض معها شقة من نار .

وقالوا : إنها تنقدح من السحاب اذا اصطكت أجرامه . وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود . على أنها متى سقطت على نخلة أحرقت عاليها .

وقال صاحب كتاب "مناهج الفكر ومباهج العبر" في كتابه :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكيس ، ولا تحرق الكيس ؛ وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال . قال : وهي اذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته ، واذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه .
وربما عرض لها عند انطفائها في الأرض برد ويس ، فتكون منها أجرام حجرية .
أو حديدية ، أو نحاسية . وربما طبعت الحديد سيوفا لا يقوم لها شيء .

(ج) وأما الرعد وما قيل فيه ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ . قال المفسرون : الرعد ملك موكل بالسحاب ، معه كرم من حديد ،

(١) العقيان : الذهب .

يسوقه من بلد الى بلد كما يسوق الراعي إبله . فكلها خالف سحاب ، صاح به فزجره .
فالذى يُسمع هو صوت المَلِك .

وقال الزمخشري في تفسيره : الرعد الذى يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب
تضطرب وتنتفض اذا حدثها الريح فتصوت عند ذلك .
وأما صوت الرعد ، تقول العرب : رعدت السماء .
فإذا ازداد صوتها ، قيل : ارتجست .
فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، وقعقت^(١) .
فإذا بلغت النهاية ، قيل ، جَلَجَلَتْ ، وهددت .

المثل :

رُبَّ صَليِّفٍ تحت الراعدة . (للبخل المتكبر) .

(د) وأما البرق وما قيل فيه ، فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى
الى أنه ضَرَبُ المَلِكِ الذى هو الرعد للسحاب مُخْرَاق من حديد . وروى عن مجاهد :
ان الله عز وجل وكل بالسحاب مَلَكًا . فالرعد قَعْقَعَة صوته ، والبرق سَوَطُه^(٣) .

وأما ترتيبه فى لمعانه

تقول العرب اذا برق كأنه يتبسّم ، وذلك بقدر ما يريك سواد الغيم من بياضه :
أَنكَلْ أَنكَلًا .

(١) عبارة فقه اللغة : (فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، ودوت . فإذا زاد واشتد ، قيل : قصفت ،
وقعقت . فإذا بلغ النهاية الخ) اهـ .

(٢) فى الأصل نغنة : . وهو محزف عن قعقة بالقاف كما يقتضيه السياق .

(٣) فى الأصل صوته . وهو محزف عن سوطه وهو مخراق الحديد الذى ذكر فى السطر الذى قبله .

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير، قيل : أَوْشَمَّتِ السَّمَاءُ . ومنه قيل : أَوْشَمَ النَّبْتُ
إذا أبصرت أوله .

فإذا برقَ برقًا ضعيفًا، قيل : خَفَا .

فإذا لمع لمعًا خفيفًا، قيل : لَمَحَ، وَأَوَمَضَ .

فإذا تشقق، قيل : انْعَقَّ انْعِقَاقًا .

فإذا ملاء السماء وتكشف واضطرب، قيل : تَبَوَّجَ .

فإذا كثرت وتابع، قيل : ارتعج .

فإذا لمع وأطمع ثم عدل، قيل له : حُلِبَّ .

المثل :

”ليس في البرق اللامع مُسْتَمْتَعٌ“ .

ذكر ما قيل في وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكري، عفا الله عنه :

والرعدُ في أرجائه مُتَرَنِّمٌ * والبرقُ في حافاتِه متلهَّبٌ

كالبلقِ ترمح والصَّوارمُ تَنْتَضِي * والجو يَبْسُمُ والأناملُ تَحْسَبُ

وقال آخر :

إذا وَنَتِ السَّحْبُ الثَّقَالُ وَحُمَّهَا * من الرعدِ حادٍ ليس يُبْصِرُ أَكْمَهُ

أحاديثُهُ مُسْتَمَوِلَاتٌ وَصَوْتُهُ * إذا انخفضت أصواتهن مُقَهِّقُهُ

إذا صاح في آثارهن حَسْبَتُهُ * يجاوبه من خلفه صاحبُ له

وقال ابن الدقاق الأندلسي :

أرى بارقا بالأبلق الفرد يومض * يذهب أكناف الدجى ويفضض
كأن سلمي من أعاليه أشرفت * تمتد لنا كفا خضيبا وتقضب

وقال ابراهيم بن خفاجة الأندلسي :

ويوم جرى برقهُ أشقرا * يطارد من مُزنه أشمها
ترى الأرض فيه وقد فضضت * ووجه السماء وقد ذهب

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي، شاعر الذخيرة :

ولما تجلى الليل والبرق لامع * كما سل زنجي حساما من التبر
وبت سميع النجم وهو كانه * على معصم الدنيا جبار من در

وقال محمد بن عاصم، شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أضاء بوادي الأثل والليل مظلم * بریق كحد السيف ضرجه الدم
إذا البرق أجرى طرفه فصهيله * إذا ما تفرق رعد الموترم
فشبهته اذ لاح في غسق الدجى * بأسنان زنجي بدت تتبسم

وقال أيضا :

والبرق يضحك كالحيب وعنده * رعد يحش كالقريب مقال

وقال آخر :

أرقت لبرق غدا موهنا * خفي كغمزك بالحاجب
كأن تألقه في السما * يدا كاتب أويدا حاسب

وقال عبد الله بن المعتز، يشير الى سحابة :

رأيت فيها برقها منذ بدت * كمثل طرف العين أو قلب يجب^(١)
ثم حدث بها الصبا حتى بدا * فيها الى البرق كأمثال الشهب

(١) يجب مضارع وجب القلب : خفق ورجف

تَحْسَبُهُ فِيهَا إِذَا مَا انْصَدَعَتْ * أَحْشَاؤُهَا عَنْهُ شَجَاعًا يَضْطَرِبُ
وَتَارَةً بُبْصَرُهُ كَأَنَّهُ * أَبْلَقُ مَالٍ جُلَّهُ حِينَ وَثَبُ
حَتَّى إِذَا مَا رَفَعَ الْيَوْمُ الضُّحَى * حَسِبْتَهُ سَلَاسِلًا مِنَ الذَّهَبِ

قوله شجاعا يضطرب مأخوذ من قول دعبيل :

أَرَقْتُ لِبَرْقٍ آخِرَ اللَّيْلِ مُنْصَبٍ * خَفِيَ كِبَطْنِ الْحَيَّةِ الْمُتَقَلِّبِ

وقال أيضا :

مَازَلْتُ أَكْلًا بَرْقًا فِي جَوَانِبِهِ * كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ تَحْبُوثُهُمْ تَحْتَطِفُ
بَرْقٌ تَجَاسَرَ مِنْ حَقَّانٍ لَا مَعَهُ * يَقْضِي اللَّبَانَةَ مِنْ قَلْبِي وَيَنْصِرِفُ

(هـ) وأما قوس قزح وما قيل فيه . قالوا : وإنما سمي بذلك لتلونه .

وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) يكره أن يسميه قوس قزح ، ويسميه قوس
الله ، ويقول : قزح اسم الشيطان .

وزعم القدماء في علة تلونه وتكوّنه ، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق
عليه نور بعض الكواكب أنصبغ ذلك الجزء ، وأنعطف منه الضوء إلى ما يليه من
الهواء ، كالحمرة الصافية إذا طاعت عليها الشمس سطع نورها ، وأنعطف منه ألوان
مختلفة إلى ما يقرب منها . وحمرة وصفرتها من قبل الرطوبة واليبس .

قالوا : وقياس ذلك النار ، فإنها إذا كانت من حطب رطب ، كان لونها أحمر
كدرًا ، فإن كانت من حطب يابس ، كان لونها أصفر صافيا .

وقال آخرون : القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصقالته ، حتى يمكن أن ترسم
فيه دائرة الشمس كما ترسم الأشباح في المرايا ، وتشتبك الأشعة بما يكون فيه البخار
الرطب فيتولد ، فيكون منها تلك الألوان . وإنما توجد دائرة على الناظر ، لأن الشمس

أبداً تكون في قفاها، ولذلك تُرى في مقابلة الجهة التي تكون فيها الشمس، فتُرى في المغرب إذا كانت الشمس في المشرق، وتُرى في المشرق إذا كانت في المغرب .

وزعم بعض القدماء أن أثر القوس غير حقيق، وإنما هو تخيل لا وجود له في نفسه . وقال: إن إدراكه على نحو إدراك صورة الإنسان في المرأة من غير أن تكون منطبعة على الحقيقة فيها ولا قائمة بها . وذلك بحسب غلظ الحس الباصر، وهو لا يرى إلا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذ ذاك يكون كالمرآة مؤدياً للبصر على نحو تأدية البلّور، إذا جعل وراءه شيء غير مُشَفٍّ . ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البلّور وحده، ولا عن غير المُشَفٍّ وحده . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الأوءاء، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

سَقِيًّا لِيَوْمِ بَدَا قَوْسُ الْغَمَامِ بِهِ * وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ وَالْبَرْقُ خَلَّاسُ
كَأَنَّهُ قَوْسُ رَامٍ وَالْبُرُوقُ لَهُ * رَشَقُ السَّهَامِ وَعَيْنُ الشَّمْسِ بُرْجَانُ

وقال سعيد بن حميد القيرواني، رحمة الله عليه :

أَمَا تَرَى الْقَوْسَ فِي الْغَامِ وَقَدْ * تَمَقَّ فِيهِ الْهَوَاءُ نُوَّارَا
حَكِي الطَّوَاوِيسَ وَهِيَ جَاعِلَةٌ * أَذْنَابَهَا لِيَلِيَاهِ أُسْتَارَا
أَخْضَرُ فِي أَحْمَرٍ عَلَى يَقِي * عَلَى وَشَاحِ السَّحَابِ قَدْ دَارَا
كَأَنَّمَا الْمُزْنُ وَهِيَ رَاهِبَةٌ * شَدَّتْ عَلَى الْأَفْقِ مِنْهُ زَنَارَا

وقال ظاهر الدين الحريري، شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أَلَسْتَ تَرَى الْجَوْ مُسْتَعِيرًا * يُضَاحِكُهُ بَرْقُهُ الْخَلْبُ

وقد بَاتَ من قُزَحٍ قَوْسُهُ * بَعِيدًا وَتَحْسَبُهُ يَقْرُبُ
كَطَاقٍ عَقِيقٍ وَفَيْرُوزَجٍ * وَبَيْنَهُمَا آخِرٌ مُذْهَبُ

وقال سيف الدولة بن حمدان من أبيات :

وقد نَشَرْتُ أَيْدِيَ الْجَنُوبِ مَطَارِفًا * عَلَى الْجَوْدُكُنَا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَصْفَرٍ * عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَخْضَرٍ وَسُطَّ مُبَيَّضُ
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلْتُ فِي غَلَائِلٍ * مُصَبَّغَةٍ وَالبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

وقال عبد المحسن الصوري، عفا الله تعالى عنه :

تَأْمَلِ الْجَوَّ تَرَى وَالْيَا * قَدْ وَلَّى الْعَهْدَ عَلَى السُّحُبِ
سَارَ وَقَوْسُ اللَّهِ تَاجٌ لَهُ * رَكْضًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ

الباب الثالث

من القسم الثاني من القرن الأول

١ - فِي أُسْطَقْسٍ الْهَوَاءِ ^(١)

رُوي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "الريح من رُوح الله تعالى
تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فلا تسبوا وأسألوا الله خيرها وأستعيذوا بالله من
شرها" . أخرجه البيهقي في سننه .

وروى أبو الفرج بن الجوزي بإسناده : أن الريح تنقسم إلى قسمين : رحمة
وعذاب ، وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام . ولكل قسم اسم . فإسماء أقسام قسم

(١) كلمة معربة عن اليونانية معناها : العنصر .

الرحمة : المبهِّرات، والنُّشْر، والمرسَلات، والرِّخاء . وأسماء أقسام قسم العذاب :
العاصف، والقاصف (وهما في البحر)، والعقيم، والصرصر (وهما في البر) .
وقد جاء القرآن بكل هذه الأسماء .

٢ - ذكر ما قيل في حدِّ الهواء

٥ قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في حدِّه : الهواء جرم بسيط ، طباعه أن
يكون حارًا رطبًا مشفًا متحرِّكًا إلى المكان الذي تحت كرة النار التي فوق كرة
الأرض والماء .

وقال إبقراط : إنَّ تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس ، مرة إلى
الغضب ، ومرة إلى السكون ، وإلى الهم والسرور ، وغير ذلك . وإذا آستوت حالات
١٠ الهواء ، آستوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان ، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرف
الهواء ، إذا برد مرة ، وسخن مرة ، خرج مرة الزرع نضيجا ، ومرة غير نضيج ، ومرة
قليلًا ، ومرة كثيرًا ، ومرة حارًا ، ومرة باردًا ، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم . وإذا
آستوى وأعتدل الهواء ، خرج الزرع معتدلاً ، فاعتدلت بذلك الصهور والمزاجات .
١٥ قال : والعلة في تشابه الترك ، هو أنه لما آستوى هواء بلادهم في البرد آستوت
صورهم وتشابهوا .

وقال : إنَّ الرياح تقلب الحيوان حالاً إلى حال ، وتصرفه من حر إلى برد ، ومن
يبس إلى رطوبة ، ومن سرور إلى حزن ، وإنها تغير ما في البيوت من أصناف المأكَل
كالتمر ، والعسل ، والسمن ، والشراب ، فتسخنها مرة ، وتبردها أخرى ، وتصلبها مرة ،



وتيسرُها مرة . وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها ؛ وإذا تغير الهواء تغير بتغيره كل شيء .

وقال : إن الجنوب إذا هبت ، أذابت الهواء وبردته ، وسخنت البحار والأنهار . فكل شيء في رطوبة تغير لونه وحالاته . وهى ترخى الأبدان والعصب ، وتورث الكسل ، وتحدث ثَقَلًا في الأسماع ، وغشاوة في الأبصار . وأما الشَّمال فإنها تصلب الأبدان ، وتصحح الأدمغة ، وتحسن اللون ، وتصفى الخواس ، وتقوى الشهوة والحركة ، غير أنها تهيج السعال ، ووجع الصدر .

وزعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء : أن الجنوب إذا هبت بأرض العراق تغير الورد ، وتناثر الورق ، وتشقق القنبيط ، وسخنُ الماء ، وأسترخت الأبدان ، وتكثُر الهواء .

وزعم آخرون من القدماء : أن الهواء جسم رقيق متى تموج من المشرق إلى المغرب سمي ريح الصَّبا .

قيل : سميت ريح الصَّبا ، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها . والصَّبوة : الميل . وجاء في بعض الآثار : ما بعث نبي إلا والصَّبا معه ، وهى الريح التى سُخِّرَتْ لسليمان (عليه السلام) غدوُّها شهر ، أى من أول النهار إلى الزوال ، ورواحها شهر ، أى من الزوال إلى المغرب . كان يغدو من تدمر من بلاد الشام فيقيل في إصطخر من بلاد فارس ، ويبيت بكابل من بلاد الهند .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : ” نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَتْ عَادٌ بالدُّبور ” .

وإذا تموج من الجنوب إلى الشمال سمي ريح الجنوب ، وهى الريح التى أهلك الله عز وجل بها عادًا .

وسياتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى ألفن الخامس من كتابنا هذا .
 وإذا تموج من الشمال إلى الجنوب سمي ريح الشمال .
 وهم يزعمون أن مبادئ الرياح شمالية أخذت إلى الجنوب ، وغربية أخذت
 إلى المشرق للطف الهواء فى هاتين الجهتين .
 والعرب تحب الصبا لرقتها ، ولأنها تحيى بالسحاب . والمطر فيها والخصب .
 وهى عندهم اليمانية .

٣ - ذكر أسماء الرياح اللغوية

قال الثعالبي فى فقه اللغة :
 إذا وقعت الرياح بين ريحين ، فهى النجاء .
 فإذا وقعت بين الجنوب والصبا ، فهى الحرباء .
 فإذا هبت من جهات مختلفة ، فهى المتناوذة .
 فإذا كانت كينة ، فهى الريدانة .
 فإذا جاءت بنفيس ضعيف وروح ، فهى النسيم .
 فإذا كان لها حين كنين الإبل ، فهى الحنون .
 فإذا ابتدأت بشدة ، فهى العاصف ، والسيهوج .
 فإذا كانت شديدة ولها زفرة وهى الصوت ، فهى الزفرة .
 فإذا أشتدت حتى تقلع الخيام ، فهى الهجوم .
 فإذا حركت الأغصان تحريكا شديدا أو قلعت الأشجار ، فهى الزعزاع ، والزعرعان ،
 والزعرع .

(١) عبارة الثعالبي . فإذا ابتدأت بشدة ، فهى النافخة . فإذا كانت شديدة ، فهى العاصف الخ .

- فإذا جاءت بالحصباء، فهي الحاصبة .
- فإذا درجت حتى ترى لها ذيلا كالرَّسَن في الرمل، فهي الدَّرُوج .
- فإذا كانت شديدة المُرُور، فهي النَّوُوج .
- فإذا كانت سريعة، فهي المُجِفِل، والجافلة .
- فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء، فهي الإِعْصار .
- فإذا هبت بالغبرة، فهي الهبوة .
- فإذا حملت المُرَّ وجرَّت الذيل، فهي المَوجاء .
- فإذا كانت باردة، فهي الحَرَجَف، والصَّرَصَر، والعريّة .
- فإذا كان مع بردها ندى، فهي البَلِيل .
- فإذا كانت حارّة، فهي الحَرُور، والسَّمُوم .
- فإذا كانت حارّة وأتت من قِبَل اليَمَن، فهي الهَيْف .
- فإذا كانت باردة شديدة تَحْرِق البيوت، فهي الحَرِيق^(١) .
- فإذا ضعفت وجرّت فُويق الأرض، فهي المُسْقِفة .
- فإذا لم تُلقح شجرا ولم تحمل مطرا، فهي العَقِيم . (وقد نطق بها القرآن) .

٤ - فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

يقال: الرياح الحواشك: المختلفة الشديدة. البوارح: الشمال الحارّة في الصيف.
الأعاصير: التي تهيج بالغبار. المعصرات: التي تأتي بالأمطار. المبشرات: التي تهبُّ
بالسحاب والغيث. السّوافي: التي تسفي التراب .

(١) في اللسان أنها الريح الباردة الشديدة الهبوب كأنها حُرِقت . أماتوا الفاعل بها .

٥ - ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الهواء

يقال :

أخف من النسيم . أسرع من الريح . ريحهما جنوب (يضرب للتصافين) . هو ساكن الريح (إذا كان حلياً) . قد هبت ريحه (إذا قامت دولته) .

ومن أنصاف الأبيات .

* إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً * * وبعض القول يذهب بالرياح *
* تجري الرياح بما لا تشتهي السفن * * لو كنت ريحاً كانت الدبورا *

ومن الأبيات :

إذا هبت رياحك فأغنمها * فإن لكل خافقة سكون

وقال آخر :

وكل ريح لها هبوب * يوما فلا بد من ركون

وقال آخر :

والريح ترجع عاصفاً * من بعد ما ابتدأت نسيما

وقال أبو تمام ، عفا الله عنه :

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت * عيدان نجد ولم يعبان بالريم

وقال ابن الرومي ، رحمة الله عليه :

لا تطفنن جوى بلووم إنه * كالريح تغري النار بالإحراق

٦ - ذكر ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتز ، رحمة الله عليه :

ونسيم يبشر الأرض بالقط * كذيل الغلالة المبلول

ووجوه البلاد تنتظر الغيث * أنتظار المحب رد الرسول

وقال ابن الرومي :

حَيْتَكَ عَنَّا شَمَالٌ طَافَ طَائِفُهَا * تَحِيَّةً فَجَرَتْ رَوْحًا وَرَيْحَانَا
هَبَّتْ سُحَيْرًا فَنَاجَى الْغُصْنُ صَاحِبَهُ * سِرًّا بِهَا وَتَنَادَى الطَّيْرُ إِعْلَانَا
وُزِقَ تَغْنًى عَلَى خُضِرٍ مُهْدَلَةٍ * تَسْمُو بِهَا وَتَسْمُ الْأَرْضُ أَحْيَانَا
يُحَالُ طَائِرُهَا تَشْوَانٌ مِنْ طَرِبٍ * وَالْغُصْنُ مِنْ هَزَّةٍ عَظْفِيهِ تَشْوَانَا

وقال أيضا :

كَأَنَّ نَسِيمَهَا أَرْجُ الْخُزَامَى * وَلَاهَا بَعْدَ وَشْمِيَّ وَلِيَّ
هَدِيَّةٍ شَمَالٍ هَبَّتْ بَلِيلٍ * لِأَفْنَانِ الْغُصُونِ بِهَا نَجِيَّ
إِذَا أَنْفَاسُهَا نَسَمَتْ سُحَيْرًا * تَنْفَسُ كَالشَّجِيِّ لَهَا الْخَلِيَّ

وقال آخر :

وَأَنْفَاسُ كَأَنْفَاسِ الْخُزَامَى * قَبِيلَ الصُّبْحِ بَلَّتْهَا السَّمَاءُ
تَنْفَسَ نَشْرُهَا سَحَرًا بِجَاءَتْ * بِهِ سَحَرِيَّةُ الْمَسْرَى رُخَاءُ

وقال إسحاق الموصلي :

يَا حَبِّذَا رِيحُ الْجَنُوبِ إِذَا جَرَتْ * فِي الصُّبْحِ وَهِيَ ضَعِيفَةُ الْأَنْفَاسِ
قَدْ حَمَلَتْ بَرْدَ النَّدَى وَتَحَمَّلَتْ * عِبَقًا مِنْ الْجَنَجَاتِ وَالْبَسْبَاسِ^(١)
^(٢)

(١) في الاصل بالاهمال وهو من إهمال النسخ . فقد ورد في مادة (ج ث ث) من لسان العرب :
« الجنجات شجر أصفر مرّ طيب الريح تستطيه العرب وتكثر ذكره في أشعارها » . وقال أبو حنيفة
الدينوري : إنه من احرار الشجر وهو أخضر ينبت بالقبض له زهرة صفراء كأنها زهرة العريضة طيبة الريح .
وقال بن البيطار : أول ما رأيته بساحل نيل مصر في أعلاه في صحاريه بمقربة من ضبعة هناك ، تسمى
شاهور ، وهي على طريق الطرانة . وقال داود في تذكرته : إنه يسمى باليونانية نرديسيون .

(٢) في اللسان : « البسباس : نبات طيب الريح » . وهو المعروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي
« الرازيانج » . وبهذا الاسم كان يعرف في الاندلس والمغرب ولا يزال معروفه الى اليوم في قطر الجزائر
واسمه السرياني « برهليا » . ويعرف في مصر والشام باسم « الشمار » ومنه نوع برى ينبت بالقيروان ويسميه
أهلها « قزاح » .

وقال آخر :

إذا خلا الجوّ من هواء * فعيشهم غمّة وبؤس
فهو حياة لكلّ حيّ * كأن أنفاسه نفوس

وقال ابن سعيد الأندلسيّ :

الريّح أفود ما يكون لأنّها * تبدى خفايا الرّدف والأعكان^(١)
وتميل الأغصان بعد علوها * حتّى تقبل أوجه الغدران
وكذلك العشاق يتخذونها * رسلًا إلى الأحباب والأوطان

وقال آخر :

أيا جبلي نعمان بالله خليّا * سيبل الصّبا يخلّص إلى نسيمها
أجد بردّها أو تشف مني حرارة * على كيد لم يبق إلا صميمها
فإن الصّبا ريح إذا ما تنفّست * على كيد حراء قلت همومها

وقال ابن هتيميل اليمنيّ :

هبت لنا سحرًا والصّبح ملتئم * واللّيل قد غاب فيه الشّيب والهرم
سقيمة من بنات الشرق أضعفها * عن قوّة السيّر لما هبت السّقم
فبلغت بلسان الحال قائلة * ما لم يبلغه يومًا إلى فم
سرًا لغانية تسري إلى به * من النّسيم رسول ليس يهم
أصافح الرّيح إجلالًا لما حملت * إلى من ريح برديها وأستلم

(١) الأعكان واحده عكنة بالضم ، وهي ما تنقّى من لحم البطن سمنا .

الباب الرابع

من القسم الثاني من الفن الأول

١ - في أسطقس النار وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران

حكى أصحاب التواريخ في حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض
وجَّ نزل جبل أبي قبيس . فأنزل الله إليه مَرَّخَتَيْنِ من السماء، فحكَّ إحداهما بالأخرى
فأورِيا نارا . فلهذا سمي الجبل بأبي قبيس .

ويدل على أن النار من الشجر، قوله عز وجل : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ ﴾ .

والعرب تقول: "في كل شجر نار، وأسمجد المَرْخُ والعَفَّار"، لأنهما أسرع اقتداحا .
قال الله عز وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ .

وقال أصحاب الكلام في الطبائع : إن الله عز وجل جمع في النار الحركة،
والحرارة، واليبوسة، واللطافة، والنور . وهي تفعل بكل صورة من هذه الصور
خلاف ما تفعل بالأخرى .

فبالحركة تلي الأجسام؛ وبالحرارة تسخن؛ وباليبوسة تجفف؛ وباللطافة تنفذ؛
وبالنور تضيء ما حولها .

(١) أنظر في كتاب الحيوان للملاحظ تفصيلات ومعلومات عن النار . وهي مما يجب الوقوف عليه
والاحاطة به من الوجهة العلمية والفلسفية . أما من حيث اللغة والأدب فيراجع ما ورد في كتاب « سرور
النفس بمدارك الخواص الخمس » للتيفاشي باختصار صاحب لسان العرب ، وهو موجود بالفتوغرافية
في « دار الكتب المصرية » ومحل الشاهد هو الباب الثامن من ص ٣٩١ إلى ص ٤٢٣

ومنفعة النار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان . فلا يحتاج إليها شيء سواه ،
وليس به عنها غنى في حال من الأحوال .
ولهذا عظمتها المجوس^(١) ، وقالوا : إذ أفردتنا بنفعها ، فنقردها بتعظيمها . على أنهم
يعظمون جميع ما فيه منفعة على العباد ، فلا يدفنون موتاهم في الأرض ، ولا
يستنجون في الأنهار .

٢ - ذكر أسماء النار

وأحوالها في معالجتها وترتيبها

أما أسمائها ؛ فمنها :

النار ، والصّلاء ، والسّكن ، والضّرمّة ، والحرّق ، والحمدة (وهو صوت ألتهاها) ،
والخدمة ، والجحيم ، والسّعير ، والوحي .

وأما تفصيل أحوالها ومعالجتها وترتيبها ، فقد قال الثعالبي في فقه اللغة :

إذا لم يُخرج الزّند النار عند القدح ، قيل : بكّا يَكْبُو .

فإذا صوّت ولم يخرج ، قيل : صلّد يَصْلِد .

فإذا أخرج النار ، قيل : ورى يَرى .

فإذا ألقى الإنسان عليها ما يحفظها ويُدّكها ، تقول : شيعتها وأثقتها .

فإذا عالجها لتلتهب ، قال : حضاؤها وأرثتها^(٢) .

فإذا جعل لها مذهباً تحت القدر ، قال : سخوتها .

(١) guébros, mages. عند الفرنسيين . والمجوس لفظ مشتق من "وغ" و "مغ" ومعناه النور

في اللغة الطورانية .

(٢) في فقه الثعالبي : وأرثتها بالشين . وعبارة القاموس في مادة (أرث) وتأريش النار تأريثها .

فإذا زاد في إيقادها وإشعالها، قال : أَجْجَتْهَا .

فإذا أَشْتَدَّ تَأْجُّجُهَا، فهي جاحمة^(١) .

فإذا طَفِئَتِ البتة، فهي هامدة .

فإذا صارت رَمَادًا، فهي هابية .

والله تعالى أعلم .

٣ - ذكر عباد النار

وسبب عبادتها وبيوت النيران

§ أول من عبد النار قابيل بن آدم .

وذلك أنه لما قتل أخاه هابيل هرب من أبيه إلى اليمن، بجاء إبليس لعنه

الله، وقال له : إِنَّمَا قُبِلَ قُرْبَانُ هَابِيلَ وَأَكَلْتَهُ النَّارُ لِأَنَّهُ كَانَ يَخْدُمُهَا وَيَعْبُدُهَا .

فَانْصَبْ أَنْتَ أَيْضًا نَارًا تَكُونُ لَكَ وَلِعَقِيكَ، فَبَنَى بَيْتَ نَارٍ .

فهو أول من نَصَبَ النارَ وَعَبَدَهَا .

§ وأول من عظمها من ملوك الفرس، جَمْ . وهو أحد ملوك الفرس الأول،

عظمها ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال : إِنَّهَا تُشَبِّهُ ضَوْءَ الشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ،

لَأَنَّ النُّورَ عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِنَ الظُّلْمَةِ .

§ ثم عُبِدَتِ النارُ بِالعِراقِ، وأرض فارس، وكرمان، وسجستان، وخراسان،

وطبرستان، والجبال، وأذربيجان، وأران، وفي بلاد الهند، والسند، والصين .

§ وَبُنِيَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ بِيُوتٌ لِلنَّارِ، نَذَرُهَا بَعْدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) عبارة فقه اللغة بعده : (فإذا سكن لها ولم يُطْفَأْ حرها فهي خامدة) وبعده فإذا طفت البتة الخ

§ ثم آتقطعت عبادة النيران من أكثر هذه الأماكن إلا الهند . فإنهم يعبدونها إلى يومنا هذا وهم طائفة تدعى الإكنواطرية ^(١) . زعموا أن النار أعظم العناصر حرما ، وأوسعها حيزا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرًا ، وأنورها ضياء وإشراقا ، وألطفها جسما ويكانا ، وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع ، ولا نور في العالم إلا بها ، ولا نمو ولا انعقاد إلا بمزاجتها .

وعبادتهم لها أن يحفروا أخدودا مربعا في الأرض ويحشوا النار فيه ، ثم لا يدعون طعاما لذيذا ، ولا شرابا لطيفا ، ولا ثوبا فاخرا ، ولا عطرا فائحا ، ولا جوهرًا نفيسا إلا طرحوه فيها ، تقربا إليها ، وتبركا بها . وحزموا إلقاء النفوس فيها ، وإحراق الأبدان بها ، خلافا لجماعة أخرى من زهاد الهند .

§ وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها . يعظمون النار لجوهرها تعظيما بالغا ، ويقدمونها على الموجودات كلها .

§ ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صاغين ، يستنون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس صدر عن صدر مجرم . وسنتهم الحث على الأخلاق الحسنة ، والمنع من أضدادها ، وهي الكذب ، والحسد ، والحقد ، والكفاح ، والحرص ، والبغى ، والبطر . فإذا تجرد الإنسان عنها ، تقرب من النار .

(١) أفادنا المترجم الألماني لكتاب الملل والنحل أن هذه الكلمة مأخوذة من "أجنيترا" وهي النار المقدسة (أي التي نتأجج إكراما لاله أجنى) .

٤ - وأما بيوت النيران

ومن رسمها من ملوك الفرس

قال المسعودي :

§ أول من حكي ذلك عنه أفريدون الملك . وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها ، ^(١) [وهم] معتكفون على عبادتها . [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها . فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها ^(١)] وأنها واسطة بين الله تعالى وبين خلقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكرها له . وجعلوا للنور مراتب وقوانين [وفرقوا بين طبع النار والنور ^(١)] وزعموا أن الحيوان يجتذبه النور ، فيحرق نفسه : كالفرأش الطائر بالليل فما لطف جسمه يطرح نفسه في السراج فيحرقها . وغير ذلك مما يقع في صيد الليل من الغزلان ، والوحش ، والطير ، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج .
 ١٠ في الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة في الليل ، فإنهم يجعلون السراج حوالى المركب ، فيثب السمك من الماء إليها ، وأن بالنور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك .

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلى خراسان ، فحملت . فأتخذ لها بيتا بطوس . [وأتخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد ^(٢) سورة] .
 ١٥ وبيتا آخر بسجستان كواكر ، كان ^(٣) آتخذ بهمن بن إسفنديار بن يستاسف بن يهراسف .

§ وبيت آخر ببلاد الشير والزان ، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان ، وقيل إنه صادف هذا البيت ، وفيه نار معظمة فنقلها الى الموضع المعروف بالبركة .

(١) الزيادة عن المسعودي .

(٢) سماه الشهرستاني : " قباذان " (ص ١٩٧) .

(٣) سماه الشهرستاني : " كركرا " (ص ١٩٧) .

- § وبيت آخر للنار يقال له كويسجة^(١) : بناه كيخسرو الملك .
- § وقد كان بقومس بيت نار معظم لا يُدري من بناه ، يقال له حريش^(٢) . ويقال إن الإسكندر لما غلب عليها ، تركها ولم يطفئها .
- § وبيت نار آخر يسمى كَنَكْدَز ، بناه سياوش بن كاوس الجبار ، وذلك في زمن لُبَيْمِه بشرق الصين مما يلي البركة .
- § وبيت نار بمدينة أَرْجان من أرض فارس ، بناه قمار .
- § وبيت بأرض فارس آتخذ في أيام يهراسف^(٣) .
- § فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت .
- § ثم آتخذ زرادشت بعد ذلك بيوتا للنيران . فكان مما آتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان ، وبيت بمدينة نَسَا والبيضاء من أرض فارس . وقد كان زرادشت أمر يستأسف الملك بطلب نار كان يعظمها جم فطلبت^(٤) ، فوجدت بمدينة خوارزم . فنقلها يستأسف إلى مدينة دَارَاجُرد من أرض فارس والمجوس تعظم هذه النار ما لا تعظم غيرها من النيران والبيوت وللفرس بيت نار بإصطخر فارس ، يعظمه المجوس . كان في قديم الزمان للأصنام ، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن آسپنديار وجعلته بيت نار ، ثم نقلت عنه النار فخرّب وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم آتخذ دارا بن دارا . وفي مدينة جور من أرض فارس بيت بناه أردشير بن بابك وقد كان أردشير بنى بيت نار يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس . وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود ابن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية . ولم يزل هذا البيت إلى خلافة المهدي . وكان سابور
- (١) سماه الشهرستاني : "كويسة" (ص ١٩٧) . (٢) سماه الشهرستاني : "جري" (ص ١٩٧) .
- (٣) هو لهراسب . (٤) في الشهرستاني : كشتاسف . (٥) هو الملك جمشيد .

أشترط على الروم بقاء هذا البيت وأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام . بنته بُوران بنت كسرى أبرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأسنيا . وبيوت النيران كثيرة تعظمها المجوس . والذي ذكرناه هو المشهور منها .

٥ - ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارا .

١ - نار المزدلفة . توقد حتى يراها من دفع من عرفة . وأول من أوقدها قصي بن كلاب .

٢ - نار الاستسقاء . كانت الجاهلية الأولى إذا تابعت عليهم الأزمات، وأشدّ الجذب، واحتاجوا إلى الأمطار، يجمعون لها بقرًا، معلقة في أذانها وعراقيها السِّلَع^(٤) والعشر^(٥)، ويصعدون بها إلى جبل وعمر، ويشعلون فيها النار، ويضجّون بالدعاء والتضرع . وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث . وفي ذلك يقول الودّاع الطائي :

(١) في الشهرستاني : توران . (٢) في المسعودي : استينيا . وفي الشهرستاني : إسفينا . (٣) هذا الباب كله منقول عن مروج الذهب (أنظر طبعة باريس ج ٤ ص ٧٢ - ٨٦) . (٤) قال العلامة الدكتور أوغست هفتر الألماني والأب المحقق الفاضل لويس شيخو اليسوعي في حاشية صفحة ٣٦ من كتاب النبات والشجر للأصمعي الذي عنيًا بتحقيقه وطبعه في بيروت سنة ١٩٠٨، مانصه : السِّلَع : نبات . وقيل شجر مرمر . وقيل إنه سم . له ورقة صغيرة شاكّة كأن شوكتها زغب . وهو بقلة تنفرش كأنها راحة الكلب .

(٥) قال الفاضلان المذكوران في ذلك الموضع أيضا مانصه : "قيل إن العشر من كبار شجر العضاء وهو ذو صمغ حلو وحراق مثل القطن . يقتدح به . وهو عريض الورق . يخرج من شعبه ومواضع زهره سكر فيه شيء من المرارة يقال له سكر العشر . ويخرج له نفاخ كشفاشق الجمال . وله نور كالدفلى ، مشرق حسن النظر . وله ثمر : L., Asclepias gigantea, Lc., Asclépiade, Forsk., Galotropis procera (٦) أما الافرنج والامريكان في هذا العصر فانهم يستنزلون الغيث باطلاق المدافع لاحداث الدوى والضجيج والالتهاب في الجو .



لَا دَرَّ دَرَّ رَجَالٍ خَابَ سَعِيهِمْ * يَسْتَمِطِرُونَ لَدَى الْأَزْمَاتِ بِالْعَشِيرِ
أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً * ذَرِيعَةٌ لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ
وقال أمية بن أبي الصلت :

وَيَسُوقُونَ بِأَقْرِ السَّهْلِ لِلطَّوْ * دِمَازِيلَ خَشِيَّةٍ أَنْ تَبُورَا
عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي بُكَرِ الْأَذْ * نَابٍ مِنْهَا لِكَيْ تَهَيَّجَ النَّحُورَا
سَلْعٌ مَا وَمِثْلُهُ عَشْرًا * عَائِلٌ مَا وَعَالَتِ الْبَيْقُورَا

٣ — نار الزائر والمسافر . ويسمونها نار الطرد . وذلك أنهم كانوا إذا لم
يجبوا رجوع شخص أوقدوا خلفه نارا ودعوا عليه . ويقولون في الدعاء : أبعده الله
وأسحقه ! وأوقدوا نارا إثره . قال الشاعر :

وَجُمَّةٌ قَوْمٍ قَدْ أَتَوْكَ وَلَمْ تَكُنْ * لِتُوقِدَ نَارًا خَلْفَهَا لِتَنْدُمَ

والجُمَّة : الجماعة يمشون في الدَّم، وفي الصلح . ومعنى هذا البيت : لم تندم على
ما أعطيت في الجمالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارا كي لا يعودوا .

٤ — نار التحاليف . كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عليها، فيذكرون منافعها،
ويدعون الله بالحُرمان والمنع من منافعها على الذي ينقض العهد، ويطرحون فيها
الكبريت والملح . فإذا فرقت هُول على الحالف . قال الكميت :

هُمْ خَوْفُونِي بِالْعَمَى هُوَ الرَّدَى * كَمَا شَبَّ نَارَ الْحَالِفِينَ الْمُهَوَّلُ

وقال أوس بن حجر :

إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ صَدَّ بَوَجْهِهِ * كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمُهَوَّلِ حَالِفُ

٥ — نار الغَدر . كانت العرب اذا غدر الرجل بجاره أوقدوا له نارا بمنى ،
أيام الحج على الأخشب (وهو الجبل المطل على منى) . ثم صاحوا : هذه غدره فلان .
قالت امرأة من هاشم .

فإن نهلك فلم نعرف عقوقا * ولم تُوقد لنا بالغَدر نارُ

٦ — نار السَّلامة . وهى نار توقد للقادم من سفره ، اذا قدم بالسلامة
والغنيمة . قال الشاعر :

يا سُلَيْمى أوقدى النارا * إنَّ مَنْ تَهْوِينِ قَدْ زَارَا

٧ — نار الحرب . وتسمى نار الأهبة والإنذار . توقد على يفاع ، فتكون إعلاما
لمن بُعد . قال ابن الرومى :

له نارَان نار قِرَى وَحَرْبٍ * ترى كُتَيْبَها ذاتَ الْتِهَابِ

٨ — نار الصَّيد . يوقدونها لصيد الظباء ، تُعْشَى أبصارها .

٩ — نار الأسد . كانت العرب توقدها اذا خافوه ؛ فإن الأسد اذا عين النار
حدق إليها وتأملها .

١٠ — نار السَّليم . توقد للملدوغ ، والمجروح ، ومن عضه الكلب الكلب حتى

لا يناموا فيشتد بهم الألم . قال النابغة :

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُها * لِحِلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَا قَعِ

وذلك لأنهم كانوا يعلقون عليه حلَى النساء ويتركونه سبعة أيام .

١١ — نار الفداء . وذلك أن ملوكهم كانوا اذا سبوا قبيلة وخرجت اليهم

السادات فى الفداء وفى الاستيهاب كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن .

وأما في الظلمة فيخفى قدر ما يحبسون من الصفى لأنفسهم، وقدر ما يجودون به،
وما يأخذون عليه القداء . فيوقدون لذلك النار . قال الشاعر :

نِسَاءُ بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أُورَةِ * عَلَى النَّارِ إِذْ تُجَلَّى لَهُ فِتْيَاتُهَا

١٢ — نار الوسم . كانوا يقولون للرجل : ما نارك ؟ (في الاستخبار عن الإبل)

أوما سَمِتْكَ ؟ [فيقول] : حياط، أو علاط، أو حلقه، أو كذا، أو كذا .

حكي أن بعض اللصوص قرب إبلا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتى إلى
بعض الأسواق، فقال له بعض التجار : ما نارك ؟ وإنما سأله عن ذلك ، لأنهم كانوا
يعرفون ميسم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها ، فقال :

تَسْأَلُنِي الْبَاعَةَ مَا نَجَارُهَا * إِذْ زَعَزَعُوهَا فَسَمَتُ أَبْصَارُهَا
وَكُلُّ دَارٍ لَأَنَاسٍ دَارُهَا * وَكُلُّ نَارٍ الْعَالَمِينَ نَارُهَا^(١)

١٣ — نار القرى . وهى من أعظم مفاحر العرب . كانوا يوقدون في ليالى

الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القرى . فكلمها كانت أضخم وموضعها أرفع، كان أنفر.
وهم يتمادحون بها، قال الشاعر :

لَهُ نَارٌ تُشَبُّ بِكُلِّ وادٍ * إِذَا النَّيْرَانُ أُلْبَسَتِ الْقِنَاعَا

وقال إبراهيم بن هرمة :

إِذَا ضَلَّ عَنْهُمْ ضَيْفُهُمْ رَفَعُوا لَهُ * مِنَ النَّارِ فِي الظُّلُمَاءِ أَلْوِيَّةً حُمْرَا

١٤ — وكانت للعرب نار عظمى تسمى نار الحزرتين . وهى التى أطفأها الله

تعالى بنحالد بن سنان العبسى . وكانت حرة ببلاد عبس، تسمى حرة الحدثان .

(١) يقول العرب في أمثالهم : "كل نجار إبل نجارها" وشطره الثانى "ونار إبل العالمين نارها" يضربون

المثل للخلط الذى فيه كل لون من الأخلاق وليس له رأى يثبت عليه .



روى عن ابن الكلبى أنه قال: كان يخرج منها عُقْ فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلا أحرقتة. وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بنى عبس رجلاً فخرج بهم نحوها، ومعه دَرَّة حتى آتتهى إلى طَرَفِها، وقد خرج منها عُقْ كأنه عُنُقٌ بعير فأحاط بهم، فقالوا: هلكت والله أشياخ بنى عبس آخر الدهر! فقال خالد كلاً! وجعل يضرب ذلك العُنُق بالدَّرَّة ويقول: "بَدَأَ بَدَأً، كُلُّ هَذِي الله يُؤدِّي!" أنا عبد الله خالد بن سنان! "فما زال يضربه حتى رجع، وهو يتبعه والقوم معه كأنه نُعْبَانٌ يملك حجارة الحَرَّة حتى آتتهى إلى قَلِيب، فأنساب فيه وتقدم عليه، فمكث طويلاً. فقال ابن عم لخالد، يقال له عروة بن شب: لا أرى خالداً يخرج إليكم أبداً! فخرج يَنْطُف عَرَقاً، وهو يقول: زعم ابن راعية المعزى أنى لا أنخرج. ففيل لهم: بنو راعية المعزى إلى الآن.

وفى هذه النار يقول الشاعر:

كُتِبَ الْحَرَّتَيْنِ لَهَا زَفِيرٌ * نُصِمَ مَسَامِعَ الرَّجُلِ السَّمِيعِ

٦ - ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقية، فمنها:

نار البرق. وقد وصفها بعض الأعراب فقال:

نَارٌ تُجَدِّدُ لِلْعِيدَانِ نَضْرَتَهَا * وَالنَّارُ تُشْعِلُ عِيدَانًا فَتَحْتَرِقُ

إشارة إلى أن النار تُحْرِقُ العيدان، إلا نار البرق فإنها تجيء بالغيث.

نار المَعِدَةِ. وهى التى تهضم الطعام. وهى كُتِبَ الْحَيَاة، ونار الغريزة. وقوتها مادة

للصحة، كما أن ضعفها سبب للعلّة.

§ نار الحمى . وقد قيل : النيران ثلاثة : نار لا تأكل ولا تشرب ، وهى نار الآخرة ؛
ونار تأكل وتشرب وهى نار الحمى ، تأكل اللحم وتشرب الدم ، ونار تأكل ولا تشرب
وهى نار الدنيا .

ومن النيران المجازية :

§ نار الشوق ، نار الشره ، نار الشباب ، نار الشراب .

قال شاعر يمدح بعض الملوك :

وَقِيَتْ نَارَ الْحَجِيمِ يَا مَلِكُ * أَرْبَعُ نِيرَانِهِ لَهُ نَسَقُ
نَارُ شَبَابٍ تَرُوقُ نَضْرَتُهَا * وَنَارُ رَاحٍ كَأَنَّهُ شَفَقُ
وَنَارُ سُلْطَانِهِ تَقَارِنُهَا * نَارُ قِرَى لَا تَزَالُ تَأْتَلِقُ

٧ - ذكر النيران التى يضرب المثل بها

يُضْرَبُ الْمَثَلُ :

§ بنار الحباحب . وهى نار لبخيل كان يوقدها . فإذا استضاء بها إنسان أطفأها .
وقيل : إنها النار التى توريها الخيل بسنابكها من الحجارة . قال الله تعالى :
(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) . وقال النابغة :

* وَيُوقِدُنَّ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَّاحِبِ *

وهذا المثل يضرب لما لا منفعة فيه ولا حاصل له .

§ نار الغضى ، يضرب بها المثل فى الحرارة . وهى جمر أبيض لا يصلح إلا للوقود .

§ نار العرجف . هى نار تنقد سريعاً . قال قتيبة بن مسلم لعمر بن عباد بن الحصين :

” لَلْسُودُّ أَسْرَعُ إِلَيْكَ مِنَ النَّارِ فِي يَبْسِ الْعَرْجَفِ “ إذا ألتهمت فيه النار انتشرت .

وتسمى نار الزحفتين، لأن العريخ إذا أُنشِرت فيه النار عظمَتْ واستفاضت .
فمن كان بالقرب منها زحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها . فيحتاج الذي
زحف عنها أن يزحف إليها . فلا يزال المصطلي بها كذلك، فلذلك سميت نار الزحفتين .

§ نار الحلفاء . يضرب بها المثل في سرعة الانتقاد، كما قيل :

فما ظنك بالحلفاء * أذنت له نارا

وفي سرعة الانطفاء، كما قيل : نار الحلفاء سريعة الانطفاء .

٨ - ذكر ما جاء منها على لفظ أفعل

يقال :

آكل من النار؛ أحر من النار؛ أحر من الجمر؛ أحسن من النار؛ أسرع من شرارة
في قصباء .

ويقال :

فلان وارى الزناد؛ ورئت بك زنادى؛ فلان ثاقب الزند؛ فلان كابي الزناد؛
صلدت زنده؛ فلان ما يضطلي بناره؛ هو القابس العجلان؛ هما زندان في وعاء .

ومن أنصاف الأبيات :

١٥ * والنار قد يُجْهِدُها النَّافُ * كَتَمِيسِ إطفاء نارِ بَنَافِ *

* والجمرُ يوضعُ في الرمادِ فيخمدُ * كذا كُلُّ نارٍ رُوحتُ تَتَوَجُّ *

* هياتِ تُكَمِّ في الظلامِ مَساعِلُ *

ومن الأبيات قول علي بن الجهم :

والنارُ في أحجارها مَكْنُونَةٌ * لا تُصْطَلِي إن لم تُثَرِّها الأزندُ

وقال آخر :

٢٠ والنارُ بالماء الذي هو ضدها * تُعْطَى النَّضاجَ وطَبْعُها الإحراقُ

وقال آخر :

والكَاتِمُ الأَمْرَ لَيْسَ يَخْفَى * كَالْمَوْقِدِ النَّارِ بِالْيَفَاعِ

وقال آخر :

لَا تَتَّبِعْ كُلَّ دُخَانٍ تَرَى * فَالْنَّارُ قَدْ تُوْقَدُ لِلْكَيِّ

وقال أبو تمام :

لَوْلَا أَشْتَعَلَ النَّارُ فِيمَا جَاوَرَتْ * مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

وقال آخر :

وَفِتِيلَةُ الْمَصْبَاحِ تُحْرِقُ نَفْسَهَا * وَتُضِيءُ لِلْسَّارَى وَأَنْتَ كَذَاكَ

٩ - ذكر ما قيل في وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتز، غفر الله له :

كَأَنَّ الشَّرَارَ عَلَى نَارِهَا * وَقَدْ رَاقَ مَنَظَرُهَا كُلَّ عَيْنِ
سَحَابَةٍ تَبْرِ إِذَا مَاءُهَا * فَإِذَا هَوَى فَنَمَتَاتُ الْجَيْنِ

أخذه العسكري فقال :

أَوْقَدْتَ بَعْدَ الْهُدُوءِ نَارًا * لَهَا عَلَى الطَّارِقِينَ عَيْنُ
شَرَارِهَا إِنْ عَلَا نُضَارُ * لَكِنَّهُ إِنْ هَوَى لَجِينُ

وقال السري الرفاء :

وَالْتَهَبَتْ نَارُنَا فَمَنَظَرُهَا * يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ مَنَظَرٍ عَجَبِ
إِذَا رَمَتْ بِالشَّرَارِ فَاطْرَدَتْ * عَلَى ذُرَاهَا مَطَارِدُ اللَّهَبِ
رَأَيْتَ يَاقُوْتَهُ مُشَبَّكَةً * تَطِيرُ عَنْهَا قُرَاضَةُ الذَّهَبِ

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

حُمْرًا نازَعَتِ الرِّيحَ رِداءَهَا * وَهَنًا وزاحَمَتِ السَّمَاءَ بِمَنْكِبِ
ضَرَبَتْ سَمَاءً مِنْ دُخَانٍ فَوْقَهَا * لَمْ تَدْرِ مِنْهَا شُعْلَةً مِنْ كَوْكَبِ
وَتَفَتَّحَتْ عَنْ كُلِّ نَفْحَةٍ جَمْرَةٍ * بَاتَتْ لَهَا رِيحُ الشَّمَالِ بِمَرْقَبِ
قَدْ أُلْهِبَتْ فَتَسْذِيبَتْ فَكَأَنَّهَا * شَقْرَاءُ تَمْرَحُ فِي عَجَاجِ أَكْهَبِ^(١)

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ :

كَأَنَّمَا النَّارُ وَالرَّمَادُ وَقَدْ * كَادَ يُوَارِي مِنْ نُورِهَا الشُّورَا
وَرَدَ جَنِيَّ الْقِطَافِ أَحْمَرُ قَدْ * دَزَتْ عَلَيْهِ الْأَكُفُّ كَافُورَا

وقال تاج الملوك بن أيوب :

أَمَّا تَرَى النَّارَ وَهِيَ تُضْرَمُ فِي * أَحْشَاءِ كَانُونِهَا وَتَلْتَهَبُ !
كَأَنَّمَا الْفَحْمُ فَوْقَهَا قُضِبَ * مِنْ عَنَبٍ وَهِيَ تَحْتَهُ ذَهَبُ

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

لَأَبْنَةُ الزَّيْدِ فِي الْكَوَانِينِ جَمْرٌ * كَالدَّرَارِيِّ فِي دُجَى الظُّلَمَاءِ
خَبَرُونِي عَنْهَا وَلَا تَكْتُمُونِي * أَلَدَيْهَا صِنَاعَةُ الْكِيمِيَاءِ
سَبَكْتُ فَحْمَهَا صَفَائِحَ تَبْرِ * رَصَعْتُهَا بِالْفِضَّةِ الْبِيضَاءِ
كَلَّمَا رَفَرَفَ النَّسِيمُ عَلَيْهَا * رَقَصَتْ فِي غِلَالَةِ حُمْرَاءِ

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجي :

وَكَأَنَّهَا وَالرَّيْحُ عَابِثَةٌ بِهَا * تُرَى فِتْرَقُصٌ فِي قَيْصِ أَحْمَرِ

(١) الكهبة : لون ليس بخالص في الحمرة، وهو في الحمرة خاصة (صحاح الجوهري).

وقال أبو هلال العسكري :

نَارٌ تَلْعَبُ بِالسَّقُوفِ كَأَنَّهَا * حُلٌّ مُشَقَّةٌ عَلَى حُبَّانٍ
رَدَّتْ عَلَيْهَا الرِّيحُ فَضَلَّ دُخَانُهَا * فَأَتَتْ بِهِ سُبُجًا عَلَى عَقِيَانٍ
فَالْجَوْيُ يَضْحَكُ فِي أَبِيضَا ضَرَائِرٍ * مِنْهَا وَيَعِيسُ فِي أَسْوَدَادِ دُخَانٍ

وقال ابن أبي الخصال :

وَعُوجُوا عَلَى يَاقُوتَةٍ ذَهَبِيَّةٍ * يَهِيمُ بِهَا الْمَقْرُورُ بِالسَّيَرَاتِ ^(١)
إِذَا مَا أَرْتَمْتَ مِنْ فِخْمِهَا بَشَرَارَهَا * رَأَيْتَ نُجُومَ اللَّيْلِ مُنْكَدِرَاتٍ

وقال سيف الدولة بن حمدان :

كَأَنَّمَا النَّارُ وَالرَّمَادُ مَعَا * وَضَوْؤُهَا فِي ظِلَامِهِ يُجَجِبُ
وَجَنَّةُ عُدْرَاءَ مَسْمَا تَجَلُّ * فَاسْتَرَتْ تَحْتَ عَنَبٍ أَشْهَبَ

وقال آخر :

فَخِمٌ كَيَوْمِ الْفِرَاقِ تُشْعِلُهُ * نَارُ كِتَارِ الْفِرَاقِ فِي الْكَيْدِ
أَسْوَدٌ قَدْ صَارَتْ تَحْتَ حُمْرَتِهَا * مِثْلَ الْعُيُونِ آكُتَحَلْنَ بِالرَّمَدِ

وقال أبو طالب المأموني :

مَا نَرَى النَّارَ كَيْفَ أَسْقَمَهَا الْقُرْفُ فَاضْطَحَتْ تَخْبُو وَطُورًا تَسْعَرُ
وَعَدَا الْجَمْرُ وَالرَّمَادُ عَلَيْهِ * فِي قَمِيصٍ مُدْهَبٍ وَمَعْنَبٍ

وقال أبو فراس الحمداني :

لِللَّهِ بَرْدٌ مَا أَشَدَّ وَمَنْظَرٌ مَا كَانَ أَعْجَبُ *
جَاءَ الْغَلَامُ بِنَارِهِ * هَوَّجَاءَ فِي فِخْمٍ تَلْهَبُ
فَكَأَنَّمَا جَمَعَ الْحُلِيَّ * فَمُحْرَقٌ مِنْهُ وَمُدْهَبُ
ثُمَّ أَنْطَفَتْ فَكَأَنَّهَا * مَا بَيْنَنَا نَدٌّ مُعْشَبُ

(١) السيرة : الغداة الباردة .

١٠ - ذكر شيء مما قيل في الشمعة والشمعدان

(والسراج^(١) والقنديل^(٢))

١ - أما الشمعة، فمن جيد ما قيل فيها قول الأرجاني :

نَمَتْ بِأَسْرَارٍ لَيْلٍ كَانَ يُخْفِيهَا * وَأُطْلَعَتْ قَلْبَهَا لِلنَّاسِ مِنْ فِيهَا
 قَلْبُهَا لَمْ يَرْعَنَا وَهُوَ مُكْتَمِنٌ * إِلَّا بِرُقِيَّةِ نَارٍ مِنْ تَرَاقِيهَا
 سَقِيمَةٌ لَمْ يَزَلْ طَوَّلُ اللِّسَانِ لَهَا * فِي الْحَيِّ يَجْنِي عَلَيْهَا ضَرْبَ هَادِيهَا
 غَرِيقَةٌ فِي دُمُوعٍ وَهِيَ تُحْرِقُهَا * أَنْفَاسُهَا بِدَوَامٍ مِنْ تَلْظِيهَا
 تَتَقَسَّتْ نَفْسَ الْمَهْجُورِ إِذْ ذَكَرَتْ * عَهْدَ الْخَلِيطِ فَبَاتَ الْوَجْدُ يَبْكِيهَا
 يُخَشِي عَلَيْهَا الرَّدَى مَهْمَا أَلَمَ بِهَا * نَسِيمُ رِيحٍ إِذَا وَافَى يَحْيِيهَا
 بَدَتْ كَنْجَمٍ هَوَى فِي إِثْرِ عَفْرِيَةٍ * فِي الْأَرْضِ فَاشْتَعَلَتْ مِنْهُ نَوَاصِيهَا
 نَجْمٌ رَأَى الْأَرْضَ أَوْلَى أَنْ يُبَوِّأَهَا * مِنَ السَّمَاءِ فَأَمْسَى طَوْعَ أَهْلِيهَا
 كَأَنَّهَا غُرَّةٌ قَدْ سَالَ شَادِخُهَا * فِي وَجْهِ دَهْمَاءَ يُزْهِمُهَا تَجَلِّيهَا
 أَوْضَرَةً خُلِقَتْ لِلشَّمْسِ حَاسِدَةً * فَكَلَّمَا حُجِبَتْ قَامَتْ نُحَاكِهَا
 وَحِيدَةً كَشَبَاةِ الرُّمَحِ هَازِمَةً * عَسَا كَرَّ اللَّيْلُ إِنْ حَلَّتْ بَوَادِيهَا
 مَا طَنَّبَتْ قَطُّ فِي أَرْضٍ مَخِيمةً * إِلَّا وَأَقْفَرَ لِلْأَبْصَارِ دَاجِيهَا
 لَهَا غَرَائِبُ تَبْدُو مِنْ مَحَاسِنِهَا * إِذَا تَفَكَّرْتَ يَوْمًا فِي مَعَانِيهَا
 كَصَعْدَةٍ فِي حَسَا الظُّلَمَاءِ طَاعِنَةٍ * تَسْقِي أَسَافِلَهَا رِيًّا أَعَالِيهَا

(١) مما يجب التنبيه إليه أن "سورج" و "سراج" معناهما الشمس في اللغة الهندية عن السنسكريتية

(أنظر القاموس الهندى الانكليزى تأليف فوريس)

(٢) في اللغة اللاتينية Candella وفي الفرنسية Chandelie بمعنى الشمعة وعنها Candélabre .

ويقول علماء الأفرنج: إن اختراع الشمع للاستضاءة مما توصل إليه الغالبون وعلى ذلك يكون الأصل أفريجيا ثم نقله العرب لمعنى المصباح المعروف بالقنديل .

فَالْوَجَنَةُ الْوَرْدُ إِلَّا فِي تَنَاوُلِهَا * وَالْقَامَةُ الْغُصْنُ إِلَّا فِي تَتْنِهَا
صَفْرَاءُ هِنْدِيَّةٍ فِي اللَّوْنِ إِنْ نُعِمَتْ * وَالْقَدُّ وَاللِّينُ إِنْ أَثْمَمَتْ تَشْبِيهَا
فَالْهِنْدُ تَقْتُلُ بِالنِّيرَانِ أَنْفُسَهَا * وَعِنْدَهَا أَنَّ ذَاكَ الْقَتْلَ يُحْيِيهَا
قَدْ أَثْمَرَتْ وَرْدَةً حَمْرَاءَ طَالِعَةٍ * تَجْنِي عَلَى الْكَفِّ إِنْ أَهْوَيْتَ تَجْنِيهَا
وَرْدٌ تُسَاكُ بِهِ الْأَيْدَى إِذَا قُطِفَتْ * وَمَا عَلَى غُصْنِهَا شَوْكٌ يُوقِيهَا
مَا إِنْ تَرَأَى تَبَيَّتُ اللَّيْلَ سَاهِرَةً * وَمَا بِهَا غُلَّةٌ فِي الصَّدْرِ تُطْفِئُهَا
صَفْرَاءُ غَلَّالِهَا حَمْرَاءُ عَمَائِمِهَا * سَوْدٌ ذَوَائِبُهَا بَيْضٌ لَيَالِهَا
تُحْيِي اللَّيْلَ نَوْرًا وَهِيَ تَقْتُلُهَا * بئسَ الْجَزَاءُ لِعَمْرِ اللَّهِ تَجْزِيهَا
قَدَّتْ عَلَى قَدِّ ثَوْبٍ قَدْ تَبَطَّنَا * وَلَمْ يُقَدِّرْ عَلَيْهَا الثَّوْبَ كَاسِيهَا
غَرَاءُ فُرْعَاءُ مَا تَنْفَكُ قَالِيَةً * تَقْصُ لَمَتَهَا طَوْرًا وَتَقْلِيهَا
شَبَاءُ شَعْنَاءُ لَا تُكْسَى غَدَائِرُهَا * لَوْنُ الشَّيْبَةِ إِلَّا حِينَ تُبْلِيهَا
قَنَاءُ ظَلَمَاءَ لَا تَنْفَكُ يَأْكُلُهَا * سِنَانُهَا طَوْلَ طَعْنٍ أَوْ يُشْطِئُهَا
مَفْتُوحَةُ الْعَيْنِ تُفْنِي لَيْلَهَا سَمَرًا * نَعَمْ وَإِفْنَاؤُهَا إِيَّاهُ يُفْنِيهَا
وَرُبَّمَا نَالَ مِنْ أَطْرَافِهَا مَرَضٌ * لَمْ يُشْفِ مِنْهُ بَغِيرُ الْقَطْعِ مُشْفِيهَا

وقال آخر :

بَيْضَاءُ أَصْحَكَتِ الظَّلَامَ فَرَاعَهَا * فَبَكَتْ وَأَسْبَلَتِ الدُّمُوعَ بَوَادِرَا
جَفَّتْ دُمُوعُ جُفُونِهَا فَكَأَمَّا * كَسَيْتُ مِنَ الطَّلَعِ النَّضِيدَ ضَفَائِرَا

وقال أبو القاسم المطرّز من أبيات :

وَلِلشُّمُوعِ عِيُونٌ كَمَا نَظَرْتُ * تَظَلَّمَتْ مِنْ يَدَيْهَا أَنْجُمُ الْغَسَقِ
مِنْ كُلِّ مُرْهَقَةِ الْأَعْطَافِ كَالْغُصْنِ الـ * مِمَّيَّادٍ لَكِنَّهُ عَارٍ مِنَ الْوَرَقِ
إِنِّي لَا أُعْجِبُ مِنْهَا وَهِيَ وَادِعَةٌ * تَبَى لِي وَعَيْشَتُهَا مِنْ ضَرْبَةِ الْعُنُقِ

وقال آخر :

جاءت بِجِسْمٍ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ * تَبْكِي وَتَشْكِي الْهَوَى وَتَلْتَهَبُ
كَأَنَّهَا فِي أَكُفِّ حَامِلِهَا * رَمَحَ الْجَيْنِ سِنَانُهُ ذَهَبُ

وقال محمد بن أبي الثبات ، شاعر اليتيمة :

وَمَجْدُولَةٌ مِثْلَ صَدْرِ الْقَنَاءَةِ * تَعَرَّتْ وَبَاطِنُهَا مُكْتَسَبِي
لَهَا مُقْلَةٌ هِيَ رُوحُهَا * وَتَاجٌ عَلَى الرَّأْسِ كَالْبُرْسِ
إِذَا غَاظَلَتْهَا الصَّبَا حَرَّكَتْ * لِسَانًا مِنَ الذَّهَبِ الْأَمْلَسِ
وَتَلْتَجُّ مِنْ حَيْثُ مَا أَلْقَحَتْ * ضِيَاءٌ يُجَلِّي دُجَى الْحِنْدِسِ
فَنَحْنُ مِنَ النُّورِ فِي أَسْعَدِ * وَتِلْكَ مِنَ النَّارِ فِي أُنْحَسِ

وقال آخر :

وَرَشِيقَةٌ بَيْضَاءُ تَطْلُعُ فِي الدُّجَى * صُبْحًا وَتَسْفِي النَّاطِرِينَ بِدَائِهَا
شَابَتْ ذَوَائِبُهَا أَوَانَ شَبَابِهَا * وَأَسْوَدَ مَفْرِقُهَا أَوَانَ فَنَائِهَا
كَالْعَيْنِ فِي طَبَقَاتِهَا وَدُمُوعِهَا * وَبَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا وَضِيَائِهَا

وقال الصاحب بن عباد :

وَشَمْعَةٌ قُدِّمَتْ إِلَيْنَا * تَجْمَعُ أَوْصَافَ كُلِّ صَبٍّ
صُفْرَةَ لَوْنٍ وَذَوْبَ جِسْمٍ * وَفَيْضَ دَمْعٍ وَحَرَّ قَلْبٍ

وقال السري الرفاء :

مَفْتُولَةٌ مَجْدُولَةٌ * تَحْكِي لَنَا قَدَّ الْأَسَلِ
كَأَنَّهَا عُمُرُ الْفَقَى * وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ

ومما ورد في وصفها نثرا .

من رسالة لابن الأثير الجزرى جاء منها :

وكان بين يدي شمعَةٌ تَعْمُ مَجْلِسِي بِالْإِيناسِ ، وَتَغْنِي بِوُجُودِهَا عَنْ كَثْرَةِ الْجُلَاسِ ؛
وكانت الريحُ تَتَلَعَّبُ بِشُعَبِهَا ، وَتَدُورُ عَلَى قُطْبِ لَهَبِهَا ؛ فَطَوْرًا تَقِيمُهُ فَيَصِيرُ أُنْمُلَهُ ،
وَطَوْرًا تُمِيلُهُ فَيَصِيرُ سِلْسِلَهُ ؛ وَتَارَةً تُجَوِّفُهُ فَيَصِيرُ مَدْهَنَهُ ، وَتَارَةً تَجْعَلُهُ ذَا وَرَقَاتٍ فَيَمَثِلُ
سَوَسَنَهُ ؛ وَآوَنَةً تَنْشُرُهُ فَيَبْسُطُ مَنَدِيلًا ، وَآوَنَةً تَلْفُهُ عَلَى رَأْسِهَا فَيَسْتَدِيرُ إِكْلِيلًا .

ومن رسالة أخرى له :

وكانت الريحُ تَتَلَعَّبُ بِلَهَبِهَا لَدَى الْخَادِمِ فَتَشْكَلُهُ أَشْكَالًا ، فَتَارَةً تُبْرِزُهُ نِجْمًا ، وَتَارَةً
تُبْرِزُهُ هِلَالًا ؛ وَلَرُبَّمَا سَطَعَ طَوْرًا كَالْجَلْنَارَةِ فِي تَضَاعِيفِ أَوْرَاقِهَا ، وَطَوْرًا كَالْأَصَابِعِ
فِي أَنْضَامِهَا وَأَفْرَاقِهَا .

§ وقال سيف الدين المشد في الفانوس :

وَكَاثِمًا الْفَانُوسُ فِي غَسَقِ الدُّجَى * دَنَفٌ بَرَاهُ سُقْمُهُ وَسَهَادُهُ
حُنَيْتٌ أَضَالَعُهُ وَرَقٌّ أَدِيمُهُ * وَجَرَتْ مَدَامِعُهُ وَذَابَ فُؤَادُهُ

٢ - ومما قيل في السراج .

من رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال ؛ جاء منها :

عذرا إليك أيُّدُكَ اللهُ ! فَإِنِّي خَطَطْتُ وَالنُّومُ مُغَازِلٌ ، وَالْقُرْآنُ نَازِلٌ ؛ وَالرِّيحُ تَلْعَبُ
بِالسَّرَاجِ ، وَتَصُولُ عَلَيْهِ صَوْلَةُ الْحَجَّاجِ ؛ فَطَوْرًا تَبْرِزُهُ سَنَانًا ، وَتَحْرَكُهُ لِسَانًا ؛ وَآوَنَةً
تَطْوِيهِ جُنَابَهُ ، وَأُخْرَى تَنْشُرُهُ ذُؤَابَهُ ؛ وَتَارَةً تَقِيمُهُ إِبْرَةَ لَهَبٍ ، وَتَعْطِفُهُ بَرَّةَ ذَهَبٍ ؛
وَحِينَ تَقْوَسُهُ حَاجِبُ فَتَاةٍ ، ذَاتُ غَمَزَاتٍ ؛ وَتَسْلُطُهُ عَلَى سَلِيطَةٍ ، وَتَدِيلُهُ عَلَى خَلِيطَةٍ ؛
وَرُبَّمَا نَصَبَتْهُ أُذُنُ جَوَادٍ ، وَمَسَخَتْهُ حَدَقُ جَرَادٍ ؛ وَمَشَقَّتْهُ حُرُوفُ بَرْقٍ ، بِكَفٍّ وَدَقٍّ ؛

وَتَمَّتْ بِسَنَاهِ قَنَدِيلِهِ ، وَأَلْقَتْ عَلَى أَعْطَافِهِ مَنَدِيلَهُ ، فَلَا حَظَّ مِنْهُ لِلْعَيْنِ ، وَلَا هَدَايَةَ فِي الطَّرْسِ لِلْيَدَيْنِ .

٣ - رسالة القنديل والشمعدان .

من إنشاء المولى الفاضل البارع البليغ تاج الدين عبد الباقي بن عبد الحميد اليماني ،
سمعتها من لفظه ، وقرأتها عليه ، وأجاز لي روايتها عنه . وهي الموسومة "بزهري الحنان ،
في المفاخرة بين القنديل والشمعدان" .

ابتدأها بأن قال :

الحمد لله الذي أنار حالك الظلمات ، بأنوار بذر السماء ؛ وحلّى جديدها بعقود النجوم ،
وحرس مشيدها ، بسمّام الرجوم ؛ وجعلها عبرة للاستبصار ، ونزهة للأبصار ؛ غشاؤها
لأزورد مكلل بنضار ، أو أفاحي نجميلة تفتحت فيها أزهار الأزهار ؛ تهدي الساري
بسواريه ، وتزري بالدرر أنوار دراريها ؛ كرع في نهر مجرتها النسران ، ورتع في مراعي
رياضها الفرقدان .

أحمدته على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان ، ولا يؤدّي واجب حقها إنسان ؛ حمدا
يجلب إلى الحامد أنواع الإحسان ، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان .

وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظلمة الوجود ، وأظهر
بظهوره أفعال الركوع والسجود ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله الوافين بالعهود ،
وعلى أصحابه أهل الإفضال والحدود ، صلاة وسلاما دائمين إلى اليوم الموعود !

وبعد فإن فنون الآداب كثيرة الشعوب ، متباينة الأسلوب ؛ طالما تلاعب
الأديب بفنونها بين جدّ ومجون ، وكيف لا والحديث ذو شجون . وكنت بحمد الله
من هوقادر على إبراز ملج الأدب ، وعلى إظهار لطائف لغة العرب ؛ فتمثّل في خاطري
المفاخرة بين الشمعدان والقنديل ، ولا بدّ من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل ؛

لأنهما آلتا نور، ونديما سرور، طالبا مزقا جلباب الدجى بأضوائهما، وحسما مادة
الظلمة بأنوارهما، وطلعا في سماء المجالس بدورا، وأنجلا نور الرياض لما أصدرنا من
جوهرهما نورا . سما كل واحد منهما الى أنه الأصل، وأن بمدحه يحسن الفصل
والوصل، وأنه الجوهرة اليتيمة، والبدره التي ليست لها قيمة، سارت بحاسنه ركائب
الركبان . ونظمت في جيد مجده قلائد العقيان .

فأحببت أن أنظمها في ميدان المناظرة ليبرز كل واحد منهما خصائصه الواضحة،
ويظهر نقائص صاحبه الفاضحة، وليتسنى غارب الاستحقاق بالفضيلة، ويؤكد في تقرير
فضائله الراجحة دليله، مع أنه لا تقبل الدعاوى إلا بالبرهان، ولعمري لقد قيل قديما:
من تحلى بغير ما هو فيه * فضحته شواهد الإمتحان

فأتلع الشمعدان جيد للطاوله، وعرض سمهريه الجيني للناضله . وقال :
« استنت الفصل حتى القرعى » .

لست بنديم الملوك في المجالس، كلاً ولا الروضة الغناء للمجالس ! طالما أهدقت
بي عساكر النظر، ووقفت في استحسانها على رؤية الأبصار، وحملت على الرؤوس
إذا علقت بأذانك، وجليت بكلاء المرهفات إذا أسود وجهك من دخانك .

فنضنض لسان القنديل نضنضة الصل، وأرتفع أرتفاع البازي المطل . وقال :
إن كان نخر كبحالسة السلاطين، فافتخارى بحالسة أهل الدين ! طالما طلعت
في أفق المحراب نجما آزداد علا، وآزدانت الأماكن المقدسة بشموس أنوارى حلا،
جمع شكلى مجموع العناصر، فعلى مثلى تمعد الخناصر، يحسبني الرأى جوهرة العقد
الثمين، إذا رأى أصفرار لونك كصفرة الحزين، ولقد علوتك في المجالس زمانا، ومن
صبر على حر المشقة أرتفع مكانا .

(١) هذا مثل يضرب للذى يتكلم مع من لا ينبغي أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره .

فنظر اليه الشمعدان مُغَضَّبًا، وهم بأن يكون عن جوابه منجًا . وقال :

أين ثمنك من ثمنى ، ومسكنك من مسكنى ! صفائحى صفحات الإبريز ، فلذا سموت
عليك بالتبريز ، تنزه العيون فى حمائل الذهبية ، وتسمر النفوس بيزوغ أنوارى الشمسية ؛
ولا يملكنى إلا من أوطنته السعادة مهادها ، وقربت له الرئاسة جياها ؛ ولقد نفعت
فى الصحة والسقم ، وازدادت قيمتى اذا نقصت فى اقيم ؛ إن انفصمت عراك
فلا تُشعب ، ولا تعاد الى سبك نار فتصب وتقلب ؛ لست من فرسان مناظرى ،
ولا من قرناء مفانرقى .

فالتفت القنديل التفات الضرغام ، وفوق الى قرينه سهام الملام . وقال :

أنت عندى كعالة ، لا محاله ؛ طالك العنقود ، فأبرزت أنواع الحقود ؛ وأين
الثريا من يد المتناول ! أم أين السها من كف المتناول ! تالله إنك فى صرفك بصفرك
مغلوط ! لقد خُصصت بالعلو وخُصصت بالهبوط . ترى باطنى من ظاهرى مشرقا ،
وتخالنى لخزائن الأنوار مطلقا ؛ فحديث سيادتى مُسلسل ، وتاج فضائلى بجواهر العلو
مكمل .

فاحظه الشمعدان بطرف طرفه ، وأرسل فى ميدان المناظرة عنان طرفه . وقال :
إن افتخارك بالعلو غير مفيد ، ومزية اختصاصك به ليس له أبهة مزيد ؛ طالما
علا القتام وانحطت الفرسان ، ومكث الجمر وسما الدخان ؛ ولقد صيرتك كنظر
المشوق حاله ، وكضوء السها ذبالة ؛ وأنت الخلق بما قيل :
* وقلب بلا لب وأذن بلا سمع *

وسلاسلك تشعر بعقلك ، وعلوك ينبئ عن غلو إسقاط كمثلك ؛ عادلته التبر كفة
بكفه ، ووزنته إذ كان فيه خفه ؛ فأصبح لمفاحرى الجليله ، واستمع مناقبى الجميله .
أطارد جيوش الظلماء برمى ، وأمزق أثواب الديحور بصبحى ؛ جمع عاملى بين طلع

النخل ، وحلاوة النحل ؛ يتلو سورة النور لسانى ، ويقوى فى مصادمة عساكر الليل
البهيم جنانى ؛ أسامر الملك خلوه ، ويستجلى من محاسنى أحسن جلوه .

ولله در القائل :

أنظر الى شمعدان شكله عجب * كروضة روضت أزهارها السحب
يطارد الليل ربح فيه من ورق * سنانه لمب من دونه الذهب
فمثل هذه المناقب تُتلى ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجلى .

فأضرم نار تبيينه ، فى أحشاء قرينه . فعندها قال القنديل :

لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك ، لما وقفت فى المناظرة ركائب سيرك ؛ فاشكر
اليـد البيضاء من شمـعك ، وأحرص على معرفة قيمتك ووضعك ؛ وأما افتخارك بتلاوة
سورة النور ، فأنا أحق بها منك إذ محلى الجوامع ، والفرقان فارق بينى وبينك مع أنه
ليس بيننا جامع ؛ ففضيلتى فيه بئنه ، وآية نورى فى سورة النور مبينه ؛ فاقطع مواد
الجماحه ، وأقرأ الآية المشتملة على الزجاجه ؛ يظهر لك من هو الأعلى ، ومن بالافتخار
الأولى ؛ تخالنى درة علقت فى الهواء ، أو كوكبا من بعض كواكب الجوزاء .

ولله در القائل :

قنديلنا فاق بأنواره * نور رياض لم ترل مزهره
ذباله فيه اذا أوقدت * حكمت بحسن الوضع نيؤفوره

لا يحمل الأقداء خاطرى ، ولا يغتم مشاهدى وناظرى ؛ فأنا خلاصة السبك ، والتبر
الذى لا يفتقر الى الحك ؛ اشتقاق اسمك من النحوس ، ومن جرمك تُقام هياكل
الفلوس ، لقد عرّضت نفسك للنيه ، وانعكست عليك مواد الأمنيه ؛ مع أن الحق
أوضح من لبّة الصباح ، وأسطع من ضوء المصباح ؛ والآن غصصت بريقك وخفيت
لوامع بروقك ؛ فهذه الشبهاء والحلبه ، وهذه ميادين المناضلة رجبه .

فغار الشمعدان في الجواب ، وجعل ما أبداه أولاً فصل الخطاب .

فقال القنديل :

لا بد من الإقرار بأن قدحى المعلّى ، وأنى عليك بالتقديم الأولى ، وأن مقامى العالى ، ونورى المتوالى .

فقال الشمعدان :

لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك ، وكونك الكوكب الذرى الذى قصر
عن بلوغك باعُ مثيلك .

بفتح الشمعدان للسلّم ، وترفع عن استيطان مواطن الإثم ؛ وشرع يُبدي شعائر
الخصوع ، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع ؛ وقال :

لولا حمية النفوس ، ما تجملت بمفاخرنا صفحات الطروس ؛ ولولا القال والقيل ،
ما ضمنا معرض التمثيل ؛ ولكن أين صفائك من كدرى ، وأين نظرك من نظرى ؛
خصك الله بنوره ، وذكرك في فرقانه وزبوره .

فعندها تهالت أسارير القنديل ، وتبسم فرحا بالتعظيم والتبجيل . وقال :

حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف ، وإظهار محاسن الأوصاف ؛ ففضلك لا يبارى
ووصفك لا يجارى ؛ يحسبك الرأى خميلة نور تفتحت أزهارها ، وحديقة نرجس أطردت
أنهارها ؛ تُسرّبك النفوس ، وتدار على نضارتك الكؤوس ؛ وإن اللائق بحالنا طى
بساط المنافسة ، وإخماد شرر المقابسة ؛ والاستغفار فيما فرط من كلامنا ، والرجوع
إلى الله فى إصلاح أقوالنا وأفعالنا .

ونقول :

الأصل فيما نقلناه عدمه ، فقد حفى كل واحد منا فى إبراز معايبه قلمه . ونسأل الله
أن تدوم لنا نعمه ، ويتعاهدنا فى المساء والصباح كرمه ! بمنه وجوده وكرمه ! آمين !

القسم الثالث من الفن الأول

في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد
وفيه أربعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

١ - في الليالي والأيام

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "خلق الله الخلق في ظلمة"
ورُوى: في عَمَاءٍ "ثم رش عليهم من نوره".

وهذا يدل على أن الظلمة خلقت قبل النور.

وروى أن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) سئل عن الليل، أكان قبل
أو النهار؟ قال: أرايتم حيث كانت السماوات والأرض رتقا، هل كان بينهما إلا
ظلمة! ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار.

والذي ورد في القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور، بدأ الله (عز وجل)
بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور.

ويروى أن الله (عز وجل) لما خلق السماء والأرض، وقع ظل السماء على الأرض
فأظلمت، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا.

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين: ليلا، ونهارا. فجعل حصّة الليل للقمر،
وحصّة النهار للشمس. فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما، فلم يكن بين الليل والنهار
فرق في الإضاءة.

فلما أراد الله عز وجل خلق النوع الإنساني — وعلم أنه لا غنى له عن حركته للعاش نهارا وسكونه للراحة ليلا — أمر جبريل فأمر جناحه على القمر فمحا نوره . فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلمًا، والنهار مبصرًا .

وروي أيضا أن الله (عز وجل) خلق حجابًا من ظلمة مما يلي المشرق، ووكل به ملكًا يقال له سراهيل . فإذا آنقضت مدة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة . وأستقبل بها المغرب، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعى الشفق . فإذا غاب الشفق، بسط كفه فطبق الدنيا ظلمة . فإذا آنقضت مدة الليل، قبض كفه على الظلمة، إصبعًا بعد إصبع إلى أن يذهب الظلام، حتى تنتقل الشمس من الشرق إلى الغرب . وذلك من أشرط الساعة . والله أعلم !

٢ — ذكر ما قيل في الليل وأقسامه

١٠

الليل طبعي، وشرعي .

أما الطبعي، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلى طلوعها وظهورها . وأما الشرعي، فهو من حين غروبها إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ .

§ والليل ينقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، لها أسماء وضعتها العرب، وهي :

١٥

الشاهد، ثم الغسق، ثم العتمة، ثم الفحمة، ثم الموهن، ثم القطع، ثم الجوشن^(١) ثم العبكة، ثم التبشير، ثم الفجر الأول، ثم الفجر الثاني، ثم المعتري .

هذا ما ذكره ابن النحاس في وصف صناعة الكتاب .

(١) كذا بالأصل، والذي في كتب اللغة بهذا المعنى "المهتكة"، فلعل ما هنا تحريف من الناسخ .

وحكى الثعالبي في فقه اللغة — عن حمزة الأصفهاني، قال — وعليه عهده —
أسماء غير هذه، وهي :
الْجَهْمَةُ، وَالشَّفَقُ، وَالْغَسَقُ، وَالْعَتَمَةُ، وَالسُّدْفَةُ، وَالزَّلَّةُ، وَالزَّلْفَةُ، وَالْبَهْرَةُ،
وَالسَّحَرُ، وَالْفَجَرُ، وَالصُّبْحُ، وَالصَّبَاحُ .

فصل

وقد عُبِّرَ بالليالي عن الأيام، كقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾،
وقوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشِيرٍ﴾ . فعبر عن الأيام بالليالي، لأنَّ كلَّ ليلة
تتضمن يوما .

٣ — ذكر الليالي المشهورة

من الليالي المشهورة :

§ ليلة البراءة . وهي ليلة النصف من شعبان ، قيل سميت بذلك لأنها براءة لمن
يحييها ؛

§ وليلة القدر . والصحيح أنها في مفردات العشر الآخر من شهر رمضان ؛

§ وليلة الغدير . وهي ليلة الثامن عشر من ذي الحجة .

§ وليلة الهريير . وهي ليلة من ليالي صَفِّينَ ، قُتِلَ فيها خَلْقٌ كثير من أصحاب
معاوية (رضي الله عنه) .

(١) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى لا في اللسان ولا في القاموس ولا في مستدرک شارحه . وهذا هو
الذي دعا الثعالبي لجعل العهدة على حمزة الأصفهاني .

§ وليلة الخلعة . وهي ليلة باتها أبو الطمّحان القينيّ عند ديرانية ، فأكل طَفَيْشَلَهَا بلحم الخنزير ، وشرب نمرها ، وزنى بها ، وسرق كساءها .^(١)

§ وليلة النابغة . يُضْرَبُ بها المثل في الخوف .

§ وليلة المتوكل . تضرب مثلاً في موت نتج من سرور . لأنه قُتِلَ في مجلس أنسه ، على ما ذكره في أخباره إن شاء الله تعالى .

٤ - ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الليل

يقال :

أطغى من الليل . أطفل من ليل على نهار . أحيّر من الليل . أستر من الليل .
أظلم من الليل . أئدى من ليلة ماطرة .

ويقال :

الليل أخفى للويل . الليل نهار الأريب . الليل طويل وأنت مُقَمَّر . الليل وأهضام الوادى . الليل أعور (لأنه لا يُبَصِّرُ فيه) .

ويقال :

أأخذ الليل جملاً . شمر ذيلاً ، وأدرع ليلاً . أمر نهار فُضِيَ بليل .

ومن أنصاف الأبيات :

* الليل حُبلى ليس تدري ما تلد *	* ما أقصر الليل على الراقد *
* ما أشبه الليلة بالبارحة *	* وليل المحب بلا آخر *
* إحدى لياليك فهيسى هيسى *	* فإنك كالليل الذى هو مُدركى *

(١) نوع من المرق (قاموس) . وقال ابن الخشاب في تفسير ألفاظ الكتاب المنصوري للرازي مانصه :

طَفَيْشِل (بهذا الضبط) : طعام يتخذ من الحبوب كالباقلى والحمص ونحوهما (عن تكملة المعجمات العربية لدوزى) .

ومن الأبيات :

إِن اللَّيَالِيَّ لَمْ تُحْسِنْ إِلَى أَحَدٍ * إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانِ

وَاللَّيَالِيَّ كَمَا عَاهَدَتْ حَبَالِيَّ * مُقَرَّبَاتٌ يَدْنُ كُلِّ عَجِيبٍ

أَمَّا تَرَى اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * جَارَيْنِ لَا يُقَيَّانَ جَارًا

وقال حميد بن ثور :

وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ * إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَمَنَّى

وقال أبو حية التَّمِيرِيُّ :

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ * تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

— ٥ ذكر ما قيل في وصف الليل وتشبيهه

قد أكثر الشعراء في وصف الليل بالطول والقصر . وذكروا سبب الطول
الهموم وسبب القصر السرور .

ولهذا أشار بعض الشعراء في قوله :

إِنَّ اللَّيْلَ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ * تُطَوَّى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ

فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ * وَطَوَالُهُنَّ مَعَ السَّرُورِ قِصَارُ

وقال آخر :

إِنَّ التَّوَاصِلَ فِي أَيَّامِهِ قَصْرٌ * كَمَا التَّهَاجُرُ فِي أَيَّامِهِ طَوَّلٌ

فَلَيْسَ يَعْرِفُ تَسْمِيدًا وَلَا رَمَدًا * جَفْنُ بَرُوءٍ مِنْ يَهْوَاهُ مَشْغُولٌ

وقال ابن بسّام :

لا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعَى * أَتْ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُورُ
لَيْلٌ كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَزُرْ * طَالَ وَإِنْ زَارَتْ فَلَيْلٌ قَصِيرُ

أصله من قول علي بن الخليل :

(٤٩)

لا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعَى * أَتْ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَعُورُ
لَيْلٌ كَمَا شَاءَتْ قَصِيرٌ إِذَا * جَادَتْ وَإِنْ صَدَّتْ فَلَيْلٌ طَوِيلُ

وقال آخر :

أَحْوَى هَوَى يَسْتَطِيلُ اللَّيْلَ مِنْ سَمَرٍ * وَاللَّيْلُ فِي طُولِهِ جَارٍ عَلَى قَدَرِهِ
لَيْلُ الْهَوَى سَنَةٌ فِي الْهَجَرِ مَدَّتْهُ * لَكِنَّهُ سَنَةٌ فِي الْوَصْلِ مِنْ قِصَرِهِ

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

لَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَغْيِيرًا لِمَا صَنَعْتُ * نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا
فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْتَدَّهَا * وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

٦ - وَأَمَّا مَا وُصِفَ بِهِ مِنَ الطُّوْلِ

قال الخباز :

وَلَيْلٌ كَوَاكِبُهُ لَا تَسِيرُ * وَلَا هُوَ مِنْهَا يُطِيقُ الْبَرَّاحَا
كَيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي طُولِهِ * عَلَى مَنْ يُرَاقِبُ فِيهِ الصَّبَّاحَا

وقال ابن المعتز :

مَالِي أَرَى اللَّيْلَ مُسْبِلًا شَعْرًا * عَنْ غُرَّةِ الصُّبْحِ غَيْرَ مَفْرُوقِ

وقال بشار :

خَلِيلِي مَا بَالُ الدُّجَى لَا يُزْجَحُ * وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ
أَضَلَّ النَّهَارُ الْمُسْتَنِيرَ طَرِيقَهُ * أَمْ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرُحُ

وقال الرِّفَاء :

أَلَا رَبَّ لَيْلٍ بَتُّ أُرْعَى نُجُومَهُ * فَلَمْ أَغْتَمِضْ فِيهِ وَلَا اللَّيْلُ أَغْمَضَا
كَأَنَّ الشُّرْيَا رَاحَةً تُشْبِرُ الدُّجَى * لَتَعْلَمَنَّ طَالَ اللَّيْلُ لِي أَمْ تَعَرَّضَا
عَجِبْتُ لِلَّيْلِ بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ * يُقَاسُ بِشِيرٍ كَيْفَ يُرْجَى لَهُ أَنْقِضَا

وقال محمد بن عاصم :

أَقُولُ وَاللَّيْلُ دُجَى مُسْبِلٌ * وَالْأَنْجَمُ الزُّهْرُ بِهِ مُثَلٌ
يَا طُولَ لَيْلٍ مَا لَهُ آخِرٌ * مِنْكَ وَصَبْحٌ مَا لَهُ أَوَّلٌ

وقال التنوخي :

وَيْلَةَ كَأَنَّهَا قُرْبُ أَمَلٍ * ظَلَامُهَا كَالدَّهْرِ مَا فِيهِ خَلَلٌ
كَأَنَّهَا الْإِصْبَاحُ فِيهَا بَاطِلٌ * أَزْهَقَهُ اللَّهُ بِحَقِّ فَبَطَلٌ
سَاعَاتُهَا أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ النَّوَى * وَلَيْلَةُ الْهَجْرِ وَسَاعَاتُ الْعَدْلِ
مُؤَصَّدَةٌ عَلَى الْوَرَى أَبْوَابُهَا * كَالنَّارِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ دَخَلَ

وقال أبو محمد، عبد الله بن السيد البطليوسي :

تَرَى لَيْلَنَا شَابَتْ نَوَاصِيهِ كِبَرَةً * كَمَا شَبَّ أَوْفَى الْجَوَّ رَوْضَ نَهَارٍ
كَأَنَّ اللَّيَالِي السَّبْعَ فِي الْأَفْقِ جُمَعَتْ * وَلَا فَصْلَ فِيمَا بَيْنَهَا وَبِنَهَارٍ

وقال الشريف البياضي :

أَقُولُ لَصَحْبِي وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا * وَقَدْ رَكَدَتْ فِي بَحْرِ حَنْدِسِهَا غَرْقٍ
أَرَى ثَوْبَ هَذَا اللَّيْلِ لَا يَعْرِفُ الْبَلَى * فَهَلْ أَرَيْنَ لِلصُّبْحِ فِي ذَيْلِهِ فَتَقَا

وقال أيضا :

أقول وللدجى عمرٌ مديدٌ * وآخره يُردُّ الى معادٍ
وقد ضلَّتْ كواكبُه فظَلَّتْ * حيارى ما لها فى الأفقِ هادى
لعلَّ الليلَ مات الصُّبحُ فيه * فلازَمَ بعده لُبْسُ الحدادِ

وقال آخر :

أما لِظلامٍ ليلى من صَباحٍ * أما لِلنَّجمِ فيه من بَرّاجٍ
كأنَّ الأفقَ سُدَّ فليس يُرجى * به نَهْجٌ إلى كُلِّ النواحي
كأنَّ الشَّمسَ قد مُسِخَتْ نُجُومًا * تَسِيرُ مَسِيرَ رُودٍ طِلاجٍ
كأنَّ الصُّبحَ مَهْجُورٌ طريدٌ * كأنَّ الليلَ مات صَرِيعَ راجٍ
كأنَّ بناتِ نَعِشٍ مُتَنِّ حُرْنًا * كأنَّ النَّسرَ مَكْسُورَ الجَنَاحِ

وقال آخر :

يا لَيْلَةً طالَتْ على عاشِقٍ * مُتَظَرِّ للصُّبحِ مِيعادًا
كَادَتْ تَكُونُ الحَوْلُ فى طُولِها * إذا مَضَى أوْلُها عَادا

وقال ابن الرومى :

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الدَّهْرُ طُولًا * قد تَنَاهَى فَلَيْسَ فِيهِ مَزِيدُ
ذِي نُجُومٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ * الشَّيْبُ لَيْسَتْ تَزُولُ لَكِنْ تَزِيدُ

وقال أبو الأحنف :

حَدَّثُونِي عَنِ النَّهَارِ حَدِيثًا * أَوْصِفُوهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا

وقال بشار :

طَالَ هَذَا اللَّيْلُ بَلْ طَالَ السَّهَرُ * وَلَقَدْ أَعْرِفُ لَيْلِي بِالْقَصَرِ

لم يَطْلُ حَتَّى دَهَانِي فِي الْهَوَى * نَاعِمُ الْأَطْرَافِ فَتَّانُ النَّظَرِ
فَكَأَنَّ الْهَجَرَ شَخْصٌ مَائِلٌ * كُلَّمَا أَبْصَرَهُ النَّوْمُ نَقَرَ

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

يَا لَيْلَ وَجِدِ بَنَجِدِ * أَمَا لَطِيفِكَ مَسْرَى
وَمَا لِدَمْعِي طَلَبُ يَقِ * وَأَنْجِمُ الْجَوِّ أَسْرَى
وَقَدْ طَمَأَ بَحْرُ لَيْلٍ * لَمْ يُعْقِبِ الْمَدَّ جَزْرًا
لَا يَعْبُرُ الطَّرْفُ فِيهِ * غَيْرَ الْمَجَرَّةِ جَسْرًا

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

وَلَيْلُ كَأَنَّ الدَّهْرَ أَفْضَى بِعُمُرِهِ * جَمِيعًا إِلَيْهِ فَانْتَهَى فِي ابْتِدَائِهِ
يُحَدِّثُ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا بِطَوْلِهِ * وَلَمْ يَمِضْ مِنْهُ غَيْرُ وَقْتِ عِشَائِهِ

وقال إبراهيم ولد ابن لنكك البصري ، شاعر اليتيمة :

وَلَيْلَةٌ أَرْقَى طَوْلُهَا * فَبَثَّهَا فِي حَيْرَةِ الدَّاهِلِ
كَأَنَّمَا أَشْتَقْتُ لِإِفْرَاطِهَا * فِي طَوْلِهَا مِنْ أَمَلِ الْجَاهِلِ

وقال امرؤ القيس :

وَلَيْلُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ مُرِيحٌ سُدُولُهُ * عَلَى أَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمْطِي بِصُلْبِهِ * وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ يَكْثُ كُلِّ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجِلِي * بِصَبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ * بِأَمْرَاسٍ تَكَّانُ إِلَى صَمٍّ جَنْدَلِ

وقال آخر :

أُرَاقِبُ فِي السَّمَاءِ بَنَاتِ نَعِيشٍ * وَلَوْ أَسْطِيعُ كُنْتُ لَهْنَ حَادِي
كَأَنَّ اللَّيْلَ أَوْثَقَ جَانِبَاهُ * وَأَوْسَطُهُ بِأَمْرَاسٍ شَدَادِ

وقال أنرم بن حميد :

وليل طويل الجانبين قطعته * على كبد والدمع تجري سوا كبه
كوا كبه حسرى عليه كأنها * مقيدة دون المسير كوا كبه

وقال ابن الرقاع :

وكان ليلى حين تغرب شمسها * بسواد آخر مثله موصول
أرعى النجوم إذا تغيب كوكب * أبصرت آخر كالسراج يحول

وقال آخر :

ما لنجوم الليل لا تغرب * كأنها من خلفها تجذب
رواكد ماغار في غربها * ولا بدا من شرقها كوكب

وقال سعيد بن حميد :

ياليل بل يا أبد * أنايم عنك غد
ياليل لو تلقى الذى * ألقى بها أو تجد
قصر من طولك أو * ضعف منك الجلد

وقال سيف الدين المشد :

مات الصباح بليل * أحيته حين عسعس
لو كان فى الدهر صبح * يعيش كان تنفس

٧ - أما ما وُصف به من القصر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العباس :

وليلة إحدى الليالى الزهر * قابلت فيها بدرها بدرى
لم تك غير شفق وفجر * حتى تولت وهى بكر الدهر

وقال الشريف الرضي :

يَالَيْلَةَ كَادَ مِنْ تَقَاصُرها * يَعَثُ فِيهَا الْعِشَاءُ بِالسَّحَرِ

وقال آخر :

يَالَيْلَةَ جَمَعْتَنَا بَعْدَ فُرْقَتِنَا * فَبِتُّ مِنْ صُبْحِهَا لَمَّا بَدَا فِرْقَا

لَمَّا خَلَوْتُ بِأَمَالِي بِهَا قُصِرْتُ * وَكَادَ يَسْبِقُ فِيهَا بَحْرُهَا الْغَسَقَا

وقال آخر :

يَا رَبُّ لَيْلٍ سُرُورِ خِلْتُهُ قِصْرًا * يُعَارِضُ الْبَرْقُ فِي أَفْقِ الدُّجَى بَرَقَا

قَدْ كَادَ يَعَثُ أَوْلَاهُ بِآخِرِهِ * وَكَادَ يَسْبِقُ مِنْهُ بَحْرُهُ الشَّفَقَا

وقال القاضي السعيد بن سناء الملك :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ بَلْ يَا لَيْلَةَ الْعُمَرِ * أَحْسَنْتِ إِلَّا إِلَى الْمَشْتَاكِ فِي الْقِصْرِ

يَا لَيْتَ زَيْدَ بِحُكْمِ الْوَصْلِ فِيكَ لَنَا * مَا طَوَّلَ الْهَجْرُ مِنْ أَيَّامِكَ الْأَنْحَرِ

أَوَلَيْتَ نَجْمِكَ لَمْ تَقْفُلْ رِكَابُهُ * أَوَلَيْتَ صُبْحَكَ لَمْ يَقْدَمْ مِنَ السَّفَرِ

أَوَلَيْتَ لَمْ يَصْفُ فِيكَ الشَّرْقُ مِنْ غَبَشٍ * فَذَلِكَ الصَّفْوُ عِنْدِي غَايَةُ الْكَدَرِ

أَوَلَيْتَ كَلًّا مِنَ الشَّرْقَيْنِ مَا أَبْتَسَمَا * أَوَلَيْتَ كَلًّا مِنَ النَّسْرَيْنِ لَمْ يَطِرْ

أَوَلَيْتَ كُنْتُ كَمَا قَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ * "لَيْلَ الضَّرِيرِ فَصُبْحِي غَيْرُ مُنْتَظَرِ"

أَوَلَيْتَ بَخْرِكَ لَمْ يَنْفَرْ بِهِ رَشْيٌ * أَوَلَيْتَ شَمْسِكَ مَا جَارَتْ عَلَى قَمَرِي

أَوَلَيْتَ قَلْبِي وَطَرَفِي تَحْتَ مَلِكِ يَدِي * فَزِدْتُ فِيهِ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ

أَوَلَيْتَ أَلْقَى حَبِيبِي سَحَرَ مُقْلَتِهِ * عَلَى الْعِشَاءِ فَأَبْقَاهَا بِلَا سَحَرِ

أَوَلَيْتَ كُنْتُ سَأَلْتِيهِ مُسَاعِدَةً * فَكَانَ يَحْبُوكِ بِالتَّكْحِيلِ وَالشَّعَرِ

كَأَنَّهَا حِينَ وَلَّتْ قَمْتُ أَجْدَبُهَا * فَأَنْقَذَ فِي الشَّرْقِ مِنْهَا الثَّوْبُ مِنْ دُبُرِ

لَا مَرْحَبًا بِصَبَاحٍ جَاءَنِي بَدَلًا * مِنْ غُرَّةِ النَّجْمِ أَوْ مِنْ طَلْعَةِ الْقَمَرِ

وقال عبد الله بن المعتز :

يا ليلَةً ما كانَ أط * يَمِها سَوى قِصرِ البقاء
أحييتُها فأمّتها * وطَوَّيتُها طَيَّ الرِّداء
حتى رأيتُ الشَّمسَ تَت * لَو البَدْرَ في أَفُقِ السَّماء
فكانه وكأنَّها * قَدَحانٍ من نَحرٍ وماء

وقال المهلبى :

قد قُصِرَ اللَّيْلُ عِنْدَ الْفِتْنَةِ * كانَّ حادِي الصَّباحِ صَاحَ بِهِ

وقال آخر :

كأنَّما اللَّيْلُ رَاكِبٌ فَرَسًا * مِنْهَزِمًا وَالصَّباحُ في طَلَبِهِ

٨ - أما ما وُصِفَ به من الإِشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسي :

رُبَّ لَيْلٍ عَمَرَتْهُ * فَيَكْ خالٍ من الفِكرِ
كَثُرَتْ حَوْلَهُ الحُجُوجُ * لُ وسارَتْ به الغُرُوجُ

وقال أبو بكر الصنوبري :

يا لَيْلَةً طَلَعَتْ بِأَسْعَدِ طالِيع * تاهَتْ على ضَوْءِ النَّهارِ السَّاطِعِ
بِجَاسِينٍ مَقْرُونَةٍ بِجَاسِينِ * وَبَدَائِعِ مَوْضُوءَةٍ بِبَدَائِعِ
ضَوْءِ الشَّمْعِ وَضَوْءِ وَجْهِكَ مازِجًا * ضَوْءِ الْعُقَارِ وَضَوْءِ بَرَقِ لَامِعِ
فكأنَّما أَلْقَى الدُّجَى جَلْبَابَهُ * وَأَرَاكَ جَلْبَابَ النَّهارِ السَّاطِعِ

٩ - أما ما وُصف به من الظلمة

قال الله عز وجل : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ . فهذه أتم أوصاف الظلمة .

وقال مضر بن ربيعي :

وليل يقول الناس في ظلماته * سواء صحبات العيون وعورها
كان لنا منه بيوتا حصنة * مسوح أعاليها وساج كسورها

وقال أبو تمام :

إليك هتكنا جُح ليل كأنما * قد اكتحلت منه البلاد بإثم

وقال أبو نواس :

أين لي كيف صرت إلى حريمي * وجفن الليل مكتحل بقر

وقال العلوّي الأصفهاني :

ورب ليل باتت عساكره * تحل في الجوّ سود رايات
لامعة فوقها أسنتها * مثل الأزهير وسط روضات

ومن رسالة لأبي عبد الله بن أبي الخصال . جاء منها :

والليل زنجي الأديم ، تبرى النجوم ، قد جالنا ساجه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال
للحظ ، ولا تعارف إلا باللفظ ، ولو نظرت فيه الزرقاء لا كتحت ، ولو خضبت به
الشبية ما نصلت .

(١) جمع مسح بكسر فسكون وهو الكساء يتخذ من الشعر .

١٠ - ومما قيل في تبشير الصباح

قال أبو محمد العلوي :

كَأَنَّ أَخْضَرَ الْجَوْضَرِ مَمْدُودٌ * وَفِيهِ لَيْلٌ لَمْ تُشْنِ بِقُيُوبِ
كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ صُبْحِهِ * سَوَادُ شَبَابٍ فِي بَيَاضِ مَشْيَبِ

وقال أبو علي بن لؤلؤ الكاتب :

رُبَّ فَرْخٍ كَطَلْعَةِ الْبَدْرِ جَلَّى * جُنَحَ لَيْلٍ كَطَلْعَةِ الْهَجْرَانِ
زَارَ فِي حُلَّةِ الْبُرْزَةِ فَوَلَّى اللَّهَ * سِيلُ عَنْهُ فِي حُلَّةِ الْغُرْبَانِ

وقال الخلداني :

وَكَأَنَّما الصُّبْحُ الْمُنِيرُ وَقَدْ بَدَأَ * بَارِزًا أَطَارَ مِنَ الظَّلَامِ غُرَابًا^(١)

وقال النظام الباجي ، من شعراء الحريرة :

فَلَا حَ الصَّبْحُ مَبْتَسِمَ النَّشَايَا * وَطَارَ اللَّيْلُ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ
يَطِيرُ غُرَابٌ أَوْ كَارِ الدِّيَارِي * إِذَا مَا حَلَّ بَارِزُ الصَّبَاحِ

وقال تميم بن المعز :

وَكَأَنَّ الصَّبَاحَ فِي الْأَفْقِ بَارِزٌ * وَالْدُّجَى بَيْنَ مَخْلَبَيْهِ غُرَابٌ

وقال ابن وكيع :

غَرَّدَ الطَّيْرُ فَنَبَّهَ مِنْ نَعَسٍ * وَأَدْرَكَ كَأْسَكَ فَالْعَيْشُ خُلَسَ
سَلَّ سَيْفُ الْفَجْرِ مِنْ غَمْدِ الدُّجَى * وَتَعَرَّى الصَّبْحُ مِنْ ثَوْبِ الْغَلَسِ
وَأَنْجَلَى فِي حُلَّةِ فَضِّيَّةٍ * مَا بَهَا مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ دَنَسَ

(١) الباز : لغة في البازي . (عن الجوهري) ، وآخرنا ذلك لأنه منقول عن كلمة فارسية هي "باز" . وتركبة

"طوغان" وهو نوع من الصقور وأشد الجوارح تكبرا وأضيقها خلقا . يوجد بأرض التركو يؤخذ للصيد .

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْغَرْبَ قَدْ غَصَّ بِالْذُّجَى * وَفِي الشَّرْقِ مِنْ ثَوْبِ الصَّبَاحِ دَلَائِلُ
تَوَهَّمْتُ أَنْ الْغَرْبَ بَحْرٌ أَخُوْضُهُ * وَأَنْ الَّذِي يَبْدُو مِنْ الشَّرْقِ سَاحِلُ

وقال أسعد بن بليطة الأندلسي :

بَرَحْتُ مِمَّنْكَ الذُّجَى كَافُورَةُ السَّحَرِ * فُغَابٌ إِلَّا بَقَايَا مِنْهُ فِي الطَّرَرِ
صَبَحٌ يَفِيضُ وَجَنَحُ اللَّيْلِ مُنْغَمِسٌ * فِيهِ كَمَا غَرِقَ الزَّيْجِيُّ فِي نَهَرِ
قَدْ حَارَ بَيْنَهُمَا فِي بَرْزَخٍ قَرٌّ * يُلُوحُ كَالشَّنْفِ بَيْنَ الْخَدِّ وَالشَّعَرِ

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي :

بُنْنَا كَأَنَّ حِدَادَ اللَّيْلِ شَمَلْتَنَا * حَتَّى بَدَا الصُّبْحُ فِي ثَوْبٍ سَحُولِ
كَأَنَّ لَيْلَتَنَا وَالصُّبْحُ يَتْبَعُهَا * زَنْجِيَّةٌ هَرَبَتْ قُدَّامَ رُومِ

وقال أبو نُوَّاس :

فَقُمْتُ وَاللَّيْلُ يَحْلُوهُ الصَّبَاحُ كَمَا * جَلَا التَّهَسُّمُ عَنْ غُرِّ الثَّنِيَّاتِ

وقال عبد الله بن المعتز :

قَدْ أَغْتَدَى وَاللَّيْلُ فِي جِلْبَابِهِ * كَالْحَبَشِيِّ فَرَّ مِنْ أَصْحَابِهِ
وَالصُّبْحُ قَدْ كَشَّرَ عَنْ أُنْيَابِهِ * كَأَمَّا يَضْحَكُ مِنْ ذَهَابِهِ

وقال السري :

وَشَرَّدَ الصُّبْحُ عَنَّا اللَّيْلَ فَاتَّضَحَّتْ * سَطُورُهُ الْبَيْضُ فِي آيَاتِهِ السُّودِ

وقال أبو فراس :

مَدَدْنَا عَلَيْنَا اللَّيْلَ وَاللَّيْلُ رَاضِعٌ * إِلَى أَنْ تَرَدَّى رَأْسُهُ بِمَشِيبِ
بِحَالِ تَرَدُّ الْحَاسِدِينَ بَغِيْظِهِمْ * وَتَطْرُفُ عَنَّا عَيْنَ كُلِّ رَقِيبِ
إِلَى أَنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ * مَبَادِي نُصُولٍ فِي عِدَارِ خَضِيبِ

وقال عبد الصمد بن بابك، شاعر اليتيمة :

وَأَسْتَهَلَّتْ لِمَصْرَعِ اللَّيْلِ وَرُقْ * ثَاكَلَاتُ حَدَادُهَا التَّطْوِيقُ
فَضَا حَكْتُ شَامِتًا وَكَأَنَّ الصَّبِيحَ جَيْبٌ عَلَى الدَّجَى مَشْقُوقُ

وقال أبو بكر الصنوبري :

وَلَيْسَ كَالرَّفْرِفِ الْمُعَلِّمِ * مُحْفُوفَةِ الظَّلَمَاءِ بِالْأَنْجُمِ
تَعَلَّقَ الْفَجْرُ بِأَرْجَائِهَا * تَعَلَّقَ الْأَشْقَرُ بِالْأُدْهَمِ

وقال السلامي، شاعر اليتيمة :

وَقَدْ خَالَطَ الْفَجْرُ الظَّلَامَ كَمَا آتَقَى * عَلَى رَوْضَةِ خَضِرَاءَ وَرَدٌ وَأُدْهَمُ
وَعَهْدِي بِهَا وَاللَّيْلُ سَاقٍ وَوَضَلْنَا * عُقَارٌ وَفُوهَا الْكَأْسُ أَوْ كَأْسُهَا الْفَمُ
إِلَى أَنْ بُدِرْنَا بِالنَّجُومِ وَغَرِبْنَا * يَفُضُّ عُقُودَ الدَّرِّ وَالشَّرْقُ يَنْظُمُ
وَنَبَّهْتُ فِتْيَانَ الصَّبُوحِ لِلدَّهَةِ * تَلُوحُ كَكَيْنَارٍ يُغْطِيهِ دِرْهَمُ

ومن رسالة للفاضل عبد الرحيم البيسانى، عفا الله عنه . جاء منها :

”فلما قضى الليلُ نَحْبَهُ ، وأرسلَ الصُّبْحُ عَلَى دُهِمِهِ شُهْبَهُ ، شَمَّرَ اللَّيْلُ إِزَارَهُ ،
وَوَضَعَ النُّجُومُ أَوْزَارَهُ ، وَنَزَحَ بِالطَّيْفِ طَارِدًا ، وَظَلَّ وَرَاءَ الصَّبْحِ نَاشِدًا ، وَفَجَّرَ
الْفَجْرُ نَهْرَ النَّهَارِ ، وَأَسْتَرَدَّ الْبَنْفَسِجَ وَأَهْدَى الْبَهَارَ ، فَوَاكِبَ الْكَوَاكِبِ مِنْهَزِمَةً ،
وَعَرَّةَ الْفَجْرِ كَغَرَّةِ مَوْلَايَ مَبْتَسِمَةً “ .

ومما يدخل في هذا الباب ، ما حكي أن بعض الأعراب تزوج بأربع نسوة ،
فأراد أن يختبر عقولهن .

فقال لإحدهن : إذا دنا الصبحُ فأيقظيني . فلما دنا الصبح ، قالت له : قم ، فقد دنا الصبح ؛ فقال : وما يُدريك ؟ قالت : غارت صغار النجوم وبقي أحسنها وأضوؤها وأكبرها ، وبرَدَ الحُلَّى على جسدي ، وأستلذذتُ بأستنشاق النسيم . فقال لها : إن في ذلك دليلا .

ثم بات عند الثانية ، فقال لها مثل مقالته للأولى . فلما دنا الصبح ، أيقظته . فقال لها : وما يُدريك ؟ قالت : ضحكت السماء من جوانبها ، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحها ، وعيني تطالبي بإغفاءة الصباح . فقال لها : إن في ذلك دليلا .

ثم بات عند الثالثة ، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح ، أيقظته . فقال لها : وما يدريك ؟ فقالت : لم يبق طائر إلا غرَدَ ، ولا ملبوس إلا برَدَ ، وقد صار للطَّرف في الليل مجال ، وليس ذلك إلا من دنو الصباح . فقال لها : إن في ذلك لدليلا .

ثم بات عند الرابعة ، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح ، قالت له : قم ، فقد دنا الصبح ! فقال لها : وما يُدريك ؟ قالت : أثبت نفسي النوم ، وطلبتني في بالسواك وأحتجت إلى الوضوء . فقال لها : أنت طالق ، فإنك أفبجهن وصفا .

١١ - ذكر ما قيل في النهار

والنهار طبعي ، وشرعي .

فالطبعي زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق ، وإلى غيابه في المغرب . والشرعي ما بين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس .

والفجر بخران : الفجر الكاذب ، وهو بياض مستطيل ، والفجر الصادق بياض

مستطير .

§ وقد وضعت العربُ لساعات النهار أسماء، كما وضعت لساعات الليل، وهي :
 الذُرُورُ، ثم البُرُوعُ، ثم الضُّحَى، ثم الغَزَالَةُ، ثم الهاجِرَةُ، ثم الزَّوَالُ، ثم الدُّلُوكُ،
 ثم العَصْرُ، ثم الأَصِيلُ، ثم الصَّبُوبُ، ثم الحُدُورُ، ثم الغُرُوبُ .

ويقال أيضا: البُكُورُ، ثم الشُّرُوقُ، ثم الإِشْرَاقُ، ثم الرَّادُّ، ثم الضُّحَى، ثم المَتَوَعُ،
 ثم الهاجِرَةُ، ثم الأَصِيلُ، ثم العَصْرُ، ثم الطَّفْلُ، ثم العِشِيُّ، ثم الغُرُوبُ .
 ذكر ذلك معا أبو جعفر النحاس .

وحكى الثعالبي في كتاب فقه اللغة — عن حمزة بن الحسن — قال : وعليه عهدتها :
 الشُّرُوقُ، ثم البُكُورُ، ثم الغُدُوةُ، ثم الضُّحَى، ثم الهاجِرَةُ، ثم الظَّهيرةُ، ثم الرِّوَّاحُ،
 ثم العَصْرُ، ثم القَصْرُ، ثم الأَصِيلُ، ثم العِشِيُّ، ثم الغُرُوبُ .

§ وكانت العرب العاربة تُسمَّى أيام الأسبوع بأسماءٍ غير هذه التي نتداولها الناس
 في وقتنا هذا، وهي :

”أَوَّلُ“ وهو الأحد ”أَهْوَنُ“ وهو الاثنان ”جُبَارُ“ وهو الثلاثاء ”دُبَارُ“
 وهو الأربعاء ”مُؤْنِسُ“ وهو الخميس ”عَرُوبَةُ“ وهو الجمعة ”شِيَارُ“ وهو السبت .
 نظم ذلك شاعرٌ فقال :

أؤمِّلُ أن أَعِيشَ وأنَّ يومِي * لأَوَّلَ أو لأَهْوَنَ أو جُبَارَ
 أو التَّالِي دُبَارَ وإن أَقْتَهُ * فمُؤْنِسَ أو عَرُوبَةَ أو شِيَارَ



١٢ — ذكر الأيام التي خُصَّتْ بالذكر

منها :

§ الأيام المعلومات . وهي عشر ذى الحجة، وفيها يوم التَّروية . وهو اليوم

الثامن سمي بذلك لأنهم يرتوون من الماء لما بعده، لأن مَنى لا ماء بها .

§ الأيام المعدودات . هي أيام التشريق . وعدتها ثلاثة بعد يوم النحر .
سميت بذلك لأنهم كانوا يشترقون فيها لحوم الأضاحي في الشمس والهواء ، لئلا تفسد .
§ أيام العجوز . ويقال فيها الأيام الأعجاز ، وهي سبعة : أولها السادس والعشرون
من شباط من شهور الروم ، والخامس من برمهات من شهور القبط . وهي لا تخلو
من رياح وبرد . وسميت بالعجوز لأنها في عجز الشتاء .

§ يوم عبيد ، مثل لليوم المنحوس . كان عبيد بن الأبرص قد تصدّى للنعمان
في يوم يؤسه الذي لا يفلح من لقيه فيه ، كما لا ينجب من لقيه في يوم نعيمه ،
قال أبو تمام :

من بعد ما ظنّ الأعادي أنه * سيكون لي يوم كيوم عبيد

§ يوم المطر . يضرب مثلاً في كفر النعمة . وذلك أنه حكى عن المعتمد على الله
أبن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجه الرميكية في مجلس أنس ، والزمان فيه قيظ .
فتمنّت عليه غيا ومطرا . فأمر بجامر العنبر والعود والند ، حتى انعقد الدخان
كالضباب ، ثم أمر برش صحن المجلس بماء الورد من أعلاه . وحصل بينهما بعد
ذلك نبوة ، فقالت له : ما رأيت معك يوم سرور قط ! فقال لها : ولا يوم المطر !
صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله : إنهن يكفرن العشير .

§ يوم عاشوراء . وهو اليوم العاشر من المحرم . ورد في فضله أحاديث كثيرة .
ويقال إن نوحا (عليه السلام) ركب السفينة فيه فصامه وأمر من معه بصومه .
وصح أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما هاجر ، رأى اليهود في المدينة صياما
في هذا اليوم . فسألهم عنه ، فقالوا : هذا اليوم الذي نبى الله تعالى فيه موسى

(٢) راجع رواية أوفي في نفح الطيب للقرى وقد سماه "يوم الطين" . (ص ٢٨٧ ج ١ طبعة ليدن)

وبنى إسرائيل، وأغرق فرعون وقومه . فنتجن نصومه شكراً لله تعالى . فقال (عليه الصلاة والسلام) : أنا أحقُّ بأخي موسى . ثم أمر منادياً فنادى : من أكل فليُمسِكْ ، ومن لم يأكل فليَصُمْ !

وفيه قُتِلَ الحسين بن عليٍّ (رضي الله عنهما) .

١٣ - ذكر أيام أصحاب الملل الثلاث

§ يوم الجمعة ، للمسلمين . وسبب اتّخاذهم له أنه اليوم الذي أتمَّ الله فيه خلق العالم ، وأوجد فيه أبا البشر آدم (عليه السلام) وفيه قُبِضَ ، وفيه يكون النفخُ في الصُّور ، وفيه الصَّعْقُ ، وفيه الساعة التي لا يُصادفُها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له .

١٠ § يوم السبت ، لليهود . وحُجَّتْهم على اتّخاذهم له أن الله تعالى أبتدأ خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، وأن يوم السبت يومٌ فراغٌ ودَعَةٌ . ولهم في ذلك أقوال كثيرة .

§ يوم الأحد ، للنصارى . ذكر في سبب اتّخاذهم له أن الله (سبحانه وتعالى) أبتدأ فيه بخلق الأشياء .

١٤ - ذكر ما يتِمَثَّلُ به مما فيه ذكر النهار

١٥

يقال :

أطولُّ من يوم الفراق . أضواءٌ من نهارٍ . أنورُ من وِضِّ النهار .

ويقال :

يَذْهَبُ يَوْمُ الْهَمِّ وَلَا يُشْعِرُ بِهِ . مَا يَوْمُ حَلِيمَةِ بَيْسٍ . مَنْ يَرِ يَوْمًا يَرِ بِهِ . يَوْمُ السُّرُورِ قَصِيرٌ . الْيَوْمَ نَحْمَرُ وَغَدًا أَمْرٌ . الْيَوْمَ عَيْشٌ وَغَدًا خَيْشٌ . الْيَوْمَ فَعَلْتُ وَغَدًا ثَوَابٌ .
٢٠ يَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا . لِكُلِّ قَوْمٍ يَوْمٌ .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يَحْنَى على الناس النهارُ * وفي الليالي والأيام مُعْتَبَرٌ ^(١) *

ومن الأبيات :

وَأَلْهُ مَا أَمَكْنَ يَوْمَ صَالِحٍ * إِنَّ يَوْمَ الشَّرِّ لَا كَانَ عَتِيدَ

وقال آخر :

أُمَامَ لَا أَدْرِ وَإِنْ سَأَلْتِ * مَا نُسُكُ يَوْمِ جُمُعَةٍ مِنْ سَبْتِ

وقال آخر :

وَأَيَّامُ الشُّرُورِ مُقَصَّصَاتٌ * وَأَيَّامُ الشُّرُورِ تَطِيرُ طَيْرًا

وقال آخر :

لَا تَحْمِلَنَّ هُمُومَ أَيَّامٍ عَلَى * يَوْمٍ لَعَلَّكَ أَنْ تُقَصِّرَ عَنْ غَدِهِ

٥

١٠

١٥ - ذكر شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر ، يصفه بالقصر :

وَيَوْمَ سُرُورٍ قَدْ تَكَمَّلَ وَصْفُهُ * سِوَى قِصْرِ لَا عَيْبَ فِيهِ سِوَاهُ
وَعَهْدِي بِهِ كَالرَّخِ طَوْلًا فَعِنْدَمَا * هَزَزَنَاهُ لِلَّهِوَ أَلْتَقَى طَرْفَاهُ



وقال آخر :

١٥

يَا بَنِي مَنْ نَعِمْتُ مِنْهُ بِيَوْمٍ * لَمْ يَزَلْ لِلشُّرُورِ فِيهِ مُؤْمٌ
يَوْمٌ هُوَ قَدْ التَقَى طَرْفَاهُ * فَكَأَنَّ الْعَشَى فِيهِ غُدُوٌّ

وقال آخر :

لَمْ يَنْتَشِرْ فَلَقُ الْإِصْبَاحِ مِنْ قِصْرِ * فِيهِ إِلَى أَنْ طَوَاهُ فَيَلْقُ الْغَسَقُ

(١) لعل أصله : « وفي الأيام » فحذفت كلمة « في » من النسخ .

٢٠

ولم يكن مُلتَقَى جَفَنِي أَحَى زَمِيدٍ * كَلْتَقِي طَرَفِيهِ الصُّبْحِ وَالشَّفَقِ
وما تناولتُ فيه الرُّطْلَ مُضْطَبِحًا * إِلَّا أَعَادَتْهُ مِنِّي كَفٌّ مُغْتَبِقِ
وقال آخر :

لِلَّهِ يَوْمٌ مَّسْرَةٌ * أَضَوًّا وَأَقْصَرُ مِنْ دُبَالَةٍ
لَمَّا نَصَبْنَا لِلْمَنَى * فِيهِ بِأَشْرَاكِ حِبَالَةٍ
طَارَ النَّهَارُ مُرَوَّعًا * فِيهِ وَأَجْفَلَتِ الْغَزَالَةُ

وقال آخر :

حُثَّ الْكُؤُوسَ فَذَا يَوْمٌ بِهِ قِصْرٌ * وَمَا بِهِ مِنْ تَمَامِ الْحُسْنِ تَقْصِيرُ
صَحْوٌ وَغَيْمٌ يَرُوقُ الطَّرْفَ حُسْنُهُمَا * فَالْصَّحْوُ فَيُرْوِجُ وَالْغَيْمُ بُلُورُ

وقال آخر :

وَيَوْمَ تَكُنَى الْغَانِيَاتِ سَلْبَتُهُ * حُلَى الرَّبَا حَتَّى آتَتْهُ وَهُوَ عَاطِلُ
سَبَقَتْ إِلَيْهِ الشَّمْسُ وَالشَّمْسُ غَضَّةٌ * وَصَبَغُ الدَّجَى مِنْ مَفْرِقِ الْفَجْرِ نَاصِلُ

*
*

ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسي :

اليومُ يومٌ بَكَتْ أَمْطَارُهُ، وَضَحِكَتْ أَزْهَارُهُ، وَتَقَنَعَتْ شَمْسُهُ، وَتَعَطَّرَ نَسِيمُهُ،
وَعِنْدَنَا بَلْبَلٌ هَزَنَجٌ، وَسَاقٍ غَنَجٌ، وَسُلَافَتَانِ : سُلَافَةُ إِخْوَانٍ وَسُلَافَةُ دِنَانٍ، قَدْ
تَشَاكَلْنَا فِي الطَّبَاعِ، وَأَزْدَدَ وَجْتَنَا فِي إِثَارَةِ السَّرُورِ . فَأَحْرِقْ إِلَيْنَا سُرَادِقَ الدَّجَنِ تَجِدْ
مَرَأَى لَمْ يَحْسَنْ إِلَّا لَكَ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِكَ .

ومن كلامه أيضا :

لَمْ نَلْتَقِ مِنْذَ عَرِينَا مَرْكَبَ اللَّهِو، وَأَخْلَيْنَا رُبْعَ الْأَنْسِ، وَقَصَصْنَا جَنَاحَ الطَّرَبِ،
وَعَبَسْنَا فِي وَجْهِهِ اللَّذَاتِ . فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ نَخِفَّ إِلَى مَجْلِسٍ قَدْ تُسِخَتْ فِيهِ الرِّيحُ

بالدواوين، والمجامر بالمخابر، والأطباق، بالأوراق، وتنازع المدام، بتنازع الكلام؛
وآستماع الأوتار، باستماع الأخبار؛ وسجع البلايل، بسجع الرسائل؛ كان أشخذ
لذهنك، وأرشد لرأيك .

١٦ - ذكر شيء مما وصفت به الآلات

الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهل هذا الفن لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلون بها
على معرفة ما مضى من ذلك وما بقي، ولتحرير المواقيت: كالاصطرلاب، والطرجهارة
والبنكام .

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى
١٠ ما تقف عليه .

١ - فأما الاصطرلاب وما قيل فيه ،

فقال أبو طالب عبد السلام المأموني :

وشبيه بالشَّمْسِ يَسْتَرِقُ الْأَنْدُ * وَارَ مِنْ نُورِ جِرْمِهَا فِي خَفَاءِ
فَتَرَاهُ أَدْرَى وَأَعْلَمَ مِنْهَا * وَهَوَى الْأَرْضَ، بِالَّذِي فِي السَّمَاءِ

وقال أيضا :

وَعَالَمٌ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ مَا * سَمِعَ وَلَا قَلْبٍ وَلَا نَاضِرِ
يُقَابِلُ الشَّمْسَ فَيَأْتِي بِمَا * ضَمَّنَهَا مِنْ خَبَرٍ حَاضِرِ
كَأَنَّهَا نَاجَتْهُ لَمَّا بَدَا * لِعَيْنِهَا بِالْفِكْرِ وَالْخَاطِرِ
وَأَلْهَمَتْهُ عِلْمَ مَا يَحْتَرِي * عَلَيْهِ صَدْرُ الْفَلَكَ الدَّائِرِ

وقال أبو إسحاق الصابى ، وقد أهداه فى مهرجان إلى مخدمه :
 أَهْدَى إِلَيْكَ بَنُو الْأَمَالِ وَاجْتَهَدُوا * فى مَهْرَجَانٍ جَدِيدٍ أَنْتَ تُبْلِيهِ
 لَكِنَّ عَبْدَكَ إِبْرَاهِيمَ ، حِينَ رَأَى * سَمَوْ قَدْرَكَ عَنْ شَيْءٍ يُسَامِيهِ
 لَمْ يَرْضَ بِالْأَرْضِ يُهْدِيهَا إِلَيْكَ فَقَدْ * أَهْدَى لَكَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى بِمَا فِيهِ
 وقال أبو الصلت أُمَيَّةُ بن عبد العزيز :

أَفْضَلُ مَا اسْتَصَحَبَ النَّبِيلَ فَلَا * يُعَدَّلُ بِهِ فى الْمَقَامِ وَالسَّفَرِ
 حَرَمٌ إِذَا مَا أَلْتَمَسْتَ قِيَمَتَهُ * جَلَّ عَنْ التَّبَرُّ وَهُوَ مِنْ صُفْرِ
 مُخْتَصَرٌ وَهُوَ إِذْ تُفْتَشُّهُ * عَنْ مَلِجِ الْعِلْمِ غَيْرُ مُخْتَصِرٍ
 ذُو مُقَالَةٍ تَسْتَنِيرُ مَا رَمَقَتْ * عَنْ صَائِبِ اللَّحْظِ صَادِقِ النَّظَرِ
 تَحْمِلُهُ وَهُوَ حَامِلٌ فَلَكَا * لَوْ لَمْ يُدَرْ بِالْبَنَانِ لَمْ يُدَرْ
 مَسْكَنُهُ الْأَرْضُ وَهُوَ يُنْبِئُنَا * عَنْ جُلِّ مَا فى السَّمَاءِ مِنْ خَبَرٍ
 أَبْدَعَهُ رَبٌّ فِكْرَهُ بَعْدَتْ * فى اللَّطِيفِ عَنْ أَنْ تُقَاسَ بِالْفِكْرِ
 فَاسْتَوْجَبَ الشُّكْرَ وَالثَّنَاءَ بِهِ * مِنْ كُلِّ ذَى فَطْنَةٍ مِنَ الْبَشَرِ
 فَهُوَ لِذَى اللَّبِّ شَاهِدٌ عَجَبٌ * عَلَى اخْتِلَافِ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ

وكتب أبو الفرج البغاء يصف أصرطلابا أهداه فقال :

آثَرْتُكَ — أَيْدِكَ اللَّهُ — بِيَرْهَانَ الْحِكْمَةِ وَنَسَبَهَا ، وَمِدَارِ الْفَلَسَفَةِ وَقَطَبِهَا ، وَمُرْشِدِ الْفِكْرِ
 وَمَنَارِهِ ، وَمِيزَانِ الْحُسْنِ وَمِيعَارِهِ ، وَنَافِيِ الشُّكِّ وَمُزِيلِهِ ، وَشَاهِدِ الْأَثَرِ وَدَلِيلِهِ ، مَصْوَورِ
 الْحِكْمَةِ وَمُمَثِّلِهَا ، وَمُقَسِّمِ الْبُرُوجِ وَمَعْدِلِهَا ، وَمَوْقِفِ النُّجُومِ وَمُسِيرِهَا ، وَجَامِعِ الْأَقَالِمِ
 وَمُدَبِّرِهَا ، مَرَاةِ الْحَبْكِ ، وَصُورَةِ الْفَلَكَ ، وَأَمِينِ الْكَوَاكِبِ ، وَحَدِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ،
 مِمَّا آخَرَعْتَ الْعُقُولَ تَسْطِيحَهُ ، وَأَتَقَنَ الْحِسَابَ تَصْحِيحَهُ ، وَتَمَارَتِ الْفِطْنُ
 فى تَرْتِيبِهِ ، وَأَصْطَلَحَتِ الْحِكْمَاءُ عَلَى تَرْكِيبِهِ ، فَأَوْضَحْتَ بِالتَّقَشُّصِ تَقْسِيمَهُ ، وَأَبَانْتَ بِالْكِتَابَةِ

رُسومَه ؛ إلى أن شافهنَا بالارتِفاع على بعد مسافته ، وحصرَ متفرقَ الأمور في خرقَ
عضادته ؛ وأحتوى على قُطْرَي الشَّمال والجنُوب ، وأطلع باللفظ على خفِيَّات
الغيوب ؛ الملقب بالاصطرلاب ، الفاصل بين الخطأ والصواب .

وقال أبو نصر الكاتب فيه :

قطبُ الزمن ومِدارُه ، وميزانُ الفلك ومِيارُه ؛ وأساسُ الحكمة وموضوعها ،
وتفصيلُ الفطنة ومجموعُها ؛ الناطقُ في صمته ، الموفى على نعتِه ؛ مظهرُ السِّر المكنون ،
المخبر بما كان وما يكون ؛ ذو شكلٍ مقمر مستدير ، ولونٍ مشمس مستنير ؛ ومنطقة
محيطة بأجزائه ، وخطوط معدلة على أعضائه ؛ وكتابة مطبقة بتدويره ، ورموز بأثمة
بضميره ؛ متقابل الأهداف ، متكامل الأوصاف ؛ بحجرة مسكونة ، وصفائح مصونة
وقد موموق ، وباب مطروق ؛ للعلم فتحة ورتاجه ، وعليه طريقه ومنهاجه ؛ إذا
أنتصب قال غمد ، وإذا أضطجع عي فلم يُفد ؛ صُفْرَى الانتساب ، ذهبي
الإهاب ؛ يخترق الأنوار من نقابه ، ويستخدم الشَّمْس في حسابه ؛ يجمع الشرق
والغرب في صفحته ، ويستتره الحامل في راحته ؛ رافعه ينظر من تحته ، وأخباره
تسند عن حرته .

٢ - ومما قيل في طَرْجَهارة :

قال أبو الفتح كُشاجم يصفها :

رُوحٌ من الماء في جِسمٍ من الصُّفْرِ * مؤلَّفٌ بلطيف الحِسِّ والفِكرِ
له على الظَّهر أجفانٌ مَحَجَّرَةٌ * ومُقَلَّةٌ دَمْعُها جارٍ على قَدَرِ
تُنشأ له حَرَكَاتٌ في أسافِلِه * كأنها حَرَكَاتُ الماءِ في الشَّجَرِ
وفي أعاليه حُسَابٌ مُفَصَّلَةٌ * للناظرينَ بلا ذَهْنٍ ولا نَظَرِ

(١) هي من الآلات التي تعرف بها الساعات . ولهم آلات أخرى في هذا المعنى مثل صندوق الساعات ،
دبة الساعات ، الرخامة ، المكحلة ، اللوح (أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٢٣٥ طبع ليدن) .

إذا بكى دار في أحشائه فلَكَ * خافي المسير وإن لم ييك لم يدِر
 ومُخرج لك بالأجزاء أطفها * من النهار وقوس الليل في السحر
 مترجم عن مواقيت يُخبرنا * عنها فيوجد فيها صادق الخبر
 تُقضى به الخمس في وقت الوجوب وإن * غطى على الشمس أو غطى على القمر
 وإن سهرت لأسباب تُورقني * عرفت مقدار ما ألقى من السهر
 حدد كل ميقات تحيره * ذوو التخير للأسباب والسفر

الباب الثاني

من القسم الثالث من الفن الأول في الشهور والأعوام

- ١٠ نذكر في هذا الباب الشهور العربية، وأشتاقها، والشهور العجمية، ودخول بعضها في بعض، والسنين القمرية والشمسية، والنسب ومعناه، وما يجري هذا المجرى، مما لحناه أثناء المطالعة بعون الله تعالى وقدرته . وإياه أسأل التوفيق بكرمه ومته ! .

١ - ذكر الشهور وما قيل فيها

- الشهر إما طبيعي، وإما أصطلاحي .
 ١٥ فالطبيعي هو مدة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى .
 وقال آخرون : هو عود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأول .
 وأما الأصطلاحي، فهو مدة قطع الشمس مقدار برج من بروج الفلك . وذلك ثلاثون يوماً، وثلاث عشر يوم بالتقريب . وهذا مذهب الروم، والسريان، والفُرس والقبط . والله سبحانه وتعالى أعلم !

٥٧

٢ - ذكر الأشهر العربية

وما يختص بها من القول

والأشهر العربية قسمان : قسم غير مستعمل ، وهو الذى وضعته العرب العاربة ؛ وقسم مستعمل ، وهو الذى وضعته العرب المستعربة . وكلا القسمين موضوع على الأشهر القمرية .

§ فأما القسم غير المستعمل ، فهو أسماء كانت العرب العاربة أصطاحوا عليها ، وهى : مؤتمر ، ناجر ، خوان ، صوان (ويقال فيه بضان) ، رثنى ، أيدة ، الأصم ، عادل ، ناطل ، واغل ، ورنة ، برك .

وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة . والذى ذكرناه منها هو المشهور ،

ويدل عليه قول الشاعر :

بمؤتمِرٍ وناجرٍ آبتدأنا * وبالخوانٍ يتبعه البضانُ
ورثنى ثم أيدةً تليه * تعودُ أصمَّ صمَّ به السنانُ
وعادله وناطله جميعاً * وواغله فهم غرر حسانُ
وورنةً بعدها بركٌ فتمت * شهورُ الحول يعقدها البنانُ

§ وأما القسم المستعمل فهو هذه الأسماء المشهورة :

المحرم ، صفر ، الربيعان ، الجماديان ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة .

قيل : وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت فى كل

شهر ، فسمى الشهر بها عند ابتداء الوضع . فسموا المحرم محزماً لأنهم أغاروا فيه

فلم ينجحوا ، فحزموه القتال فيه ، فسموه محزماً . وسموا صفرًا لصفر بيوتهم فيه منهم

عند خروجهم إلى الغارات . وقيل : لأنهم كانوا يُغيرون على الصُفريّة، وهي بلاد .
 وشهرا ربيع لأنهم كانوا يُخَصِّبون فيهما بما أصابوا في صفر، والربيع : الخُصب .
 والجُماديان من جَمَدِ الماء، لأن الوقت الذي سُمي فيه بهذه التسمية كان الماء جامدا
 فيه لبرده . ورجب : لتعظيمهم له . والترجيب : التعظيم . وقيل : لأنه وسطُ السنة فهو
 مشتق من الرواجب، وهي أنامل الأصبع الوسطى . وقيل : إن العود رجب النبات
 فيه أى أخرجه، فسمى بذلك . وكذلك تشعب العود في الشهر الذي يليه، فسمى
 شعبان . وقيل : سُمي بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسُمي رمضان، أى شهر الحَرّ .
 مشتق من الرمضاء . وشوّال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت، أو من شال يشول
 إذا ارتفع . وذو القعدة لعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم . وذو الحجة
 لأن الحج آتفق فيه، فسمى به .

١٠

ويقال : إن أول من سماها بهذه الأسماء، كلاب بن مرة .

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حُرُم، ثلاثة سَرَد، وهي ذو القعدة، وذو الحجة،
 والمحرم، وواحد فرد، وهو رجب .

هذا ما رواه الأصمعيّ عن العرب في ترتيب الأشهر الحرم . واختار غيره أن الواحد
 الفرد هو المحرم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، لتكون الأربعة الأشهر في سنة
 واحدة . وهذا مرويّ عن ابن عباس رضي الله عنهما .

١٥

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة، وهي : شهرا ربيع،
 وشهر رجب، وشهر رمضان .

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها .

٣ - وأما شهور اليهود

فأسمائها :

تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول .

٤ - وأما الشهور العجمية

فإنها شمسية . وهي أقسام، بحسب الأمم التي تنسب إليهم .

§ فمنها الشهور القبطية، وتنسب لدقلطيانوس . وكل شهر منها ثلاثون يوما .

وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيسا في آخر شهر منها، وهي :

توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمها، برمودة، بشنس، بؤونة،

أبيب، مسرى .

وأول توت يكون النوروز . وفي أول يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهي

أربعون يوما باردة تؤذن بالشتاء . وفي الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهي

أيام حارة تؤذن بالصيف .

§ ومنها شهور السريان والروم . وهما متفقان في العدد والدخول . والسريانيون

ينسبون شهورهم لأغسطس^(١)، وهو قيصر . وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين،

ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها . وفيها يقول الكيزاني :

شهور الروم ألوان * زيادات ونقصان

فتشريهم الثاني * وأيلول ونيسان

(١) هو القيصر الروماني المشهور، نقل عن اللاتينية Augustus . ولكن العرب حينما عربوا الشهر

المعروف باسمه آكتفوا بقولهم أغشت (August) للتمييز بين اللغتين، وأما نحن في هذه الأيام فقد تركنا

هذا الفارق ونقول في تسمية هذا الشهر «أغسطس» أيضا .

ثلاثون ثلاثون * سواءً وحِيرانُ
وأشباطُ ثمانٍ بعد * مد عشرين له شانُ

والسبعة التي تركها، كل شهر منها يزيد يوما .

- ووضع لها بعض المغاربة ضابطا، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها في أربع كلمات، وهى : "فاز رجلٌ ختمَ بحج" . وجمعها آخر في مثل ذلك فقال : "غاب عنك زيدٌ فج" . فما كان معجبا فهو أحد وثلاثون يوما، وما كان مهملا فهو ثلاثون، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون .

- وأول سنة السريان تشرين الأول . ودخوله رابع بابه، ويوافق أكتوبر من شهر الروم، وهو أحد وثلاثون يوما، ثم تشرين الثانى، ودخوله فى الخامس من هاتور، ويوافقهُ نومبر من ^(١)شهور الروم، وهو ثلاثون يوما، ثم كانون الأول، ودخوله فى الخامس من كيهك، ويوافقهُ دجنبر من ^(٢)شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما، ثم كانون الثانى، ودخوله فى السادس من طوبه، ويوافقهُ ينير من ^(٣)شهور الروم، وهو أول سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوما، ثم شباط، ودخوله فى السابع من أمشير، ويوافقهُ فبراير من ^(٤)شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يوما وربع يوم، ثم آذار، ودخوله فى الخامس من برمها، ويوافقهُ مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما، ثم نيسان، ودخوله فى السادس من برمودة، ويوافقهُ أبريل من شهور الروم، وهو

(١) Novembre . ونقول فى مصر الآن نوفمبر .

(٢) Décembre . ونقول فى مصر الآن ديسمبر .

(٣) Janvier . ونقول فى مصر الآن يناير . (وقد كان عربيه المرحوم رفاعه بك بقوله : "ينويه")

غير أن هذا الاصطلاح لم يعمل به .

(٤) Février . ونقول فى مصر الآن فبراير (مع الإشباع) .

ثلاثون يوما؛ ثم أيّار، ودخوله في السادس من بشنس، ويوافقه ماية من شهر
الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم حزيران، ودخوله في السابع من يؤونة، ويوافقه
يونيه من شهر الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم تموز، ودخوله في السابع من أبيب،
ويوافقه يوليه من شهر الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم آب، ودخوله في الثامن
من مسرى، ويوافقه أغشت^(١) من شهر الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم أيلول
ودخوله في الرابع من توت، ويوافقه ستنبر^(٢) من شهر الروم، وهو ثلاثون يوما.



§ ونظم بعض الشعراء أرجوزة في مداخلة الشهور، فقال :

وإن حَفِظْتَ أَشْهُرَ الشُّرَيَّانِ * وَكُنْتَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى بَيَانِ
وَرُمْتَ مِنْهَا عَمَلَ الْمَنَازِلِ * فَإِنَّهَا مَعْلُومَةُ التَّدَاخِلِ
أَيُّوْلُ يُبْدُو رَابِعًا مِنْ تُوتِ * هَذَا بِحَكْمِ النَّظَرِ الْمَشْبُوتِ
وَهَكَذَا تُشْرِينُ وَهُوَ الْأَوَّلُ * مِنْ بَابَةِ أَرْبَعَةِ تَكْمِلِ
أَوَّلُ تُشْرِينِ الْأَخِيرِ يَدْخُلُ * وَمِنْ هَتُورِ خَمْسَةِ يَارْجُلِ
أَوَّلُ كَانُونِ وَأَعْنَى الْأَوَّلَا * وَخَامِسُ مِنْ كَيْهَكَ تَعَدَّلَا
أَوَّلُ كَانُونِ الْأَخِيرِ سَادِسُ * مِنْ طُوبَةِ فِيهَا يَقْيِسُ الْقَائِسُ
وَمِنْ شَبَاطِ أَوَّلُ يُوَافِي * سَابِعُ أَمْشِيرِ بِلَا خِلَافِ
أَوَّلُ آذَارِ حَسَابُ صَادِقُ * مِنْ بَرْمَهَاتِ خَامِسَا يُوَافِقُ
بَرْمُودَةُ سَادِسُهُ وَأَوَّلُ * نَيْسَانَ وَفَقِيَ لَيْسَ عَنْهُ مَعْدَلُ

(١) أنظر حاشية رقم (١) من صفحة ١٥٣

(٢) نقول الآن في مصر "سبتمبر" مجازاة للنطق الفرنسي الحديث September . على أنهم يقولون
"ست" عند ما يريدون السبعة Sept بإهمال الباء، فإذا أرادوا السبعين لفظوا بالباء .

أول أيّار بهـير ليس * يوافق السادس من بشنس
 بؤونة وافق منه سابعه * أول حزيران لما يتابعه
 أول تموز على الترتيب * يدخل في السابع من أيب
 أول آب ثامن من مسرى * العلم بالمرء اللبيب أخرى
 وقال بعض الشعراء في مثل ذلك :

مى تشأ معرفة التداخل * من أول الشهور في المنازل
 فعدّ من توت بلا تطويل * أربعة فهي ابتداء أيلول
 وبابة كذلك من تشرين * الأول السابق في السنين
 والخامس المعدود من هاتور * أول تشرينهم الأخير
 أول كانون بغير دلسه * إذا نقصت من كيهك خمسة
 وطوبة إن مرّ منه ستة * أذاك كانون الأخير بقتة
 ومن شباط أول يوافق * سابع أمشير حساب صادق
 أول آذار إذا جعلته * لبرمهاث خامساً وجدته
 أول نيسان لدى التجريد * السادس المعدود من برمود
 ومثله أيّار مع بشنس * واحدة مقرونة بخمس
 أما حزيران فيحسبونه * من أول السابع من بؤونه
 كذلك السابع من أيب * أول تموز بلا تكذيب
 أول آب عند من يحصل * ثامن مسرى ذاك ما لا يجهل

*
*

٢٠ وأما شهور الفرس فهي موافقة لشهور القبط في العدد. لأن كل شهر منها ثلاثون
 يوماً، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء،

ويسمونها الاندركاه . ولكل يوم من أيام الشهر اسم خاص ، يزعمون أنه اسم ملك
من الملائكة موكل به . فأسماء المشهور منها : ^(١) فروردین ماه (وهو رأس سنتهم) ،
أردبهشت ماه ، خرداد ماه ، تیر ماه ، مرداد ماه ، شهر ماه ، مهر ماه ، آبان ماه ،
آذر ماه ، دی ماه ، بهمن ماه ، اسفندار مد ماه . ويعنون بقولهم "ماه" القمر .



المثل — قول بعض الشعراء :

شهورٌ ينقضين وما شعرنا * بأنصافٍ لهنّ ولا سرارٍ

٥ — ذكر ما يختص بالسنة من القول

وما جاء من اختلاف الأمم في ابتدائها وانتهائها ، والفرق بين السنة والعام

§ أما الفرق بين السنة والعام ، فإنهم يقولون "سنة جدب" و"عام خصب" . قال ١٠

الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ . وقال تعالى :

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعِصُرُونَ﴾ .

والصحيح أنهما آسمان موضوعان على مسمى واحد . قال الله تعالى : ﴿فَلَيْتَ

فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ .

§ والسنة طبيعية ، وأصطلاحية . ١٥

فالطبيعية قمرية ، وأولها استهلال القمر في غرة المحرم ، وانسلاخها بسراره

في ذى الحجة . وهي اثنا عشر شهرا ، وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما

ونخمس وسدس يوم تقريبا ، ويتم من هذا الخمس والسادس في ثلاث سنين يوم ،

(١) مقتضى عبارته أن ما سيذكره هو من أسماء الأيام ، والواقع أنها أسماء الشهور عند الفرس .

(٢) في الأصل : "أفريدون ماه" .

فتصير السنة في الثالثة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما . ويبقى شيء يتم منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف في السنة يوم واحد إلى أن يبقى الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة . وتسمى تلك السنين كبأس العرب .

وأما السنة الاصطلاحية فإنها شمسية ، وعدد أيامها عند سائر الأمم ثلثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربع يوم . فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمان يوم وخمسا من خمس يوم .

ويقال : إنهم كانوا في صدر الإسلام يسقطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة عربية سنة ، ويسمونها الأزدلاف . لأن كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . وذلك لتجرزهم من الوقوع في النسيء الذي أخبر الله عز وجل أنه زيادة في الكفر . وهذا الأزدلاف هو الذي نسميه في عصرنا هذا بين كتاب التصرف " التحويل " . لأننا نحول السنة الخراجية إلى الهلالية ، ولا يكون ذلك إلا بأمر السلطان .

§ وسنة العالم — على ما آتفق عليه المنجمون — هي من حين حلول الشمس رأس الحمل ، وهو الاعتدال الربيعي . ومنهم من يجعل أولها من حين حلول الشمس رأس الميزان ، وهو الاعتدال الخريفي .

§ وأبتداء سنة القبط قطع الشمس اثنتي عشرة درجة من السنبلة ، وأبتدءوا بفعل ذلك في زمن أغسطس ، وهو قيصر الأول على ما ذكره أصحاب الزيجات .

§ وأما الفرس ، فأول سنتهم عند حلول الشمس أول نقطة من الحمل ^(١) .

§ وأما السريانيون ، فأول سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ست عشرة درجة .

(١) وهذا اليوم هو عيد نيروزهم إلى الآن .

٦ — ذكر النسيء ومذهب العرب فيه

يقال إن عمرو بن لُحَيٍّ، وهو خُزاعة — ويقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعي — هو أول من نَسَأَ الشهور، وبحر البحيرة، وسَيَّب السائبة، وجعل الوصيلة، والحامى. وهو أول من دعا الناس إلى عبادة هُبَل، قدم به معه من هيت.

ومعنى النسيء أنهم يُنَسُّونَ المحرم إلى صفر، ورجب إلى شعبان.

وكان جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، وكانوا يتحرَّجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبجحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام، حرَّموا مكانه شهرا من أشهر الحَلِّ، ويقولون: نُسِيَ الشهر.

وحكى ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أول من نَسَأَ الشهور على العرب، وأحلَّ منها ما أحلَّ، وحرَّم ما حرَّم، القَلَمَسُ. وهو حذيفة بن قَظِيم بن عامر بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ابنه قلع، ثم قام بعد قلع ابنه أمية، ثم قام بعد أمية ابنه عوف، ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، وقال بأعلى صوته: «اللهم إني لا أخاف ولا أعاف^(١)، ولا مرد لما قضيت! اللهم إني أحللت شهر كذا (ويذكر شهرا من الأشهر الحرم، وقع اتفاقهم على شئ الغارات فيه) وأنسأته إلى

العام القابل (أى أخرت تحريره) وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواق!

وكانوا يحلون ما أحلَّ، ويحرمون ما حرَّم.

(١) فى اللسان: "أنا الذى لا أعاب ولا أجاب ولا يردلى قضاء".

وفي ذلك يقول عمير بن قيس بن جندل الطَّعَانُ، من أبيات يفتخر :

أَلَسْنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعَدٍّ * شُهُورَ الْحِلِّ نَجْعُلُهَا حَرَامًا

وحكى السهيلي في كتابه المترجم "بالروض الأنف" أن نسيء العرب كان على

ضريين : أحدهما تأخير المحترم إلى صفر لحاجاتهم إلى شتّ الغارات وطلب الثَّارِ،

والثاني تأخير الحج عن وقته تحرياً منهم للسنة الشمسية . فكانوا يؤخرونه في كل عام

أحد عشر يوماً حتى يدور الدور في ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته . فلما كانت

السنة التاسعة من الهجرة، حج بالناس أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فوافق حجه

في ذى القعدة، ثم حج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في العام القابل فوافق عود

الحج إلى وقته في ذى الحجة كما وضع أولاً . فلما قضى رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) حجه، خطب فكان مما قال في خطبته (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّ الزَّمَانَ

قد آسَدار كهَيْئَتِهِ يوم خلق الله السموات والأرض" . يعنى أن الحج قد عاد في ذى الحجة .

٧ - ذكر السنين التي يضرب بها المثل

يُضْرَبُ الْمَثَلُ :

§ بعام الجراد . كان سنة ثمان من الهجرة .

§ عام الحزن . وهى السنة التى مات فيها أبو طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم)

وخديجة (رضى الله عنها) وهى سنة عشر من الهجرة، وكان موتها بعده بثلاثة أيام

وقيل بسبعة .

§ عام الرمادة . كان سنة ثمانى عشرة من الهجرة، فى خلافة عمر بن الخطاب

(رضى الله عنه) . أصاب الناس فيه قحطٌ حتى صارت وجوههم فى لون الرماد

(١) كذا فى لسان العرب وشرح القاموس مادة نساء وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦ طبع بولاق .

وفى الأصل : "وعمر" .

من الجوع . وقيل : كانت الريح تَسْفِي ترابا كالرَّمَادِ لشدّة يَبْس الأرض ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في "التاريخ" .

§ عام الرّءاف . كان سنة أربع وعشرين من الهجرة ، سمي بذلك لكثرة ما أصاب الناس فيه من الرّءاف .

§ عام الجماعة . كان سنة أربعين من الهجرة . فيه سلّم الحسن بن عليّ (رضي الله عنهما) الخلافة لمعاوية ، فاجتمعت الكلمة فيه .

§ عام الجُحاف . كان سنة ثمانين من الهجرة ، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الجمول .

§ عام الفقهاء . وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة . فيها مات عليّ بن الحسين زين العابدين ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رضي الله عنهم) وسعيد بن المسيّب ، وعروة بن الزبير ، وعطاء بن يسار ، وسعيد بن زيد بن ثابت . وفيه قتل الحجاج بن يوسف الثقفيّ سعيد بن جبيرة .

§ سُنَيَاتُ خَالِد . يُضْرَبُ بها المثلُ في الجذب . وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبي مطير . كان قد تولّى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى القحط فيها حتّى أجلى أهل البوادي .

§ سنة عشر ومائة . مات فيها قرينان في الزهد : الحسن البصريّ ومحمد بن سيرين ، وقرينان في الشعر : جرير والفرزدق .

§ سنة ست وخمسين وثلثمائة . مات فيها جماعة من الملوك ، وهم : شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان ، ومعز الدولة بن بويه ، وكافور الإخشيد صاحب مصر ، ويقفور ملك الروم ، وأبو عليّ محمد بن إلياس صاحب كرمان ، وسيف الدولة ابن حمدان ممدوح المتنبّي ، والحسن بن فيروزان صاحب أذربيجان .

الباب الثالث

من القسم الثالث من القرن الأول

١ - في الفصول وأزميتها

وفصول السنة أربعة : الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء . ولكل فصل

منها ثلاثة بروج، وثلاثة أشهر، وسبع منازل، ومواقفه من الطبائع الأربع .

١ - فأما فصل الربيع ، وهو عند العرب الصيف ، فطبعه حار رطب .

ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل، والثور، والجوزاء . وهذه البروج عندهم تدل

على الحركة . وله من السن الطفولية والحداثة، ومن الرياح الجنوب، ومن الساعات

الأولى والثانية والثالثة، ومن القوى القوة الجاذبة، ومن الأخلاط الدم، ومن الكواكب

القمر والزهرة، ومن المنازل بعض الفرغ المقدم والفرغ المؤخر، والرشاء، والسرطان،

والبطين، والثريا، والدبران، وبعض الحقعة . وعدد أيامه أربعة وتسعون يوما .

وحلول الشمس في الثاني عشر من آذار، ويوافق مارس من شهور الروم،

وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط، وفي العشرين من آسفندارماه من

شهور الفرس . وإذا حلت الشمس برج الحمل، اعتدل الليل والنهار، وصار كل

واحد منهما أثنتي عشرة ساعة . ثم يأخذ النهار في الزيادة، والليل في النقصان .

وفي هذا الفصل تحرك الطبائع، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء . فيطلع النبات

وتزهى الأشجار وتورق، ويهيج الحيوان للسفاد، وتذوب الثلوج، وتنبع العيون،

وتسيل الأودية .

(١) أى برج الحمل الذى هو أول فصل الربيع .

ذكر ما قيل في وصف فصل الربيع وتشبيهه نظماً ونثراً .

فمن ذلك ما قاله الصنوبري :

ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا * جاء الربيع أذاك النور والنور
فالأرض يا قوته والجو أولوة * والنبت فيروزج والماء بلور

وقال آخر :

أشرب هنينا قد أذاك زمان * متعطر مهلل نشوان
فالأرض وشى والنسيم معنبر * والماء راح والطيور قيان

وقال الشعالي :

أظن الربيع العام قد جاء زائراً * ففي الشمس بزاً وفي الريح عطاراً
وما العيش إلا أن تواجه وجهه * وتقضي بين الوشي والمسك أوطاراً

وقال آخر :

وفصل فصل الربيع الرياض * عقوداً ورصع منها حلياً
وفاخر بالأرض أفق السماء * فلي الثرى بنجوم الثريا

وقال الحسن بن وهب :

طلعت أوائل للربيع فبشّرت * نور الرياض بمجدة وشباب
وغد السحاب يكاد يسحب في الثرى * أذبال أنعم حالك الجلباب
فترى السماء إذا أجده ربابها * فكأنما التحفت جناح غراب
وترى الغصون إذا الرياح تناوحت * ملتفة كتعانق الأحباب

وقال بعض فضلاء أصفهان في وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد

الأصفهان في الخريدة :

أما بعد . فإن الزمان جَسَدٌ وفصلُ الربيع رُوحه ، وسرَّ حكمة إلهية وبه كَشَفُهُ
ووضوحه ؛ وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه ، ومنهل جَمٌّ وهو نَميره وصافيه ؛ ودَوَحَه
خَصْرَةٌ وهو يَنْعُها وجَنَاهَا ، وألفاظ مجموعة وهو نَتيجَتها ومعناها ؛ فمن لم يَسْتَهْوَ طَبَاعَه
نَسِيمُ هَوَاهُ ، ولم يَدِرْكَ شِفَاءَ دَائِهِ في صَفَاءِ دَوَائِهِ ؛ لم يَذُقْ لِطْعَمِ حَيَاتِهِ نَفْعًا ، ولم يَجِدْ
لِخَفْضِ حَظِّهِ من أَيَّامِهِ رَفْعًا .

٢ - وأما فصل الصيف ، فإن طبيعته الحرارة واليبس ، ودخوله عند حلول
الشمس برج السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشباب ؛ ومن الياح الصبا ؛
ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ؛ ومن القوى القوة الماسكة ؛ ومن
الأخلاق المِرَّة الصغراء ؛ ومن الكواكب المِترِخ ، والشمس ؛ ومن المنازل بعض
الهُقْعَة ، والهُنْعة ، والذراع ، والنَّثْرَة والطَّرْف والجَبْهَة (وهي أربعة عشر يومًا) والخَرَائِن
وبعض الصَّرْفَة . وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران . وعدد
أيامه ثلاثة وتسعون يومًا ، ويوافقُه نَيَر من شهور الروم ؛ وفي العشرين من بؤونة ، وإذا
حلت الشمس برج السرطان ، أخذ الليل في الزيادة ، والنهار في النقصان . والله أعلم .

١٥ ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظماً ونثراً
فمن ذلك ما قاله ذو الرمة :

وَهَاجِرَةٌ حَرَّهَا وَأَقِيدَ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي
تَلَوُّدُ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَاؤُهَا * لِيَاذَ الْغَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ
وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ حِرَابُؤُهَا * كَمَا تَسْجُدُ الْقَسُ لِلرَّاهِبِ

٢٠ (١) كذا في الأصل الفتوغرافي والمعروف أن شهر يناير من الشهور الشمسية وهو يقع في قلب الشتاء .
دائماً والظاهر أن النسخ حرف كلمة يناير عن يونية الذي يوافق حزيران .

وقال مسكين الدارمي :

وهاجرة ظَلَّتْ كَأَنَّ طِبَاءَهَا * إِذَا مَا اتَّقَمَتْ بِالْقُرُونِ سُبُودُ
تَلَوْدُ شُؤْبٍ مِنَ الشَّمْسِ فَوْقَهَا * كَمَا لَازَ مِنْ حَرِّ السِّنَانِ طَرِيدُ

وقال ابن الفقيسي :

فِي زَمَانٍ يَشْوِي الْوُجُوهُ حَرًّا * وَيُذِيبُ الْجُسُومَ لَوْ كُنَّ صَخْرًا
لَا تَطِيرُ النَّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَفَتْ شَمْسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرًا
وَيَوِّدُ الْغُصْنُ النَّضِيرُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَعَرَّى

وقال أيضا :

يَالَيْلَةَ بَتُّ بِهَا سَاهِدًا * مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَفَرَطِ الْأَوَارِ
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرَمٌ * لَوْ أَنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي أَسْتَبَارُ
وَكَيْفَ لَا أُحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاؤُهَا بِالشَّهْبِ تَرْمِي الْجَمَارُ

وقال آخر :

وَيَوْمَ سُمُومٍ خَلْتُ أَنَّ نَسِيمَهُ * ذَوَاتُ سُمُومٍ لِلْقُلُوبِ لَوَادِعُ
ظَلَلْتُ بِهِ أَشْكُو مُكَابِدَةَ الْهَوَى * فَكُوزِي مَلَانٍ وَمَائِي فَارِعُ

وقال محمد بن أبي الثياب، شاعر اليتيمة :

وَهَاجِرَةٌ تَشْوِي الْوُجُوهُ كَأَنَّهَا * إِذَا لَفَحَتْ خَدَيَّ نَارُ تَوَهَّجِ
وَمَاءُ كُلِّ زَيْتٍ مِلْحٌ كَأَنَّهُ * يُوَجِدِي يَغْلِي أَوْ يَهْجُرُكَ يَمْزُجُ

وقال الثعالبي :

رَبِّ يَوْمٍ هَوَاؤُهُ يَتَلَطَّى * فَيَحَاكِي فُؤَادَ صَبٍّ مُنِيمِ
قُلْتُ إِذْ صَبَّحْتُ حَرَّ وَجْهِهِ * ”رَبَّنَا أَصْرَفَ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ“

ومما وصف به من النثر قول بعضهم :

أَوْقَدَتِ الظَّهِيرَةُ نَارَهَا ، وَأَذَكَّتْ أَوَارَهَا ، فَأَذَابَتْ دِمَاجَ الضَّبِّ ، وَأَلْهَبَتْ قَلْبَ الصَّبِّ ، هَاجِرَةً كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ الْعُشَّاقِ ، إِذَا أَشْتَعَلَتْ بَنِيرَانَ الْفِرَاقِ ، حَرَّ تَهْرُبُ لَهُ الْحِرَاءُ مِنَ الشَّمْسِ ، وَتَسْتَجِيرُ بِمَتْرَاكِ الرَّمْسِ ، لَا يَطِيبُ مَعَهُ عَيْشٌ ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ سِرْجٌ وَلَا خَيْشٌ ، فَهُوَ كَقَلْبِ الْمَهْجُورِ ، أَوْ كَالْتَنُورِ الْمَسْجُورِ .

(٢) — وَأَمَّا فَصْلُ الْخَرِيفِ — فَإِنْ طَبَعَهُ بَارِدٌ يَابَسَ ، وَدَخُولُهُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْمِيزَانِ وَالْعَقْرَبِ وَالْقَوْسِ .

وهذه البروج تدل على الحركة ؛ وله من السنِّ الكُهولة ؛ ومن الرياح الشَّمال ؛ ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة ؛ ومن القوى القوة الهاضمة ؛ ومن الأخلاط المِرَّة السَّوداء ؛ ومن الكواكب زُحَلٌ ؛ ومن المنازل بعض الصَّرفة والعَوَاء والسَّمَكَ والغَفَرُ والزُّبَانِيَّانِ والقلب وبعض الشولة ؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما ؛ ويكون حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول ، ويوافقهِ سبتمبر من شهور الروم ، وفي الثامن عشر من توت .

وفي هذا الفصل يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتُصْرَمُ الثُّمَارُ ، ويغير وجه الأرض ، ويصفقر ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الهوام ، وتنجحر الحشرات ، وتطلب الطير المواضع الدَّفْئَةَ ، وتصير الدنيا كأنها كهلة مُدْبِرَةٌ .

ويقال : فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين .

والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصف فصل الخريف وتشبيهه نظما ونثرا .

(١) هكذا بالأصل وفي صبح الأعشى تلج .

فمن ذلك ما قاله الصنوبري، عفا الله عنه :

ما قضى في الربيع حق المسرا * ت مضيع زمانه في الخريف
نحن منه على تلقى شتاء * يوجب القصف أوداع مصيف
في قميص من الزمان رقيق * ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء منه خوفا إذا ما * لمسته يد النسيم الضعيف

وقال عبد الله بن المعتز :

طاب شرب الصبوح في أيلول * برد الظل في الضحى والأصيل
وخبث جمرة الهواجر عنا * وأسترحتنا من النهار الطويل
ونخرجنا من السموم إلى بر * د نسيم وطيب ظل ظليل
وشمال تبشر الأرض بالقط * كذيل الغلالة المبلول
فكأننا نزداد قربا إلى الجنة * في كل شارق وأصيل
ووجوه البقاع تنتظر الغي * ت أنتظار المحب رد الرسوب
تبتغي غلة لتعمل روضا * بكثير من الحيا أو قليل

وقال آخر :

اشرب على طيب الزمان فقد حدا * بالصيف من أيلول أسرع حاد
وأثمتنا بالليل برد نسيمه * فارتاحت الأرواح في الأجساد
وإفالك بالأنباء قدام الحيا * فالأرض للأطيار في استعداد
كم في صمائر تربها من روضة * بمسيل ماء أو قرارة واد
تبدؤ إذا جاد السحاب بقطره * فكأنما كانا على ميعاد

وقال آخر :

لا تصغ للوم إن اللوم تضليل * واشرب فني الشرب لا حزن تحليل

فقد مضى القيظ وأحتثت رواجه^(١) * وطابت الراح لما آل أيلول
وليس في الأرض نبت يشكي رمدا * إلا ونظره بالطلل مكحول
وقال آخر يذمه :

خذ بالتدثر في الخريف فإنه * مستوبل ونسيمه خطاف
يجري مع الأيام جرى نفاقها * لصديقها "ومن الصديق يخاف"
ومما وصف به من النثر :

قال أبو إسحاق الصابي يصفه :

الخريف أحص فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتدالين، المتوسطين
بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زيتها، وأطلقت
السماء حوافل أنوائها، وتأذنت بانسكاب مائها، وصارت الموارد، كمتون المبرارد،
صفاء من كدرها، وتهذباً عن عكرها، وأطرادا مع نفحات الهواء، وحركات الريح
الشجواء، واكتست الماشية وبرها القشيب، والطائر ريشه العجيب .

وقال ابن شبل :

كل ما يظهر في الربيع نواره، ففي الخريف تُجنى ثماره، فهو الحاجب أمامه،
والمطرق قدامه .

وقال ضياء الدين بن الأثير الجزري عن الخريف يفتخر على فصل الربيع :
أنا الذي أتى بذهاب السموم، وإياب الغيوم، واعتصار بنات الكروم، وتكاثر ألوان
المشروب والمطعم، وفي يترقق صفاء الأنهار، فتشبه القوابل بالأبحار، وأيامي

(١) "وأحتثت" بالخاء المهملة من حث الدابة سافها بعنف . وفي الأصل : "وأجتثت" بالجيم

المعجمة والسياق يقتضي ما أثبتناه .

هى الذهبيات وتلك نسبة كريمة النِّجَاز ؛ ومن ثمراتى ما لا تزال أمهاته حوامل ،
وأوراقه نواضر وغيرها ذوابل ، وقد شبه بالمصابيح وشبهت أغصانه بالسلاسل .

ولقد أنصف من قال :

مَحَاسِنُ لِلْخَرِيفِ يَهْنُ فَخَرٌ * عَلَى زَمَنِ الرَّبِيعِ وَأَيُّ فَخْرٍ
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يُرَاقِبُ تَرْحَهُ وَعَقِيبَ حَرٍّ

٤ - وأما فصل الشتاء، فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس
رأس الجدى والدلو والحوت .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشيوخوخة ؛ ومن الرياح الدبور ؛
ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة ؛ ومن القوى القوة الدافعة ؛
ومن الأخلاط البلغم ؛ ومن الكواكب المشترى وعطارد ؛ ومن المنازل بعض الشولة
والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعد وسعد الأخبية وبعض
الفرغ المقدم ؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما .

ويكون حلول الشمس برأس الجدى فى الثالث عشر من كانون الأول ، ويوافقه
دجنبر من شهور الروم ؛ وفى السابع عشر من كيهك من شهور القبط . وإذا حلت
الشمس ببرج الجدى يشتد البرد ، ويخشن الهواء ويتساقط ورق الشجر ، وتبحر
الحيوانات ، وتضعف قوى الأبدان ، وتكثر الأنواء ، ويظلم الجو ، وتصير الدنيا كأنها
عجوز هريمة قد دنا منها الموت .

وروى عن عليّ (رضى الله عنه) أنه قال : ”توقّوا البرد فى أوّله ، وتلقّوه فى آخره ،
فإنه يفعل فى الأبدان كفعله فى الأشجار : أوّله يُحْرِقُ ، وآخره يُورِقُ“ .

ذكر ما قيل في وصف فصل الشتاء وتشبيهه .

فمن ذلك ما قاله شاعر الحماسة :

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ فِي ظِلْمَائِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يُلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ الدَّنْبَا

وقال ابن حكيم البغدادي :

الْبَسَ إِذْ قَدِمَ الشَّتَاءُ بَرُودًا * وَأَفْرَشَ عَلَى رَغْمِ الْحَصِيرِ لُبُودًا
الرِّيقُ فِي اللَّهَوَاتِ أَصْبَحَ جَامِدًا * وَالْدَّمْعُ فِي الْأَمَاقِ صَارَ بَرُودًا
وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كُوسِكَ فِي الْهَوَا * عَادَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودًا
وَتَرَى عَلَى بَرْدِ الْمِيَاهِ طُيُورَهَا * تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّقُودَا
يَا صَاحِبَ الْعُودَيْنِ لَا تُهْمِلْهُمَا * أَوْ قَدْ لَنَا عُودًا وَحَرَّكَ عُودَا

وقال آخر :

وَيَوْمُنَا أَرْوَاهُ قَرَّةً * تُحْمَشُ الْأَبْدَانُ مِنْ قُرْصَهَا
يَوْمَ تَوَدُّ الشَّمْسُ مِنْ بَرِّهِ * لَوْ جَرَّتِ النَّارُ إِلَى قُرْصَهَا

وقال عبد الله بن المعتز :

قَدْ مَنَعَ الْمَاءُ مِنَ الْلَيْسِ * وَأَمَكَّنَ الْجَمْرُ مِنَ الْمَسِ
فَلَيْسَ تَلْقَى غَيْرَ ذِي رِعْدَةٍ * وَمُسْلِمٌ يَسْجُدُ لِلشَّمْسِ

وقال آخر :

لَيْسَ عِنْدِي مِنْ آلَةِ الْبَرْدِ إِلَّا * حُسْنُ صَبْرِي وَرِعْدَتِي وَقُنُوعِي
فَكَأَنِّي لِشِدَّةِ الْبَرْدِ هَرٌّ * يَرْقُبُ الشَّمْسَ فِي أَوَانِ الطُّلُوعِ

وقال ابن سكرة الهاشمي ، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

قِيلَ مَا أَعَدَدْتَ لِلْبَرِّ * دِ وَقَدْ جَاءَ لِشِدَّةِ
قُلْتُ دُرَاعَةَ بَرِّ * تَحْتَهَا جِبَّةُ رِعْدَةٍ

وقال أبو سعيد الخزومي :

إذا كُنْتُ في بلدةٍ نازلاً * وحَلَّ الشَّتَاءُ حُلُولَ الْمُقِيمِ
فلا تَبْرُزَنَّ إلى أن تَرَى * من الصَّحْوِ يوماً صحیح الأديمِ
فكم زَلَقَةً في حَوَاشِي الطريق * تَرُدُّ الشَّيَابَ يَخْزِي عَظِيمِ
وَكَمْ مِنْ لُثْمٍ غَدَاً رَاكِباً * يُحِبُّ البَلَاءَ لِمَاشِ كَرِيمِ

وقال الصاحب بن عباد :

أَتَى رَكِبْتُ فَكُفَّ الأَرْضُ كَاتِبَةً * على ثِيَابِي سُطُوراً ليس تَتَكَمَّ
فالأَرْضُ مُحَبَّرَةٌ وَالْخَبْرُ مِنْ لَثِقِ * وَالطَّرْسُ ثَوْبِي وَيَمْنِي الْأَشْهَبُ الْقَلَمُ

وقال أبو علي كاتب بكر شاعر اليتيمة :

يا بلدةً أَسْلَمَنِي بَرْدَهَا * وَبَرْدٌ مَنْ يَسْكُنُهَا لِلْقَلَقِ
لَا يَسْلَمُ الشَّاتِي بِهَا مِنْ أَدَى * مِنْ لَثِقٍ أَوْ دَمَقٍ أَوْ زَلَقِ

ومما وصف به نثرا قول بعضهم :

إذا حَلَّتِ الشَّمْسُ بَرَجَ الجَدَى مَدَّ الشَّتَاءُ رِوَاقَهُ، وَحَلَّ نِطَاقَهُ، وَدَبَّتْ عَقَارِبُ
الْبَرْدِ لَأْسَبَهُ : وَنَفَعَ مَذْخُورُ الْكَسْبِ كَأَسْبَهُ .

ومن رسالة لأبن أبي الخصال، جاء منها :

الكلب قد صاغ خيشومه ذنبه، وأنكر البيت وطنبه؛ وآلتوى التواء الحباب،
وأستدار أستدارة الغراب؛ وجلده الجليد، وضربه الضرب وصعد أنفاسه الصعيد؛
فجاء مباح، ولا هير يره ولا نباح؛ والنار كالصديق، أو كالرحيق؛ كلاهما عنقاء
مغرب، أو نجم مغرب .

وقال بعضهم :

برد يُغير الألوان ، وينشف الأبدان ، ويجمد الريق في الأشداق ، والدَّمع في الآماق ، بردٌ حال بين الكلب وهريه ، والأسد وزئيره ، والطير وصفيه ، والماء وخريره .

وقيل لبعضهم : أى البرد أشد ؟ فقال : إذا دمعت العينان ، وقطر المنخران ، وتلجلج اللسان ، وأصطكت الأسنان .

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة فقال :

عِنْدِي فِي وَصْفِ الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ * مَقَالَةٌ تُغْنِي اللَّيْلَ مَقْنَعَةً

ذكر ما قيل في فصل الصيف

أَمَّا الْمَصِيفُ فَاسْتَمِعْ مَا فِيهِ * مِنْ فِطْنٍ يُفْهِمُ سَامِعِيهِ
فصل من الدهر إذا قيل حضر * أذْكَرْنَا بِحَرِّهِ نَارَ سَقَرٍ
يَظَلُّ فِيهِ الْقَلْبُ مُقَشَّعًا * وَالْأَرْضُ تَشْكُو حَرَّ الْمِضْرَا
أَوَّلُهُ فِيهِ نَدَى مُنْغَضٌ * كَأَنَّهُ عَلَى الْقُلُوبِ يَقْنِصُ
يَلْصِقُ مِنْهُ الْجِلْدُ بِالثِّيَابِ * وَيَعْلَقُ التُّرَابُ بِالْأَنْوَابِ
حَتَّى إِذَا مَا طَرَدَتْهُ الشَّمْسُ * وَفَرِحَتْ بِأَنْ يَزُولَ النَّفْسُ
فَتَحَتِ النَّارُ لَنَا أَبْوَابَهَا * وَشَبَّ فِيهَا مَالِكُ شَهَابَهَا
حَرٌّ يُجِيلُ الْأَوْجُهَ الْغُرَانَا * حَتَّى تُرَى الرُّومُ بِهِ حُبْشَانَا
يَعْلُو بِهِ الْكَرْبُ وَيَسْتَدُ الْقَلَقُ * وَتَنْضَحُ الْأَبْدَانُ فِيهِ بِالْعَرَقِ
تُبْصِرُهُ فَوْقَ الْقَمِيصِ قَدَ عَلَا * حَتَّى تُرَى مُبِيضُهُ مَصْنَدَلَا
إِنْ كَانَ رِثًا زَادَ فِي تَمْزِيْقِهِ * أَوْ مُسْتَجِدًّا جَدَّ حَبْلَ زَيْقِهِ
ثُمَّ يُعِيدُ الْمَاءَ نَارًا حَامِيَةً * يَزِيدُ فِي كَرْبِ الْقُلُوبِ الصَّادِيَةَ

شَارِبُهُ يَكْرَعُ فِي حَمِيمٍ * كَأَنَّهُ مِنْ سَاكِنِي الْجَحِيمِ
يُنْسِيهِ مَا يَلْقَى مِنَ الْتَهَابِهِ * أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى شَرَابِهِ
حَتَّى إِذَا أَعْيَا أَنْقَضَى نَهَارَهُ * وَأُرْخِيتَ مِنْ لَيْلِهِ أَسْتَارَهُ
تَحَرَّكَتْ فِي جُنْحِهِ دَوَاهِي * سَارِيَةٌ وَأَنْتَ عَنْهَا لَاهِي
مِنْ عَقَرٍ يَسْعَى كَسْعَى اللَّصِّ * سِلَاحُهَا فِي إِثْرِهِ كَالشِّصِّ
وَحَيَّةٌ تَنْفُثُ سُمًّا قَاتِلًا * تَزُودُ الْمَلْسُوعَ حَتْفًا عَاجِلًا
تُبْصِرُ مَا يَجْلِدُهَا مِنَ الرَّقَشِ * كَوْجَنَةٍ مُصْفَرَّةٍ فِيهَا مَمْشِ
لَوْ نَهَشَتْ بِالنَّابِ مِنْهَا الْخَضْرَا * لَنَثَرَتْ مِنْهُ الْحَيَاةَ نَثْرًا
فَلَا تَقُلْ إِنْ جَاءَ يَوْمًا أَهْلًا * فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَضْلًا

ذكر ما قيل في فضل الخريف

حَتَّى إِذَا زَالَ أَتَى الْخَرِيفُ * فَضْلٌ بِكُلِّ سَوَاةٍ مَعْرُوفُ
أَهْوَنُهُ يَسِيرُ فِي حَلِّ الْجَسَدِ * وَهُوَ كَطَبْعِ الْمَوْتِ يَبْسُ وَبَرْدُ
يَجْنِي عَلَى الْأَجْسَامِ مِنْ آفَاتِهِ * وَأَرْضُهُ قَرَعَاءٌ مِنْ نَبَاتِهِ
لَا يُمَكِّنُ النَّاسَ اتِّقَاءَ شَرِّهِ * وَلَا خِلَافَ بَرْدِهِ وَحَرِّهِ
تُبْصِرُهُ مِثْلَ الصَّبِيِّ الْأَرْعَنِ * مِنْ كَثْرَةِ الْعُشَاقِ وَالتَّلَوْنِ
فَأَنْتَ مِنْهُ خَائِفٌ عَلَى حَذَرٍ * لِأَنَّهُ يَمْزِجُ بِالْصَفْوِ الْكَدَرُ
أَحْسَنُ مَا يَهْدِي لَكَ النَّسِيمَا * يَقْلِبُهُ فِي سَاعَةٍ سَمُومًا
وَهُوَ عَلَى الْمَعْدُودِ مِنْ ذُنُوبِهِ * خَيْرٌ مِنَ الصَّيْفِ عَلَى عِيُوبِهِ

ذكر ما قيل في فصل الشتاء

حَتَّى إِذَا مَا أَقْبَلَ الشِّتَاءُ * جَاءَتْكَ مِنْهُ غَمَّةٌ عَمِيَاءُ
لَوْ أَنَّهُ رُوحٌ لَكَانَ قَدَمًا * أَوْ أَنَّهُ شَخْصٌ لَكَانَ جَهَمًا

يَلْقَاكَ مِنْهُ أَسَدٌ يَزِيرُ * لَهُ وَعِيدٌ وَلَهُ تَحْذِيرُ
تَأْتِيكَ فِي أَيَّامِهِ رِيَّاحُ * لَيْسَ عَلَى لَاحِنِهَا جُنَاحُ
حَرَاكُهَا لَيْسَ إِلَى سُكُونِ * تَضُرُّ بِالْأَسْمَاعِ وَالْعُيُونِ
يَحْدُثُ مِنْ أَفْعَالِهَا الزُّكَامُ * هَذَا إِذَا مَا فَاتَكَ الصَّدَامُ
ثُمَّ يَلِيهَا مَطَرٌ مُدَاوِمُ * كَأَنَّهُ خَصَمٌ لَنَا مُلَازِمُ
يَقْطَعُنَا بَعْضًا عَنِ الطَّرِيقِ * وَعَنْ قَضَاءِ الْحَقِّ لِلصَّدِيقِ
وَرَبَّمَا خَرَّ عَلَيْكَ السَّقْفُ * فَإِنْ عَفَا عَنْكَ أَتَاكَ الْوَكُفُ
وَإِنْ أَرَدْتَ فِي النَّهَارِ الشُّرْبَا * فِيهِ فَقَدْ قَاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبَا
وَأَحْتَجْتَ أَنْ تُوقِدَ فِيهِ نَارَا * تُطِيرُ نَحْوَ الْحَدَقِ الشَّرَارَا
يَتْرُكُ مُبِضَّ الثِّيَابِ أَرْقَطَا * يَحْكِي السَّعِيدَى لَكَ الْمُنْقَطَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ تُسَدِّدُ النَّقَابَا * مِنْ خَوْفِهِ وَتُعَلِّقُ الْأَبْوَابَا
نَعَمْ وَتُرْخِي دُونَهُ الشُّتُورَا * حَتَّى تَرَى صَبَاحَهُ دَيُّجُورَا
وَإِنْ أَرَدْتَ الشُّرْبَ فِي الظَّلَامِ * عَاقَكَ عَنْ تَتَاوُلِ الْمُدَامِ
حَسْبُكَ أَنْ تَتَدَسَّ فِي اللَّحَافِ * مِنْ خَشْيَةِ الْبَرْدِ عَلَى الْأَطْرَافِ
وَرَعْدُهُ يَشْغُلُ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ * وَيُؤْثِرُ النَّوْمَ وَيَسْتَحِلُّ الْكَسَلَ
حَتَّى إِذَا جِئْتَ إِلَى الرُّقَادِ * نِمْتَ عَلَى فَرْشٍ مِنَ الْقَتَادِ
إِنَّ الْبِرَاغِيثَ عَذَابٌ مُزِجٌ * لِكُلِّ قَلْبٍ وَلِحُلْدٍ يُنْضِجُ
لَا يَسْتَلِدُّ جِلْدَكَ الْمَضَاجِعَا * كَأَنَّمَا أَفْرَشَهُ مَبَاضِعَا
تَحَّ فَضْلًا فَوْقَ مَا ذَمُّتُهُ * لَوْ أَنَّهُ يَظْهَرُ لِي قَتْلَتُهُ
حَتَّى إِذَا مَا هُوَ عَنَّا بَانَا * وَزَالَ عَنَّا بَعْضُهُ لَا كَانَا

ذكر ما قيل في فصل الربيع

جاء إلينا زمن الربيع * بجاء فصل حسن الجميع
 لبرده وحره مقدار * لم يكتنف حداهما إكثار
 عدل في أوازنه حتى اعتدل * وحمد التفصيل منه والجمل
 نهاره في أحسن النهار * في غاية الإشراق والإسفار
 تضحك فيه الشمس من غير عجب * كأنها في الأفق جام من ذهب
 وليله مستطف النسيم * مقوم في أحسن التقويم
 لبدرة فضل على البدر * في حسن إشراق وفوط نور
 بكامة البلور في صفائها * أذابت الجراد في نقائها
 كأنها إذا دنت من بدرة * جوزأه قبل طلوع فجره
 رومية حلتها زرقاء * في الحيد منها درة بيضاء
 هذا وكم تجمع من أمور * إطرأ مطربها من التقصير
 فيه تطل الطير في ترم * حاذقة بالطن لم تعلم
 غناؤها ذو عجمة لا يفهمه * سامعه وهو على ذا يغرمه
 من كل دُبي له رنين * وكل فُرى له حنين
 في قرط أنجل أن يوردا * خاط له الحياط طوقاً أسودا
 تبصره منه على الحيزوم * كمثل عقد سبج منظوم
 هذا وفيه للرياض منظر * يفشى الثرى من سره ما يضمّر
 سرنبات حسنه إعلانه * إذا سواه زانه كتمانه
 فيه ضروب لنبات الغص (١) * يحكي لباس الحند يوم العرض

(١) لعله للنبات بالتعريف

من نرجس أبيض كالثغور * كأنه مخانق الكافور
 وروضة تزهى من بنفسج * كأنها أرض من الفيروزج
 قد ليست غلالة زرقاء * وكأيدت بلونها السماء
 يضحك منها زهر الشقيق * كأنه مداهن العقيق
 مضمنات قطعاً من السبج * قد أشرقت من أحرار ودعج
 كأنما المحمر في المسود * منه إذا لاح عيون الرمد
 وارم بعينيك إلى البهار * فإنه من أحسن الأزهار
 كأنه مداهن من عسجد * قد سمرت في قضب الزرجد
 فأنهض إلى اللهو ولا تخلف * فليست في ذلك بالمعنف
 واشرب عقاراً طال فينا كونها * يصفر من خوف المزاج لونها



دونك هذى صفة الزمان * مشروحة في أحسن التبيان
 وأرض بتقليدي فيما قلته * فإني أدري بما وصفته

الباب الرابع

من القسم الثالث من القرن الأول

في ذكر مواسم الأُم وأعيادها، وأسباب آتخاذهم لها، وما قيل في ذلك

والذي أُورده في هذا الباب، هو مما وقفْتُ عليه أثناء مطالعتي للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لما تعذر عليَّ من ألتقاء من فيه. وضمته أعياد المسلمين، والفرس والنصارى، واليهود.

١ - ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التي وردت بها الشريعة آثان: عيد الفطر، وعيد الأضحي .
والسبب في آتخاذهما ، ما رُوِيَ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أنه قَدِمَ
المدينةَ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما
في الجاهلية . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إن الله (عز وجل) قد بدَّلكم
خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحي . فأقول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر،
وذلك في سنة اثنتين من الهجرة . وفيها كان عيد الأضحي .

وعيد آبتدعته الشيعة، وسمَّوه عيد الغدير. وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبي (صلى
الله عليه وسلم) على بن أبي طالب (رضي الله عنه) يوم غدير خم . والغدير على ثلاثة
أيام من الجحفة لِسِرَّةِ الطَّرِيق . قالوا: وهذا الغدير تَصُبُّ فيه عين، وحوله شجر كثير
ملتف بعضها ببعض . وبين الغدير والعين مسجد لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .
واليوم الذي آبتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذى الحجة، لأن المؤاخاة كانت
فيه في سنة عشر من الهجرة، وهي حجة الوداع. وهم يُحْيُونَ ليلتها بالصلاة، ويصلون
في صبيحتها ركعتين قبل الزوال . وشعارهم فيه لبس الحديد، وعق الرقاب، وبرّ
الأجانب، والذبائح .

وأقول من أحدثه معز الدولة أبو الحسن علي بن بويه، على ما ذكره إن شاء الله
تعالى في أخباره في سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة .

ولما ابتدع الشيعة هذا العيد واتخذوه من سنتهم عمل عوام السنة يوم سرور
نظير عيد الشيعة في سنة تسع وثمانين وثلثمائة . وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام،

(١) في صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤٠٧) ثلاثة أميال، وفي المعجم [بينه وبين الجحفة ميلان] .

وقالوا : هذا يوم دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الغار هو وأبو بكر الصديق (رضي الله عنه) . وأظهروا في هذا اليوم الزينة، ونصبَ القِيَابِ، وإيقادَ النيران .

٢ - ذكر أعياد الفُرس

وأعياد الفُرس كثيرة جدًا . وقد صنف على بن حمزة الأصفهاني فيها كتابا مستقلاً ذكر فيه أعيادهم ، وسبب اتّخاذهم لها وسننَ ملوكهم فيها . وقد رأيتُ أن أقصر على المشهور منها ، وهي ثلاثة أعياد : النيروز، والمهرجَان، والسَّدَق .

١ - فأما النيروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلّها . يقال إن أول من اتّخذ جمشيد أحد ملوك الفرس الأول . ويقال فيه جمشاد، ومعنى جم : القمر، وشاد : الشعاع والضياء، وسبب اتّخاذهم لهذا العيد أن طهومت لما هلك ، ملك بعده جمشاد ، فسمى اليوم الذي ملك فيه نُوروز، أي اليوم الجديد .

ومن الفرس من يزعم أن النيروزَ اليومَ الذي خلق الله (عز وجل) فيه النور، وأنه كان نُعْظَمَ القدر عند جمشاد . وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران . ومدته عندهم ستة أيام، أقولها اليوم الأول من شهر أفرديون ماه، الذي هو أول شهور سنتهم . ويسمون اليوم السادس النوروز الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع خواصهم .

وحيكى ابن المقفع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتي الملك من الليل رجلاً جميلً الوجه، قد أرصد لما يفعله . فيقف على الباب حتى يُصبح . فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان . فإذا رآه الملك، يقول له : من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأى شيء وردت؟ وما معك؟ فيقول : أنا المنصور، وأسمى

المبارك، ومن قبل الله أقبلت، والملك السعيد أردت، وبالهناء والسلامة وردت،
ومعى السنة الجديدة. ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة، وفيه حنطة
وشعير، وجلبان، وحمص، وسمسم، وأرز (من كل واحد سبع سنابل وتسع حبات)
وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديان. فيضع الطبق بين يدي الملك. ثم تدخل عليه
الهدايا. ويكون أول من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المعونة،
ثم الناس على طبقاتهم ومراتبهم. ثم يقدم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب،
موضوع في سلة. فيأكل منه ويطعم من حضره. ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر
جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجدد فيه ما أخلق الزمان، وأحق
الناس بالفضل والإحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء. ثم يخلع على وجوه دولته
ويصلهم ويفرق فيهم ما حمل إليه من الهدايا.

وكانت عادة عوام الفرس فيه رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته.
وفي ذلك يقول المعوج:

كيف آتتهجك بالتيروز يأسكني * وكل ما فيه يحكي وأحكيه
فناره كلهيب النار في كيدي * وماؤه كتوالي عبرتي فيه

وقال آخر:

نورز الناس ونورز * ت ولكن بدموعي
وذكرت نارهم والنار ما بين ضلوعي

٢ - وأما المهرجان، فوقعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من
شهور الشريان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس.

(١) لم يوجد هذا المصدر في القاموس واللسان بهذا المعنى والمصدر الحسن. والتبعة.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف ، وفيه يقول بعض الشعراء :

أَحَبُّ الْمَهْرَجَانِ لِأَنَّ فِيهِ * سُرُورًا لِلْمُلُوكِ ذَوِي السَّنَاءِ
وَبَابًا لِلصَّيْرِ إِلَى أَوَانٍ * تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

وهو ستة أيام . ويسمى اليوم السادس المهرجان الأكبر . قال المسعودي :

وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم ، أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم .
وكان لهم ملك يسمى مهر ، يسير فيهم بالعنف والعسف . فمات في نصف الشهر الذي
يسمونه مهرماه ، فسمى ذلك اليوم مهرجان . وتفسيره "نفس مهر ذهبت" وهذه لغة
الفرس الأول . وزعم آخرون أن "مهر" بالفارسية حَفَازٌ و "جان" الروح .

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ذلك ، فقال :

إذا ما تَحَقَّقَ بِالْمِهْرَجَا * نِ مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُ مَعْنَاهُ غَاظًا
وَمَعْنَاهُ أَنْ غَلَبَ الْفَرَسُ فِيهِ * فَسَمَّوْهُ لِلرُّوحِ حَقًّا حَفَازًا

ويقال إنه إنما عَمِلَ في عهد أفريدون الملك ، وأن معنى هذا الاسم "إدراك النار" .

وسبب اتّخاذهم له ، أن بيوراسف (وهو الضحاك) ، ويقال له أزدهاق ذوالحيّتين

والأفواه الثلاثة ، والأعين الست ، الداهي الخبيث المتمرد ، لما قتل جمشاد ، وملك

بعده ، غير دين المجوسية . وجاء إبليس في صورة خادم ، فقبل منكبيه ، فنبت فيهما

حيتان ، فكان يُطْعِمُهُمَا أدمغة الناس . فأجحف ذلك بالرعية ، فخرج رجل بأصبهان ،

يقال له كابي ، ويقال فيه كايان . ودعا الناس الى قتاله ، فاجتمع له خلق كثير .

فشخص الضحاك لقتاله ، فهاب كثرة جمعه وفتر منهم . فاجتمع الناس على كابي ليملكوه

عليهم ، فأبى ذلك وقال : ما أنا من أهل الملك ، وأخرج صبيا من ولد جمشاد ، يسمى

أفريدون وملّكه ، فأطاعه الناس فيه وملّكوه عليهم .

وخرج أفريدون في طلب الضحك ليأخذ ثأر جدّه فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيداً، وسماه المهرجان. ويقال إن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الساسانية.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز :

أَخَا الْفُرسِ إِنَّ الْفُرسَ تَعَلَّمَ إِنَّهُ * لِأَطْيَبُ مِنْ نَيْرُوزِهَا مَهْرَجَانُهَا
لِإِدْبَارِ أَيَّامٍ يَغْمُ هَوَاؤُهَا * وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ يَسُرُّ زَمَانُهَا

وكان مذهب الفرس فيه أن يدّهن ملوكهم بدهن البان تبرّكا، وكذلك عوامهم، وأن يلبس القصبَ والوشى، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها، ويكون أول من يدخل عليه المؤبدان يطبق فيه أترجة، وقطعة سكر، ونبق، وسفرجل، وعنّاب، وتّفاح، وعنقود عنب أبيض، وسبع طاقات آس قد زمرم عليها.

ثم يدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك.

وكان أردشير، وأنوشروان يأمران بإخراج ما في خزائهم في المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفُرش، فتتفرّق كلّها في الناس على مراتبهم، ويقولان: إن الملوك تستغنى عن كسوة الصيف في الشتاء، وعن كسوة الشتاء في الصيف، وليس من أخلاقهم أن يحبّوا كسوتهم في خزائهم ويساوا العامة في فعلها.

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عملته الفُرس قبل المهرجان بألفى سنة وخمسمائة سنة.

٣ - وأما السّدق، فإنه يُعمل في ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه.

٢٠ - ويسمى هذا اليوم عندهم "أبان روز"، لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم اسماً.

ويقال في سبب اتخاذهم له : إن فراسياب لما ملك ، سار إلى بلاد بابل وأكثر فيها الفساد ، وحرَّب العمران . فخرج عليه دق بن طهماسب ، وطرده عن مملكته إلى بلاد الترك . وكان ذلك في يوم أبان روز . فاتخذ الفرس هذا اليوم عيداً ، وجعلوه ثالثاً ليوم النيروز ، والمهرجان .

- ويقال أيضاً في سبب اتخاذهم له : إن الأب الأول ، وهو عندهم كيومرت ، لما كل له مائة ولد ، زوج الذكور بالإناث ، وصنع لهم عرساً أكثر فيه من إشعال النيران ، فوافق ذلك الليلة المذكورة ، وأستسنة الفرس بعده .
وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان ، ويزيدون في الولوع بها ، حتى إنهم يُلقون فيها سائر الحيوانات .

وفي ذلك يقول ابن حجاج من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه :

- مَوْلَايَ يَا مَنْ نَدَاهُ يَعْدُو * فَفَاتَ سَبَقًا وَلَيْسَ يَلْحَقُ
لَيْلَتَنَا حُسْنَهَا عَجِيبٌ * بِالْقَصْفِ وَالْعَرْفِ قَدْ تَحَقَّقُ
لِنَارِهَا فِي السَّمَاءِ لِسَانٌ * عَنْ نُورِ ضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقُ
وَالْجَوْ مِنْهَا قَدْ صَارَ جَمْرًا * وَالنَّجْمُ مِنْهَا قَدْ كَادَ يَحْرَقُ
وَدَجَلَةٌ أَضْرَمَتْ حَرِيقًا * بِأَلْفِ نَارٍ وَأَلْفِ زُورَقٍ
فَمَاؤُهَا كُلُّهُ حَمِيمٌ * قَدْ فَارَ مَا غَلَى وَبَقِبَقُ^(٢)

وقال أبو القاسم المطرزي في سَدَق ، عمله السلطان ملك شاه ، أشعل فيه الشموع والنيران في السُمَيْرِيَّاتِ بِدَجَلَةٍ ، وذلك في سنة أربع وثمانين وأربعمائة :

- وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الْعُشَّاقِ مُضَرَّةٌ * مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ
نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الظُّلُمَاءُ فَاشْتَبَهَتْ * بِسَدَقَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَاقِ

(١) كذا في الأصل ولعله "والجمر منها يصير جمرا" * والنجم منها يكاد يحرق "ليستقيم الوزن .

(٢) في الأصول : يغلي .

وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا اللَّيْلَ وَأَصْطَلَحَا * عَلَى الْكَوَاكِبِ بَعْدَ الْغَيْظِ وَالْحَقِيقِ
مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطًا مِنْ جَوَاهِرِهَا * مَا بَيْنَ مُجْتَمَعٍ وَارٍ وَمُقْتَرِقِ
مِثْلَ الْمَصَابِيحِ إِلَّا أَنَهَا تَزَلَّتْ * مِنَ السَّمَاءِ بِلَا رَجْمٍ وَلَا حَرَقِ
أَعْجَبَ بَنَارٍ وَرِضْوَانٍ يُسَعِّرُهَا * وَمَالِكٌ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرَقِ
فِي مَجْلَسٍ ضَخَّكَتْ رَوْضُ الْجَنَانِ لَهُ * لَمَّا جَلَا نَغْرُهُ عَنْ وَاضِحِ يَقَقِ

٣ - ذكر أعياد النصارى القبط

وأعياد النصارى أربعة عشر عيداً : سبعة يسمونها كباراً، وسبعة يسمونها صغاراً.
فأما الكبار :

١ - فمنها عيد البشارة . ويعنون بها بشارة غبريال، وهو عندهم جبريل عليه السلام على ما يزعمون أنه بشر مريم ابنة عمران بميلاد عيسى (عليهما السلام) . وهم يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم .

٢ - ومنها عيد الزيتونة . وهو عيد الشعانين، وتفسيره التسبيح . يعملونه في سابع أحد من صومهم . وسُتِّهَمَ فِيهِ أَنْ يَخْرُجُوا لِتَسْعِفِ النَّخْلَ مِنَ الْكَنِيسَةِ .
ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليعقُور في القدس، وهو الحمار، ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ - ومنها الفصح . وهو العيد الكبير عندهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام .

٤ - ومنها خميس الأربعين . ويسميه الشاميون السَّالِقَ^(١) . وهو الثاني والأربعون من الفطر . يزعمون أن المسيح عليه السلام تَسَلَّقَ فِيهِ مِنْ بَيْنِ تَلَامِيذِهِ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ بَعْدِ الْقِيَامِ، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس .

(١) في الأصل السلاق وفي القاموس [وَكُرَّمَانْ عِيدُ النَّصَارَى] وفي صبح الأعشى بغير ياء على الصواب .

- ٥ - ومنها عيد الخميس . وهو العنصرة يُعمل بعد خمسين يوما من يوم القيام يقولون إن روح القدس حلت بالتلاميذ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس، فتكلموا بجميع الألسنة، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذى تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .
- ٦ - ومنها الميلاد . وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح . يقولون إنه ولد في يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد . وهم يوقدون فيه المصابيح بالكأس ويزينونها . ويعمل في التاسع والعشرين من كيهك من شهورهم .
- ٧ - ومنها الغطاس . ويعمل في الحادى عشر من طوبة من شهورهم . ويقولون إن يحيى بن زكريا، ونيثونه بالمعمدان، غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأردن، ويزعمون أن عيسى (عليه السلام) لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة . والنصارى يغمسون أولادهم في الماء فيه، ووقته شديد البرد .
- ١٠ - وأما الأعياد الصغار :

- ١ - فمنها الختان . ويعمل في سادس بثونة، يقولون إن المسيح خُتن في هذا اليوم، وهو الثامن من الميلاد .
- ٢ - ومنها الأربعون . وهو عند دخول الهيكل يقولون إن سمعان الكاهن دخل بعيسى (عليه السلام) مع أتمه [الهيكل^(١)] وبارك عليه . ويعمل في ثامن أمشير من شهورهم .
- ٣ - ومنها خميس العهد . ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام . وسُنَّتْهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماء ويزمزموا عليه، ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس . ويزعمون أن المسيح عيسى (عليه السلام) فعل مثل هذا بتلاميذه في مثل هذا اليوم،

(١) الزيادة من صبح الأعشى ج ٢ ص ١٧ طبع دار الكتب المصرية .

يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد ألا يتفترقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض .
وعوام النصارى يسمون هذا الخميس خميس العَدَس ، وهم يطبخون فيه العَدَس
المقشور على ألوان ، ويسميه أهل الشام خميس الأرز . ومنها خميس البيض أيضا .
ويسميه أهل الأندلس خميس أبريل ، وأبريل شهر من شهور الروم .

٤ — ومنها سبت الثور . وهو قبل الفصح بيوم . يقولون إن النور يظهر على
مقبرة المسيح في هذا اليوم ، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التي بالقدس . وليس
كذلك ، بل هو من تخيلات فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم . وقيل
إنهم يعلقون القناديل في بيت المذبح ، ويحتملون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على
سائرها شريطا من حديد في غاية الدقة ، يدهنونه بدهن البَلَسَان ودهن الزنبق . فإذا
صَلَّوا ، وحان وقت الزوال ، فتحو المذبح ، فدخل الناس إليه ، وقد أشعلت فيه
الشموع . ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار فتسرى
عليه ، فتقد القناديل واحدا بعد واحد بسبب الدهن .

٥ — ومنها حدّ الحُدود . وهو بعد الفصح بثمانية أيام . يعمل أول أحد بعد
الفطر ، لان الآحاد قبله مشغولة بالصوم . وفيه يحددون الآلات ، والآثان ،
واللباس ، يأخذون في المعاملات ، والأُمور الدنيوية .

٦ — ومنها التجلي . يقولون : إن المسيح (عليه السلام) ، تجلّى لتلاميذه بعد أن
رُفِع ، وتمنّوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا ، وموسى ، فأحضرهما لهم في مصلى بيت
المقدس ، ثم صعد . ويعمل في ثالث عشر مسرى من شهورهم .

٧ — وعيد الصليب . وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلاني انتقل عن
اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية ، وبني كنيسة قسطنطينية العظمى ، وسائر
كنائس الشام .

٧٧

وسبب ذلك — على ما نقله المؤرخون — أنه كان مجاورا للبرجان، فضايق بهم
 ذُرْعاً من كثرة غاراتهم على بلاده . فهم أن يصانعههم ويقتر لهم عليه إتاوة في كل عام
 ليكفّوا عنه . فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها
 صلبان ، فخربت البرجان فهزموهم . فلما أصبح ، عمل أعلاما وصوّر فيها صلبانا ،
 ثم قاتل بها البرجان فهزمهم .

وقيل إنه رأى في المنام صلبانا من نور في السماء ، وقائلا يقول له : اعمل مثل هذا
 على رؤوس أعلامك فإنك تنصر . فلما أصبح ، أمر بعمل صلبان من ذهب على
 رؤوس أعلامه وقاتل بها فنصر . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدخول
 في دين النصرانية ، وأن يقصوا شعورهم ، ويحلقوا لحاهم . وإنما فعل ذلك بهم لأن
 رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبل يأمرؤنهم بالتعبد بدين
 النصرانية ، فأعرضوا عنهم ، ومثّلوا بهم هذه المثلة نكالا بهم . ففعلوا ذلك تأسيّا بهم .
 ولما تنصر قسطنطين ، خرجت أمه هيلاني إلى الشام ، فبنت الكائس ، وسارت
 إلى بيت المقدس ، فطلبت الخشبة التي صُلب عليها المسيح ، على ما يزعمون . وكانت
 مدفونة في مزبلة . فأخرجت منها ، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما حُمِلَتْ إليها ،
 غلّفها بالذهب وحملتها إلى ابنها . واتخذت يوم رؤيتها لها عيدا .

قال المسعودي : وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول ، ووافق ذلك سبع
 عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط . وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذي
 وجدت فيه الخشبة ثلثمائة وثمان وعشرون سنة .

وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الروم في فن التاريخ ، وهو في الجزء
 الثالث عشر من هذا الكتاب .

٤ - ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التي نطقت بها توراتهم خمسة :

١ - منها عيد رأس السنة . ويسمونه رأس هيشا ، أى عيد رأس الشهر ، وهو أول يوم من تشرين . ينزل عندهم منزلة عيد الأضحية عندنا . ويقولون إن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح إسحاق ابنه عليهما السلام فيه ، وفداه بذبح عظيم .

٢ - ومنها عيد صوماريا . ويسمى الكبور . وهو عندهم الصوم العظيم الذى فرض عليهم ، ويقتل من لم يصمه . ومدة [هذا] الصوم خمس وعشرون ساعة ، يبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين ، وينتخم بمضى ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر . ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار . وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صام فيها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة . ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمحصنات ، وظلم الرجل أخاه ، ومحمد ربوبية الله تعالى .

٣ - ومنها عيد المظلة . وهو ثمانية أيام ، أولها الخامس عشر من تشرين . وكلها أعياد ، واليوم الأخير منها يسمى غرابا ، وتفسيره شجر الخلاف . وهو أيضا حج لهم . وهم يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر ، وأغصان الزيتون ، والخلاف ، وسائر الشجر الذى لا يتشرب ورقه على الأرض . ويزعمون أن ذلك تذكرا لإظلال الله تعالى إياهم فى آتية بالغمام .

٤ - ومنها عيد الفطير . ويسمونه الفصح . ويكون فى الخامس عشر من نيسان . وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير ، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير .

(١) الزيادة عن صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٦٤ (٢) فى صبح الأعشى [سبعة أيام] .
(٣) فى صبح الأعشى [غرابا] .

لأنها عندهم الأيام التي خلاص الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، وجعلوا يأكلون اللحم، والخبز الفطير، وهم بذلك فرحون، وفي آخر هذه الأيام غرق فرعون.

- ٥ - ومنها عيد الأسابيع، وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض، وجل فيها الدين. ويسمى عيد العنصرة، وعيد الخطاب. ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع. يقولون إنه اليوم الذي خاطب الله تعالى فيه بني إسرائيل من طور سيناء، وإن من جملة ما خاطبوا به العشر الكلمات، وهي وصايا تتضمن أمرا ونهيا. وهو من حجوجهم. وحجوجهم ثلاثة: الأسابيع، والفطير، والمظلة. وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها دلا عن المن الذي أنزل عليهم في هذا اليوم على ما يزعمون. وأتخذهم لهذا العيد في اليوم السادس من سيوان.

- ٦ - وعيد الفوز. وهو عيد أحدثوه، ويسمونه الفوريم. وذكروا في سبب اتخاذهم له أن يختصر لما أجلى من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، أسكنهم مدينة جى، وهي إحدى مدينتي أصفهان. فلما ملك أردشير بن بابك، سماه اليهود بالعبرانية أجشادوس. وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون. ولليهود يومئذ خبر يسمى بلغتهم مردوخاى. فبلغ أردشير أن له ابنة عم جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها. فطلب تزويجها منه، فأجابه إلى ذلك. فترجىها، وحظيت عنده، وصار مردوخاى قريبا منه. فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير. فرتب مع نواب الملك في سائر الأعمال أن يقتل كل واحد منهم من يعلمه من اليهود. وعين لهم يوما وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم دون غيره، لأن اليهود يزعمون أن موسى عليه السلام ولد فيه، وتوفي فيه. وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم،

وبموت موسى (عليه السلام) . فبلغ مردوخاى ذلك ، فأرسل إلى آبنة عمه يُعَلِّمُهَا بما بلغه ، ويحضها على إعمال الحيلة فى خلاصهم . فأعلمت الملك بالحال ، وذكرت له أن الوزير إنما حمله على ذلك الحسد ، لقرب مردوخاى منه . فأمر بقتل هيمون الوزير ، وأن يكتب أمان لليهود .

فأتخذوه عيداً . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام .

وهذا العيد عندهم عيد سرور ، وهو ، وخلاعة ، وهدايا يهديها بعضهم لبعض ، ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون ، ويمثلون بطن الصورة نخالة ويلقونها فى النار حتى تحترق .

٧ — وعيد الحنكة . وهو أيضاً مما أحدثوه . وهو ثمانية أيام ، أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا . وهم يوقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجاً ، وفى الثانية سراجين ، ويضعف ذلك فى كل ليلة إلى ثمان ليال . فيكون فى الثامنة ثمانية سُرج .

وسبب اتّخاذهم لهذا العيد ، أن بعض الجبابرة تغلب على البيت المقدس وقتل من كان فيه من بنى إسرائيل ، وأقتض أبكارهم . فوثب عليه أولاد كاهنهم ، وكانوا ثمانية ، فقتله أصغرهم . فطلب اليهود زيتاً لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيراً ، وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم فى كل ليلة إلى ثمان ليال . فأتخذوا هذه الأيام عيداً وسموه الحنكة ، وهو مشتق من التنظيف ، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار ،

القسم الرابع من الفن الأول

في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغدران

وفيه سبعة أبواب.

الباب الأول

من هذا القسم

١ - في مبدأ خلق الأرض

قال الله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

والأرض سبع، كما أن السماوات سبع. والدليل على ذلك قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

وأختلف فيها هل هي سبع متطابقات بعضها فوق بعض، أو سبع متجاورات؟
فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبع سماوات متطابقات متعاليات، وسبع أرضين
متطابقات متسافلات، وبين كل أرض وأرض، كما بين كل سماء وسماء، خمسمائة
عام. وفُسر بهذا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. أي كانت سماء واحدة ففتقناها سبعة.

قيل: ولكل أرض أهل وسكان مختلفو الصور والهيئات؛ ولكل أرض

اسم خاص.

(١) أي وأرضا واحدة [ولعله سقط من قلم النسخ].

• وذهب قوم إلى أنها سبع متجاورات متفرقات لا متطابقات . فجعلوا الصين أرضا ، وخراسان أرضا ، والسند والهند أرضا ، وفارس والجلال والعراق وجزيرة العرب أرضا ، والجزيرة والشام وبلاد إرمينية أرضا ، ومصر وإفريقية أرضا ، وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد الجلالقة والأندكردة وسائر طوائف الروم أرضا .

• ويقال : إنها كانت على ماء ، والماء على صحرة ، والصخرة على سنام ثور ، والثور على كمنك ، والكمنك على ظهر حوت ، والحوت على الماء ، والماء على الريح ، والريح على حجاب ظلمة ، والظلمة على الثرى . وإلى الثرى انقطع علم المخلوقين .

قال الله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ .

• وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صحرة ، وتحت الصحرة الحوت ، وتحت الحوت الماء ، وتحت الماء الظلمة ، وتحت الظلمة الهواء ، وتحت الهواء الثرى .

• وقد تقدم في الباب الأول من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزبد . فلا فائدة في تكراره .

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الأول

١٥ ١ — في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها ، في الاتساع ، والاستواء ، والبعد ، والغلط ، والصلابة ، والسهولة ، والحزونة ، والارتفاع ، والانخفاض ، وغير ذلك . قال الثعالبي : في كتابه المترجم " بفقته اللغة " وأسندته إلى أئمة اللغة :

(١) كذا بالأصل . ؟

إذا اتسعت الأرض ولم يتخللها شجر أو حجر، فهي الفضاء والبرأز والبرأح، ثم
الصَّحْرَاءُ والعَرَاءُ؛ ثم الرَّهَاءُ والجَهْرَاءُ.

فإذا كانت مستوية مع الاتساع، فهي الخَبْتُ والجَدُّ؛ ثم الصَّحْصَحُ والصَّرْدَحُ؛
ثم القَاعُ والْقَرَقُ؛ ثم القَرِقُ والصَّنْصَفُ.

فإذا كانت مع الاستواء والاتساع بعيدة الأكناف والأطراف، فهي السَّهْبُ
والخَرَقُ؛ ثم السَّهْسَبُ والسَّمَلَقُ والمَلَقُ.

فإذا كانت مع الاتساع والاستواء والبعد لا ماء فيها، فهي القَلَاةُ والمَهْمَةُ؛ ثم
التَّنُوفَةُ والْفَيْفَاءُ؛ ثم النَّفْنَفُ والصَّرَمَاءُ.

فإذا كانت مع هذه الصفات لا يهتدى فيها لطريق، فهي اليَمَاءُ والغَطْشَاءُ.
فإذا كانت تُضِلُّ سالكيها، فهي المِضْلَةُ والمُتِيهَةُ.

فإذا لم يكن بها أعلام ولا معالم، فهي المَجْهَلُ والهَوَجَلُ.

فإذا لم يكن بها أثر، فهي الغُفْلُ.

فإذا كانت قَفْرَاءَ، فهي القُ.

فإذا كانت تُبَيِّدُ سالكيها، فهي البَيْدَاءُ. والمَقَاذَةُ كناية عنها.

فإذا لم يكن فيها شيء من النَّبْتِ، فهي المَرْتُ والمَلِيْعُ.

فإذا لم يكن فيها شيء، فهي المَرَوْرَاةُ والسُّبْرُوتُ والبَلْقَعُ.

فإذا كانت الأرض غليظة صلبة، فهي الجُبُوبُ، ثم الجَلْدُ، ثم العَزَا، ثم الصَّيْدَاءُ،
ثم الجَدُّ.

فإذا كانت صلبة يابسة من غير حصي، فهي الكَلْدُ، ثم الجَعَجَاعُ.

فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل، فهي البرْقَةُ والأَبْرَقُ.

فإذا كانت ذات حصّى، فهي المحصاة والمحصبّة .
 فإذا كانت كثيرة الحصى، فهي الأمعز والمعزّاء .
 فإذا آشملت عليها كلّها حجارة سودّ، فهي الحرّة واللّابة .
 فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكين، فهي الحزير .
 فإذا كانت الأرض مطمئنة، فهي الجوف والغائط؛ ثم المجلّ والهضم .
 فإذا كانت مرتفعة، فهي النجد والنّشر .
 فإذا جمعت الأرض الارتفاع والصّلابة والغلظ، فهي المتنّ والصّمد، ثم القفّ
 والفدّقد والقردد .

فإذا كان ارتفاعها مع اتّساع، فهي اليفّاع .
 فإذا كان طولها في السماء مثل البيت، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع، فهي
 التّل؛ وأطول وأعرض منها الرّبوة والرّابية؛ ثم الآكبة؛ ثم الرّبسة، وهي التي
 لا يعلوها الماء . وبها ضرب المثل في قولهم: "بلغ السيل الزّبي"؛ ثم النّجوة،
 وهي المكان الذي تظن أنه نجاؤك؛ ثم الصّمان، وهي الأرض الغليظة دون الجبل .
 فإذا ارتفعت عن موضع السيل وأنحدرت عن غلظ الجبل؛ فهي الخيف .
 فإذا كانت الأرض لينّة سهلة من غير رمل، فهي الرّقاق والبرث؛ ثم الميثاء والدّمثة .
 فإذا كانت طيبة التربة كريمة المنبت بعيدة عن الأحساء والنّزوز، فهي العداة .
 فإذا كانت مخيلة للنبت والخير فهي الأريضة .
 فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شيء يختلط بها، فهي القراح والقرواح .
 فإذا كانت مهيأة للزراعة، فهي الحقل والمشارة والدّرة .

(١) [فإذا لم تُهيأ للزراعة، فهي بور]

(١) الزيادة من فقه الثعالبي .

- فإذا لم يصبها المطر، فهي الفلّ والجُرز .
 فإذا كانت غير ممطورة وهي بين أرضين ممطورتين، فهي الخَطِيطَة .
 فإذا كانت ذات ندى ووَخامة، فهي الغَمَقَةُ .
 فإذا كانت ذات سِباح، فهي السَّبْخَةُ .
 فإذا كانت ذات وباء، فهي الوَبْئَةُ والوَبْئَةُ .
 فإذا كانت كثيرة الشجر، فهي الشَّجَرَاءُ والشَّجَرَةُ .
 فإذا كانت ذات حَيَات، فهي المَحْوَاةُ^(١) .
 فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب، فهي المَسْبَعَةُ والمَدَابَّةُ .

٢ - ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

- قال الثعالبي رحمه الله تعالى :
 الصَّعِيد : تراب وجه الأرض .
 والبَوْغَاءُ ، والدَّقْعَاءُ : التراب الرخو الرقيق الذي كأنه ذَرِيرَةٌ .
 والثَّرَى : التراب النَّدَى، وهو كل تراب لا يصير طينا لآزباً إذا بُلَّ .
 المَوْرُ : التراب الذي يَمُورُ به الريح .
 الهَبَاءُ : التراب الذي تُطَيِّرُه الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم .
 [يلترق لزوقاً^(٢)] .
 [والهَابَى : الذي دَقَّ وارتفع^(٣)] .
 السَّافِيَاءُ : التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح .
 (١) كذا ضبط في فقه اللغة ، وفي اللسان : (وأرض نحّية ومحوّاة : كثيرة الحيات) وهو الأولى
 لاطراد هذا الوزن في مثل ذلك .
 (٢) الزيادة من فقه الثعالبي .

- النَّيْثَةُ : التراب الذى يُخْرِجُ من البئر عند حفرها .
 الرَّاهِطَاءُ وَالْدَّمَاءُ : التراب الذى يُخْرِجُهُ اليربوع من بُحْرِهِ ويجمعه .
 الجُرْثُومَةُ : التراب الذى يجمعه النمل عند قريته .
 الْعَفَاءُ : التراب الذى يُعْفَى الآثَارَ . وكذلك الْعَفْرُ .
 الرَّغَامُ : التراب المختلط بالرمل .
 السَّمَادُ : التراب الذى يُسَمَّدُ به النبات . فإذا كان مع السَّرْقِينَ ، فهو الدَّمَالُ .

٣ - ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

- النَّعَقُ وَالْعُكُوبُ : الغبار الذى يَتَوَرَّعُ من حوافر الخيل وأخفاف الإبل .
 الْعَجَاجُ : الغبار الذى تُشِيرُهُ الرِّيحُ .
 الرَّهْجُ وَالْقَسْطَلُ : غبار الحرب .
 الْحَيْضَةُ : غبار المعركة .
 الْعَثِيرُ : غبار الأقدام .
 الْمَنِينُ : ما تَقَطَّعَ منه .

٤ - ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال :

- إن كان الطين حُرًّا يابسًا ، فهو الصَّلْصَالُ .
 فإذا كان مطبوخًا ، فهو الفَخَّارُ .
 فإذا كان عَلِيكَ لاصقًا ، فهو اللَّازِبُ .
 فإذا غَيَّرَ الماء وأفسده ، فهو الحَمَأُ .
 (وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة) .

فإذا كان رطباً، فهو النَّاطِطَةُ والْثَرْمُطَةُ وَالطَّثَرَةُ .
 فإذا كان رقيقاً، فهو الرِّدَاغُ .
 فإذا كان تَرْتِطِمَ فيه الدوابُّ، فهو الْوَحْلُ . وأشدُّ منه الرَّدْغَةُ والرَّزْغَةُ . وأشدُّ
 منها الْوَرْطَةُ تقع فيها الغنم فلا تقدر على التخلص منها ؛ ثم صارت مثلاً لكل شدة
 يقع فيها الإنسان .

فإذا كان حراً طيباً علكاً وفيه خضرة، فهو الْغَضْرَاءُ .
 فإذا كان مخلوطاً بالتبن، فهو السَّيَاحُ .
 فإذا جعل بين اللَّبن، فهو الْمَلَّاطُ .

٥ - ذكر تفصيل أسماء الزمالة

قال :

الْعَدَابُ : ما أَسْتَرَقَ^(١) من الرمل .

الْحَبْلُ : ما أَسْتَطَالَ منه .

الْلَبَبُ : ما آنحدر منه .

الْحَقْفُ : ما أعوجَّ منه .

الدَّعْصُ : ما أَسْتَدَارَ منه .

الْعَقْدَةُ : ما تعقد منه .

الْعَقَنْقَلُ : ما تراكم منه .

السَّقْطُ : ما جعل يتقطع ويتصل منه .

النَّهْبُورَةُ : ما أشرف منه .

(١) في الأصل : ما أشتد . ولكن الذي في القاموس وفقه اللغة : ما أسترَق .

التَّيْهُورُ : ما أَطْمَأَن منه .
 الشَّقِيقَةُ : ما أَتَقَطَع وَغُلُظَ منه .
 الكَثِيبُ والنَّقَا : ما أَحْدَوْدَبَ وَأَنهال منه .
 العَاقِرُ : ما لَا يُنْبِت شَيْئًا منه .
 الهِدْمَلَةُ : ما كَثُرَ شَجَرُهُ منه .
 الأَوْعَسُ : ما سَهْلٌ وَلَانَ منه .
 الرَّغَامُ : ما لَانَ منه . وليس هو الذي يسيل من اليد .
 الهَيَامُ : ما لَا يُتَالَك أَن يُمَسَّكَ بِالْيَدِ منه لِلْيَنَةِ .
 الدَّكَدَاكُ : ما أَلْتَبَدَ بِالْأَرْضِ منه .
 العَانِكُ : ما تَعَقَّدَ منه حَتَّى لَا يَقْدِرَ الْبَعِيرُ عَلَى الْمَسِيرِ فِيهِ .

٦ - ذكر ترتيب كمية الرمل

قال الثعالبي :

الكثير يقال له : العَقْنَقْلُ .
 فإذا نقص ، فهو كَثِيبٌ .
 فإذا نقص ، فهو عَوَكْلٌ .
 فإذا نقص عنه ، فهو سَقَطٌ .
 فإذا نقص عنه ، فهو عَدَابٌ .
 فإذا نقص ، فهو لَبَبٌ .
 وقال في "كتاب الغريب" ^(١) :

(١) ليس هذا الكتاب للثعالبي ، وإنما هو كتاب "الغريب المصنف" لأبي عمرو الشيباني ، الموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

- إذا كانت الرملة مجتمعة، فهي العَوَكَةُ .
 فإذا أنبسطت وطالت، فهي الكَثِيبُ .
 فإذا انتقل الكَثِيبُ من موضع إلى آخر بالرياح وبقي منه شيء رقيق، فهو اللَّبَبُ .
 فإذا نقص، فهو العَدَابُ .

٧ - ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

- قال الثعالبي :
 المرصاد والنَّجْدُ : الطريق الواضح ؛ وكذلك الصَّرَاطُ .
 والجَادَّةُ والمنهَجُ واللِّقْمُ والمَحْجَةُ : وسط الطريق ومُعْظَمُهُ .
 والأَلَحْبُ : الطريق المُوَطَّأُ .
 المَهْمِجُ : الطريق الواسع .
 الوَهْمُ : الطريق الذي يَرِدُ المواردُ .
 الشَّارِعُ : الطريق الأعظم .
 النَّقْبُ والشَّعْبُ : الطريق في الجبل .
 الخَلُّ : الطريق في الرمل .
 المخَرَفُ : الطريق في الأشجار . ومنه الحديث : "عائذُ المريض في مخارِفِ الجنة" .
 النِّسَبُ : الطريق المستقيم ؛ وقيل إنه الطريق المستدق الواضح، كطريق النمل
 والحية وحرر الوحش .
 والله أعلم .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الأول

في طول الأرض ومساقفها

ذهب المتكلمون في ذلك [إلى] أن مسافة الأرض خمسمائة عام : ثلثُ عمران ،
وثلثُ خراب ، وثلثُ بحار ، وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة :
تسعون منها ليأجوج ومأجوج ، وأثنا عشر للسودان ، وثمانية للروم ، وثلاثة للعرب ،
وسبعة لسائر الأمم .

وقيل إن الدنيا سبعة أجزاء : ستة منها ليأجوج ومأجوج ، وواحد لسائر الناس .
وقيل إن الأرض خمسمائة عام : البحار منها ثلثمائة ، ومائة خراب ، ومائة عمران .
وقيل إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ : للسودان منها اثنا عشر ألفاً ،
والروم ثمانية آلاف فرسخ ، ولفارس ثلاثة آلاف ، وللعرب ألف .

١٠

وقال وهب بن منبه : ما العارة من الدنيا في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء .
وقال أردشير بن بابك : إن الأرض أربعة أجزاء : جزء منها للترك ، وجزء للعرب ،
وجزء للفرس ، وجزء للسودان .

وقيل : إن الأقاليم سبعة ، والأطراف أربعة ، والنواحي خمس وأربعون ، والمدائن
عشرة آلاف ، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفاً .

١٥

وقال الخوارزمي صاحب الزيج : دَوْرُ المعمور سبعة آلاف فرسخ ، وهونصف
سُدُسُ الأرض ، والجبال ، والمفاوز ، والبحار . والباقي خراب يَبَاقُ لا نبات فيه
ولا حيوان .

ومثل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسند، والجناح
الأيسر الخزر، وصدرة مكة والعراق والشام ومصر، وذنبه الغرب .

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا،
وأن دورها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل . وذلك جميع ما أحاطت به من
بر وبحر .

وإنما علم ذلك وحرر زمن عبد الله المأمون، وذلك أنه لما أشكل عليه ما ذكره
المتقدمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخبرة بالحساب والنجوم - منهم
علي بن عيسى - إلى «برية سنجان» . وتفرقوا من هناك . فذهب بعضهم إلى جهة
القطب الشمالى، وذهب آخرون إلى جهة القطب الجنوبى، وسار كل منهم
في جهته إلى أن وصل غاية ارتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغير عن الموضع
الذى اجتمعوا فيه وتفرقوا منه، مقدار درجة واحدة . وكانوا قد ذرعوا الطريق
في ذهابهم، فنصبوا السهام، ووتدوا الأوتاد، وشدوا الحبال . ثم رجعوا وامتحنوا
الذرع ثانية، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامت وجه بسيط الأرض
ستة وخمسين ميلا وثلاثي ميل . (والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع ست قبضات،
والقبضة أربع أصابع، والإصبع ست شعيرات، بطون بعضها إلى بعض، والشعيرة
ست شعرات من شعر الخيل) . فضربت هذه الأميال في جميع درجات الفلك،
ونى ثلثمائة وستون درجة، فخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل .
فحكم بأن ذلك دور الأرض .

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخى : مسافة طول الأرض من أقصى المشرق
إلى أقصى المغرب نحو من أربعمائة مَرَّحَلَة، ومسافة عرضها من حيث العمران

الذي من جهة الشمال (وهو مساكن يأجوج ومأجوج) إلى حيث العمران الذي من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مرحلة ؛ وما بين برارى يأجوج ومأجوج والبحر المحيط فى الجنوب خراب ليس فيه عمارة .

ويقال : إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ .

حكى هذه الأقوال صاحب كتاب "مباحج الفكر ومناهج العبر" رحمه الله .

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفرق الأول

١ - فى الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود، طوله من المغرب إلى المشرق، وعرضه من الجنوب إلى الشمال .

١ - فأما الإقليم الأول فببؤه من مشرق أرض الصين إلى مدائن أبوابها .
وهى الأنهار التى تدخل السفن فيها من البحر إلى المدائن الجليّة ، مثل خانقو وخانفور .
وفيه جزيرة سرنديب . ومن أرض اليمن ما كان جنوبيا من صنعاء ، مثل ظفار وحضرموت وعدن . وفيه من بلد النبوة دُفْلَة ؛ ومن بلد السودان غَانَة . ثم ينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من خط الاستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

وذهب بعض الناس إلى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء اثنتى عشرة درجة ، ونصف وربع درجة ، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون

(١) كذا بالأصل والصواب ، خانجور بالجم عن كتاب "تقويم البلدان" لأبى الفدا .

بطوائف من السودان في عداد الوحوش والبهائم . وعدّ فيه بَطْلَيْمُوس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة . وأهل هذا الإقليم سود، وهو قليل الساكن لإفراط حرّه .

٢ — وأما الإقليم الثاني . فيبتدئ من بلاد الصين، ويمتدّ على بعض بلاد

الهند الساحلية، مثل تانة، وصِيمُور، وسَنْدَان، ومن بلاد السند على المنصورة ودَيْيل،

ثم يبلغ عُمان . ويكون فيه من أرض العرب : نَجْرَان، وهَجْر، وجَنَابَة، ومَهَرَة،

وسَبَا، وتَبَالَة، والطائف، وجُدَّة، ومَكَّة والمدينة، ومملكة الحبشة، وأرض البُجَّة،

وأُسْوان، وقوص، والصعيد الأعلى، وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهي إلى البحر

المحيط، وعرضه من غاية الإقليم الأول إلى سبع وعشرين درجة وأثنتي عشرة دقيقة.

وزعم بَطْلَيْمُوس أنّ فيه أربعائة وخمسين مدينة . وأهله بين السمرة

والسواد، وهو كثير الذهب .

٣ — وأما الإقليم الثالث . فبتدؤه من شرق أرض الصين، وفيه مدينة

مملكتها، حمدان، وفيه من بلاد الهند تانش والقنّدهار، ومن بلاد السند المولتان

وفزدار . ثم يمر ببلاد سِيحْسْتَان، وكَرْمَان، وفارس، وأَصْبَهَان، والأهواز، والبصرة

والكوفة، وأرض بابل، وبلاد الجزيرة، والشّام، وفِلَسْطِين، وبيت المقدس، والقُلْزُم،

والتيّه، وأرض مصر، والإسكندرية، وبلاد بَرَقَة، وإفريقية، وتَاهَرْت، وبلاد

(١) اسم لمدينة ببلاد الهند . قال البيروني : هي على الساحل . والنسبة إليها "تانشي" ومنها الثياب

التانشية (أنظر تقويم البلدان) .

(٢) في معجم ياقوت : جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس، وهي في الإقليم الثالث . وفي "تقويم

البلدان" (جنابة بلدة قد خرب غالبها، وهي فرضة لفارس، وضبطها ابن خلّكان بفتح الجيم والمشهور بالضم) .

(٣) هكذا بالأصل . ولعل المراد مدينة واقعة على النهر المشهور باسم حمدان ببلاد الصين .

(٤) في الأصول : "كرورا" وليس بالسند بلد بهذا الاسم . ويرجح أن النساخين حرقوه عن

"كردار" . ويقال فيه : "قُصار" (أنظر معجم ياقوت) .

طَنْجَة، والسُّوس، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الثاني في العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة. وأهله سمر.

٤ - وأما الإقليم الرابع. فببداؤه من أرض الصين، ويمتد على التبت والحق،^(١) ثم على جبال قشيمير، ووخان، وتل حسان، وكابل، والغور، وهرة، وبلخ، وطخارستان، ويمتد إلى الري، وقم، وهمدان، وحلوان، وبغداد، والموصل وأذربيجان. ويمتد على منبج، وطرسوس، والثغور، وأنطاكية، وجزيرة قبرس، وصقلية، ثم على الزقاق إلى البحر المحيط، وعرضه من غاية الإقليم الثالث في العرض إلى ثمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة.

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة. وأهله بين السمرة والبياض.

٥ - وأما الإقليم الخامس. فببداؤه من أرض الترك المشرفين على أجوج ومأجوج إلى كاشغر، وبلاساغور، وفرغانة، وإسفيدج، والشاش، وأشروسنة وسمرقند، ومجاري، وخوارزم، وبحر الخزر إلى باب الأبواب، وبرذعة، وميفارقين ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمر على رومية الكبرى، وأرض الجلالقة، وبلاد الأندلس، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثمانى عشرة دقيقة.

(١) في ياقوت: والختن. . . . وبرجان، وبدخشان. وهو الصواب.

(٢) لم نعر على بلدة بهذا الاسم ولعلها محرفة عن "وخش" وهي كما في معجم ياقوت: بلدة من نواحي

بلخ. وفي "تقويم البلدان" أنها بلدة بما وراء النهر في الإقليم الرابع.

(٣) أى حلوان العراق، لا حلوان مصر.

(٤) هي المشهورة أيضا باسم: إسفيدج.

(٥) أهل جليقية بشمال الأندلس.

وذكر بطليموس أن فيه سبعا وتسعين مدينة . وأكثر أهله بيض .

- ٦ - وأما الإقليم السادس . فببداؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكيماك، والتغزغز، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، واللان، والسير، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفريجة،^(١) وشمالى الأندلس، وينتهى إلى البحر المحيط، وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة .
- ٥ . وزعم بطليموس أن فيه ثلاثا وثلاثين مدينة، وهو كثير الأعداد والشلوج . وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور .

- ٧ - وأما الإقليم السابع . فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو فى المشرق غياض وجبال يأوى إليها طوائف من الترك كالمتموحشين . ويمتد على بلاد البجناك، ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، وينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم السادس إلى ثمة خمسين درجة ونصف . وفيه الأرض المحفورة، وهى وهدة لا يقدر أحد أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعدها . يسكنها أمة من الناس لا يدري من هم . وإنما علم أنها معمورة برؤية الدخان فيها نهارا، والنار ليلا . يشقها نهر يجرى، والعمارة محيطة به .
- ١٠ . وزعم بطليموس أن فيها ثلاثا وعشرين مدينة . وأهل هذا الإقليم بيض
- ١٥ . صهب الشعور .

وما بقى من المعمور إلى نهايته إلى ثلاث وستين درجة مضاف إلى هذا الإقليم ومحسوب فيه . يسكنه طوائف من الناس، هم بالهائم فى الخلق والخلق أشبه منهم بنى آدم .

(١) أى فرنسا .

٢ - ذكر ما يُمثل به مما فيه ذكر الأرض

يقال :

أحملُ من الأرض . أكرمُ من الأرض . أصبر من الأرض . آمن من الأرض . أوثق من الأرض . أوطأ من الأرض . أحفظ من الأرض . أكثر من الرمل . أظلم من الرمل . أعطش من الرمل . أوجد من التراب .

يقال :

قتل أرضاً عالمها ، وقتلت أرضٌ جاهلها . رماه بين سمع الأرض وبصرها . أخذت الأرض زخارفها . أفق قبل أن يُحمر ثراك . ابتغوا الرزق في خبايا الأرض .

ومن أنصاف الأبيات :

١٠ * الأرض من تربية والناس من رجل * * وأنى تُطَرُّ الأرض السماء *

ومن الأبيات :

والأرض لا تُطعم من فوقها * إلا ليكي تُطعم من تُطعمه

وقال آخر :

١٥ إذا الأرض أدت ربيع ما أنت زارع * من البذر فهي الأرض ناهيك من أرض

وقال آخر :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً * فكم تحتها قوم همومك أرفع

وقال آخر :

يا أرض كم وافد أهلك فلم * يرجع إلى أهله ولم يؤب

٣ - ذكر شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها
قال الأخطل :

وتيهاء مُمَحَالٍ كَأَنَّ نَعَامَهَا * بَارِجَانِهَا الْقُصُوى أَبَاعِرُ هُمَلٍ
تَرَى لَامِعَاتِ الْآلِ فِيهَا كَأَنَّهَا * رِجَالٌ تَعْرِى نَارَةً وَتَسْرُبِلُ
وَجُوزِ فَلَاةٍ لَا يُغْمَضُ رَكْبُهَا * وَلَا عَيْنٌ هَادِيهَا مِنَ الْخَوْفِ تَغْفُلُ
وَكُلُّ بَعِيدِ الْغُورِ لَا يُهْتَدَى لَهُ * بِعُرْفَانِ أَعْلَامٍ وَلَا فِيهِ مَنَهْلُ
مَلَاعِبِ جَنَّانٍ كَأَنَّ تُرَابَهَا * إِذَا أَطْرَدَتْ فِيهَا الرِّيحُ يُغْرِبِلُ
تَرَى الثَّلَبَ الْحَوْلَى فِيهَا كَأَنَّهُ * إِذَا مَا عَلَا نَشْرًا حِصَانٌ مُحْجَلُ

وقال ذو الرمة :

١٠ ودَوِيَّةٌ جَرْدَاءٌ جَدَاءٌ خِيَمَتْ * بِهَا هَبَوَاتُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
سَبَارِيْتُ يَحُلُو سَمْعُ مُحْتَازِهَا بِهَا * مِنَ الصَّوْتِ إِلَّا مِنْ صِيَاغِ الثَّعَالِبِ

وقال ذو الرمة :

وهَا حِرَّةُ السَّرَابِ مِنَ الْمَوَامِي * تَرْقُصُ فِي عَسَاقِلِهَا الْأُرُومُ
تَمُوتُ قَطَا الْفَلَاةِ بِهَا أُوَامًا * وَيَهْلِكُ فِي جَوَانِبِهَا النَّسِيمُ
مَلِئَتْ بِهَا الْمَقَامَ فَأَرَقَّتْنِي * هُمُومٌ لَا تَنَامُ وَلَا تَنِيمُ

وقال ضابئ البرجمي :

ودَاوِيَّةٌ تِيهِ يَحَارُ بِهَا الْقَطَا * عَلَى مَنْ عَلاهَا مِنْ ضُلُولٍ وَمَهْتَدَى
مُسَافَهَةٍ لِلْعَيْسِ نَاءٍ نِيَاطُهَا * إِذَا سَارَ فِيهَا رَاكِبٌ لَمْ يُغَرِّدْ

وقال مسلم بن الوليد :

٢٠ وَقَاطِعَةُ رِجْلِ السَّبِيلِ مُحَوِّفَةٌ * كَأَنَّ عَلَى أَرْجَائِهَا حَدَّ مَبَرٍ
مُؤَزَّرَةٌ بِالْآلِ فِيهَا كَأَنَّهَا * رِجَالٌ قَعُودٌ فِي مَلَأٍ مُعَمَّدِ

وقال الصاحب بن عباد :

وَتِيَّاءَ لَمْ تُطْمَثْ حُفٌّ وَحَافِرٌ * وَلَمْ يَدْرِ فِيهَا النَّجْمُ كَيْفَ يَغُورُ
مَعَالِمَهَا أَنْ لَا مَعَالِمَ بَيْنَهَا * وَأَيَاتُهَا أَنَّ الْمَسِيرَ غُرُورُ
وَلَوْ قِيلَ لِلْغَيْثِ أَسْقِهَا مَا أَهْتَدَى لَهَا * وَلَوْ ظَلَّ مِلءُ الْأَرْضِ وَهُوَ جَزُورُ
تَجَشَّعَتْهَا وَاللَّيْلُ وَحُفٌّ جَنَاحُهُ * كَأَنِّي سِرٌّ وَالظَّلَامُ ضَمِيرُ

وقال الشريف الرضي :

وَتَشْوِيقِ حَضْبَاؤُهَا * خُلِقَتْ لِنَارِ الْقَيْظِ جَمْرًا
تُبْدِي جَنَادِيهَا الْأَيْدِ * نَ أَسَى عَلَى الْمُجْتَازِ ظُهُرًا
وَتَرَى بِهَا الْعُصْفُورَ مَتَّخِذًا وَجَارَ الضَّبِّ وَكَرًا

وقال المتنبي :

مَهَالِكُ لَمْ يَصْحَبْ بِهَا الذُّبُّ نَفْسَهُ * وَلَا حَمَلَتْ فِيهَا الْغُرَابُ قَوَادِمُهُ
وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

وَمَفَازَةٌ لَا تَجْمَ فِي ظُلُمَائِهَا * يَسْرَى وَلَا فَلَكَ بِهَا دَوَارُ
تَتَلَهَّبُ الشَّعْرَى بِهَا فَكَأَنَّهَا * فِي كَفِّ زَيْجِي الدُّجَى دِينَارُ
تُرْمَى بِهَا الْغِيْطَانُ فِيهَا وَالرُّبَى * أَلْ كَمَا يَتَمَوَّجُ التِّيَّارُ
وَالْقُطْبُ مُلْتَرِمٌ لِمَرْكَزِهِ بِهَا * فَكَأَنَّهُ فِي سَاحِلِهِ مَسَارُ
قَدْ لَقِيَ فِيهَا الظَّلَامُ وَطَافَ بِي * ذُبُّ يُلِمُّ مَعَ الدُّجَى زَوَارُ
طَرِيقُ سَاحَاتِ الدِّيَارِ مُغَاوِرُ * خَبِثُ لَأَبْنَاءِ السُّرَى غَدَارُ
يَسْرَى وَقَدْ فَضَحَ الدُّجَى وَجْهُ الضِّيَا * فِي فَرُوقِ قَدَمِهَا أَفْشَعْرَارُ
فَعَشَوْتُ فِي ظُلُمَاءَ لَمْ يُقْدَحْ بِهَا * إِلَّا لِمُقْلِتِهِ وَبَاسِي نَارُ
وَرَفَلْتُ فِي خَلْعٍ عَلَى مَنْ الدُّجَى * عَقِدْتُ بِهَا مِنْ أُنْجُمِ أَزْرَارُ
وَاللَّيْلُ يَقْصِرُ خَطْوَهُ وَلَرَبَّمَا * طَالَتْ لِيَا لِي الرُّكْبِ وَهِيَ قَصَارُ

وقال آخر :

ومَجْهُولَةُ الْأَعْلَامِ طَامِسَةُ الصَّوَى * إِذَا عَسَقَتْهَا الْعَيْسُ بِالرَّكْبِ ضَلَّتْ
إِذَا مَا تَهَادَى الرَّكْبُ فِي فَلَوَاتِهَا * أَجَابَتْ نِدَاءَ الرَّكْبِ فِيهَا فَأَصْدَتْ
وقال مسعود أخو ذى الرمة يصف بُعد فلاة :

وَمَهْمُهُ فِيهَا السَّرَابُ يَلْمَحُ * يَذْأَبُ فِيهَا الْقَوْمُ حَتَّى يَطْلَحُوا
ثُمَّ يَنْظُرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَبْرَحُوا * كَأَنَّمَا أَمْسَوْا بِمِثْ أَصْبَحُوا
وقال مسلم :

تَجْرَى الرِّيحُ بِهَا مَرَضَى مُوَلَّهَةً * حَسْرَى تَلَوِّذُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ
وقال آخر :

وَدَوِيَّةٌ مِثْلَ السَّمَاءِ قَطَعَتْهَا * مَطْوِقَةٌ آفَاقُهَا بَسَائِهَا

وقال بعض الأعراب^(١) فى الآل :

كَفَى حَزَنًا أَنَّى تَطَالَّتْ كَى أَرَى * ذُرَى عَلَمَى دَخَّ فَمَا يَرِيَانِ
كَأَنَّهُمَا وَالْأَلُ يَنْجَابُ عَنْهُمَا * مِنَ الْبُعْدِ عَيْنًا بَرِّقَ خَلْقَانِ
قال أبو هلال : وهذا من أغرب ما روى من تشبيهات القدماء .

وقال آخر :

وَالْآلُ تَنْزُو بِالْصَّوَى أَمْوَاجُهُ * نَزَوَ الْقَطَا الْكَدْرِىَّ فِي الْأَشْرَاكِ
وَالظِّلُّ مَقْرُونٌ بِكُلِّ مَطِيَّةٍ * مَشَى الْمَهَارِ الدُّهْمَ بَيْنَ رِمَاكِ

وقال ابن المعتز :

وَمَا رَاعَنِى بِالْبَيْنِ إِلَّا ظَعَائِنُ * دَعَوْنَ بُكَائِي فَاسْتَجَابَ سَوَاكِبُهُ
بَدَّتْ فِي بَيَاضِ الْآلِ وَالْبَعْدُ دُونَهُ * كَأَسْطَرِّ رَقٍّ أَمْرَضَ الْخَطَّ كَاتِبُهُ

(١) هو طهمان بن عمرو الدارمى ، كما فى ياقوت . وأورد القصيدة بتمامها ، وهى خمسة عشر بيتا .
(أنظر معجم البلدان له فى أسم دحج) .

الباب الخامس

من القسم الرابع من القرن الأول

١ - في الجبال

قال الله تعالى : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ .

قال المفسرون : خلق الله عز وجل الأرض على الماء فمادت وتكفأت ، كما تتكفأ السفينة ، فأثبتها بالجبال . ولولا ذلك ما أقترت عليها خلقا .

وروى أبو حاتم في كتاب العظمة ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : "إن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تميده ، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة من خلق الجبال ، وقالت : يارب هل خلقت خلقا أشد من الجبال ؟ قال : الحديد ، قالت : فهل من خلق أشد من الحديد ؟ قال : النار ، قالت : فهل من خلق أشد من النار ؟ قال : الماء ، قالت : فهل من خلق أشد من الماء ؟ قال : الريح ، قالت : فهل من خلق أشد من الريح ؟ قال : ابن آدم ، يتصدق يمينه فيخفيها عن شماله " .

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : "كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض . فبعث الله ريحا فعصفت الماء فأبرز عن حشفة في موضع البيت . فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال " .

فكان أول جبل وُضع ، جبل أبي قبيس . وهو الجبل المطل على الكعبة . وفي كنيته بأبي قبيس قولان :

أحدهما — أن آدم كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس (وقد تقدم بيان ذلك في الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفن في ذكر النيران) .

الثاني — انه أضيف إلى رجل من جرهم كان يتعبد فيه، اسمه أبو قيس .
ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال . وكان من قبل يسمى بالأمين .
وقال محمد بن السائب الكلي : إن الله عز وجل لما خلق الأرض ، مادته
بأهلها فضر بها بجبل السراة فأطمأنت .

وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرا ، ويسمى الحجاز . وهو الذي حجز بين
تهامة ونجد . فتهامة من جهته الغربية مما يلي البحر ، ونجد من جهته الشرقية .
وهو أخذ من "قعر عدن إلى أطراف الشام" ^(١) . ويسمى هناك جبل لبنان . فإذا تجاوز
اللاذقية ومرر بالثغور ، سمي جبل اللكّام . ثم يمتد في بلاد الروم إلى بلاد إرمينية ،
فيسمى هناك حارثا وحويثا . ثم يمتد إلى بحر الخزر ، وفيه "الباب والأبواب" .
وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : (قَ وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ) : إنه جبل محيط
بالعالم من زمردة خضراء ، وإن جبال الدنيا متفرعة عنه .

وقال قوم : إن السماء مطبقة عليه والشمس تغرب فيه ، وهو الحجاب الساتر لها
عن أعين الناس ، في أحد الوجوه المفسر بها قوله تعالى : (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) .
وقال قوم . إن منه إلى السماء مقدار ميل ، وإن الذي يرى من خضرة السماء
مكتسب من لونه .

وقال ابن حوقل : جميع الجبال الموجودة في الدنيا متفرعة عن الجبل الخارج
من بلاد الصين ، مشرقا ذاهبا على خط مستقيم إلى بلاد السودان مغربا .

(١) في الأصل أطبران ، وهو تحريف . والتصحيح عن البكري : "أطراف الشام" وفيه في موضع آخر
"أطراف بوادي الشام" ومثل هذا في معجم ياقوت . وأطراف الوادي : نواحيه وكذلك أطراف البلاد
والطريق واحداه طر . وأطراف البلاد : أطرافها . (انظر تاج العروس في مادة طر) .

(٨٠)

وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر في "كتاب الحراج" : وجدت خلف خط الاستواء في الجنوب وقبل الإقليم الأول جبلا تسعة : خمسة منها متقاربة المقادير، أطوالها ما بين أربع مائة ميل إلى خمسمائة ميل ؛ وجبلا طولها سبعمائة ميل ؛ وجبل القمر، وطوله ألف ميل ؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الأول ؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الثاني .

قال : ومجموع ما عُرف في الأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلا : منها في الإقليم الأول سبعة عشر جبلا ، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم الثالث أحد وثلاثون جبلا ، وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلا .

٢ - ذكر أسماء ما أرتفع من الأرض إلى أن يبلغ الجليل

ثم ما أرتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم وترتيب ذلك

قال الثعالبي في كتابه المترجم "بفقه اللغة" وأسندته إلى أئمتها :

أصغر ما أرتفع من الأرض النبكة ؛ ثم الرابية أعلى منها ؛ ثم الآكمة ؛ ثم الزبية ؛ ثم النجوة ؛ ثم الربع ؛ ثم القف ؛ ثم الهضبة (وهي الجبل المنبسط على الأرض) ؛ ثم القرن (وهو الجبل الصغير) ؛ ثم الدك (وهو الجبل الذليل) ؛ ثم الضلع (وهو الجبل الذي ليس بالطويل) ؛ ثم النيق (وهو الجبل الطويل) ؛ ثم الطود ؛ ثم الباذخ والشاخ ؛ ثم الشاهق ؛ ثم المشخر ؛ ثم الآقود والأخشب ؛ ثم الأيهم ؛ ثم القهب (وهو العظيم) ؛ ثم الخشام .

(١) في الأصل : لجليل الديك . وقد آتينا ما في القاموس وفقه اللغة أيضا .

٣ - ذكر ترتيب أبعاد الجبل

قال الثعالبي :

أول الجبل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصل الجبل .

ثم السَّفْح، وهو ذيله .

ثم السَّنَد، وهو المرتفع في أصله .

ثم الكَيْحُج، وهو عَرْضُه .

ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به .

ثم الرِّيد، وهو ناحيته المشرفة على الهواء .

ثم العُرْعُرَة، وهي غلظه ومعظمه .

ثم الحَيْد، وهو جناحه .

ثم الرَّعْن، وهو أنفه .

ثم الشَّعْفَة، وهي رأسه .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : يقال من أسماء الجبال : العظيم منها الطَّوَر،

والطَّوْد، والكَفَر، والقَهَب، والعمود، والعَلَم، والأرْعَن، والمُشَمِّخَر .

والأَيْهَم : الطويل، وهو الشَّاحُخ، والشَّاهِقُ، والبَازِخُ، والبَاسِقُ، والأَقْوَدُ .

والأَخْشَب : الخَشِن .

والعِقَابُ : الصَّعَاب .

والثَّنَايَا : التي ليست بصَعْبَة .

والهَرَشْمُ : النَّخَر .

والخُشَام : جبل طويل ذو أنف .

والوَزْر، والمَلَجَا، والقَلْعَة : ما يُحَصَّن فيه .

- والقرن : جبل صغير .
 والضلع والدك : فيه دقة وأنحاء .
 والنيق : الذي لا يستطيع أن يرتقى إليه .
 وأعلى الجبل : قلته وقته وذؤبته .
 وعمر عمرته : غلظه .
 والفند : القطعة منه .
 وشعفه ومصاده : أعلاه .
 والكبح والكاح : غرضه .
 والريح : ناحيته المشرقة على الهواء .
 والحضيض : أسفله .
 قال : وصغار الجبال ، اليمع ، والضرس ، والضرب ، والعنابية ، والعنوت^(٢) ،
 والأكمة ، والهضبة .
 والذريجة : ما أنبسط على وجه الأرض .
 واللؤذ : حوض الجبل وما يطيف به .
 والريد والريود : نواحيه المحددة .
 والمبد : شاخص يتقدم كالجناح ، ومثله الشنعوف .
 والصدع والشقب : شق فيه .
 والغار والكهف : مثل البيوت فيه .

(١) في الأصل : الوح بالواو . وهو تصحيف من الناسخ . وقد صححناه اعتماداً على ما في القاموس والمخصص .

(٢) كذا بالأصل ولم نعر عليها في القاموس واللسان والمخصص .

والقرْدُوعَةُ : الزاوية فيه .

واللَّهَبُ والنَّفْنَفُ والغَارُ : مهوأة بين جبلين .

والشُّوْنُ : خُطُوط فيه .

والمَحْرِمُ : مُنْقَطِع أنفه .

والقِرْناس : شبه الأنف .

والإِرَم : العلم فيه .

٤ - ذكر ترتيب مقادير الحجارة

قال الثعالبي :

إذا كانت صغيرة، فهي حَصَاة .

فإذا كانت مثل الجَوْزَةِ وصلحت للاستنجاء بها، فهي نَبْلَةٌ . وفي الحديث :
”اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ وَأَعِدُوا النَّبْلَ“ . يعني عند إتيان الغائط .

فإذا كانت أعظم من الجَوْزَةِ، فهي قُرْزَعَةٌ .

فإذا كانت أعظم منها وصلحت للقُدْفُ، فهي مَقْدَافٌ وَرُجْمَةٌ وَمِ دَاةٌ . ويقال :
إِنَّ الْمِرْدَاةَ حَجَرُ الضَّبِّ الَّذِي يَنْصِبُهُ عِلَامَةٌ لِلْحُجْرَةِ .

فإذا كانت ملء الكف فهي يَهِيرٌ .

فإذا كانت أعظم منها، فهي فِهْرٌ، ثم جَنْدَلٌ، ثم جَلَمَدٌ، ثم صَخْرَةٌ، ثم قَلْعَةٌ .
وهي التي تنقلع من عَرْضِ الجبل . وبها سميت القَلْعَةُ التي هي الحِصْنُ .

وقال صاحب كتاب ”الفاخر“ : من أسمائها الْحِجَارَةُ، وَالْحُمُودُ وَالْجَلَمَدُ :

الحجر الصُّلْبُ .

(٨١)

- والبرطيل : الصخرة العظيمة .
 والصفوان : الأملس .
 والرضمة : الحجر العظيم .
 والأتان : صخرة في مسيل ماء أو حافة نهر .
 والإزاء : التي عند مهراق الدلو .
 والرجمة : ما تطوى به البئر .
 والكذآن : الرخو .
 واليرمع : الأبيض الرخو .
 والمُدقُّ والمداك والصلابة : حجر العطار الذي يسحق عليه العطر .
 والفهر : ما يملأ الكفَّ ويُسحق به العطر .
 والمرداة : ما يكسره الحجر .
 والمرداس : ما يُرمى به في البئر لينظر أفيها ماء أم لا . قال الشاعر :
 مَنْ جَعَلَ الْعِدَّ الْقَدِيمَ الَّذِي * أَنْتَ لَهُ عِدَّةٌ أَحْرَاسِ
 إِلَى ظُنُونِ أَنْتَ مِنْ مَائِهِ * مَتَّظِرٌ رَجْعَةَ مِرْدَاسِ
 والنشف : حجر تُدلك به الرجل في الحمام .
 والنقل : ما كان في طرق الجبال .
 والأثفية : ما يُنصب عليه القدر .
 والقلاعة : ما يُرمى به في المقلع .
 والظران : حجارة محددة يُذبح بها .
 والصفيح : ما رُق منه وعرض .
 والخاف : حجارة عراض .

- والفَلَك : قِطْعَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ وترتفع عما حولها .
 والمُدْمَلَك : المدور .
 والكَلَيْت : حَجَرٌ مُسْتَدِيرٌ يُسَدُّ بِهِ وَجَارُ الضَّبْعِ .
 والبَلَيْت : التام .
 وقال ابن الأعرابي : القَيْسِلَة : صخرة على رأس البئر ، والعَقَابَان من جنبتيها يعضدانها .
 ومنها المَرَو ، وهي البيض كالخصى .
 والحَصْبَاء : الصغار .
 والرَّضْرَاض : نحوها .
 والقَضِيض : أصغر منها .
 والزَّنَانِير : واحدُها زُنَيْرٌ ، أصغر ما يكون .

٥ - ذكر ما يُتَمَثَّلُ به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

- ما جاء من ذلك على لفظ أَفْعَل . يقال :
 أَثْقَلُ من ثَهْلَان . أَثْقَلُ من نَصَادٍ . أَثْقَلُ من أَحَدٍ . أَصْلَبُ من الْحَجَرِ . أَصْلَبُ
 من الجَنْدَل . أَقْسَى من الحجر . أَصْبَرُ من حجر . أَيَسُّ من صَخْر . أَيْقَى من النَّقْشِ
 في الحجر .

ويقال :

رُمِيَ فلان بحجره . رَدَّ الحجر من حيث جاءك . وَجَّهَ الحجرَ وَجْهَةً قَا ، أى دَبَّرَ
 الأمرَ على وَجْهه . أَلْقَمَهُ الحجرَ ، أى جاوَبَهُ بِجَوَابٍ مُسَكَّتٍ . رَمَاهُ بِثَلَاثَةِ الْأَثَاثِي .

(١) كذا بالأصل وعبارة القاموس (والبلية كسكيت لفظاً ومعنى) في اللسان : (والبلية : الرجل

الزيت) ودو الحليم الساكن القليل الكلام .

أُنَجِّدَ مَنْ رَأَى حَضَنًا (وَحَضَنَ جَبَلٌ بِنَجْدٍ) أَى مِنْ رَأَاهُ لَمْ يَحْتَجِ أَنْ يُسْأَلَ هَلْ بَلَغَ
نَجْدًا أَمْ لَا . اللَّيْلُ يُوَارِي حَضَنًا ، أَى يُخْفِي كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْجَبَلَ .

ومن أنصاف الأبيات :

* كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ * * إِذَا قَطَعْنَا عَالَمًا بَدَأَ عِلْمٌ *

* قَوْمُوا أَنْظُرُوا كَيْفَ تَزُولُ الْجِبَالُ *

(يَضْرِبُ لَمُوتِ الرُّؤْسَاءِ) .

* جَنْدَلَانِ أَصْطَقَا أَصْطَقَا كَا *

(يَضْرِبُ لِقَرْنَيْنِ يَتَصَاوِلَانِ) .

ومن الأبيات :

وَلَوْ بَنَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ * لَانْهَدَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

١٠

تَتَنَاقَرُ الْأَطْوَادُ وَهِيَ شَوَاخِجٌ * حَتَّى تَصِيرَ مَدَاسَ الْأَقْدَامِ
جُدٌّ فَقَدْ تَنَفَّجِرُ الصَّخْرُ * رُءُؤٌ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ

٦ - ذَكَرَ شَيْءٌ مِمَّا قِيلَ فِي وَصْفِ الْجِبَالِ وَتَشْبِيهِهَا

قَالَ السَّمُوعِلُ بْنُ عَادِيَا :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ يُجِيرُهُ * مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَاءُ بِهِ * إِلَى النَّجْمِ فَرْعٌ لَا يُرَامُ طَوِيلُ

١٥

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَفَاجَةَ الْأَنْدَلُسِيِّ :

وَأَرَعَنَ طَمَاحُ الدُّوَابَةِ بَادِخٌ * يُطَاوِلُ أَعْنََابَ السَّمَاءِ بَغَارِبُ
يَصُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ * وَيَرْحَمُ لَيْسَانُ شُجْبِهِ بِالْمَنَاصِبِ
وَقُورٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ * طَوَالِ اللَّيَالِي نَاطِرٌ فِي الْعَوَاقِبِ

٢٠

يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سُودَ عَمَائِمَ * لَهَا مِنْ وَمِيزِ الْبَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ
 أَصَحَّتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسُ صَامِتٌ * فَخَدَّتْنِي لَيْلُ السَّرَى بِالْعَجَائِبِ
 وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مُلْجَأَ فَاتِكِ * وَمَوْطِنَ أَقْوَاهِ وَمَوْئِلَ تَائِبِ
 وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤَوِّبِ * وَقَالَ بَسْفِجِي مِنْ مَطِيٍّ وَرَاكِبِ
 وَلَا طَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّيَّاحِ مَعَاطِفِي * وَزَاخَمَ مِنْ خُضْرِ الْيَحَارِ جَوَانِبِي
 فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّتَهُمْ يَدُ الرَّدَى * فَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَابِ
 وَمَا غِيَضَ السُّلُوكُ دَمْعِي وَإِنَّمَا * نَزَفْتُ دُمُوعِي مِنْ فِرَاقِ الْأَصَاحِبِ
 وَأَسْتَمَعِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ * يُتَرَجِّمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
 فَسَلِّ بِمَا أَبْصَى وَسَرَّ بِمَا شَجَا * وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السَّرَى خَيْرَ صَاحِبِ
 وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ مَطِيَّتِي * سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبِ

وقال أيضا عفا الله عنه :

(٨٢)

وَأَشْرَفَ طَمَاحُ الدُّؤَابَةِ شَاخِ * تَمَنَّقَ بِالْجُوزَاءِ لَيْلًا لَهُ خَصَرُ
 وَقَوَّرَ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي كَأَنَّمَا * يُصَيِّخُ إِلَى نَجْوَى وَفِي أُذُنِهِ وَقَرُ
 تَمَهَّدَ مِنْهُ كُلُّ رُكْنٍ زَكَا بِهِ * فَقَطَّبَ إِطْرَافًا وَقَدْ صَحَّكَ الْبَدْرُ
 وَلَا ذَ بِهِ نَسْرُ السَّمَاءِ كَأَنَّمَا * يُجَسِّرُ إِلَى وَكْرِ بِهِ ذَلِكَ النَّسْرُ
 فَلَمْ أَذَرِ مِنْ صَمْتٍ لَهُ وَسَكِينَةٍ * أَكْبَرَةُ سَنٍّ وَقَرَّتْ مِنْهُ أُمُّ كَبُرُ

وقال أيضا يصفه نثرا من رسالة كتبها الى بعض الرؤساء :

وكيف لي بقُربِكَ ودُونِكَ كُلِّ عِلْمٍ بَاذِخٍ ، حَجَّ اللَّيْلِ عَلَيْهِ رُضَابُهُ ، وصَاخَتْ
 النُّجُومُ هِضَابُهُ ، قَدْ نَاءَ بِطَرْفِهِ ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ ، وَسَارَ الْوَقَارُ عَلَى عِطْفِهِ ، قَدْ لَاحَ مِنْ
 عَمَامِهِ عَمَامُهُ ، وَأَرْسَلَ مِنْ رَبَابِهِ دُؤَابُهُ ، تُطَرِّزُهَا الْبُرُوقُ الْخَوَاطِفُ ، وَتَهْفُو بِهَا الرِّيَّاحُ
 الْعَوَاصِفُ ، بِحَيْثُ مَدَّهُ الْبَسِيطُ بَسَاطًا ، وَضَرَبَتْ السَّمَاءُ فُسْطَاطًا .

الباب السادس

من القسم الرابع من القرن الأول

١ - في ذكر البحار والجزائر

روى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: "لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ووصف من طولها وعرضها وسماها، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء يتفرق لا يثبت في صمخها. فما يرى من التمجج والاضطراب إنما هو ارتعاده من خشية الله تعالى؛ ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه؛ ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء". وفسر بهذا قوله عز وجل: ((وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)).

٢ - ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر مانيطش^(١)، ثم بحر الخزر. فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمى باليونانية أوقيانوس، ويسمى بحر الظلمات، سُمي بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحلله الشمس لأنها لا تطلع عليه. فيغلظ ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته. ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه، وكثرة أهوائه، لم يعلم العالم من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور. والذي علم به من الجزائر ست من جهة المغرب، تسمى جزائر السعادات، والجزائر الخالدات.

(١) كذا في الأصل، وفي كثير من كتب الجغرافية العربية، وهو المعروف في كتب الجغرافية

العربية مثل أبي الفدا ببحر أزق، وعند الأتراك ببحر آزوف.

قال أبو عبيد البكري في كتابه المترجم "بالمسالك والممالك" : وبإزاء طنجة
 الجزائر المسماة باليونانية، فُرتانُس أي السعيدة . وسميت بذلك لأن في شَعْرانها^(١)
 وغياضها كلّها أصناف الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحه، وأن أرضها تحمل
 الزرع مكان العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك . وهي متفرقة متقاربة .

- ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر،
 فنزل من فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه
 وأنواع اليواقيت كل مستحسن . فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس .
 فسألهم ملكها من أين لهم هذا فأخبروه بأمرهم، فجهز مراكب وسيرها، فلم يقفوا على
 جزيرة منها . وعدمت المراكب لعظم البحر وشدة عصف الريح فلم يرجع منها شيء .
 ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم بالوحوش أشبه منهم بالناس . وبينها
 وبين ساحل البحر عشرة أجزاء .

- ويقال إن في جهة المشرق مما يلي بلاد الصين ست جزائر أخرى، تسمى جزائر
 السيلي . يقال إن ساكنيها قوم من العلويين، وقعوا إليها لما هربوا من بني أمية .
 ويقال إن جزائر السيلي لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج
 منها لصحة هوائها ورقة مائها، وإن كان منها في عيش قشيف .
 وفي هذا البحر من الجزائر العاصرة جزيرة برطانية، وهي تحاذي جزيرة
 الأندلس، وأهلها صُهب الشعور، زُرَق العيون .

ومما يلي بلاد إفريقية جزائر يعمرها خلق من الفرنج، لا ينقادون لبلد،
 ولا يدينون بدين .

(١) الشعراء : الأرض ذات الشجر .

وفيا بلى الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة ، يحيط بها سبعمائة ميل ونمسون ميلا ، وفيها أربع مدائن في كل مدينة ملك .

وجزيرة برفاغة . يحيط بها أربعة آلاف ميل ، وفيها ثلاث مدائن عامرة .
والداخل إليها قليل . وهى كثيرة الأنواء والأمطار . وأهلها يحصدون زرعها قبل
جفافه لقلّة طلوع الشمس عندهم ، ويجعلونه فى بيت ويوقدون النار حوله
حتى يجف .

وجزيرة أنقلطرة . فيها مدائن عامرة ، وجبال شاهقة ، وأودية ، وأرض
سهلة . والشتاء بها دائم . وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سبعة أشهر ميلا .

وفيه مما بلى الصقالبة جزيرتان : إحداهما جزيرة أمر نانيوس النساء ، لا يسكنها
غير النساء فقط . وتسمى الأخرى أمر نانيوس الرجال ، لا يسكنها غير الرجال . وهم
فى كل عام يجتمعون زمان الربيع ، ويتناحون نحو من شهر ثم يفترون .

ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما اكثرة الغمام ، وظلمة
البحر ، وعظم الأمواج .

٣ - ذكر ما يتفرع من البحر المحيط

يتفرع من البحر المحيط خليجان : أحدهما من جهة المغرب ، ويسمى البحر
الرومى . والآخر من جهة المشرق ، ويسمى البحر الصينى ، والهندي ، والفارسى ،
والينى ، والحبشى ، بحسب ما يمتز عليه من البلاد .

وهما المرادان بقوله تعالى : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) .
أى لا يبغي هذا على هذا .

والبرزخ أرض بين المَرَمَا التي هي على بحر الروم، وبين مدينة القلزم التي هي على بحر الحبش^(١)، مسافتها ثلاثة أيام . وقيل : البرزخ إرسال ماء البحر الحلو على ماء البحر المالح ، لأنه مغيض له . فلا سبيل لأحدهما على الآخر، بل جعل الله بينهما حاجزا وهو البرزخ .

- فأما البحر الروميّ وجزائره ، فإن المؤرخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط . ويقولون إن جزيرة الاندلس وبلاد البربر كانت أرضا واحدة يسكنها الإشبان والبربر . وكان بعضهم يُغير على بعض ، والحرب بينهم سجال . فلما ملك الإسكندر ، رغب إليه الإشبان فيما يحول بينهم وبين البربر . فرأى أن يجعل بينهما خليجا من البحر يمكن به احتراس كل طائفة من الأخرى . فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا ، وعرضه اثنا عشر ميلا . وبني بجانيه سكرين^(٢)، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها ، وجعل عليها حراسا يمنعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله نائبا عنه في بلاد الإشبان . وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق ، فطما وغطى السكرين والقنطرة ، وساق بين يديه بلادا وطغا على أخرى . حتى إن المسافرين فيه يخبرون أن المراكب في بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح . فيسبرون أمرها ، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين .
- ١٥ فعضم طولها وعرضها ، وصار بحرا^(٣) .

قال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر" : وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه في زمن الإسكندر . فصار ثمانية عشر ميلا .

(١) في الأصل بحر فارس . وكانت الأصوب أن يعبر باللفظ الذي اختاره لهذا المقام ، وهو البحر الحبشي .

(٢) السكر (بكسر السين) هو ما سد به النهر .

(٣) هو المسمى بحر الزقاق واسمه الآن مجاز جبل طارق .

قال : وزعم السالكون فيه أن البحر ربما جزر في بعض الأوقات ، فُتْرِى القنطرة . قالوا : وهذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج مهول ، شبيه بما جاوره من البحر المحيط .

وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرا يسمونه بحر الأيالية بتفخيم اللام^(١) . وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك .

ومبدأ جريه من البحر الرومى من الإقليم الرابع . فإذا خرج من الزقاق يمر مشرقا في جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى إلى أن يمر بالمغرب الأوسط ، إلى إفريقية ، إلى برقة ، إلى الإسكندرية إلى شمال أرض التيه وأرض فلسطين . فيمر بسواحل الشام إلى أن يصل إلى السويدية التي هي فرضة أنطاكية ، وعندها حجز البحر . ومنها يعطف فيمر على العاليا وأنطالية (وهما فرضتان لبلاد الروم) ، ثم على ظهر بلاد قسطنطينية إلى أن ينتهى إلى المكان الذى منه خرج . وطوله خمسة آلاف ميل ، وقيل ستة آلاف . وعرضه مختلف : ففي موضع ثلثائة ميل ، وفي موضع ستمائة ميل ، وفي موضع سبعمائة .

ويقال إن فيه ما يزيد على مائة وسبعين جزيرة . كانت عامرة بطوائف من الفرنج ، أحرب المسلمون أكثرها بالمغازى في صدر الاسلام .

وأجل ما ملك المسلمون منها ، ثم انتزع أكثره من أيديهم :

١ - جزيرة الأندلس .

٢ - وجزيرة يابسة . وهى حيال جزيرة الأندلس ، ومسافتها يومان في يوم . وفيها مدينة صغيرة مسورة .

(١) لعل المؤلف يشير الى خليج ليون فهو مشهور بشدة التيار و بصعوبة السلوك .

٣ - وجزيرة منركة، ومساقمها يومان في نصف يوم . وفيها مدينة عامرة .

٤ - وجزيرة ميورقة . ويقال فيها ما يورقة . ومساقمها يومان في يومين وبها مدينة .

٥ - وجزيرة رودس ^(١) . وهي حيال بلاد أفرنجة ^(١) . ويحيط بها ثلثمائة ميل . وفيها حصنان .

٦ - وجزيرة سرديانية . وطولها مائتان وثمانون ميلا، وعرضها مائة وثمانون ميلا . وفيها ثلاث مدائن كبار . وسكانها قوم من الفرنج متوحشون . وبها معدن فضة .

٧ - وجزيرة صقلية . وهي حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس . وشكلها مثلث . يحيط بها خمسمائة ميل . كثيرة الجبال، والحصون، والأمصار، والأنهار، والأشجار .

ومما فيها من المدن المشهورة على ساحل البحر :

بلرمو . وبها يكون الملك ؛ وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم أنتقل الناس منها إلى الخالصة . وهي محدثة . بنيت في أيام القائم بن المهدي العبيدي في سنة خمس وعشرين وثلثمائة . ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضا لها ؛ وقطانية . وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذي في الجزيرة ، فبنى الأمبراطور مدينة عوضها، وسماها غشطارة .

ومسيني ؛ وهي على أحد أركان الجزيرة .

وسرقوسة ؛ وهي على الركن الآخر، والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها .

(١) هذا الوصف لا ينطبق على جزيرة رودس ، بل على جزيرة قورسقة التي هي حيال بلاد أفرنجة أي فرنسا ، وهي تابعة لها .

وطرابنش . وهى على الركن الثالث ، والبحر محيط بها ، ولها مجاز .
ومن بلاد هذه الجزيرة : البرية ، والشافة ، ومازر ، وكر كنت ، ونوطس ،
وطبرمين ، وقصريانة ، والنور ، ورغوص ، وغيطة وغير ذلك .

وبهذه الجزيرة . (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان ، وهو أطيمة يخرج منها^(١)
أجسام كأجسام الناس بغير رعوس من النار ، فتعلو في الهواء ليلا ثم تسقط في البحر ،
فتطفو على وجه الماء . ومنها يكون حجر المرو الذى تُحك به الأرجل .

٧ - وجزيرة بلونس . ودورها ألف ميل . ولها مجاز إلى البر الطويل ،
عرضه ستة أميال . فيها ما يزيد على خمسين مدينة ، القواعد منها خمس عشرة مدينة ،
وهى مشهورة عند الفرنج .

٨ - وجزيرة مالطة . وطولها أربعة وعشرون ميلا ، وعرضها اثنا عشر ،
وفى وسطها مدينة واحدة .

٩ - وجزيرة قوسرة . وفيها مواضع متوحشة .

١٠ - وجزيرة إقريطش . وهى حيال برقة . طولها ثلثمائة ميل ، وعرضها
مائة وثلاثون ميلا ، وبها مدينتان : إحداهما تسمى الخندق ، والأخرى تسمى رibus
الجبين ، وفيها معدن ذهب .

١١ - وجزيرة قبرس . وهو اسم النحاس ، لأن بها معدن نحاس ، يحيط بها
ألف ميل وخمسمائة ميل ، وفيها من المدن الجليلة ، ليمسون ، وآلپاف بباء مفخمة ،
والماغوصة ، وكلها فى البحر ، وفى وسط الجزيرة مدينة الأفقسية ، وهى القصبة ،
وبها يكون متولى الجزيرة .

(١) أطيمة كسفينة : موقد النار وأتون الحام وتجمع على أطائم . وفى الأصل : «أطمة» على وزن
أكمة : اسم حصن ، وهو لا يناسب السياق .

٤ - ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة، والآخر يسمى خليج القسطنطينية .

١ - فأما خليج البنادقة، فإنه خليج كبير متسع ليس له فوهة، وإنما هو جون له ركان، سعة ما بينهما سبعون ميلا، يحيط بهذا الجون مدن جلييلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة، وهي ذوات حصون وقلاع ممتنعة .

ومبدؤه من شرق بلاد قلورية عند مدينة تسمى أذرت^(١)، ومنتهاه بلاد إيكلاية^(٢) . ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل، وفيه ست جزائر، ثلاث منها في ضفة، وثلاث في أخرى، بها مدن عامرة، وثلاث معترضة بين ركنيه مهملة لا ساكن بها .

٢ - وأما خليج القسطنطينية . ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة لجزيرة رودس، وسعتها غلوة سهم . ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها في برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها . ويمتد هذا الخليج نحو مائتي ميل وخمسين ميلا إلى أن ينتهي إلى القسطنطينية فتكون في غربيه، يحيط بجھتين منها .

١٥ وهي مدينة عظيمة مشهورة، وعرض البحر عندها أربعة أميال . ثم يمتد ستين ميلا حتى ينصب في بحر ما نيطش، وهو بحر سوداق، وعرض فوهته هناك عشرة أميال، وفي موضع أقل، وفي موضع أكثر . فهذا البحر الرومي وجزائره وما تفرع منه . والله أعلم .

٣٠ (١) في الأصل "أكدت" وهو تحريف لمدينة أذرت قال في نزهة المشتاق : "خليج البنادقين ومبدؤه من شرق بلاد قلورية . . . من عند أذرت . . . وينتهي طرفه إلى بلاد إيكلاية" .
(٢) في الأصل "إيكلاية"، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية التي ذكرها الإدريسي في هذا الموضع .

٥ - وأما بحر الهند وجزائره

فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء ؛ ويجرى إلى جهة الغرب ،
فيجتاز ببلاد الواق ، وبلاد سُفالة الزنج ؛ ثم ببلاد الزنج حتى يصل إلى بلاد بربرا ،
وهناك حمزه .

وأما الشرق : فمبدؤه من لوقين ، وهي أول مرافئ الصين ، ثم بخانقو فُرُضَة
الصين العظمى ؛ ثم إلى سَمَنْدُور من بلاد الهند ؛ ثم إلى حارتين ، إلى قندرينة ،
إلى تانه ، إلى سندابور ، إلى بَرُوص (ويقال بَرُوج ، واليه ينسب القماش البروجي) ،
إلى صَمِير (٣) ، إلى سَنْدَان ، إلى سوتارة ، إلى كنباية . (واليه ينسب القماش الكنبائي) ،
إلى دَبِيل (وهي أول مرافئ السند) ؛ ثم إلى سرون ، ثم إلى التيز من بلاد مُكَرَّان ،
وهي أحد ركني الخليج الفارسي . والركن الآخر يسمى رأس الجُمُحَة : وهو جبل
خارج في البحر ، ومن هناك يسمى بحر اليمن ، ثم يمتد على ظَفَار ؛ ثم على الشَّحْر
ساحل بلاد مَهَرَّة ؛ ثم على شُرْمَة وَلَسْعَا (ساحل بلاد حضر موت) ، ثم على أَيْن ،
ثم على عَدَن ، ثم المَخْنَق ، ثم العارة ، ثم يمتد إلى باب المندب .

(١) قال البيروني (في كتاب تحقيق ما للهند ص ١٠٣ سطر ٧) ما نصه : جزيرة الوقواق من جملة
قير . وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كرهوس الناس تصيح ولكن قير قوم ألوانهم الى البياض
قصار القددود على صور الأتراك ودين الهنود مخزمو الآذان وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان والناس
فيهم أرغب ويحب منها الآبنوس الأسود وهو لب شجرة تلتقي حواشيا فأما الملمع والشوحط والصندل
الأصفر فن الزنج . اهـ

(٢) لعل المقصود : قندابيل (وقد ذكرها ياقوت) .

(٣) ويقال : صميون بالنون (انظر ياقوت) .

(٤) هي قصبة بلاد مكران بالسند .

ومن هناك يخرج خليج القلزم، وطوله ثمانية آلاف ميل، وعرضه يختلف .
في موضع ألف ميل وسبعمئة ميل، وفي موضع ألفان، وفي موضع دون ذلك .

ويقال : إن بينه وبين البحر المحيط بحرا آخر يسمى البحر الزرقى ، سمي بذلك
لظلمته وسواده ، وطوله ألف ميل وخمسمئة ميل .

وهذا البحر — أعنى الهندى — بجملة قسمه السالكون له ست قطع ، وضعوا
لها أسماء مختلفة .

١ — فالذى يمر بأرض الصين يسمى بحر صنجى ^(١) ، ينسب لمدينة في جزيرة من
جزائره ، وهو بحر كثير الأمواج مهول . فإذا كان في أول هياجه ظهر فيه بالليل
أشخاص سود ، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقل من ذلك ، يصعدون الى
المراكب ولا يضرون أحدا ، فإذا عاينهم السُّقَّار أيقنوا بالدمار . وإذا قدر الله
١٠ تعالى نجاتهم من هذه الشدة أراهم على رأس الدقل طائرا أبيض كأنما خلق من
النور، فيتباشرون به ، فإذا ذهب عنهم الروح ، فقدوه .

وفيه من الجزائر المعمورة :

جزيرة شريرة ^(٢) . يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل . فيها مدائن كثيرة ، أجلها
المدينة التى تنسب إليها ، ومنها يجلب الكافور .
١٥

وجزيرة صنجى . وإليها تنسب هذه القطعة . وطولها مائتا ميل ، وعرضها
أقل من ذلك . وفيها جواميس وبقر بغير أذنان .

(١) لعل هذا الاسم هو "شنجو" لمسمى واحد . وهى المعروفة عند العرب باسم مدينة "زيتون"

وهى فرضة الصين (راجع أبا الفدا) .

(٢) سماها أبو الفدا : سريرة .

وجزيرة أنفوجة . يحيط بها أربعمائة ميل ، عمارتها متصلة .

٢ — ويل هذه القطعة قطعة تسمى بحر الصَّنْف ؛ في جزيرة من جزائره مدينة ؛ وهو بحر خبيث ، كثير الأمطار والرياح الشديدة . وفي جباله معادن الذهب والبرصا ، وفيه مغاض اللؤلؤ ، وفي غياضه الخيزران ؛ وفيه مملكة المهرج ؛ ويشتمل على جزائر لا تحصى ، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها في سنة ؛ وفيها أنواع الطيب من الكافور ، والقرنفل ، والعود ، والصندل ، والجوزبوى ، والبسباسة ، والكبابة .

ومن جزائره المشهورة :

جزيرة الزانج ؛ وتكسيها سبعمائة فرسخ ، وبها يكون المهرج ، وهو اسم يطلق على كل من ملكها .

وجزيرة البركان . وهي جزيرة فيها جبل يرمى بالشرر ليلًا ، وبالعود القواصف نهارًا ، وهي أحد أطام الدنيا المشهورة .

وجزيرة قُمار ؛ وإليها ينسب العود القمارى ؛ وبها شجر الصندل . دورها أربعة أشهر ؛ وهي مأوى عبّاد الهند وعلمائهم . يسمى ملكها قامرون .

١٥ وجزائر الرامى^(١) ؛ وهي نحو ألف جزيرة معمورة ؛ بها الملوك ؛ وفيها معادن الذهب ، وشجر الكافور .

وجزائر لنجبالوس ؛ ويقال لنجبالوس ؛ وهي كثيرة ، وأهلها سود ، مشوهو الصور لقربها من خط الاستواء ؛ وبها معادن الحديد .

في الأصل "الراق" وفي نزهة المشتاق "الرامى" .

٣ — وبلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر لاروى ، وبحر كَلَه ، وبحر الجاوه ، وبحر فنصور . وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يمر عليه من البلاد والجزائر . وهو بحر لا يدرك قعره ، وفيه نحو ألف جزيرة تسمى جزائر النارجيل ، لكثرتها بها . وكلها عامرة بالناس . وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ والفرسخان . وليس يوجد في سائر جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره في سائر المهن . وبيوت أمواله الودع .

ومن جزائره المشهورة مما يلي أوائل بلاد الهند :

- جزيرة الماند ، وهي جزيرة يحيط بها ألف ميل . وفيها ثلاث مدن كبار ، وجزيرة كرموه ، يحيط بها ثلثمائة ميل .
- ١٠ وجزيرة بلي ، منسوبة لمدينة من الهند على ساحله ، يأتيها التجار لأجل الفلفل ، وجزائر الذئاب ، وهي كثيرة . وأكبرها جزيرة ديبى . وسكانها قبائل من العرب ، يحيط بها أربع مائة ميل . وفيها الموز ، وقصب السكر .
- وجزيرة السيلان ، وطولها ستمائة ميل ، وعرضها قريب من ذلك ، وفيها مدن كثيرة . وإليها ينسب العود السيلى .
- ١٥ وجزيرة كَلَه ، وإليها ينسب البحر ، وهي جزيرة خطيرة ، طولها ثمانمائة ميل ، وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلا ، وبها من المدن فنصور . فيها شجر الكافور (وفيها العود الفاخر) وملاير ، ولاروى ، وكله (وإليها ينسب الدهن) . ولكل مدينة من هذه المدن خور تعبره المراكب من البحر .
- وجزيرة صندابولات ، وطولها نحو من مائتى ميل ، وعرضها نحو مائة ميل . تنسب إلى مدينة هي فيها .
- ٢٠

وجزائر بداميان؛ فيها أمم سود، قباح الوجوه؛ قامة الرجل منهم أقل من ذراع؛ ليس لهم مراكب؛ فإذا وقع اليهم غريق أو من يتيه من التجار أكلوه.

(٨٦)

٤ - وبلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر هر كند، وفيه جزائر كثيرة. ويقال إن عدتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة. ويقع فيها العنبر الذي تكون القطعة منه مثل البيت. وسكانها أحذق الناس في الحياكة، ينسجون القميص بكفيه ودخار يصيه قطعة واحدة.

وفيه من الجزائر المشهورة:

(١) جزيرة سرنديب. وهي مدورة الشكل، يحيط بها ألف فرسخ. يشقها جبل الراهون، وهو الجبل الذي هبط عليه آدم (عليه السلام) من الجنة. وفي أوديتها الياقوت والماس والسنباذج. وطولها مائتان وستون ميلا. ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى أغنا، يسكنها مسامون، ونصاري، ويهود، ومجوس. ولكل أهل ملة من هذه الملل حاكم. لا ينبغي بعضهم على بعض. وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذا البحر أربعة أودية تصب في البحر تسمى الأغاب. (٢)

٥ - وبلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن. وأوله بحر الجمحة، وهو بلاد مهرة. معترض في البحر فيمتر بحاسك (وهو أول مرافئ اليمن)؛ ثم يمر بمرباط (ساحل

(١) قال البيروني في كتابه على الهند (ص ١٠٢): سنكديب وهي جزيرة سرنديب وفي أبي الفدا: سنكديب. (٢) الأغاب: واحدها غب. وهو - على ما قال البيروني - كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر ويكون للسفن فيه مخاوف وخاصة من جهة المد والجزر. والخور هو شبه الغب ولكنه ليس من جهة دخول البحر وإنما هو من مجي المياه الجارية واتصاله بالبحر سائما ومخاوف السفن فيه من جهة المد والجزر التي لا تستقل بالأنقال استقلال الملوحة بها (تحقيق ما للهند ص ١٠٢). (٣) مدينة بين حضرموت وعمان وهي الفرضة لمدينة ظفار الواقعة على خمسة فراسخ منها.

بلاد ظَفَارٍ ؛ ثم يَمُتُّ بالشَّحَرِ (ساحل بلاد مَهَرَّة) ؛ ثم بَشُرْمَةَ وَلَسَعَا (ساحل بلاد حضرموت) ؛ ثم بَأْيَيْنَ ؛ ثم بعدن ؛ ثم بالْمَخْنَقِ ؛ ثم بالعارة ؛ ثم الباب بالمندب .
وفيه من الجزائر المشهورة :

جزيرة سقوطرة . وطولها نحو من مائة وثمانين ميلا ، وعرضها في الوسط نحو خمسة عشر ميلا . وبها الصَّيْر . يسكنها قوم من اليونان ، تغلبوا على من كان فيها من الهند في زمن الإسكندر . وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد في العقل .
ولهذا سميت في الكتب القديمة جزيرة العقل .

وبلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج ، وبحر بربراء ، ويسمى ساحله الزنجبار .
وفيه مما يلي بلاد اليمن جزائر . منها :

١٠ جزيرة دعون ، وهي مدورة ^(١) .
وجزيرة السود .

وجزيرة حورتان .

وجزيرة مروان . وفيها مدن يسكنها الشُّرَّاق ، وهي مقابلة لبلاد مَهَرَّة .

وجزائر الديجات . وهي كثيرة . وأهلها مفرطون في السواد . وجميع

١٥ ما عندهم أسود ، حتى قصب السكر والكافور .

وجزيرة القُمر . وتسمى جزيرة ملاي . وطولها أربعة أشهر ، وعرض الواسع

منها يزيد على عشرين يوما . وهي تحاذي جزيرة سرنديب . وفيها بلاد كثيرة أجملها

(١) من المعلوم أن العرب يسمون شبه الجزيرة بالجزيرة . ولم نجد لهذا الاسم أثرا فيما بين أيدينا من

كتب المراجعة فلعلها هي التي ذكرها ياقوت باسم "دغو" وقال : إنها بلد بنواحي الشحر من أرض عمان

٢٠ أو لعلها "دغوطة" التي قال أبو الفدا : أنها آخر مدن سفالة وآخر العارة في البر المتصل .

كيدانة، وملاي (وإليها تنسب الجزيرة) ودهمي، وبلق، وخافورا، ودعلي، وقُمريّة (وإليها ينسب القمر). ويقال: إن هذه الجزيرة خشبا، ينحت من الخشبة منه شأن^(١) يكون طوله ستين ذراعا، يحذف على ظهره مائة وستون رجلا. ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل يعرف بهم. ومنها يخرج نهر النيل^(٢).

٦ - ويخرج من هذا البحر الذي يجمع هذه القطع خليجان أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس.

١ - فأما خليج القلزم. فخروجه من باب المندب. وهو جبل طوله اثنا عشر ميلا، وسعة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البر الآخر. فإذا قارب المندب يمر في جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجردة، ثم الشرجة، ثم عثر (وكانت مقر ملك قديم) ثم بالسرّين، وحلى، وعسفان، والجار (وهي فرضة المدينة) والجحفة، والصفراء، والحوراء، ومدّين، وأيلة، والطور، وفاران، ثم القلزم (وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة). ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمر بالقصير (وهي فرضة لقوص) ثم إلى عيذاب (وهي فرضة لبلاد البجة)، ثم يمتد إلى زيلع (وهي ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا.

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل. وعرضه في مواضع أربع مائة ميل، ودون ذلك إلى مائتي ميل إلى ما دون ذلك. وهو بحر كره المنظر والرائحة.

(١) أي من السفن المعروفة بأسم الشواني.

(٢) يخط الجغرافيون العرب كثيرا بين هذه الجزائر المعروفة بالقمر (بضم فسكون) وبين الجبل المعروف بالقمر (بفتح فسكون) فيجعلونهما شيئا واحدا ويقولون بخروج منابع النيل من تلك الجزائر. وهذا أمر غي معقول.

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دردور
عُمان . لأنه في سفح جبل إذا وقعت الريح على ذروته آتقطعت بنصفين على شعبتين
متقابلتين ؛ ثم يخرج من كُئى هاتين الشعبتين ، فيثير البحر فتتبدل السفن باختلاف
الريح فلا تكاد تسلم . وهاتان الشعبتان تسميان الجبيلين ، ومقدار هذا الموضع ستة
أميال ، ويسمى بركة الغرندن^(١) . ويقال : إنها التي أغرق الله فرعون وقومه فيها .
فإذا كان للجنوب أدنى مهب ، فلا يمكن سلوكه .

(٨٧)

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة ، العاصر منها أربع ، وهى :

جزيرة دهلك . يحيط بها نحو مائتى ميل ؛ يسكنها قوم من الحبوش ،

مسلمون .

١٠ وجزيرة سواكن . وهى أقل من ميل فى ميل . وبينها وبين البحر الحبشى

بحر قصير يخاض . وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسد وهم مسلمون ، ولهم بها ملك .

(٢)

وجزيرة النعمان . وبها نوبس تعيش من لحوم السلاحف .

وجزيرة السامرى . يسكنها قوم من اليهود ، سامرة ، فى عيش قشيف .

٢ — وأما خليج فارس . فإنه مثلث الشكل على هيئة القلح .

١٥ أحد أضلاعه من تيز مكران . فيمتر فى بلاد كرمان على هر مزر ، ومن بلاد فارس

(٣)

على سيراف ، وتوج ، ونجيم ، وجنابة ، ودارين ، وسينيز ، ومهروبان ؛ ومنها يُفصى

(١) الذى فى تقويم أبى الفدا : الغرندل باللام .

(٢) تصغير ناس .

(٣) هكذا فى الأصل . وفى أبى الفدا . وأما ياقوت فقال : إنها توج . وضبطها أبو الفدا بضم التاء

٢٠ وسكون الواو) واتفق أبو الفدا وياقوت على أنها هى التى تسمى أيضا توز (ولكن ياقوت يضبطها بفتح

فتشديد) . والذى فى ياقوت هو الصواب كما يؤخذ من "لب اللباب" للسيوطى ، ومن "لطائف

المعارف" للتحالى .

البحر إلى عبادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمتر بالخط، وهو ساحل بلاد
عُمان إلى صور، وهى ساحل بلاد عمان مما يلي بلاد اليمن؛ ثم يمتد إلى رأس الجمُحَة
من بلاد مَهَرَة .

والضلع الآخر يمتد على سطح البحر من تيز مكران إلى رأس الجمُحَة .

وهذه الأضلاع غير متفاوتة فى الطول؛ فإن الضلع الذى يمتد على سطح البحر
طوله خمسمائة ميل، وطول الضلع الآخر من حيث يتبدى من تيز مكران إلى أن
ينتهى إلى عبادان ثم ينعطف إلى أن يصل إلى رأس الجمُحَة، تسعمائة ميل .

وفيه مما يلي عبادان مكان يعرف بالدردور، وهو بين جبلين، أحدهما
يسمى كسير، والآخر عوير . ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه :
” وآخر ما فيه خير “ لشدة ما يرى بها من الأهوال . وهى جبال سود ذاهبة
فى الهواء يتكسر الماء على شُعبها . ولا بد للراكب أن تمرّ بينها، وقلما تسلم .

وفى هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار تسع، منها أربع
عامرة، وهى :

جزيرة خارك . يحيط بها اثنا عشر ميلا . وهى عامرة أهلة كثيرة البساتين
وبها مغاص اللؤلؤ .

وجزيرة كيش . وبها مغاص اللؤلؤ أيضا . وهى أهلة . وتسمى هذه
الجزيرة فى عصرنا هذا ” قيس “ .

وجزيرة أوال . وهى تجاه ساحل البحرين، وبينهما يوم . وبها مدينة .
وأوال مدينة من مدائن البحرين .

وجزيرة لاقت . وتعرف بجزيرة بنى كاوان . وطولها آثان وخمسون ميلا ،
وعرضها تسعة أميال ، وهى أهلة .
وهاتان الجزيرتان معدودتان فى بلاد جور من أعمال فارس .

ويقال أيضا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث فى شمال الصقالية ، ويمتد
قرب بلد بلغار المسلمين ، ويسمى بحر أدرىك ، منسوب إلى أمة على ساحله
فى جهة الشمال ، ثم ينحرف نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك
أرضون وجبال مجهولة خربة .
فهذا البحر المحيط وما يتفرع منه .

٧ - وأما بحر مانيتش^(٢)

ويسمى البحر الأسود وبحر سوداق . وهى مدينة على ساحله . هى
فرضة لبلاد القفجاق مما إلى القسطنطينية . وعليه أيضا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى
قرم ، مقصودة من كل الجهات . وبها علماء ، وفقهاء ، ورؤساء . وهى محدثة . مصرت^(٣)

(١) ويسمىها الادريسي : ابن كاوان ، وغيره يسميها : بركاوان .

(٢) جرى المؤلف على تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الأسود . والحقيقة أن بحر نيطنش
هو المعروف الآن بالبحر الأسود ، وأما بحر مانيتش فهو المعروف ببحر آزاق وبحر آزوف . وما يجب
التنبه عليه أن كثيرا من كتاب العرب يخلطون بين هذين البحرين . ولذلك قال المسعودى : "فبحر نيطنش
وبحر مانيتش يجب أن يكونا بحرا واحدا ، وإن تضايق البحر فى بعض المواضع بينهما أو صار بين الماءين
كالخليج . وليست تسمية ما أتسع منه وكثر ماؤه بمانيتش ، وما ضاق منه وقل ماؤه بنيطنش ينبغى أن تجمعهما
فى اسم مانيتش أو نيطنش . فاذا عبرنا فى بعض المواضع فى مبسوط هذا الكتاب فقلنا "مانيتش"
أو "نيطنش" فانما نريد به هذا المعنى فيما أتسع من البحر وضاق " . (انظر مروج الذهب ج ١ ص ٥٨
طبع بولاق) .

(٣) وبها سميت شبه الجزيرة الموجودة فى البحر الأسود وهى شبه جزيرة القرم .

فيما بين الثلاثين والأربعين وستمائة للهجرة النبوية . ويسمى هذا البحر أيضا بحر الروس ، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس ، نصارى . وهو بحر ضخم كثير الأخوار والتروش^(١) والجبال الجرش . وطوله من الشمال إلى الجنوب ألف ميل وثلثمائة ، وعرضه مختلف . ففي موضع ستمائة ميل ، وفي موضع ثلثمائة ميل . والناس مختلفون فيه . فمنهم من يقول إنه بحر مستقل بنفسه ، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب في بحر الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية . وأكثرهم على أنه بحر مستقل بنفسه لطوله وعرضه وكثرة جزائره . وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط على ظهر بلاد الصقالبة ، ويحيط به بلاد البطلمية ، وبلاد الغامانية ، وبلاد الأزكشية ، وبلاد الشركسية ، وبلاد العلان والعنكر والناشقر^(٢) .

وفيه ست جزائر عامرة ، وهي كثيرة المدن والقرى ، يسكنها الروس .

٨ - وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم . وذلك بحسب ما يمر عليه من البلاد . وهو — على ما حكاه ابن حوقل — مدور الشكل ، ليس له اتصال ببحر آخر .

قال : ولو أن إنسانا طاف به ، لآتته إلى الموضع الذي آتدأ منه ، لا يقطعه عن ذلك إلا نهر^(٣) يصب فيه .

(١) في الأصل التروس . ولكن الادريسي يستعمل لفظة " التروش " بالشين المعجمة . ومعناها الشعب أى الصخور التى تكون تحت سطح الماء قليلا فتتكسر السفن وتخطم اذا اصطدمت بها .

(٢) العلان : ترك تنصروا وهم خلق كثير وقلعتهم احدى قلاع العالم تنعم بالسحاب (عن أبى الفدا) وبلادهم فى أرض قفجاق أو قفقاسية وهم المشهورون فى كتب العرب أيضا باسم اللان .

(٣) هذا ملخص العبارة التى أوردها ابن حوقل (وانظر كتابه ص ١٣) .

وفي شرق هذا البحر بعض بلاد الديلم، وبلاد طبرستان، وجرجان، وبعض المسافة التي بين جرجان وخوارزم، وغربية بلاد أزان، وبلاد الخزر، وبعض مفازة الغزية،^(١) وشماليه مفازة الطُّغْزُغُزِيَّة، وجنوبيه الجليل، والديلم. وطوله ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل.

وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آخترق الآفاق": طولها من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل، وعرضها من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتل ستمائة ميل،^(٢) وخمسون ميلا وهو يقطع عرضا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب في أسبوع بالريح الطيبة، وفيه أربع جزائر، وهي:

جزيرة سيالكوه. وهي تجاه آبسكون، فرضة جرجان. يسكنها طائفة من الترك. يصاد بها البزاة البيض.

وجزيرة سهلان. وطولها نحو مائة ميل، وعرضها نحو خمسين ميلا.

وجزيرة البركان. وهي أطيمة عظيمة تظهر منها نار في الهواء، كأشعث ما يكون من الجبال. تُرى من نحو مائة فرسخ من البر.

- (١) في الأصل: الغرنة. والتصحيح عن أبي الفدا.
- (٢) في الأصل: الختل (وهو تحريف ظاهر من النساخ).
- (٣) هكذا في مقدمة الادريسي (في جميع النسخ) ولكنه عند كلامه على الجزء السابع من الاقليم الخامس نص على أن طول هذا البحر ٨٠٠ ميل وأن عرضه ٦٠٠ ميل (وهذا هو الذي نقله عنه أبو الفدا)، ثم عاد الادريسي فقال: إن طوله ٩٠٠ ميل.
- (٤) في الأصل مائة ميل (والتصحيح عن الادريسي).
- (٥) في الأصل: بساكوه. (والتصحيح عن أبي الفدا).
- (٦) هي شبه الجزيرة المعروفة الآن باسم أيشرون. وفيها مدينة باكو المشهورة وهذه المدينة سماها أبو الفدا "باكوى" وسماها المسعودي "باكاه"، وقال: إن بها معدن النفط الأبيض (أى البترول) ثم قال: وفي هذه النفاطة أطيمة، وهي عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات تنضرم الصعداء. فهذا هو الذي عناه النويري باسم "البركان".

وجزيرة تجاه باب الأبواب . كثيرة المروج والأنهار . وهذا البحر يقال إنه كثير التناين .

وقد اختلف فيها . فمن الناس من يقول إنها دواب تعظم في قعر البحر فتؤذي ما به من دواب ، فيبعث الله عز وجل عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها في أرض يأجوج ومأجوج ، فتكون طعاما لهم . وهذا مما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما . ومنهم من رأى أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وتلحق بالسحاب ، كالزوبعة التي تثور من الأرض وتستدير ثم تطول في الهواء . فيتوهم الناس أنها حيات سود .
وسائر البحار تمتد وتجزر ، خلا هذا البحر .

ويقال إن علة المد والجزر تكون عن وضع الملك الموكل بقاموس البحر عقبه في أقصى بحر الصين ، فيفور فيكون منه المد ، ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر .
(ومنهم من روى مكان العقب الإبهام) .
ومنهم من قال إن العلة فيه غير هذا كله .
والله أعلم !

ذكر ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة ١٥

وما بها من العجائب

وفي المعمور بحيرات مالحة .

فالذى أشهر منها :

بحيرة خوارزم . وشكلها مثلث كالقلع ، وليس في المعمور بحيرة أعظم منها .
يحيط بها أربعاءة فرسخ . يصب فيها نهرا سيحون وجيحون اللذان في أرض ٢٠

الهياطلة ، وغيرهما من الأنهار العظيمة الجارية في بلاد الترك . وهى مع ذلك لا تزيد ولا تعذب .

وزعم صاحب كتاب " نزهة المشتاق إلى آخترق الآفاق " أن في هذه البحيرة حيوانا يظهر على سطحها في صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعا بلغة لا تفهم ثم يغوص . وظهوره عندهم يدل على موت ملك من ملوك ذلك الحين .

§ ومنها بحيرة الطرخ ، لسمك صغير يصاد منها ويحمل الى سائر بلاد إرمينية وأذربيجان . وطولها أربع مراحل ، وعرضها مرحلة . يُجمع من أطرافها البورق . والسمك يوجد بها في زمان مخصوص ، يأتيها في نهر يصب إليها ، ويكثر حتى يصاد بالأيدي . فإذا آنقضى ذلك الزمان لا يوجد منه شيء آلبتة .

§ وفي بلاد أذربيجان بحيرة كبوذان^(٢) . وكبوذان قرية في جزيرة يسكنها ملاحو المراكب التي يركب فيها من هذه البحيرة . وطول هذه البحيرة نحو ثلاثة أيام ، وعرضها كذلك وفيها جزائر : منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمى تلابا ولا يكون بهذه البحيرة حيوان آلبتة ، لأن ماءها متين ردى .

§ وفي بلاد البحرين بحيرة . وبها وبالبحر الكبير سميت أرض حجر : " البحرين " .

١٥

(١) واسمها في كتب الجغرافية العربية بحيرة أرجيش ، وهذا السمك الذى سميت به ، كما في " القاموس " سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل . وقد عرفنا ابن حوقل أنه صغير مقدار الشبر يملح ويحمل الى الجزيرة والموصل والزقة وحران وحلب وسائر الثغور .

(٢) هى التى ذكرها أبو الفدا باسم " بحيرة تلابا " وياقوت باسم " بحيرة أرمية " . وقد ذكر أن في وسطها جبلا يقال له : " كبوذان " وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملاحو سفن هذا البحر (أنظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٥١٣) .

٢٠

§ وفي الشام بأرض الغور بحيرة زُغَر ، وتسمى المُنْتَنَة والمَيْتَة . لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكوّن فيها شيء مما يتكوّن في المياه الجارية والراكدة من الحيوانات . وطولها ستون ميلا ، وعرضها اثنا عشر ميلا .

ويقال إنها ديار قوم لوط التي خَسَفَهم الله بها . ويقال إنها كانت خمس مَدَن ، أسماءها : ” ضيعه “ ، و ” ضعوه “ ، و ” عمره “ ، و ” دوما “ ، و ” سدوم “ . وكانت سدوم أكبرها وأعظمها .

ويُصَبُّ في هذه البحيرة نهر الأُرْدُنَّ وغيره من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكرك وغيرها ، فلا تزيد . ويقال إن لها مَنَقْذا إلى بحر القلزم . وبساحلها الشرق إلى حدٍّ أريحا معدن الكبريت الأبيض ، يُخَفَّر عليه ويُخَرَّج . ويتكوّن في هذه البحيرة شيء على شكل البقر ، ويطفو على وجهها ويتفقع ، فيجمع منه شيء أسود يسمونه ” الحُمر “ ، وينقل إلى قلعة الكرك يدّخرها ، يدخل في النفط .

§ وفي أعمال مصر بحيرة تَنِيْس ^(١) ، مقدارها إقلاع يوم في [عرض] نصف يوم يكون ماؤها في أكثر السنة ملّحا من دخول ماء البحر الرومي إليها فإذا مَدَّ النيل صبَّ فيها فتحلوا فإذا جَزَرَ ملّحت .

ويقال : إنه كان في مكانها برٌّ مسلوكة تغلب عليه البحر في ليلة واحدة ، فما كانت أرضه مستفلة غرق ، وما كانت أرضه عالية مثل تَنِيْس وتونة بق .

وفي وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنْجَار ، يسكنها قوم صيادون .

وقال إبراهيم بن وصيف شاه في ” كتاب العجائب الكبير “ : إن بحيرة تَنِيْس كانت أجنّة ^(٢) وكروما ومنازل ومتنزّهات ، وكانت مقسومة بين ملّكين من ولد أترّيب بن

(١) الزيادة من معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٨٢ — في أسم ” تَنِيْس “ .

(٢) أجنّة جمع جنة وهو غريب .

مصر، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا، فأنفق المؤمن ماله في وجوه البر حتى باع حصته من أخيه وفترق ماله أيضا، فأصلحها أخوه وزاد فيها غرُوسا وبخر فيها أنهارا وبني فيها بنيانا، واحتاج أخوه إلى ما في يده فكان يَمْنَعُهُ ويفتخر عليه بما في يده من المال والأجنَّة، فخطبه أخوه في بعض الأيام فسطا عليه، وقال: أنا أَكْثَرُ مِنْكَ مالا وولدا وخيرا، فقال له أخوه: فما أراك شاكرًا لله تعالى على ما رزقك ويوشك أن ينزع ذلك منك. ويقال: إنه دعا عليه ففترق ماء البحر ما كان له في ليلة واحدة.

وقيل: إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ الآيات، والله تعالى أعلم.

١٠. وبالقرب من الإسكندرية بحيرة، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك، يدخل إليها الماء من بحر الروم من مكان الأشتوم، ويخرج منها إلى بحيرة أخرى دونها في خليج عليه مدينتان: إحداهما تسمى الجدية، والأخرى تسمى أتلوكشيرة المقائ^(١) والنخل، وكلها في الرمل. ويصب في البحيرة خليج من النيل يسمى "الحافر" طوله نصف يوم إقلاعا، وهو كثير الطير والسمك والعُشب.

١٥. وفي بلاد إفريقية بحيرة بنزرت ماؤها ملح، وطولها ستة عشر ميلا، وعرضها ثمانية أميال. وعلى عشرة أميال منها بحيرة عذب تسمى بحيرة متيجة^(٢). فإذا جاء الشتاء وكثرت السيول غاضت بحيرة بنزرت، وفاضت بحيرة متيجة حتى تمتدّها ستة شهور فلا يحلو ماؤها، فإذا آنقضى زمن الشتاء وجاء الصيف غاضت

(١) كذا بالأصل وفي معجم ياقوت "أتكو" بليدة قديمة من نواحي مصر قرب رشيد.

(٢) في الأصل: «المقات» وما أثبتناه أنسب لأن المقائ جمع مقناة وهي الأرض التي تررع قثاء.

(٣) وزنها في القاموس بسكينة.

بحيرة متيجة، وفاضت بحيرة بنزرت فلا يملح ماؤها . ويصاد في هذه البحيرة في كل شهرين من شهور السنة نوع من السمك لا يخالطه غيره، وأهل الناحية يعرفون دخول الشهور بتغير السمك فيها .

§ وحكى صاحب كتاب "مباحج الفكر ومناهج العبر" : أن يتخوم بلاد إرمينية بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستة أشهر كوامل، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع . وهذا دأبها مدى الزمان .

§ وبجلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضفدع ولا سرطان عشرة أشهر من السنة؛ ثم يظهر ذلك كله في الشهرين الباقيين .

§ وبقرية من ناحية بنجهر^(١) من بلاد خراسان بحيرة، ما غمس فيها شيء إلا ذاب، حديدًا كان أو خشبًا .

§ وكذلك بركة النطرون التي بأرض مصر ما وقع فيها شيء إلا صار نظرونًا حتى العظم والحجارة .

ذكر ما يُمثل به مما فيه ذكر البحر

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعال)

يقال : "أعمق من البحر" . "أندى من البحر" .

ويقال : "حدث عن البحر ولا حرج" .

(١) كذا في الأصل : "بنجهر" وهي على ما قال ياقوت : مدينة بنواحي بلخ . فلذلك أظن أن ذلك الاسم محوَّف عن "بنجديه" التي قال ياقوت : إنها من نواحي خراسان وهو الصقع الذي أشار إليه المؤلف . نعم إن ياقوت لم يذكر هذه البحيرة عند كلامه على كل من المدينتين ولكن المسعودي نص على أن بنجهر من أرض خراسان (ج ٢ ص ١٥ طبع أوروبا) .

ويقال : جاء بالطِّمِّ والرَّمِّ ، والطِّمُّ : البحر؛ والرَّمُّ : البر .

ومن أنصاف الأبيات :

وهل يملك البحرُ ألا يفيضاً؟ *ومن ورد البحر استقل السواقياً!*

* أنا الغريق فما خوفي من البلل ؟ *

ومن الأبيات :

هو البحرُ إلا أنه عَذِبُ مَوْرِدٍ * وذا عَجَبٌ أَنَّ الْعَذُوبَةَ فِي الْبَحْرِ

وقال ابن الرومي :

كَالْبَحْرِ يَرْسِبُ فِيهِ لُؤْلُؤَةٌ * سَفَلًا وَتَعْلُو فَوْقَهُ جِيفَةٌ

ومثله قول الآخر:

كَمِثْلَ الْبَحْرِ يَغْرُقُ فِيهِ حَىٰ * وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُو فِيهِ جِيْفُهُ

وقال آسن الرومي :

أَلَا فَارْجُهُ وَأَخْشَهُ إِنَّهُ * هُوَ الْبَحْرُ فِيهِ الْغَنَى وَالْغَرَقُ

وقال أبو نؤاس :

مَنْ قَاسَ غَيْرَكُمْ بِكُمْ * قَاسَ التَّمَادِ إِلَى الْبُحُورِ

وقال آخر:

إِذَا كُنْتُ قُرْبَ الْبَحْرِ مَالِي مَحْلُصٌ * إِلَيْهِ فَمَا يُغْنِي أَقْتِرَابِي مِنَ الْبَحْرِ

وقال آخر :

كَالْبَحْرِ يَقْدِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا * مِنْهُ وَيُرْسَلُ لِلْبَعِيدِ سَائِبًا

ذكر شيء مما قيل في وصف البحر وتشبيهه

وقال ابن رشيق عفا الله عنه :

البحر من المذاق صعب * لا جعلت حاجتي إليه

أليس ماءً ونحن طين ؟ * فإعسى صبرنا عليه ؟



وقال ابن حمديس :

لا أركب البحر أخشى * علىّ منه المعاطب
طين أنا وهو ماء * والطين في الماء ذائب

وقال آخر :

وزاخر ليس له صولة * إلا إذا ما هبت الريح
فهو إذا ما سكنت ساكن * كما نما الريح له روح

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

تناهى البحر في عرض وطوب * وليس له على التحقيق كنه
وأعجب كل ما شاهدت فيه * سلامتنا على الأهوال منه
فخسبي أن أراه من بعيد * وأهرب فوق ظهر الأرض عنه

ومما وصف به البحر والسفن

قول بشر بن أبي خازم :

أطاعن صفهم ولقد أراني * على زوراء تسجد للرياح
إذا اعترضت براكبها خليجا * تذكر ما عليه من جناح
ونحن على جوانبها قعود * نغض الطرف كالإبل القماح

وقال ابن تولو من أبيات :

تحت بنا فيه قلاص كأنها * وعال تبدت من جبال شواهق
لها كإفلا ماء وريح كإلهما * يعلمها في الجري سبق السوابق
إذا انحدرت فإلى أطف قائد * وإن صعدت فالريح أعسف سائق

وقال السلمي :

وَمِيدَانٌ تَجُولُ بِهِ خُيُولٌ * تَقْوُدُ الدَّارِعِينَ وَلَا تُقَادُ
رَكِبْتُ بِهِ إِلَى اللَّذَّاتِ طُرْفًا * لَهُ جِسْمٌ وَلَيْسَ لَهُ فُؤَادُ
جَرَى فَظَنَنْتُ أَنَّ الْأَرْضَ وَجْهَهُ * وَدِجْلَةً نَاطِرُهُ وَهُوَ السَّوَادُ

وقال محمد بن هاني :

مُعْطَفَةُ الْأَعْنَاقِ نَحْوُ مُتُونِهَا * كَمَا نَبَّهَتْ أَيْدِي الْحَوَاِ الْأَفَاعِيَا
إِذَا أَعْمَلُوا فِيهَا الْمَجَازِيفَ سُرْعَةً * تَرَى عَقْرَبَا مِنْهَا عَلَى الْمَاءِ مَاشِيَا
إِذَا مَا وَرَدَنَّ الْمَاءَ شَوْقًا لِبَرْدِهِ * صَدْرُنْ وَلَمْ يَشْرَبْنِ غَرْنِي صَوَادِيَا

وقال الرستي :

لَمْ تَزَلْ مُشْفِقِينَ مُدْقِيلَ سَارَتْ * بِكَ دُهِمٌ قَلِيلَةُ الْأَوْضَاحِ
أَصْلُهَا الْبَرُّ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي الْإِلَ * بَحْرُ سُكْنَى إِقَامَةٍ لَا بَرَّاحِ
هِيَ فِي الْمَاءِ وَهِيَ صِفْرٌ مِنَ الْمَا * سَوَى نَضِجٍ مَوْجِهَا النَّضَّاحِ
فَإِذَا أُوقِرَتْ فَذَاتُ وَقَارٍ * وَإِذَا أُخْلِيَتْ فَذَاتُ جِمَاحِ
وَتَرَاهَا فِي اللَّجِّ ذَاتَ جَنَاحِينَ * وَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِذَاتِ جَنَاحِ
مِنْ مَطَايَا لَا يَغْتَذِينَ وَلَا يَسَّ * أَمِنْ سَيْرِ الْبُكُورِ بَعْدَ الرَّوَّاحِ
مُنْشَأَتٌ مِنَ الْجَوَارِي اللَّوَاتِي * لَسَنَ مِنْ صِنْعَةِ الْجَوَارِي الْمَلَّاحِ
وَالذَّاتُ مُوَلَّدَاتٌ بِلَا حِلِّ نِكَاحٍ * وَلَا حَرَامِ سِفَاحِ
لَا مِنَ الْبَيْضِ بَلْ مِنَ السُّودِ أَلْوَا * نَا وَذَاتِ الْأَسْوَاحِ وَالْأَرْوَاحِ
طَائِرَاتٌ مَعَ الرِّيَّاحِ وَطُورًا * كَاسِرَاتٌ بِالْجَرَى حَدَّ الرِّيَّاحِ
سَائِرَاتٌ لَا يَشْتَكِينَ سُرَى اللَّيْلِ * لَمْ يَلَا يَتَقَيْنَ ضَوْءَ الصَّبَاحِ

سَايَحَاتُ بِلَا خُضُوعٍ سُكُونٍ * جَايَحَاتُ بِلَا عَرَامٍ جِمَاجِ
لَا يَخْفَنَ الْغِمَارُ يَقْدَفَنَ فِيهَا * وَيَخْفَنَ الْمُرُورَ بِالضَّحَضِاجِ
إِنْ صَدَمَنَ الْحَصَى عَطِبَنَ وَلَا يَدُ * طَبَنَ إِمَّا صَدَمَنَ حَدَّ الرِّمَاجِ
مَا رَأَى النَّاسُ مِنْ قُصُورٍ عَلَى الْمَا * سِوَاهَا يَسِيرُ سِيرَ الْقِدَاجِ
يَتَسَبَّبَنَ كَالْأَسَاوِدِ فِي الْخَفَةِ لَا فِي مَعَادَةِ الْأَشْبَاجِ
فَإِذَا مَا تَقَابَلَتْ قُلْتُ ذُوْدُ * مِنْ يَكَايَشٍ تَقَابَلَتْ لِلنَّطَاجِ
شُرْعُهَا الْبَيْضُ كَالْغَمَامَاتِ فِي الصَّيْفِ * مِفَ صَحَا حَا مِنْهَا وَغَيْرَ صَحَا حِ
كَمْ مُدِلٌّ بِالْجَاهِ وَالْمَالِ فِيهَا * وَبِهِ حَاجَةٌ إِلَى الْمَلَا حِ
قَائِدٌ، جُنْدُهُ لَهُمْ أَدَوَاتُ * نَفْعُهَا ثُمَّ فَوْقَ نَفْعِ السَّلَاحِ
فَإِذَا الْبَحْرُ صَالَ صَالُوا عَلَيْهَا * بِمَوَاضٍ تَمْضَى بِغَيْرِ حِرَاجِ
يُكْثِرُونَ الصَّيَاحَ حَتَّى كَأَنَّ السَّفْنَ تَجْرَى مِنْ خَوْفِ ذَلِكَ الصَّيَاحِ

* *

ومما وصفت به البحار والسفن نثرا

قال أبو عمرو ابن صاحب الصلاة القرطبي^(٣) يصف شائياً سافراً فيه :

”فَارَقْتُ مَوْلَايَ حِينَ أَخَذْتُ لِلسَّفَرِ عِدَّةَ الْحَزَمِ، وَشَدَدْتُ عُقْدَةَ الْعِزْمِ،
وَأَنْتَظَمْتُ مَعَ السَّفَرِ فِي سَلَكٍ، وَرَكَبْنَا عَلَى أَسْمِ اللَّهِ ظَهَرَ الْفُلْكِ؛ فِي شَأْنٍ عَظِيمِ الشَّانِ،
أَحْدَقْتُ بِهِ النَّطْقُ إِحْدَاقَ الْحَيَازِمِ، وَأَمْسَكْتُهُ إِمْسَاكَ الْأَبَازِمِ؛ ثُمَّ تُبْعِ خَلَّةَ فُسْدٍ،
وَرِخْوَهُ فُسْدٍ؛ حَذَرًا عَلَى أَلْوَا حِهِ مِنَ الْإِنْخِلَاجِ، وَأَتَصَلْتُ بِعَرَّائِيْسِهِ أَتَصَالِ الْجُلُودِ

(١) العَرَامُ : الشِّدَّةُ وَالْحِدَّةُ وَالشَّرَاسَةُ . وَفِي الْأَصْلِ «غَرَامٌ» وَهُوَ تَحْرِيفٌ . (٢) كَذَا
بِالْأَصْلِ وَهِيَ غَامُضَةٌ الْمَعْنَى . (٣) الشَّائِي : اسْمٌ لِنَوْعٍ مِنَ السَّفَنِ التِّجَارِيَةِ وَالْحَرْبِيَّةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَجَمْعُهُ
شَوَانِي . (٤) الْإِنْخِلَاجُ : الْإِتْرَاجُ وَالتَّفَكُّكُ . وَفِي الْأَصْلِ «الْإِنْخَاجُ» وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

بالأضلاع، ثم جَلِبْتُ جَلْبَاباً من القار، وُضِّخَ في المتينِ والفقار؛ فامتاز بأغرب ميسم،
 وعاد كالغراب الأعصم؛^(١) قد حَسُنَ منه المخبر، وكَأَنَّ الكافور قد قُرِنَ فيه بالعنبر .
 له من التماسيح أجنابها، ومن الخطاطيف أذنانها، وأستقلت رجله بفراشها، أستقلال
 السهام برياشها، وقد مَدَّ قَلْعِيهِ ذراعيه متلقيا من وفد الرياح مصافحه، ومستهديا
 منها مناخه . تقلد الحكم عليها إِشْتِيَامٌ^(٢) ذو تيقظ وأستبصار، وأستدلال على الأعماق
 والأقصار؛ يستدل باختلاف المياه إذا جرى، ويهتدى بالنجوم إذا سرى، قد جعل
 السماء مرآة ينظر فيها، ويحذر من دَجْنِ يوافيها، فإذا أصدأها الظلامُ بَحْنًا سه،
 وصقلها الضياء بمداوسه، يسبح الله في مُصْبَحِهِ ومُؤَسَاه، وَيَسْمِلُ في مجراه ومرساه،
 ويذكر رباً يحفظه ولا ينساه، قد آتخذ فيه مَوَاتِيهَ، من أنجد النَوَاتِيهَ، مشمرين
 الأثواب، مدبرين بالصواب؛ يفهمون عنه بالإيماء، ويتصرفون له تصرف الأفعال
 بالأسماء؛ ويرتمون عند الجذب والدفع، والخط والرفع . بهيمنة تبعثهم على النشاط
 والجسم^(٣)، وتؤدبهم في عملهم بالتمام . فخرجنا ونَفُحَ الرِّيحُ نَسِيم، ووجه البحر وسيم؛
 وراحة الرِّيحِ تُصَالِحُ عِبَابَهُ مُصَالِحَةَ الخَلِّ، وتطوى حِبابَهُ طَيَّ السَّجَلِ؛ وتحوك
 من بُجْه أبرادا، وتَصْوَعُ من حُبْكِهِ أزرادا . كأنما ترسم في أديم رقشا، أو تفتح
 في فُصُوصِ نَقْشاه . فلما توسطنا شَجَّ البَحر، وصرنا منه بين السَّحر والنَّحر؛ صَحَّتِ الرِّيحُ
 من سُكْرِها، وطارت من وكرها؛ فسمعنا من دَوَى البحر زئيرا، ومن حبال الشاني

(١) أى الأبيض الجناحين (أنظر تاج العروس) مادة عصم ج ٨ ص ٤٠٠ .

(٢) الإشتيام هو رئيس الملاحين، لفظ أعجمي أخذته العرب (راجع الجواليقي) .

(٣) ذهاب الإعياء والتعب .

(٤) الحباب : معظم الماء أو سطحه وقيل حبابه نفاخاته وبقايعه التي تطفو كأنها القواري .

وفي الأصل «جناحه» وهو تحريف .

صَفِيرًا؛ ورَأْيَاهُ يُزِيدُ وَيَضْطَرِبُ، كَأَنَّهُ بِكَأْسِ الْجَنُوبِ قَدْ شَرِبَ؛ وَاسْتَقْبَلْنَا مِنْهُ
وَجْهَهُ بِاسِرٍ، وَطَارَتْ مِنْ أَمْوَاجِهِ عِقْبَانُ كَوَاسِرٍ؛ تَضْطَرِبُ وَتَصْطَفِقُ، وَتَخْتَلِفُ
وَلَا تَتَّفِقُ؛ كَأَنَّ الْجَوَّ يَأْخُذُ بِنَوَاصِيهَا، وَيَجْذِبُهَا مِنْ أَقَاصِيهَا، وَالشَّائِي تَلْعَبُ بِهِ أَكُفُّ
الْمَوْجِ، وَيَفْحَصُ مِنْهَا بِكُلِّكَلَةٍ فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ؛ وَيَجُوبُ مِنْهَا مَا بَيْنَ أَنْجَادٍ وَأَغْوَارٍ،
وَخَنَادِقٍ وَأَسْوَارٍ، وَالْبَحْرُ تَحْتَنَا كَأَرْضٍ تَمِيدُ بِأَهْلِهَا، وَتَتَزَلُّزِلُ بِوَعْرِهَا وَسَهْلِهَا؛ وَنَحْنُ
قُعُودٌ، دُودٌ عَلَى عُودٍ، قَدْ نَبَتْ بِنَا مِنَ الْقَلَقِ أَمْكِنَتُنَا، وَخَرَسَتْ مِنَ الْفَرْقِ أَلْسِنَتُنَا،
وَالرَّشُّ يَكْتَنِفُنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَسِيلُ مِنْ أَثْوَابِنَا سَيْلَ الْمَذَانِبِ، فَشِمِمْنَا رِيحَ
الْمَوْتِ، وَظَنَّنَا التَّلَفَ وَالْفَوْتَ، وَبَقِينَا فِي هَمٍّ نَاصِبٍ، وَعَلَمَاقٍ وَاصِبٍ، حَتَّى آتَيْنَاهَا
إِلَى كَنَفِ الْجَوْنِ، وَصَرْنَا مِنْهُ فِي كَيْتٍ وَصَوْنٍ، وَهَدَأَ مِنَ الْبَحْرِ مَا اسْتَشْرَى، وَتَنَادَيْنَا
بِالْبُشْرَى، وَوُطِنْنَا مِنَ الْأَرْضِ جَدَدًا، وَلِهَسْنَا أَثْوَابَ الْحَيَاةِ جُدَدًا !



وَمِنْ رِسَالَةِ أَبِي عَامِرٍ بْنِ عَقَالٍ الْأَنْدَلُسِيِّ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ

٩٢

جاء منها :

”... وَكَانَ جَوَازُهُ أَيْدِي اللَّهِ عَلَى بَحْرِ سَاكِنٍ، قَدْ ذَلَّ بَعْدَ اسْتِصْعَابِهِ، وَسَهَّلَ بَعْدَ أَنْ
رَأَى الشَّاحِخَ مِنْ هَضْبِهِ؛ وَصَارَ حَيْثُ مَيَّنَا، وَهَدِيرُهُ صَمْتًا، وَجِبَالُهُ لَا تَرَى بِهَا عَوَجًا وَلَا
أَمْتًا؛ وَضَعُفَ بَعْدَ تَعَاطِيهِ، وَعَقَدَ السَّلْمَ بَيْنَ مَوْجِهِ وَشَاطِئِهِ. فَعَبَّرَ أَمْنًا مِنْ لَهَوَاتِهِ، مَتَمَلِّكًا
لَصَهَوَاتِهِ؛ عَلَى جَوَادٍ يَقْطَعُ الْبَحْرَ سَبِيحًا، وَيَكَادُ يَسْبِقُ الرِّيحَ لَمَحًا؛ لَا يَجْهَلُ لِحَامًا
وَلَا سَرَجًا، وَلَا يَعْرِفُ غَيْرَ الْجُمَّةِ سَرَجًا؛ فَلِلَّهِ هُوَ مِنْ جَوَادٍ، لَهُ جِسْمٌ وَلَيْسَ لَهُ فُؤَادٌ؛
يَخْتَرِقُ الْهَوَاءَ وَلَا يَرْهَبُهُ، وَيَرْكُضُ فِي الْمَاءِ وَلَا يَشْرَبُهُ !“

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَلَعَلَّهَا ”مَرَجًا“.



ومن رسالة للأستاذ آبن العميد في مثل ذلك

جاء منها :

”... وكأن العشاريات وقد رُدَّتْ بالقارب، وحُلَّتْ بالثَّيْنِ والنُّضَارِ، عرائسُ منشورةٌ
الذَّوائبُ، مخضوبة الحواجب، موشحة المناكب، مقلدة الترائب، متوجة المفارق،
مكالة العواتق، فضية الحليل والقواطق، أو طواويس أبرزت رقابها، ونشرت
أجنحتها وأذنانها، وكأنها إذا جدت في اللحاق، وتنافست في السباق، نوافر نعام،
أو حوافل أنعام، أو عقارب شالت بالإبر، أو دهم الخيل واضحة المجول والغرب، وكأن
المجاديف طير تنفض خوافيها، أو حباب تعانق حباب بأيديها ...“

الباب السابع

من القسم الرابع من القرن الأول

في العيون والأنهار والغدران

وما وُصِفَتْ به البرك والدوايب والنواعير والحداول

قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

قال المفسرون : هو المطر . ومعنى سلكه أدخله في الأرض ، وجعله عيوناً
ومسالك ومجاري كالعروق في الجسد .

قال أبو الفرج ، قدامة بن جعفر : مجموع ما في المعمور من الأنهار في الأقاليم السبعة
مائة نهر وأربعة وثمانون نهراً . منها :

في الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهراً ، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون نهراً ،

وفي الإقليم الثالث ستة وعشرون نهراً ، وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون نهراً ،

وفي الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهرا ، وفي الإقليم السادس ستة وعشرون نهرا ؛

وفي الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهرا .

ثم قال : وفي هذه الأنهار ما جريانه من المشرق إلى المغرب كنهر نهاوند ، ونهر

سجستان ، وما جريانه من الشمال إلى الجنوب كدجلة ، وما جريانه من الجنوب

إلى الشمال ، كنهر النيل ونهر مهران ، وما جريانه مَرَّكَب من هذه الجهات ، كنهر

الفرات وجيحون ونهر الكر .

وسندكر المشهور منها .



فأما نهر النيل

§ فزعم قدامة بن جعفر أن أُنْبَعَاثَهُ من جبل القمر وراء خطِّ الاستواء ، من عين

تجري منها عشرة أنهار ، كلُّ خمسة منها تنصبُّ إلى بَطِيحَةٍ . ثم يخرج من كل بطيحة

نهران ، وتجرى الأنهار الأربعة إلى بَطِيحَةٍ كبيرة في الإقليم الأول . ومن هذه

البطيحة يخرج نهر النيل .

§ وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آخترق الآفاق" : « إن هذه البحيرة

تسمى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها ، متوحشون يأكلون

من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانة ، ونهر الحبشة ، فإذا خرج

النَّيْل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد ننه (طائفة من السودان أيضا ، وهم بين كانم

والنوبة) ، فإذا بلغ دُنْقُلَةَ (مدينة النوبة) عَطَف من غربيها إلى المغرب ، وأنحدر إلى الإقليم

الثاني ، فيكون على شطّيه عمارة النوبة . وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى .

ثم يشرّق إلى الجنادل ، وإليها تنتهي مراكب النوبة آنحدارا ، ومراكب الصعيد

إقلاعا . وهناك أحجار مضرّسة لأمرور المراكب عليها إلا في إبان زيادة النيل .

(٩٣)

ثم يأخذ على الشمال فيكون على شريقه مدينة أسوان من بلاد الصعيد الأعلى ؛ ثم يمر بين جبلين هما يكتشفان لأعمال مصر أحدهما شرق والآخر غربى حتى يأتى مدينة مصر فتكون فى شريقه . فإذا تجاوزها بمسافة يوم ، أنقسم قسمين : أحدهما يمر حتى يصب فى بحر الروم عند مدينة دمياط ، ويسمى بحر الشرق ؛ والآخر — وهو عمود النيل ومعظمه — يمر إلى أن يصب فى بحر الروم أيضا عند مدينة رشيد ، ويسمى بحر الغرب .

§ قالوا : وتكون مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب فى رشيد سبعة فرسخ وثمانية وأربعين فرسخا . وقيل إنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر ، وفى بلاد السودان شهرين ، وفى بلاد الإسلام شهرا . »

- ١٠ § وروى البخارى فى " صحيحه " عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، عن النبى (صلى الله عليه وسلم) فى حديث المعراج ، قال : « ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فإذا نَبَقَهَا مِثْلُ قَلَالِ هَجَرٍ ، وإذا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيلَةِ . (قال : هذه سِدْرَةُ المنتهى) وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان ، فنهران فى الجنة ؛ وأما الظاهران ، فالنيل والفُرات » . وليس فى الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار وتغيض غيره . وذلك أن زيادته تكون فى القيظ الشديد فى شمس
- ١٥ السرطان والأسد والسنبلة .

§ وقد حكى فى فضائل مصر أن الأنهار تمتد بمائها ، وذلك عن أمر الله تعالى . وقال قوم : إن زيادته من ثلوج يذوبها الصيف على حسب مددها كثيرة كانت أو قليلة ؛ وفى مدده اختلاف كثير .

§ وكان منتهى زيادته قديماً ستة عشر ذراعاً ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا
بمقياس مصر . فإن زاد عن ذلك ذراعاً واحداً زاد في الخراج مائة ألف دينار لما
يروى من الأراضي العالية .

والغاية القصوى في الزيادة ثمانية عشر ذراعاً في مقياس مصر . فإذا انتهى إلى
هذا الحد كان في الصعيد الأعلى اثنين وعشرين ذراعاً لارتفاع البقاع التي
يمر عليها .

فإذا انتهت زيادته ، فتحت خلجانا وترع تتحرك المياه فيها يمينا وشمالا إلى
البلاد البعيدة عن مجرى النيل .

§ وللنيل ثمانية خلجانا وهي : خليج الإسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج منف ،
وخليج المنى (حفره يوسف الصديق عليه السلام) ، وخليج أشمون طناح ، وخليج
سردوس (حفره هامن لفرعون) ، وخليج سخا ، وخليج حفره عمرو بن العاص ،
يجرى إلى أن يصب في السباح .

§ ويحصل لأهل مصر إذا وفي النيل ستة عشر ذراعاً — وهي قانون الري — فرح
عظيم : بحيث إن السلطان يركب في خواص دولته وأكابر الأمراء في الحراريق إلى
المقياس ، ويمد فيه سماطاً يأكل منه الخواص والعوام ، ويحل على القياس ، ويصله
بصلة مقررة له في كل سنة .

§ وقد ذكر بعض المفسرين "للكتاب العزيز" أن يوم "وفاء النيل" هو اليوم
الذي وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع ، وهو قوله تعالى إخباراً عن فرعون : (قَالَ
مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) . والعادة جارية أن اجتماع الناس
للتخليق في هذا الوقت .

ومتى قَصَّر النيل عن هذا المقدار غَلَّتِ الأسعار .

وهو إذا أَبْتَدَأَ في زيادته يكون مُحْضَرًّا ، ثم مُحْجَرًّا ، ثم كِدْرًا .

وإذا أَتَتْهُم في الزيادة غَشَى الأرض ، وتصير القرى فوق الرَوَابِي فلا يُتَوَصَّلُ إليها إلا في المراكب أو على الجسور الممتدة التي تُتَفَقَّ عليها الأموال الكثيرة وتُتَخَذُ لحفظ الماء .

فإذا انتهى رى مكان وأخذ حُدَّه قُطِعَ جَسْرُ ذلك المكان من مكان معروف (يعرفه خَوْلَةُ البلاد ومشايخها) تروى منه الجهة التي تليها مع ما تجمع فيها من الماء المختص بها . ولولا إتقان هذه الجسور وحفر الترع لَقَلَّ الارتفاع بالنيل .

§ وقد حكى أنه كان يُرْصَدُ لعمارة الجسور في كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم بها ، لما يترتب عليها من المصالح ، ويحصل بها من النفع في رى البلاد .

§ وقد وصف بعض الشعراء النيل في طلوعه وهبوطه ، فقال :

واهاً لهذا النيل أى عَجِيبَةٍ * يَكْرِ بِمَثَلِ حديثها لا يَسْمَعُ
يَلْقَى الثرى في العام وهو مَسْلَمٌ * حتى إذا ما مَلَّ عادَ يودَعُ
مُسْتَقْبَلٌ مِثْلَ الهلال فدهره * أبداً يزيد كما يزيد ويرجعُ

١٥ وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى في موضعها .

§ وهذا النهر مخالف في جريه لسائر الأنهار ، لأنه يجري مما يلي الجنوب مستقبل الشمال . وكذلك نهر مِهْرَان بالسند ، ونهر الأرنط ، وهو نهر خُصَّ وحمأة ، ويسمى العاصي لمخالفته للأنهار في جريها . وما عداها من الأنهار جريها من الشمال إلى الجنوب ، لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه .

٢٠ وهو أخف المياه وأحلاها وأعمُّها نفعاً وأكثرها خراجاً .

§ وقد حُكي أنه جُي في أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأول) مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار، وجباه عمرو بن العاص اثني عشر ألف ألف دينار، ثم رُدُّل إلى أن جُي أيام القائد جوهر (مولى المعز العبيدي) ثلاثة آلاف ألف ومائتي ألف دينار .

وسبب تقهقره أن المملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنفق في حفر ترعه وإتقان جسوره وإزالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة كالقصب والحلفاء .

وحكى ابن هليعة أن المرتين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل : سبعون ألفا للصعيد، وخمسون ألفا للوجه البحري .

وحكى ابن زولاق أن أحمد بن المدبر لما ولي الخراج بمصر، كشف أرضها فوجد غامرها أكثر من عامرها فقال : والله لو عمرها السلطان لوقت له بخراج الدنيا .

§ وقيل إنها مُسحت أيام هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه المَاء العامر والغامر مائة ألف ألف فدان . والفدان أربعائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع .

واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزراعة بمصر في وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرين ألف ألف فدان . والباقي استبحر وتلف .

واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما . والحرث يحرق خمسين فداناً، فكانت محتاجة إلى أربعائة ألف وثمانين ألف حرّاث .



وأما الفرات

فهو أحد الترافدين، ويقال الوافدين، والآخر دجلة، سميا بذلك لأنهما يجريان في جانبي بغداد : دجلة من شرقها، والفرات من غربها، يأتي إليها من دجلة

٥

١٠

١٥

٢٠

من واسط، والبصرة، والأبلة، والأهواز، وفارس، وثمان، واليمامة، والبحرين،
وسائر بلاد الهند، والسند، والصين، ويأتى إليها من الفرات من الموصل، وأذربيجان،
وإزمينية، والجزيرة، والشمس، والشام، ومصر، والمغرب، وقد تقدم ذكرنا لحديث
البخارى أنه يجرى من تحت سدره المنتهى .

- وأما مبتدأ جريه الذى يعرفه الناس، فن مدينة قالقلا من نهر يسمى أودخش،
ويجرى مقدار أربعائة وخمسين ميلا مغربا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتى يترين
تغرئى ملطية، وشميساط، ثم الى جسر منبج، ثم يعطف ويأخذ جهة الجنوب حتى
يصل الى بالس و يمر بنصبيين، والرقه، وقرقيسيا، والرحبة، فيلتحف على عانات،
ثم يمتد حتى يتر بهيت والأنبار . فإذا جاوزها أنقسم قسمين : قسم يأخذ نحو
الجنوب قليلا وهو المسمى بالعلقم، ينتهى الى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة
والحلة، الى البطيحة التى بين البصرة وواسط، والقسم الآخر يسمى نهر عيسى،
منسوب لعيسى بن على بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهى الى بغداد، ويمر حتى
يصب في دجلة .

- قال المسعودى : وقد كان الأكثر من ماء الفرات ينتهى الى بلاد الحيرة، ثم
يتجاوزها ويصب في البحر الفارسي، وكان البحر يوم ذاك في الموضع المعروف
بالتجف في هذا الوقت، وكانت مراكب الهند والصين ترد على ملوك
الحيرة فيه .

قال : والموضع الذى كان يجرى فيه بين إلى زمن وضعى هذا الكتاب، يعنى
"كتاب مروج الذهب" وهو في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه
كانت وقعة القادسية .

وطول الفرات من حيث يخرج عند ملتية إلى أن يأتي ما يأتي منه إلى بغداد
سُمائة فرسخ وثلاثة وعشرون فرسخاً ، وفي شطّه مدُن في جزائر تعدّ من أعمال
الفرات ، وهي الرّيسة ، والناووسة ، والقصر ، والحديثة ، وعانات ، والدّالية .



وأما نهر دجلة

ويسمى السلامة ^(١) ، وبه سميت بغداد دار السلام على أحد القولين ، والثاني
السلام على الخلفاء فيها .

وهذا النهر فارز بين العراق والجزيرة ، وأنبعائه من أعين بجبال آمد ، ويصب
إليه نهران يخرجان من أرزن الروم ومياً فارقين وعيون أخرى من جبال السلسلة ،
فيمتد ببلد ، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد إرمينية بين بلاد
سورا وقبر سابور ، ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان على فرسخ
من الحديثة ، ويسمى المجنون لحذته وشدة جريه ، ثم تمتد دجلة فيصب فيها الزاب
الأوسط ، ومخرجه من الفرات ويجرى بين إربل ودقوقاء . ويصب في دجلة أيضاً
الزاب الأصغر ، ومخرجه أيضاً من الفرات .

وهذه الزوايا الثلاثة أنبسطها زاب بن طهماسب : أحد ملوك الفرس الأول . ثم تمتد
دجلة بتكرت إلى أن تتجاوز سامراً قليلاً فيقع فيها نهر عيسى ويمتد حتى يشقّ بغداد .
فإذا تجاوزها صب فيه نهر يخرج من بلاد إرمينية يسمى تامراً بعد أن يمرّ بناصرلو
ثم بباجسراً فيسمى النهران ، ويشقّ مدينة تعرف به ، ثم تمتد دجلة بحراًياً والنعمانية
ثم بواسط ، ثم إلى البطائح ، ثم تخرج منها فتمتد بالبصرة وتجري حتى تنتهي إلى عبّادان ،
وعندها تصبّ في البحر الفارسي .

وما يمرّ من دجلة بالبصرة يملح إذا مدّ البحر فلا يشرب منه ألبتة ، ويحلو إذا جرز .

(١) كذا بالأصول ، ولعله « السلام » بدون تاء .

- فأهل البصرة ينتظرون بالاستقاء منه الجزر، وهو يمد بكرة ويجزر عشاء .
- وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخل في دجلة من بحر فارس إلى مدينة المدائن ، فاتفق أن أنبتق في أسافل كسكر بشق عظيم على عهد قباد بن فيروز فأهمل حتى طغى مأوده وغرق عمارات وضياعا فصارت بطائح .
- ويسمى هذا البثق دجلة العوراء لتحول الماء عنه . وصار بين دجلة الآن ٥ ودجلة العوراء مسافة بعيدة تسمى بطن جوحى ، وهو من حد فارس من أعمال واسط الى نحو السوس من أعمال خوزستان .
- ويقال إن كسرى أنفق أموالا عظيمة على أن يحول الماء إليها فأعياه ذلك . ورامه خالد بن عبدالله القسرى فعجز عنه .
- § ومقدار مسافة جري نهر دجلة الى أن يصب في البحر الفارسي ثلثمائة فرسخ ؛ ١٠ ومقدار البطائح ثلاثون فرسخا طولا وعرضا . وهى تفيض فى كثير من الأوقات حتى يحنى على بغداد الغرق .

*
* *

وأما نهر سجستان

- § ويسمى الهند مند^(١)، فيقال إن منوچهر بن أيراج بن أفریدون أنبطه . ١٥
- § وهو يجري من عيون فى بلاد الهند ويمتد ببلد الغور؛ فإذا تجاوزها، مر من أعلى سجستان على بر رخج، ثم على بسط^(٣)، ثم على دونج فتفرع منه أنهار تجري فى شوارعها، ثم يمر عمود النهر حتى يصب فى بحيرة زرة .
- (١) وسماه المسعودى " الهرمند " فى كتاب " التنبيه والإشراف " .
- (٢) فى المسعودى " إيران " وقال : إن إيران تسميه الفرس أيراج . ٢٠
- (٣) هى المشهورة باسم " بست " . ومنها أبو الفتح البستى الشاعر المعروف .
- (٤) لم نعر على هذا الاسم فيما بيدنا من كتب الجغرافية العربية ، ولعلها هى نفس المدينة التى ذكرها ياقوت وغيره باسم " زريج " وقال : إنها قصبة سجستان .

§ وطول هذا النهر من حيث يتدنى الى نهايته مائة فرسخ .

وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكك .



وأما نهر مهران •

§ وهو نهر السند ، فهو يشبه نيل مصر في زيادته ونقصه وأصناف حيوانه وما يتفرع منه من الخلجان .

§ وهو يستمد من أربعة أنهر : نهران يجريان من السند ، ونهر من ناحية كابل ، ونهر من بلاد قشمير . وتجتمع فتكون نهرا واحدا ، ويجرى حتى ينتهي الى الدور فيمر بها ، ومن ثم يسمى نهر مهران ، ثم يمر بالمولتان ، ثم بالمنصورة ، ثم يجرى الى ديبل . فإذا تجاوزها صب في بحر الهند على ستة أميال منها .

§ وطوله ألف فرسخ .



(٢)

وأما نهر جيحون •

(٣)

ويسمى بالفارسية "به روز" وهو "نهر بلخ" .

§ وأنبعائه من بحيرة في بلاد التبت مقدارها طولاً وعرضاً أربعون ميلاً ، تجتمع

من أنهار الختل .

- (١) لا يزال اسم "مهران" علماً يطلقه بعض الهنود الى الآن على القسم الأسفل من نهر السند .
(٢) في الأصل "جيحان" . وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر في آسيا الصغرى و يعرف بنهر المصيصة و يصب في بحر الشام . (أنظر معجم ياقوت وابن رسته في "التبیه والإشراف") .
(٢) ويسمى أيضا نهر كالف على ما رواه المسعودي باسم قلعة حصينة ، قال ياقوت : انها قائمة على طرفه شبيهة بالمدينة بينها وبين بلخ ثمانية عشر فرسخا .

فإذا خرج منها مر بوخان فيسمى نهر جرياب^(١)، ويجرى من المشرق إلى المغرب إلى أعلى حدود بلخ. ثم يعطف إلى ناحية الشمال إلى أن يصير إلى الترمذ، ثم منها إلى زم وأمل من بلاد خراسان. ثم يجري إلى أن يمر ببلاد خوارزم فيشق قصبته. فإذا تجاوزها تشعب منه أنهار وخليجان يمينا وشمالا، تصب إلى مستنقعات وبطائح يصاد فيها السمك.

ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودا واحدا، تجري مقدار أربعة وعشرين فرسخا، ثم تصب في بحيرة خوارزم.

§ ويكون مقدار جريه من مبدئه إلى نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخا، وقيل: أربعمائة. وساحله يسمى الروذبار^(٢).

ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سمت المغرب حتى يقرب من گرمان، ثم يمضي حتى يصب في بحر فارس.

§ ونهر جيحون ربما جمد في الشتاء حتى تعبر عليه القفول. قالوا: ويتبدى جموده من ناحية خوارزم.



وأما نهر سيحون

ويسمى نهر الشاش، وهو فارز بين بلاد الهياطلة وبلاد تركستان.

§ قال ابن حوقل: مبتدؤه من أنهار تجتمع في حدود بلاد الترك [والإسلام]، فتصير عمودا واحدا وتجرى حتى تظهر في حدود أوزكند من بلاد فرغانة فتصب فيه

(١) في الأصول "جواب" والتصحيح عن الإصطخري وابن حوقل.

(٢) قال ياقوت: كان معناه بالفارسية "موضع النهر". ثم نقل عن السمعاني أن الروذبار لفظة لمواقع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرقة. ثم ذكر رودبار بلخ، ثم قال: وبالشاش أيضا: قرية يقال لها رودبار من وراء جيحون. ولعل المراد هنا بلاد النهر أي تهر جيحون، كما قالوا زنجبار أي بلاد الزنج.

فيعظم ويكثر ماؤه، ثم يمتد إلى فاراب . فإذا تجاوزها يجري في بَرِّية فيكون على جانبه
الأتراك الغزَّية، ويمتد إلى أن يصب في نهر جيحون^(١) .
وبين موقعه في النهر وبين بحيرة خوارزم عشرة أيام .

*
* *

وَأما نهر الكُنْكَ^(٢)

وهو نهر تعظمه الهند، فينبعث من بلاد قشмир ويجري في أعلى بلاد الهند .
§ وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظمونه غاية التعظيم .

§ ومن عجائبه أنه إذا ألقى فيه شيء من القاذورات، أظلم جَوْه ورجفت أرجاؤه
وكثرت الأمطار والرياح والصواعق .

§ وقد وصفه العُتْبِيُّ في "التاريخ اليميني" فقال :

"وهذا النهر الذي يتواصف الهنود قدره وشرقه، فيرون من عين الخلد التي في السماء
مُغْتَرَفَه ؛ إذا أُحرق منهم ميت ذَرَّوه فيه بعظامه، فيظنون أن ذلك طهر لآثامه ؛
وربما أتاها الناسك من المكان البعيد فيغرق نفسه فيه، يرى أن هذا الفعل يُجِيبُه .
والهنود يُقْرِطُون في تعظيمه حتى إن الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفسه
وألقى رماده فيه، أو يأتي إلى النهر (وهناك شجر القنا في غاية الارتفاع، وقوم هناك
بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيربط نفسه في طرف قناة، ثم يحزُّ رأسه بيده

(١) اختصر المؤلف كلام ابن حوقل اختصاراً خفيفاً (وانظر كلام ابن حوقل في كتابه "المسالك

والملك" ص ٣٩٢ — ٣٩٣) .

(٢) قال أبو الفدا : إن اسمه الهندي : كانكو، وسماه المسعودي "جنجس" في كتاب "التنبيه

والإشراف"

فيلقى الرأس معلقا في طَرف القناة وتسقط الجثة ، أو يلقي نفسه من شاطئ على تلك السيوف والخناجر فتقطع ، ومنهم من يلقي نفسه في النهر فيغرق ” .



وأما نهر الكُر

فهو نهر بأرض إرمينية .

§ وأنبعثه من بلاد الأَلان ، فيمتد ببلاد الأبخاز حتى يأتي نهر تفليس فيشقه^(١) ويحري في بلاد الساوردية . ثم يخرج بأرض بردعة ، ويحري إلى برزنج فيصب فيه نهر الرّس . وهذا النهر هو المذكور في القرآن العزيز في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾^(٢) على ما ذهب إليه بعض المفسرين . فإذا صب فيه هذا النهر ، صار نهر واحد يصب في بحر الخزر .

§ ونهر الرّس يخرج من أقاصي بلاد الروم ، على ما زعم المسعودي .



وأما نهر إاتل

§ وهو نهر عظيم ، فهو نهر الخزر .

§ ويمتد جانبه الشرقي على ناحية خرخنز ، ويحري ما بين الكيماكية والغزية . ثم يمتد غرباً على ظهر بلغار وبرطاس^(٤) والخزر . ثم ينقسم قسمين : أحدهما إلى مدينة إاتل

(١) في الأصول ” الأبخاز ” . والأصوب ” الأبخاز ” كما أثبتناه وهو اسم لجهة من بلاد إرمينية وقد ذكر الأبخاز كل من الإصطخرى وابن حوقل والمقدسي وابن خرداذبه والمسعودي .

(٢) جبل من الأرمن يسميهم العرب أيضاً ” السياوردية ” ويصفونهم بأنهم ” أهل العبث والفساد والتلصص ” (عن حاشية في ص ١٩٢ من ” مسالك الممالك ” للإصطخرى) .

(٣) في الأصل ” كذب أصحاب الرّس المرسلين ” وهو غير نظم القرآن ، فتنبه .

(٤) مدينة كانت على نهر إاتل ببلاد روسيا . ومنها خرج البلغار إلى البلاد المعروفة الآن باسمهم .

يشقها نصفين ويجرى الى أن يصب في بحر الخزر، ويجرى الآخر فيمتر ببلد الروس حتى يصب في بحرهم وهو بحر سوداق .

§ ويقال إنه يتشعب منه نيف وتسعون نهرا . وإذا وقع في البحر ، يجري فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه .

§ وقيل إنه يجمد في الشتاء ، ويتبين لونه في لون البحر .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما في المعمور

من الأنهار والعيون التي يتعجب منها

قال صاحب "مباحج الفكر، ومناهج العبر" في كتابه :

«وذكر المعتنون بتدوين العجائب في كتبهم التي وضعوها لذلك أن في المعمور أنهارا وعيونا يتعجب منها إذا أخبر عنها . فذكروا منها نهر السكك (وقد تقدم ذكره) وأن بأرض الهند مكانا يعرف بعقبة عورك فيه عين ماء لا تقبل نجسا ولا قدرا ، وإن ألقى فيها شيء من ذلك ، أكفهرت السماء وهبت الريح وكثر الرعد والبرق والمطر ، فلا تزال كذلك إلى أن يخرج منها ما طرَح فيها .

«وذكروا أن في ناحية الباميان عينا تسمى ديواش تفور من الأرض كغليان القدر؛ متى بصق فيها إنسان أورحى فيها شيئا من القاذورات ، ازداد غليانها وفورانها وفاضت . فربما أدركت من جعل ذلك فيها فغرقته .

«وبناحية الباميان أيضا عين تجري من جبل في بعض الأحيان . فإذا خرج ماؤها ، صار حجرا أبيض .

«وبقرية من أعمال فارس كهف بين جبال شاهقة فيه حُفرة بقدر الصَّحفة،
يَقْطُرُ فيها من أعلى الكهف ماء، إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن
شرب منه ألف غمَّهم وأرواهم.

(١)
«وبناحية أردشير جرد عين يجري منها ماء حلوي شرب لشقية الجوف. فمن
شرب منه قَدَحًا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة.

«وبدارين من أعمال فارس نهر ماؤه شروب. إذا غُطَّت فيه الثياب خَضَرها.
وفي بعض رساتيق همدان عيون متى خرج منها الماء تحجَّر.

«وبنواحها أيضا ماء يخرج من تحت قلعة ويجرى في جداول الى بعض
الرساتيق فما تشبَّث منه في صدع أو شق صار حجرا صلدا، وإذا صبَّ في خَرَفَة
وأقام فيها ثلاثة أيام ثم كُسِرَت، وُجِدَ في جوفها أخرى قد تحجرت من الماء.
«وبناحية تَفْلِس عين ينبع، فإذا خرج منها الماء صار حَيَّات.

«وبأرض القُدُموس من حصون الدَّعوة برَبَضها حَمَام يجري إليها الماء من عين
هناك. فإذا كان في أول شهر تَمُوز ينبع في الحَمَام حَيَّات في طول شبرين أولا، ثم
في طول شبر، وتكثر. ولا توجد في غير الحَمَام. فإذا آنقضى شهر تَمُوز، عُدِمَت
تلك الحَيَّات، فلا توجد الى العام القابل.

«وبأرض إرمينية وإدلا يقدر أحد [أن] ينظر اليه ولا يقف عليه ولا يُدْرى ما هو.
إذا وضعت القدر على صَفْتِه غَلَّتْ وَنَضِجَ ما فيها. وفيها وادٍ عليه الأَرْحَاء والبساتين.
ماؤه حامض، فإذا نزل في الإناء عَذْب وحلا.

(٩٧)

(١) في معجم ياقوت: "أردشير خَرَة" مضبوطا بالعبرة.

«وبالمِراغة عيون إذا خرج ماؤها لم يلبث إلا قليلا حتى يتحجر . فمنه تُفرش

دورهم .

«وبنواحي أرزن الروم ماء يستقى فيستحجر ويصير ملحاً .

«وأكثر مياه بلاد اليمن تستحيل شَبًّا .

«وبنواحي واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوانٌ مختلفة : من الحُمْرة

والصُفْرة والخُضرة . تسيل إلى مستنقعات ، فتكون ملحاً بحسب ألوانها .

« وفي هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلاً عن الخل .

«وبنواحي أسوان من الصعيد الأعلى مستنقعاتٌ منها النِّفط .

«وكذلك بتكريت من أرض العراق .

«وبأرض كَنَامة^(١) من بلد إفريقية عين تسمى عين الأوقات : تجري في أوقات

الصلوات الخمس . فإذا حضر جنبٌ أو امرأة حائضٌ ، لا تَبِضُ بشيء من الماء .

وإذا آثمهم رجالان ، أتت بالماء للصادق وشحت على الكاذب .

«وببلد إفريقية أيضا عين تنبع بالمداد ، يكتب به أهل تلك الناحية .

«وبطَرطُوشة من بلاد الأندلس وادٍ يجري رملاً .

قال : وذكر بعض أصحاب المجاميع أنه كان بمدينة طَحَا من كُورة الأشمونيين

من صعيد مصر بئر فيها ماء معين يُشرب منها طول أيام السنة فيكون الماء كسائر

المياه ، حتى إذا كان أول يوم من برمودة من شهور القبط فمن شرب من ذلك الماء

يومئذ خدمته الطبيعة مقدار ما شرب . فإذا كان وقت الزوال عاد الماء إلى حالته

الأولى ، ثم لا يفعل كذلك إلا في مثل ذلك اليوم من العام القابل .

(١) في الأصل : «كنامة» وهو غلط من النسخ ، لأن «كنامة» قليلة من البرر منتشرة فيما بين بركة

إلى أرض الجزائر .

وقال : إنه كان بمدينة الأشمونين كنيسة تعرف ببو جرج إلى جانبها بئر لا نداوة فيها ولا بلل في سائر أيام السنة ، فإذا كان اليوم العاشر من طوبة من شهور القبط تمتلئ تلك البئر ماءً شروباً . فلا يبقى أحدٌ من نصارى ذلك البلد إلا يأخذ من ذلك الماء للتبرك به . حتى إذا كان عند الزوال ، غاض الماء فلا يبقى في البئر منه شيء ويجفُّ لوقته .

«وبأرض مرمينثا من عمل حصن الأكراد عين تسمى الفؤارة . تكون في غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقدير ثلاثة أذرع . وتفور في بعض الأيام ويخرج منها ماءٌ يدير أرحية الطواحين ويسقى البساتين فيستمر كذلك بعض يوم ثم يغور . ويتكرر ذلك في الأسبوع مرتين وثلاثة» .

١٠ «وبقلعة بعلبك من الشام بئر تعرف ببئر الرحمة لا يرى فيها الماء إلا إذا حوصرت . فإنها عند ذلك تمتلئ حتى تفيض فإذا زال الحصار جفَّت» .

ذكر ما يُتمثل به مما فيه ذكر الماء

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعل)

الأمثال :

يقال :

أسرع من الماء إلى قراره .

أرق من الماء .

أحمق من لاعي الماء .

أحمق من القابض على الماء .

أصْفَى من ماء المَفَاصِل .

أَعَذَّبُ من ماء المَفَاصِل .

أَجْرَى من الماء .

أَعَذَّبُ من ماء الحَشْرَج .

أَعَذَّبُ من ماء البَارِق .

أَلْطَفُ من الماء .

أَوْجَدُ من الماء .

ويقال :

أَنْ تَرَدَّ الْمَاءَ بِمَاءٍ أَكْيَسُ .

مَاءٌ وَلَا كَصَدَاءَ .

قَدْ بَلَغَ الْمَاءُ الزُّبَى .

ويقال :

فَلَانٌ يَرْقُمُ عَلَى الْمَاءِ . (إذا كان حاذقا) .

ثَأْطَةٌ مُدَّتْ بِمَاءٍ . (للأمر زداد فسادا) .

لَيْسَ الرَّيُّ فِي التَّشَافِّ . (في ذم الاستقصاء) .

الْمَاءُ إِذَا طَالَ مَكْنِيَّهُ، ظَهَرَ خَبِيْثُهُ؛ وَإِذَا سَكَنَ مَتْنُهُ، تَحَزَكَ نَتْنُهُ .

الْكَدَرُ مِنْ رَأْسِ الْعَيْنِ .

إِذَا عَذَّبَتِ الْعُيُونُ، طَابَتِ الْأَنْهَارُ .

هَذَا غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ، وَبَرَضٌ مِنْ عَيْدٍ . (أى قليل من كثير) .

ومن أنصاف الأبيات

* والمرءُ يَشْرَقُ بِالزُّلَالِ البَارِدِ * كذلك غَمَرُ الْمَاءِ يُرَوِي وَيُغْرِقُ *
* وَالْمَشْرَبُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزَّحَامِ * مَوَاقِعُ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي *
* وَكَيْفَ يَعَافُ الرِّقَّ مَنْ كَانَ صَادِيًا؟ *

ومن الأبيات

يا سَرَحَةَ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ * أَمَا إِلَيْكَ سَبِيلُ غَيْرِ مَسْدُودِ
لِحَائِمِ حَامٍ حَتَّى لَا حَيَامَ بِهِ * مُحَلَّلًا عَنْ طَرِيقِ الْمَاءِ مَصْدُودِ
وقال آخر:

أَيُّجُوزُ أَخَذُ الْمَاءِ مِنْ * مُتَلَهِّبِ الْأَحْشَاءِ صَادِي

وقال آخر:

أَرَى مَاءً وَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ * وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُرُودِ

وقال آخر:

مَنْ غَضَّ دَاوَى بِشُرْبِ الْمَاءِ غَضَّتَهُ * فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غَضَّ بِالْمَاءِ

وقال آخر:

وَمَا كُنْتُ إِلَّا الْمَاءَ جِئْنَا لَشُرْبِهِ * فَلَمَّا وَرَدْنَاهُ إِذَا الْمَاءُ جَامِدٌ

وقال آخر:

وَفِي نَظَرَةِ الصَّادِي إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةٌ * إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا سَبِيلَ الْمَوَارِدِ

وقال آخر:

وَإِنِّي لِلْمَاءِ الْخَالِطِ لِلْقَدَى * إِذَا كَثُرَتْ وَرَأْدُهُ لِعَيُوفِ

وقال آنر :

سَأَفْنَعُ بِالْثَمَادِ لَعْلَ دَهْرًا * يَسُوقُ الْمَاءَ مِنْ حُرِّ كَرِيمٍ

وقال آنر :

وَمَنْ يَأْمِنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ * عَلَى الْمَاءِ خَانَتَهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ

وقال آنر :

وَأَمَّا وَإِشْرَافِي عَلَيْكَ يَهْمَتِي * لَكَالْمِثْقَالِ زُبْدًا مِنَ الْمَاءِ بِالْمَحْضِ

وقال آنر :

فَقُلْ فِي مَكْرَعِ عَذْبٍ * وَقَدْ وَافَاهُ عَطْشَانُ

وقال آنر :

وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْكَ وَأَيُّ صَبْرٍ * لِظِمَائٍ عَنِ الْمَاءِ الزُّلَالِ

وقال آنر :

وَإِنَّ الْمَاءَ فِي الْعِيدَانِ يَجْرِي * وَرُبَّمَا تَغَيَّرَ فِي الْحُلُوقِ

وقال آنر :

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْمَلُولَ فَأَتَمَّا * أَخْطُ بِأَقْلَامٍ عَلَى الْمَاءِ أَحْرَفًا

وقال آنر :

وَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيبًا أَنْ أَعَذَّبَهُ * يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمرُ الْآجِنِ الْأَسْنِ

وقال آنر :

الْمَالُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ مَا لَمْ يَفْضُ * فِي الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ سُوءَ ثَنَاءٍ

كَالْمَاءِ تَأْسِسُ بَرُّهُ إِلَّا إِذَا * خَبَطَ السُّقَاةُ جِهَامَهُ بِدَلَاءٍ

ذكر شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه

§ فأما ما أختص به نهر النيل من الوصف .

فمن ذلك قول ابن النقيب :

كَأَنَّ النَّيْلَ ذُو فَهْمٍ وَلُبٍّ * لَمَّا يَدْوِلَعَيْنِ النَّاسِ مِنْهُ

فَيَأْتِي حِينَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ * وَيَمِضِي حِينَ يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ

وقال تميم بن المعز العبيدي :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مَخْتَصَرٌ * وَلَكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَّةٌ قِصَرٌ

وَالسُّفُنُ تَجْرِي كَالْخِيُولِ بِنَا * صُعْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُنْحَدِرٌ

فَكَأَنَّمَا أَمَاجُهُ عُكَّنٌ * وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرُرٌ

§ ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني قال :

وأما النيل فقد ملأ البقاع ، وانتقل من الإصبع الى الدراع ، فكأنما غار على

الأرض فغطّاها ، وأغار عليها فاستقعدها وما تحطّاها . ^(١) فما يوجد بمصر قاطع طريق

سواه ، ولا مرغوب مرهوب إلا إياه .

وأما ما أختصت به دجلة من الوصف :

قال التنوخي عفا الله عنه :

وَكَأَنَّ دِجْلَةَ إِذْ تَغْطِطُ ^(٢) مَوْجَهَا * مَلِكٌ يَعْظُمُ خَيْفَةً وَيَجَلُّ

عُذْبَتٌ فَمَا أَدْرَى أَمَاءٌ مَاؤُهَا * عِنْدَ الْمَذَاقَةِ أَمْ رَحِيقٌ سَلْسَلٌ

وَكَأَنَّهَا يَاقُوتَةٌ أَوْ أَعْيُنٌ * زُرْقٌ يَلْأَمُ بَيْنَهَا وَيُوصَلُّ

وَلَهَا بَمَدٍّ بَعْدَ جَزَرٍ ذَاهِبٌ * جَيْشَانِ يُدْبِرْذَا وَهَذَا يُقِيلُ

٢٠ (١) كذا في حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٢٥٤ طبع مصر وهو الصواب . وفي الأصل « وغار » .

(٢) كذا في معاهد التنصيص ص ١٨٢ طبع بولاق وهو الصواب . وفي الأصل : « تغمض » .

وقال محمد بن عبدالله السلامي شاعر "البيمة" :

وميدان تجول به خيول * تقود الدارعين^(١) ولا تقاد
ركبت به إلى اللذات طرفا * له جسم وليس له فؤاد
جرى فظننت أن الأرض وجه * ودجلة ناظر وهو السواد

وقال الصنوبري :

فلما تعالى البدر وأشتد ضوءه * بدجلة في تشرين بالطول والعرض
وقد قابل الماء المفضض نوره * وبعض نجوم الليل يطفي سنا بعض
توهم ذو العين البصيرة أنه يرى ظاهر الأفلاك في باطن الأرض

ومما وصفت به الأنهار

قال الصنوبري :

والعوجان الذي كلفت به * قد سوى الحسن فيه مد عوج
ما أخطأ الأيم في تعوجه * شيئا إذا ما استقام أو عرج
تدرج الريح منه فترى * جوشن ماء عليه قد درج
إن أعنت بالجنوب أعنق في * لطف وإن هملجت به هملج
من أين طافت شمس النهار به * حسبت شمسا من جوفه تخرج

وقال أبو فراس :

والماء يفصل بين زه * سر الروض في الشطين فصلا
كيساط وشي جردت * أيدي القيون عليه نصلا^(٢)

(١) أنظر قبل هذا ص ٢٥٦ في وصف البحر والسفن . وكتب في بعض الأصول عند هذا الموضع

لفظة "مكرر" .

(٢) القيون : جمع قين وهو الحداد . وفي الأصل «القيان» وهو تحريف .

وقال الناجم :

أَنْظُرْ إِلَى الرَّوْضِ الذَّكَى * فَحَسِّنْهُ لِلْعَيْنِ قُرْهُ
فَكَأَنَّ خُضْرَتَهُ السَّمَاءُ * وَنَهْرُهُ فِيهِ الْمَجَرَّةُ

وقال عبد الله بن المعتز :

وَتَرَى الرِّيحَ إِذَا مَسَحْنَ غَدِيرَهُ * صَفَيْنَهُ وَنَفَيْنَ^(١) كُلَّ قَذَاةٍ
مَا إِنْ يَزَالُ عَلَيْهِ ظِيٌّ كَارِعٌ * كَتَطَلَّعَ الْحَسَنَاءُ فِي الْمِرَاةِ

ومثله قول الآخر :

وَعَدِيرٌ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ حَتَّى * بَانَ فِي قَعْرِهِ الَّذِي كَانَ سَاخَا
وَكَأَنَّ الطُّيُورَ إِذْ وَرَدَتْهُ * مِنْ صَفَاءٍ بِهِ تَرْقُّ فِرَاحَا

وقال آخر :

وَالنَّهْرُ مَكْسُوءٌ غِلَالَةً فَضَّةً * إِذَا جَرَى سَيْلٌ فَتَوَبَّ نَضَارِ
وَإِذَا اسْتَقَامَ رَأَيْتَ صَفْحَةً مُنْصِلٍ^(٣) * وَإِذَا اسْتَدَارَ رَأَيْتَ عَطْفَ سَوَارِ

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

النَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غِلَالَةُ خَضِرِهِ * وَعَلَيْهِ مِنْ صَبْغِ الْأَصِيلِ طِرَارُ
تَتَرَفَّقُ الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّهَا * عَمَكُنُ الْخُصُوفِ تَهْزُهَا الْأَنْجَارُ

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

لِللَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ * أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
وَعَدَتْ تَحْفُ بِهَ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا * هُدْبٌ تُحْفُ بِمُقَلَّةِ زَرْقَاءِ
وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى * ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لَحْيَيْنِ الْمَاءِ

(١) في الأصل «وصفينه» بزيادة الواو وهو خطأ .

(٢) يريد : أن ماء النهر يكون صافيا كالفضة حتى يجيئ ، زمن فيضانه فيحمر بما يحمله إليه السيل معه من رمل .

(٣) المنصل (بضم فسكون فضم) هو السيف .

وقال أبو القاسم بن العطار :

مَرَرْنَا بِشَاطِئِ النَّهْرِ بَيْنَ حَدَائِقَ * بِهَا حَدَقُ الْأَزْهَارِ تَسْتَوْقِفُ الْحَدَقُ
وَقَدْ نَسَجَتْ كَفَّ النَّسِيمِ مُفَاضَةً * عَلَيْهِ ، وَمَا غَيْرُ الْحُبَابِ لَهَا حَلَقُ

وقال محمد بن سهل البلخي شاعر «الذخيرة» :

رَاقِبَا النَّهْرُ صَفَاءً * بَعْدَ تَكْدِيرِ صَفَائِهِ
كَانَ مِثْلَ السِّيفِ مَدْمَى * بَخْلَوُهُ مِنْ دِمَائِهِ
أَوْ كَمِثْلِ الْوَرْدِ غَضًّا * فَهُوَ الْيَوْمَ كَمَائِهِ

وقال القاضي التنوخي شاعر «اليتيمة» :

أَحْبَبَ إِلَى بَهْرِ مَعْقِلِ الذِّى * فِيهِ لَقَلْبِي مِنْ هُمُومِي مَعْقِلُ
عَذْبٌ إِذَا مَا عَبَّ فِيهِ نَاهِلٌ * فَكَأَنَّهُ مِنْ رِيْقِ حَبِّ يَنْهَلُ
مُتَسَلِّسٌ فَكَأَنَّهُ لَصَفَائِهِ * دَمْعٌ بَخْدَى كَاعِبٍ يَتَسَلَّلُ
فَإِذَا الرِّيحُ جَرَيْنَ فَوْقَ مَتُونِهِ * فَكَأَنَّمَا دَرَعٌ جَلَاهُ الصِّقْلُ

وقال مؤيد الدين الطُّغْرَايِي فِي الْغَدِيرِ :

مُجْنِبًا إِلَى الْجَزْعِ الذِّى مَدَّ فِي * أَرْجَائِهِ الْغَيْمُ بِسَاطِ الزَّهْرِ
حَوْلَ غَدِيرٍ مَأْوُهُ الْمُسْتَمَى * إِلَى بَنَاتِ الْمُنَى يَشْكُو الْخَصْرُ
لَوْلَا ذَاتُ الرِّيحِ سَمُومًا بِهِ * لَا تَقْلَبْتُ وَهَى نَسِيمِ السَّحَرِ
حَصْبَاءُوهُ دُرٌّ وَرَضْرَاضُهُ * سُحَالَةُ الْعَسْجِدِ حَوْلَ الدَّرَرِ
وَقَدْ كَسَتْهُ الرِّيحُ مِنْ نَسِجِهَا * دِرْعًا بِهِ يَلْقَى نِبَالُ الْمَطَرِ
وَأَبْسَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ صَبْغِهَا * نُورًا بِهِ يَخْطِفُ نُورَ الْبَصَرِ
كَأَنَّهَا الْمِرْآةَ مَجْلُوءَةً * عَلَى بِسَاطِ أَخْضَرٍ قَدْ نُشِرَ

(١) كَذَا فِي دِيَوَانِهِ فِي الْأَصْلِ : "لَوْلَا ذَاةُ الرِّيحِ الْخ" وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

وقال أيضا :

مِلْنَا إِلَى النَّشْرِ الَّذِي تَرْتَقِي * إِلَيْهِ أَنْفَاسُ الصَّيْبِ عَاطِرَةٌ
 حَوْلَ غَدِيرٍ مَأْوُهُ دَارِعٌ * وَالْأَرْضُ مِنْ رِقَّتِهِ حَاسِرَةٌ
 وَالشَّمْسُ إِنْ حَازَتْهُ رَأْدُ الضُّحَى * حَسَنَاءُ فِي مِرَاتِهَا نَازِرَةٌ
 وَالشُّهْبُ إِنْ حَازَتْهُ جُنَحُ الدُّجَى * تَسْبِيحٌ فِي لُجَّتِهِ زَاخِرَةٌ
 قَدْ رَكِبَ الْخَضْرَاءُ فِيهِ فِرْنٌ * حَضْبَانُهُ أَنْجُمُهَا زَاهِرَةٌ
 يَخْضَرُ^(١) إِنْ مَرَّتْ بِأَرْجَائِهِ * لَفَحُ سَمُومٍ فِي لَطْفِ هَاجِرَةٍ
 أُنْمُوذَجُ الْمَاءِ الَّذِي جَاءَنَا السُّوْعَدُ بَأَن نُسْقَاهُ فِي الْآخِرَةِ

ومما وصفت به البرك



قال البحرى عفا الله عنه :

يَا مَنْ رَأَى الْبِرْكََةَ الْحَسَنَاءَ رُؤْيُهَا * وَالْأَنَسَاتِ الَّتِي لَاحَتْ مَعَانِيهَا
 مَا بَالُ دِجْلَةٍ كَالْغَيْرَى تُنَافِسُهَا * فِي الْحُسْنِ طَوْرًا، وَأَطْوَارًا تُبَاهِيهَا
 كَأَنَّ جِنَّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلَوْ * إِبْدَاعُهَا فَأَدَقُّوا فِي مَعَانِيهَا
 فَلَوْ تَمَرُّهَا بِلَقِيْسٍ عَنْ عُرْضٍ * قَالَتْ هِيَ الصَّرْحُ تَمَثِيلًا وَتَشْبِيهَا
 تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةٌ * كَالْحَيْلِ خَارِجَةٍ مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا
 كَأَنَّ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءَ سَائِلَةً * مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرَى فِي مَجَارِيهَا
 إِذَا عَلَتْهَا الصَّيْبُ أَبَدَتْ لَهَا حُبْكًا * مِثْلَ الْجَوَاشِينِ مَصْقُولًا حَوَاشِيهَا
 إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا * لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِبَتْ فِيهَا

(١) في الأصل "يخضر" وفي ديوانه (الموجود منه نسخة مخطوطة) «بدار الكتب المصرية» "يخضر"

لا يُلْغِ السَّمَكُ المَحْصُورَ غَايَتَهَا * لُبْعِدُ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
يَعْمُرُ فِيهَا بِأَوْسَاطِ مَجْنَحَةٍ * كَالطَّيْرِ تَنْقُضُ فِي جَوِّ خَوَافِيهَا
كَأَنَّهَا حِينَ لَحَّتْ فِي تَدْفُقِهَا * يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا

وقال ابن طباطبَا :

كَمْ لَيْلَةٍ سَاهَرْتُ أَنْجَمَهَا لَدَى * عَرَصَاتِ أَرْضِ مَاؤُهَا كَسَمَائِهَا
قَدْ سِيرْتُ فِيهَا النُّجُومُ كَأَنَّمَا * فَلَكُ السَّمَاءِ يَدُورُ فِي أَرْجَائِهَا
أَحْسِنُ بِهَا بَحْرًا إِذَا التَّبَسُّ الدُّجَى * كَانَتْ نَجُومُ اللَّيْلِ مِنْ حَضْبَائِهَا
تَرْنُو إِلَى الْجُوزَاءِ وَهِيَ غَيْرُ يَقِينَةٍ * تَبْغِي النَّجَاءَ وَلَاتَ حِينَ نَجَائِهَا
تَطْفُو وَتَرْسِبُ فِي أَصْطِفَاقِ مِيَاهِهَا * لَا مُسْتَعَانَ لَهَا سِوَى أَسْمَائِهَا
وَالْبَدْرُ يَخْفِقُ وَسطَهَا فَكَأَنَّهُ * قَلْبُهَا قَدْ رِيعَ فِي أَحْشَائِهَا

وقال عبد الجبار بن حمديس يصف بركة يجري إليها الماء من شاذروان من

أفواه طيور وزرافات وأُسُود، من أبيات :

وَالْمَاءُ مِنْهُ سَبَائِكُ مِنْ فِضَّةٍ * ذَابَتْ عَلَى دُولَابِ شَاذِرَوَانٍ
فَكَأَنَّمَا سَيْفٌ هُنَاكَ مَشْطَبٌ * أَلْقَتْهُ يَوْمَ الرُّوْعِ كَفَّ جَبَانٍ
كَمْ شَاخِصٍ فِيهِ يُطِيلُ تَعَجُّبًا * مِنْ دَوْحَةٍ نَبَتَتْ مِنَ الْعُقَيَانِ
مُحِبًّا لَهَا تَسْقِي هُنَاكَ يَنَاءً * يَنْعَتُ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَغْصَانِ
خُصَّتْ بِطَائِرَةٍ عَلَى فَنٍّ لَهَا * حَسُنْتَ فَأُقْرِدُ حُسْنُهَا مِنْ ثَانِي
قُسُ الطُّيُورِ السَّاجِعَاتِ بِلَاغَةً * وَفَصَاحَةً مِنْ مَنَظِقِ وَبَيَانٍ
فَإِذَا أُتِيحَ لَهَا الْكَلَامُ تَكَلَّمَتْ * بِجَرِيرِ مَاءِ دَائِمِ الْهَمَلَارِينِ
وَكَأَنَّ صَانِعَهَا آسَتَبَدَّ بِصُنْعَةٍ * نَخَّرَ الْجَمَادُ بِهَا عَلَى الْحَيَوَانِ
أَوْفَتْ عَلَى حَوْضٍ لَهَا فَكَأَنَّمَا * مِنْهَا إِلَى الْعَجَبِ الْعُجَابِ رَوَانٍ

وكأنها ظنّت حلاوة مائها * شهدا فذاقته بكلّ لسان
 وزرافة في الجوّ من أنبويها * ماء يربك الجري في الطيران
 مرّكوزة كالرّيح حيث ترى له * من طعنه الحلق أنعطاف سنان
 وكأنما ترمي السماء ببنّديق * مستنبط من لؤلؤ وجمان
 لو عاد ذاك الماء نبطا أحرقت * في الجوّ منه قيص كلّ عنان
 في بركة قامت على حافاتها * أسد تذلّ لعزة السّطان
 نزعت الى ظلم النفوس نفوسها * فلذلك أنترعت من الأبدان
 وكأنما الحيات من أفواهها * يطرحن أنفسهن في عُدران
 وكأنما الحيتان إذ لم تحشها * أخذت من المنصور عهد أمان

وقال آخر :

ولقد رأيت وما رأيت كبركة * في الحسّن ذات تدفق وخير
 عقدت لها أيدي المياه قنطرة * من جوهر في الجّية من نور

وقال عليّ بن الجهم يصف فوّارة :

وفوّارة ثارها في السّماء * فليست تقصر عن ثارها
 تراها إذا صعدت في السّماء * تعود الينا بأخبارها
 تردّ على المنزل ما أنزلت * على الأرض من صوب مدرارها

وقال ابن حجاج فيها :

علمت في دارك فوّارة * غرقت الأفق بها الأنجبا
 فاض على نجم السما مأوها * فأصبحت أرضك تسقى السما

وقال تميم بن المعز العبيدي :

وقاذفة بالماء في وسط بركة * قد ألحقت ظلاً من الأيك بحسبها
إذا نبعت بالماء سألته منضلاً * وعاد عليها ذلك النصل هودجا
تُحاول إدراك النجوم بقذفها * كأن لها قلباً على الجؤم حرجاً

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وضاح :

لله دُولاب يطوف بسلسل * في روضة قد أُنعت أفنانا
قد طارحت فيه الحمام شجوها * بنحيتها وترجع الأحانا
فكأنه دنف يطوف بعهد * يبكي ويسأل فيه عمر بانا
ضاقت مجارى طرفه عن دمه * فتفتحت أضلاعه أجفانا

وقال الموفق رحمه الله :

ناعورة تحسب من صوته * متىما يشكو إلى زائر
كأنما كيزانها عضة * رموا بصرف الزمن الوائر
قد منعوا أن يلتقوا فاغتنوا * أولهم يبكي على الآخر

وقال آخر :

وناعورة قد ضاعفت بواحها * نواحي وأجرت مقالي دموعها
وقد ضعفت مما تئن وقد غدت * من الضعف والشكوى تعد ضلوعها

وقال ابن منير الطرابلسي :

لنواعيرها على الماء ألحا * ن تهبج الشجا لقلب المشوق

(١) في الأصل "أُنعت" :

٥

١٠

١٥

٢٠

فَهِيَ مِثْلُ الْأَفْلَاقِ شَكْلًا وَفِعْلًا * قُسِمَتْ قَسَمَ جَاهِلٍ بِالْحُقُوقِ
بَيْنَ عَالٍ سَائِمٍ يُنَكِّسُهُ الْحِظُّ وَيَعْلُو بِسَافِلٍ مَرَزُوقِ
وقال أبو الفرج الواو :

وَكَرِيمَةٍ سَقَتْ الرِّيَاضَ بَدْرَهَا * فَعَدَّتْ تَنُوبُ عَنْ السَّحَابِ الْهَامِعِ
بَلِيسٍ مَحْزُونٍ وَدَمْعَةٍ عَاشِقٍ * وَحَنِينٍ مُشْتَاقٍ وَأَنَّهُ جَازِعِ
فَكَأَنَّهَا فَلَكٌ يَدُورُ وَعُلوهُ * يَرْمِي الْقَرَارَ بِكُلِّ نَجْمٍ طَالِعِ
وقال الصنوبري :

فَلَكَ مِنَ الدُّوَلَابِ فِيهِ كَوَاكِبٌ * مِنْ مَائِهِ تَنْقُضُ سَاعَةَ تَطْلُعِ
مَتَلَوْنَ الْأَصْوَاتِ يَخْفِضُ صَوْتَهُ * بِغِنَائِهِ طَوْرًا وَطَوْرًا يَرْفَعُ

ومما وصفت به نثرا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستدعي منه ثلاثة
أسهم ومليّات . جاء منها :

”... والحاجة داعية إلى ثلاثة أسهم، كأنها هقعة الأنجم، ممتدة امتداد الرشح،
مقومة تقويم القدح، غير مشعثة الأطراف، ولا معقدة الأعطاف، ولا مسوسة،
الأجواف، نحاس الغصون بقوامها، والقدود بتمامها، وتخالف هيفها بامتلاء
خصورها، ونساوي [بين] هوائها وصدورها، معتدلة القدود، ناعمة الخدود،
مع مليّات أخذت النار منها مأخذها فاسودت، وتناولت عليها مدة الجفاف
فاشتدت، وترامت بها مدة القدم، كأنها في حيز العدم، صلاب المكاسر، غلاظ
المآزر، تُشبه أخلاقه في هيجاء السلم، وتحكي صلابة آرائه في نفاذ الرأي ومضاء

العزم ؛ تَكْظِمُ على الماء بَغِيْظُهَا ، فتجود على الأرض بَغِيْظُهَا ؛ تَمْدِيدُ أَيْدِهَا
في آقْتِضَاءِ إِرَادَتِهَا ، وتَطْلُعُ طُلُوعَ الْأَنْجَمِ في فَلَكِ إِدَارَتِهَا ؛ وَتُعَانِقُ أَخَوَاتِهَا مَعَانِقَةَ
التَّشْيِيعِ ، فَأَحْرُ التَّسْلِيمِ أَوَّلُ التَّوْدِيعِ ؛ على أَنَّهَا تُؤْذِنُ بِحَقَائِقِ الْأَعْتِبَارِ ، وَتَجْرِي جَرَى
الفلك المَدَارِ في قَنَاةِ الْأَعْمَارِ :

تَمُرُّ كَأَنْفَاسِ الْفَتَى فِي حَيَاتِهِ * وَتَسْعَى كَسَعَى الْمَرْءِ أَثْنَاءَ عُمْرِهِ
يُفَارِقُ خُلَّ خِلِّهِ وَهُوَ سَائِرٌ * على مِثْلِ حَالِ الْخَلِّ فِي إِثْرِ سَيْرِهِ
وَيُعَلِّمُهُ التَّدْوَارُ لَوْ يَعْقِلُ الْفَتَى * بَأَن مَرُورَ الْعُمُرِ فِيهِ كَمَرُهُ
فَمَنْ أَدْرَكَتْ أَفْكَارُهُ سِرَّ أَمْرِهَا * فَقَدْ أَدْرَكَتْ أَفْكَارُهُ سِرَّ أَمْرِهِ
وَمَنْ فَاتَهُ الْإِدْرَاكُ أَدْرَكَهُ الرَّدَى * إِذَا جَرَّعَتْ أَنْفَاسُهُ كَأْسَ مَرِّهِ

ومما وصفت به الجداول

قال ابن المعتز، عفا الله عنه :

على جَدُولٍ رَيَّانٍ لَا يَقْبَلُ الْقَدَى * كَأَنَّ سَوَاقِيهِ مُتَوْنُ الْمَبَارِدِ

وقال الناجم :

أَحَاطَتْ أَزَاهِيرُ الرَّبِيعِ سَوِيَّةً * سِمَاطِينَ مُصْطَفَيْنِ تَسْتَنْبِتُ الْمَرْعى

على جَدُولٍ رَيَّانٍ كَالسَّهْمِ مُرْسَلًا * أَوْ الصَّارِمِ الْمُسْلُولِ أَوْ حَيَّةٍ تَسْعَى

وقال المفجع :

على جَدُولٍ رَيَّانٍ يَنْسَابُ مَتْنُهُ * صَقِيلًا كَمَتْنِ السِّيفِ وَأَقَى مَجْرَدًا

إِذَا الرِّيحُ نَاعَتْهُ تَحَلَّقَ وَجْهُهُ * دُرُوعًا وَضَاءً أَوْ تَحَزَّزَ مِبْرَدًا

وقال ابن الرومي :

على حِفَافِي جَدُولٍ مَسْجُورٍ * أَبْيَضَ مِثْلَ الْمُهْرَقِ الْمَنْشُورِ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَامْلِهِ « بَغِيْظُهَا » ؛

أو مثل متن المنصل المشهور * ينساب مثل الحية المدعور

وقال ذو الرمة :

فما أنشَقَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ حَتَّى تَبَيَّنَتْ * جَدَاوِلُ أَمْثَالِ السُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ

وحيث انتهينا من ذكر المياه الى هذه الغاية فلنذكر عباد الماء .

ذكر عباد الماء^(١)

وعباد الماء طائفة من الهند يُسمَّون الجَلَهَكِيَّةَ^(٢)، يزعمون أن الماء ملك، ومعه ملائكة، وأنه أصل كل شيء، وبه كلُّ ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج الى الماء .

§ فإذا أراد الرجل منهم عبادته، تجرد وستر عورته، ثم دخل الماء حتى يصل الى وسطه، فيقيم ساعتين وأكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغارا ويلقي في الماء بعضها بعد بعض، وهو يُسَبِّحُ ويقرأ، وإذا أراد الانصراف، حرك الماء بيده، ثم أخذ منه فنقط على رأسه ووجهه وسائر جسده، ثم يسجد وينصرف .

(١) هذه العبارة كلها منقولة عن كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني .

(٢) كذا في الملل والنحل للشهرستاني وهو الصواب، وفي الأصل «المهكنية» وهو تحريف .

القسم الخامس من الفن الأول

في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني القديمة
والمعاقل، وما وُصفت به القصور والمنازل
وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

(في طبائع البلاد، وأخلاق سُكَّانها)

١٠
عُرِي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعب الأحمري عن طبائع البلاد
وأخلاق سُكَّانها، فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياء، جعل كل شيء لشيء .
فقال العقل : أنا لاحق بالشأم، فقالت الفتنة : وأنا معك . وقال الخصب : أنا لاحق
بمصر، فقال الذل : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية، فقالت الصَّحَّة :
وأنا معك .

١٥
وقال محمد بن حبيب : لما خلق الله تعالى الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق :
الايان، والحياء، والنجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل،
والشقاء . فقال الإيمان : أنا لاحق باليمن، فقال الحياء : وأنا معك . وقالت النجدة :
أنا لاحق بالشأم، فقالت الفتنة : وأنا معك . وقال الكبر : أنا لاحق بالعراق،
فقال النفاق : وأنا معك . وقال الغنى : أنا لاحق بمصر، فقال الذل : وأنا معك .
وقال الفقر : أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء : وأنا معك .

وَحكى عن المجاج أنه قال: لما تَبَوَّأتِ الأشياءُ منازلها، قال الطاعون: أنا نازلٌ بالشَّامَ، فقالت الطاعة: وأنا معك. وقال النِّفاق: أنا نازلٌ بالعراق، فقالت النعمة: وأنا معك. وقال الشَّقَاءُ: أنا نازلٌ بالبادية، فقال الصَّبْرُ: وأنا معك.



نوع آخر منه

- ٥ رُوِيَ عن عبد الله بن عباس (رضي الله تعالى عنهما) أنه قال: إن الله تعالى خلق البركة عشرة أجزاء: فتسعة منها في قریش، وواحد في سائر الناس. وجعل الكرم عشرة أجزاء: فتسعة منها في العرب، وواحد في سائر الناس. وجعل الغيرة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأكراد، وواحد في سائر الناس. وجعل المكر عشرة أجزاء: فتسعة منها في القبط، وواحد في سائر الناس. وجعل الخفاء عشرة أجزاء: فتسعة منها في البربر، وواحد في سائر الناس. وجعل النجابة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الروم، وواحد في سائر الناس. وجعل الصناعة عشرة أجزاء: فتسعة منها في الصين، وواحد في سائر الناس. وجعل الشهوة عشرة أجزاء: فتسعة منها في النساء، وواحد في سائر الناس. وجعل العمل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الأنبياء، وواحد في سائر الناس. وجعل الحسد عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

- ١٠ رُوِيَ قال: قَسِمَ الحقد عشرة أجزاء: فتسعة منها في العرب، وواحد في سائر الناس. وقَسِمَ البخل عشرة أجزاء: فتسعة منها في الفرس، وواحد في سائر الناس. وقسم الكبر عشرة أجزاء: فتسعة منها في الروم، وواحد في سائر الناس. وقسم الطَّرب عشرة أجزاء: فتسعة منها في السودان، وواحد في سائر الناس. وقسم الشَّبَقِ عشرة أجزاء: فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس.

يُوقال : أربعة لا تعرف في أربعة : السَّخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والشجاعة في القبط ، والغم في الزنج .



نوع آخر منه

§ حُكي عن المجاج أنه سأل أيوب بن القريّة عن طبائع أهل البلاد، فقال :
أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها ، رجالها جفأة ، ونساؤها كساة عراة .
وأهل اليمن أهل سَمْع وطاعة ، ولزوم الجماعة . وأهل عُمان عرب استنبطوا . وأهل
البحرين نَبَطٌ استعربوا . وأهل الإمامة أهل جفاء ، واختلاف آراء . وأهل فارس
أهل بأس شديد ، وعزّ عتيد . وأهل العراق أبحثُ الناس عن صغيره ، وأضيعهم
لكبيره . وأهل الجزيرة أشجع فُرسان ، وأقتلُ للأقران . وأهل الشام أطوعهم
لخلق وأعصاهم لخالق . وأهل مصر عبيدٌ لمن غلب ، أكيسُ الناس صغارا ،
وأجهلهم كبارا .

وحكى عن أبي عثمان "عمرو بن بحر الجاحظ" أنه قال : كنا نعلم في المكتب كما نعلم
القرآن : احذروا حماقة أهل بَحَارَى ، وغُلّ أهل مَرَوَ ، وشَغَب أهل نَيْسَابُور ، وحسد
أهل هَرَاة ، وحقد أهل سِيحِسْتَان .

§ وقال أبو حامد القاضى : أعيانى أن أرى خُراسانيّاً ذكياً ، وطبرياً رَزِيناً ، وهَمْدَانِيّاً^(١)
لَبِيباً ، وبَصْرِيّاً رَكِيكاً ، وكُوفِيّاً رَئِيساً ، وبَغْدَادِيّاً سَخِيّاً ، ومَوْصِلِيّاً لَطِيفاً ، وشامِيّاً خَفِيفاً ،
وحِجَازِيّاً مَنَافِقاً ، وبدَوِيّاً ظَرِيفاً .

§ وقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة : فُئِي من رُعُونَة ، ويماني من جنون ،
وواسطي من غفلة ، وبصري من جدل ، وكوفي من كذب ، وسَوَادِي من جهل ،
وبغدادى من مَحْرَقَة ، وخوزى من لُؤْم ، وطبرى من زَرْق .

(١) من أهل طبرستان . وأما النسبة الى طبرية الشام فطبراني .

§ وقيل : جاور أهل الشام الروم ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة . وجاور أهل الكوفة أهل السواد ، فأخذوا عنهم السخاء والغيرة . وجاور أهل البصرة الخوز ، فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء .

§ ويقال : إن القدماء اعتبروا البلاد وما امتاز به بعضها عن بعض من الطبائع ، فوجدوا أخصب بقاع الدنيا ثمانية مواضع : أرمينية ، وأذربيجان ، وماء دینور ، وماء نهاوند ، وكرمان ، وأصبهان ، وقومس ، وطبرستان .

§ ووجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً ، ماء ممانية مواضع : دجلة ، والفرات ، وزندرواد ، وأصبهان ، وماء سوران ، وماء هفيجان ، وماء جندیسابور ، وماء بلخ ، وماء سمرقند . (وغفلوا عن نيل مصر ، ولعله أحقها بهذه الخصوصية من سائر المياه) .
§ ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع : النوبندان ، وسابورخواست ، وجرجان ، وحلوان^(١) ، وبرذعة ، وزنجان . (وغفلوا عن شير) .

§ ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة : أهل أصبهان ، والحيرة ، والمدائن ، وماء دینور ، وإصطخر ، ونيسابور ، والرّي ، وطبرستان ، ونشوى (وهي تقجوان) .
§ ووجدوا أسرى أهل بقاع الدنيا أهل سبعة مواضع : طوسفون (وهي المدائن) ، وبلاشون (وهي حلوان^(١)) ، وما سبدان ، ونهاوند ، والرّي ، وأصبهان ، ونيسابور .
§ ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع : ماسبدان ، ومهرجانقذق^(٢) ، وسورستان ، والرّي ، والرؤيان ، وأذربيجان ، والموصل ، وإرمينية ، وشهرزور ، والصامغان .

(١) أى حلوان العراق ، لا حلوان مصر . (٢) فى بعض النسخ " أهل " بالمد .

(٣) هذا الاسم يتركب من ثلاث كلمات : مهر (أى الشمس ، المحبة ، الشفقة) ؛ جان (أى النفس ، الروح) ، قذق (وقد يضم أوله ولعله اسم رجل) . فيكون معناه : محبة أو شمس نفس قذق . وهي كورة خسة من نواحى بلاد الجبل (عن ياقوت) .

ووجدوا البخل في أهل ثمان بقاع: مَرُو، وإصطخر، ودارابجرد، وخوزستان
وماسبذان، وديئل، وماه دينور، وحلوان .

ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة: أهل السدجان^(١)، وبادرايا،
وماكسايا، وخوزستان .

ووجدوا أقل أهل الأرض نظرا في العواقب أهل سبعة مواضع: طبرستان ،
وإرمينية، وقومس، وكرمان، وكوسان، ومكران، وشهرزور .

* *

§ ويقال: إنه وفد رجل من عجم نخراسان على كسرى، فقال له: أخبرني من
أحسن أهل نخراسان لقاء؟ قال: أهل بخارى . قال: فمن أوسعهم بدلا للخبز
والملح؟ قال: أهل جوزجان . قال: فمن أحسنهم ضيافة؟ قال: أهل سمرقند .
قال: فمن أدقهم نظرا وتقديرا؟ قال: أهل مرو . قال: فمن أسوؤهم طاعة؟ قال:
أهل خوارزم . قال: فمن أخبثهم طوية؟ قال: أهل مرو والروذ، إن رضى بذلك
أهل أبيورد . قال: فمن أسقطهم عقلا؟ قال: أهل طوس، إن رضى بذلك
أهل نسا . قال: فمن أكثرهم شغبا وجدلا؟ قال: أهل سرخس، إن رضى بذلك
أهل قوهستان . قال: فمن أضعفهم وأخبثهم؟ قال: أهل نيسابور . قال: فمن
أقلهم غيرة على النساء؟ قال: أهل هراة .

(١) كذا في الأصل ولم يذكرها ياقوت . وإنما ذكر "السيرجان"، مدينة بين كرمان وفارس فلعلها

مصحفة عنها .

الباب الثاني

من القسم الخامس من الفن الأول

في خصائص البلاد

- ولنبداً من ذلك بمكة ويثرب، وأعرب عما أنقله من فضلها ولا أغرب؛
 وَأَصْلُهُ بذكر البيت المقدس والمسجد الأقصى، ولا أشرت إلى الاستيعاب لأن
 فضائلها لا تحصى .

فأما مكة (شرفها الله تعالى وعظمها)

- فضائلها مشهورة بيّنة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
 بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .
 وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ .
 قال بعض المفسرين : ”أمن“ من النار . وقيل : كان يأمن من الطلب من
 أحدث حدثاً ولجأ إليه في الجاهلية .

- وحكى القاضى عياض فى ”كتاب الشفا“ أنه حدث أن قوما أتوا سعدون
 الخولاني بالمستير، وأعلموه أن كُتامة قتلوا رجلاً وأضرموا عليه النار طول الليل، فلم
 تعمل فيه وبقى أبيض البدن، فقال : لعله حج ثلاث حجج ؟ قالوا : نعم . قال :
 حدثت أن ”من حج حجة أدى فرضه، ومن حج ثانية دأى ربه، ومن حج ثلاث
 حجج حرم الله شعره وبشره على النار“ .

- ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال : ”مرحباً بك من
 بيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك!“ . وجاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :
 ”ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلا استجاب له“ . وكذلك عند الميزاب .
 (١)

(١) كذا فى الشفا للقاضى عياض ج ٢ ص ٩٦ طبع بولاق ، وفى جميع النسخ ”الركن“ وما أثبتناه هو الصواب .

وعنه صلى الله عليه وسلم : "مَنْ صَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَحُشِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الْآمِنِينَ" .

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء

قبل أن يخلق الله السموات والأرض

قال أبو الوليد الأزرق بسند يرفعه إلى كعب الأحماد أنه قال : كانت الكعبة غُثَاءً عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً .
ومنها دُحِيتِ الْأَرْضُ .

وقال يرفعه إلى مجاهد : خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يَخْلُقَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضَيْنِ . وعنه يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما كان الْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا فَصَفَّقَتْ الْمَاءَ فَأَبْرَزَتْ عَنْ حَشَفَةٍ فِي مَوْضِعِ الْبَيْتِ كَأَنَّهَا قُبَّةٌ ، فَدَحَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا فَادَّتْ ثُمَّ مَادَتْ ، فَأَوْتَدَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْجِبَالِ ، فَكَانَ أَوَّلَ جَبَلٍ وَضَعَ فِيهَا أَبُو قُبَيْسٍ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمَّ الْقُرَى .

وعنه يرفعه إلى مجاهد أنه قال : لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يَخْلُقَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ بِالْفَتْحِ سَنَةً ، وَإِنْ قَوَاعِدُهُ لَفِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى .

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام

ومبداً الطواف

قال أبو الوليد الأزرق ، يرفعه إلى علي بن الحسين رضي الله عنهما : أنه أتاه سائل يسأله ، فقال له : عَمَّ تَسْأَلُ ؟ فقال : أَسْأَلُكَ عَنْ بَدْءِ الطَّوَافِ بِهَذَا الْبَيْتِ

لَمْ كَانَ؟ وَأَتَى كَانَ؟ وَحَيْث كَانَ؟ وَكَيْفَ كَانَ بِالْحَجَرِ؟ فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ ، مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟
فَقَالَ : مِنْ أَهْلِ الشَّامِ . فَقَالَ : أَيْنَ مَسْكَنُكَ ؟ قَالَ : فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ . قَالَ :
فَهَلْ قَرَأْتَ الْكِتَابَيْنِ ؟ (بَعْنَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) . قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : نَعَمْ . فَقَالَ لَهُ :
يَا أَخَا أَهْلِ الشَّامِ احْفَظْ ، وَلَا تَرَوِيَنَّ عَنِّي إِلَّا حَقًّا :

أَمَّا بَدْءُ هَذَا الطَّوَافِ بِهَذَا الْبَيْتِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ
فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : أَيْ رَبِّ ، أَخَلِيفَةً مِنْ غَيْرِنَا ، مِمَّنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَتَحَاسَدُونَ ، وَيَتَبَاغَضُونَ ، وَيَتَنَازَعُونَ؟ أَيْ رَبِّ ، أَجْعَلُ ذَلِكَ
الْخَلِيفَةَ مِنَّا ، فَتَحْنُ لَا نُفْسِدُ فِيهَا وَلَا نَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَلَا نَتَبَاغَضُ ، وَلَا نَتَحَاسَدُ ،
وَلَا نَتَبَاغِي ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، وَنُطِيعُكَ وَلَا نَعْصِيكَ ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . قَالَ : فَظَنَّتِ الْمَلَائِكَةُ أَنْ مَا قَالُوهُ رُدُّ عَلَى رَبِّهِمْ
عِزٍّ وَجَلٍّ وَأَنَّهُ قَدْ غَضِبَ مِنْ قَوْلِهِمْ ، فَلَاذُّوا بِالْعَرْشِ ، وَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ ، وَأَشَارُوا
بِالْأَصَابِعِ يَتَضَرَّعُونَ وَيَسْكُونُ إِشْفَاقًا لَغَضَبِهِ ، فَطَافُوا بِالْعَرْشِ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ ؛
فَنَظَرَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ ، فَزَلَّتِ الرَّحْمَةُ عَلَيْهِمْ ، فَوَضَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَحْتَ الْعَرْشِ بَيْتًا
عَلَى أَرْبَعِ أَسَاطِينَ مِنْ زَبَرَجَدٍ ، وَغَشَّاهُ بِيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، وَسَمَّى الْبَيْتَ الضَّرَاحَ ؛ ثُمَّ قَالَ
لِلْمَلَائِكَةِ : طُوفُوا بِهَذَا الْبَيْتِ وَدَعُوا الْعَرْشَ ، فَطَافَتِ الْمَلَائِكَةُ بِالْبَيْتِ وَتَرَكُوا الْعَرْشَ ،
وَصَارَ أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ
وَلَيْلَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يُعُودُونَ فِيهِ أَبَدًا . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ بَعَثَ مَلَائِكَةَ
فَقَالَ : ابْنُوا لِي بَيْتًا فِي الْأَرْضِ بِمِثَالِهِ وَقَدْرِهِ . فَأَمَرَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ
خَلْقِهِ أَنْ يَطُوفُوا بِهَذَا الْبَيْتِ ، كَمَا يَطُوفُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : صَدَقْتَ يَا بَنَ بَنِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هَكَذَا كَانَ .

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقى، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما : إن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه عصا به حمراء قد علاها الغبارُ ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا الغبار الذى أرى على عصابتك ، أيها الروح الأمين ؟ قال : إني زرتُ البيتَ فازدحمت الملائكةُ على الركن ، وهذا الغبار الذى ترى مما تُثير بأجنحتِها .

وقال ، ورفعه الى ليث بن معاذ رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذا البيتُ خامسُ خمسة عشر بيتاً ، سبعة منها فى السماء الى العرش ، وسبعة منها الى تخوم الأرض السفلى ، وأعلاها الذى يلي العرش : البيتُ المعمور ؛ لكل بيت منها حرم يحرم هذا البيت ، لو سقط منها بيتٌ لسقط بعضها على بعض الى تخوم الأرض السفلى ، ولكل بيتٍ من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمره كما يعمر هذا البيت » .

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض وبنائه الكعبة

المشرفة وحجّه وطوافه بالبيت

قال الأزرقى، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة ، كان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، وهو مثل القلک من رعدته ، قال : فطأ طأ الله عز وجل منه إلى الأرض ستين ذراعاً ، فقال : يارب مالى لا أسمع أصوات الملائكة ولا حسمهم ؟ قال : خطيئتك يا آدم ، ولكن أذهب فأبني بيتاً تطف به وآذ كُرْنى حوله كنعجو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ، قال : فأقبل آدم عليه السلام يتخطى ، فطويث له الأرض وقبضت له

المَفَاوِزُ، فصارت كل مفازة يمرُّ بها خَطْوَةٌ، وقبض له ما كان فيها من مَخَاضٍ أو بحر
 فجعله خَطْوَةٌ، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمْرَانَا وَبَرَكَهٌ حَتَّى آتَيْتَنِي
 إِلَى مَكَّةَ، فَبَنَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ . وَإِنْ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ بِجَنَاحِهِ الْأَرْضَ فَأَبْرَزَ
 عَنْ أَسْ ثَابِتٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَقَذَفَتْ الْمَلَائِكَةُ فِيهِ الصَّخْرَ، مَا يُطِيقُ الصَّخْرَةَ مِنْهَا
 ثَلَاثُونَ رَجُلًا ؛ وَإِنَّهُ بَنَاهُ مِنْ خَمْسَةِ أَجْبُلٍ : مِنْ لُبْنَانَ، وَطُورِ زَيْتَا، وَطُورِ سَيْنَا،
 وَالجُودَى، وَحِرَاءَ، حَتَّى آسَوَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فكان أول من أسس البيت وصلى فيه
 وطاف به، آدم عليه السلام . حتى بعث الله سبحانه الطوفان، فدرس موضع البيت
 في الطوفان ؛ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ، فَرَفَعَا
 قَوَاعِدَهُ وَأَعْلَامَهُ ؛ ثُمَّ بَنَتْهُ قُرَيْشٌ بَعْدَ ذَلِكَ . وَهُوَ بِحِذَاءِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، لَوْ سَقَطَ،
 مَا سَقَطَ إِلَّا عَلَيْهِ .

وقال أبو الوليد أيضا، ورفعه إلى وهب بن منبه : إن الله تبارك وتعالى لما تاب
 على آدم عليه السلام، أمره أن يسير إلى مكة، فطوى له الأرض وقبض له المفاوِزَ،
 فصارت كل مفازة يمرُّ بها خَطْوَةٌ ، وقبض له ما كان فيها من مَخَاضٍ ماء أو بحر
 فجعله له خَطْوَةٌ، فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمْرَانَا وَبَرَكَهٌ حَتَّى آتَيْتَنِي
 إِلَى مَكَّةَ . وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ أَشْتَدَّ بَكَاءُهُ وَحُزْنُهُ لِمَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَظَمِ الْمَصِيبَةِ
 حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ لَتَحْزَنَ لِحُزْنِهِ وَلَتَبْكِيَ لُبْكَائِهِ ؛ فَغَرَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِخَيْمَةٍ مِنْ
 خِيَامِ الْجَنَّةِ، وَوَضَعَهَا لَهُ بِمَكَّةَ فِي مَوْضِعِ الْكَعْبَةِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ الْكَعْبَةُ ؛ وَتِلْكَ الْخَيْمَةُ
 يَاقُوتَةُ حَمْرَاءَ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، فِيهَا ثَلَاثَةُ قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مِنْ تَبَرِّ الْجَنَّةِ، فِيهَا نُورٌ



(١) في النسخ "جبري" . والتصحيح من حاشية الجمل على الجلالين ، فقد نقل أثر ابن عباس .

يَتَلَهَّبُ مِنْ نُورِ الْجَنَّةِ، وَنَزَلَ مَعَهَا الرُّكْنُ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ بِقُوَّةٍ بَيْضَاءُ مِنْ رَبَضِ الْجَنَّةِ،
وَكَانَ كُرْسِيًّا لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَجْلِسُ عَلَيْهِ . فَلَمَّا صَارَ آدَمُ بِمَكَّةَ، حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى،
حَرَسَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَحَرَسَ تِلْكَ الْخِيْمَةَ بِالْمَلَائِكَةِ؛ كَانُوا يَحْرُسُونَهَا وَيَتَوَدَّدُونَ عَنْهَا سَاكِنَ
الْأَرْضِ، وَسَاكِنُوهَا يَوْمُئِذٍ الْجَنُّ وَالشَّيَاطِينُ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى شَيْءٍ مِنَ
الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُ مَنْ نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَجَبَتْ لَهُ . وَالْأَرْضُ يَوْمُئِذٍ طَاهِرَةٌ نَقِيَّةٌ
لَمْ تَنْجَسْ وَلَمْ يُسْفَكْ فِيهَا الدَّمُ، وَلَمْ تُعْمَلْ فِيهَا الْخَطَايَا، فَلِذَلِكَ جَعَلَهَا اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ مَسْكَنَ
الْمَلَائِكَةِ، وَجَعَلَهُمْ فِيهَا كَمَا كَانُوا فِي السَّمَاءِ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَا يَفْتُرُونَ؛ وَكَانَ
وَقُوفُهُمْ عَلَى أَعْلَامِ الْحَرَمِ صَفًّا وَاحِدًا مُسْتَدِيرِينَ بِالْحَرَمِ كُلِّهِ: الْحِلُّ مِنْ خَلْفِهِمْ، وَالْحَرَمُ
كُلُّهُ مِنْ أَمَامِهِمْ، وَلَا يَجُوزُهُمْ جَنِّيٌّ وَلَا شَيْطَانٌ . وَمِنْ أَجْلِ مُقَامِ الْمَلَائِكَةِ، حُرِّمَ
الْحَرَمُ حَتَّى الْيَوْمِ؛ وَوُضِعَتْ أَعْلَامُ حَيْثُ كَانَ مُقَامُ الْمَلَائِكَةِ . وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى حَوَاءَ
دُخُولَ الْحَرَمِ وَالنَّظَرَ إِلَى خِيْمَةِ آدَمَ مِنْ أَجْلِ خَطِيئَتِهَا الَّتِي أَخْطَأَتْ فِي الْجَنَّةِ، فَلَمْ تَنْظُرْ
إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى قُبِضَتْ . وَإِنْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا أَرَادَ لِقَاءَهَا لِيُكَلِّمَهَا
لِلْوَلَدِ، نَازِلًا مِنَ الْحَرَمِ كُلِّهِ حَتَّى يَلْقَاهَا؛ فَلَمْ تَزَلْ خِيْمَةُ آدَمَ مَكَانَهَا حَتَّى قُبِضَ اللَّهُ آدَمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَفَعَهَا اللَّهُ . وَبَنَى بَنُو آدَمَ بِهَا مِنْ بَعْدِهَا مَكَانًا: بَيْتًا بِالطَّيْنِ وَالْحِجَارَةِ،
فَلَمْ يَزَلْ مَعْمُورًا، يَعْمُرُونَهُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ حَتَّى كَانَ زَمَنُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْسَفَهُ
الْفَرَقُّ وَخَفِيَ مَكَانُهُ . فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَلَبَ الْأَسَاسَ، فَلَمَّا
وَصَلَ إِلَيْهِ ظَلَّلَ اللَّهُ مَكَانَ الْبَيْتِ بَغَامَةً، فَكَانَتْ حِفَافَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ
رَاكِدَةً عَلَى حِفَافِهِ تُظَلِّلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَهْدِيهِ مَكَانَ الْقَوَاعِدِ حَتَّى رَفَعَ اللَّهُ
الْقَوَاعِدَ قَامَةً، ثُمَّ انْكَشَفَتِ الْبَغَامَةُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ
الْبَيْتِ﴾ أَيْ الْبَغَامَةَ الَّتِي رَكَزَتْ عَلَى الْحِفَافِ لِتَهْدِيَهُ مَكَانَ الْقَوَاعِدِ .

٥

١٠

١٥

٢٠

وعن وهب بن منبه أنه قال : قرأت في كتاب من الكتب الأول ، ذكر فيه أمر الكعبة ، فوجدت فيه أن ليس من ملك من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت ، فينقض من عند العرش محرما ملبيا ، حتى يستلم الحجر ، ثم يطوف بالبيت سبعا ويركع في جوفه ركعتين ، ثم يصعد .

- وقال الأزرقي ، يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما أهبط الله آدم إلى الأرض ، أهبطه إلى موضع البيت الحرام ، وهو مثل الفلك من رعدته ، ثم أنزل عليه الحجر الأسود ، يعني الركن ، وهو يتلأأ من شدة بياضه ، فأخذه آدم صلى الله عليه وسلم فضمه إليه أنسا به . ثم أنزلت عليه العصا ، فقيل له : تحط يا آدم ، فتخطى ، فإذا هو بأرض الهند والسند ، فكث هنالك ما شاء الله ، ثم استوحش إلى الركن فقيل له : آحجج ، قال : فحج فلقينته الملائكة فقالوا : بر حجج يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام .

- قال : وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعب الأخبار فقال : أخبرني عن البيت الحرام ، فقال كعب : أنزله الله من السماء يا قوتة مجوفة مع آدم ، فقال له : يا آدم إن هذا بيتي أنزلته معك ، يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشي . ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه ، فكان آدم يطوف حوله كما يطاف حول العرش ، ويصلى عنده كما يصلى عند العرش . فلما أغرق الله تعالى قوم نوح ، رفعه إلى السماء وبقيت قواعده .

- وقال وهب بن منبه : كان البيت الذي بؤاه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ من ياقوت الجنة ، وكان من ياقوتة حمراء تلتهب ، لها بابان : أحدهما شرقي والآخر

غربي ، وكان فيه قناديل من نور آياتها ذهب من تير الجنة ، وهو منظوم بنجوم
من ياقوت أبيض ، والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء .
والله أعلم .

ذكر فضل البيت الحرام والحرم

قال أبو الوليد يرفعه إلى وهب بن منبه أنه قال : إن آدم لما أُهبط إلى الأرض
استوحش فيها لما رأى من سعتها ولم يرفها أحدا غيره ، فقال : يارب ، أما لأرضك
هذه من عامر يسبحك فيها ويقدّس لك غيري ؟ قال : إني سأجعل فيها من ذريتك
من يسبح بحمدي ويقدّس لي ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفع لذكري ويسبحني فيها خلق
وسأبوءك فيها بيتا أختاره لنفسى ، وأخصه بكرامتي ، وأؤثّر على بيوت الأرض كلها
باسمي ، فأسميه بيتي ، وأنطقه بعظمتي ، وأحوذه بحرماتي ، وأجعله أحق بيوت الأرض
كلها وأولها بذكرى ، وأضعه في البقعة التي آخرت لنفسى ، فإنني آخرت مكانه
يوم خلقت السماوات والأرض ، وقبل ذلك قد كان بعيني ، فهو صفوق من البيوت ،
ولست أسكنه ، وليس ينبغي لي أن أسكن البيوت ، ولا ينبغي لها أن تسعني ، ولكن
على كرسي الكبرياء والجبروت ، وهو الذي استقل بعزتي ، وعليه وضعت عظمتي
وجلالى ، وهنالك استقر قرارى ، ثم هو بعد ضعيف عني لولا قوتي ، ثم أنا بعد ذلك
ملء كل شيء ، وفوق كل شيء ، ومحيط بكل شيء ، وأمام كل شيء ، وخلف كل

(١٠٧)

(١) في الأصل : "عن وهب" .

(٢) أنطقه : جعلت له نطقا . وفي بعض النسخ : "أنطقه" بالفاء ، وقد أبتناه بالقاف لأنه
هو الذى يناسب السياق . وفي الأصل "أنطقه" بالعين . وكتب بهامشه تفسيرا له : "أنطقه : بسط
النطق بالكسر : بساط من أديم" .

شيء ، وليس ينبغي لشيء أن يعلم علمي ولا يقدر قدرتي ، ولا يبلغ كنه شأني ؛ أجعل
 ذلك البيت لك ولن بعدك حرماً وأمناً أحرّم بحر ماته ما فوقه وما تحته وما حوله ؛
 فمن حرّمه بحرمتي فقد عظم حرّماتي ، ومن أحلّه فقد أباح حرّماتي ، ومن آمن أهله
 فقد استوجب بذلك أمانى ، ومن أخافهم أخفرتني في ذمتي ، ومن عظم شأنه عظم
 في عيني ، ومن تهاون به صغر في عيني ؛ ولكل ملك حيازة ما حواليه مما حواليه ، وبطن
 مكة خيرتي وحيازتي وجيران بيتي وعمّارها وزوّارها وفدى وأضيافي في كنفتي وأفئتي
 ضامنون عليّ [في] ذمتي وجوّاري ؛ فأجعله أقول بيت وضع للناس ، وأعمره بأهل السماء
 وأهل الأرض ؛ يأتونه أفواجا شعناً غبراً على كل ضامر يأتين من كل فج مبين ،
 يعرجون بالتكبير تحيياً ، ويرجون بالتلبية رجياً ، وينتحبون بالبكاء تحيياً ، فمن اعتمره
 لا يريد غيره فقد زارني ووَفَدَ إليّ ونزل بي ؛ ومن نزل بي ، فحقيق عليّ أن أُخِفّه
 بكرامتي ؛ وحقّ على الكريم أن يُكرّم وفده وأضيافه ، وأن يُسَعِفَ كل واحد منهم
 بحاجته . تعمّره يا آدم ما كنت حياً ، ثم تعمّره من بعدك الأئمّ والقروء والأنبياء ؛
 أمة بعد أمة ، وقرن بعد قرن ، ونبي بعد نبي ، حتى ينتهي ذلك إلى نبي من ولدك
 وهو خاتم النبيين ، فأجعله من عمّاره وسكّانه وحّماته ، وولّاته وسُقاته ؛ يكون أمني
 عليه ما كان حياً ؛ فإذا انقلب إليّ ، وجدني قد دَنَحَتْ له من أجره وفضيلته ما يمكن
 به القربة مني والوسيلة إليّ ، وأفضل المنازل في دار المقام ، وأجعل اسم ذلك البيت
 وذِكْرَه وشرفه ومجده وثناءه ومكرّمته لنبي من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه
 يقال له إبراهيم ، أرفع له قواعده ، وأقضي على يديه عمارته ، وأنيط له سقايته ، وأريه
 حلّه وحرّمه ومواقفه ، وأعلمه مشاعره ومناسكه ، وأجعله أمة واحدة قانتا لي ، قائما
 بأمرى ، داعياً إلى سبيلي ، أجتبيه وأهديه إلى صراط مستقيم ؛ أبتليه فيصبر ، وأعافيه

فیشكر؛ ويُنذر لي فيني؛ ويعدني فينجز؛ أستجيب له في ولده وذريته من بعده،
وأشفعه فيهم، وأجعلهم أهل ذلك البيت وولاته وحجاته وسقاته وخدّامه وحرّانه
وحجّابه حتى يتدعوا ويغيروا؛ فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل
من أشاء بمن أشاء. أجعل إبراهيم إمام أهل ذلك البيت وأهل تلك الشريعة، يأتّم
به من حضر تلك المواطن من جميع الإنس والجن؛ يطؤون فيها آثاره، ويتبعون فيها
سنّته، ويقتدون فيها بهديّه؛ فمن فعل ذلك منهم أوفى نذره، وآستكمل نسكه؛ ومن
لم يفعل ذلك منهم ضيع نسكه، وأخطأ بغيّته، فمن سأل عني يومئذ في تلك المواطن
أين أنا، فأنا مع الشّعث الغبر المؤفين بنذورهم، المستكملين مناسكهم، المبتهلين إلى
رهبهم الذي يعلم ما يسدون وما يكتمون وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذي
قصصت عليك شأنه، يا آدم، بزائدي في ملكي ولا عظمتي ولا سلطاني ولا شيء مما
عندي، إلا كما زادت قطرة من رشاش وقعت في سبعة أبحر تمدّها من بعدها سبعة
أبحر لا تحصى، بل القطرة أزيد في البحر من هذا الأمر في شيء مما عندي، ولو لم أخلقه
لم ينتقص شيء من ملكي ولا عظمتي ولا مما عندي من الغناء والسعة، إلا كما نقصت
الأرض ذرّة وقعت من جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها، بل الذرّة أنقص
للأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه ^(١) [ليس] مما عندي ويعدّ هذا مثلاً للعزير الحكيم.

ذكر ما جاء في طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت

قال أبو الوليد الأزرقي، ورفعني إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان مع
نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوه، وإنهم كانوا في السفينة مائة
وخمسين يوماً، وإن الله جل شأؤه وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين
يوماً، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه.

(١) كذا بالأصل وهي نافية في مكانها ولعلها زيادة من النسخ.

وقال عن مجاهد: كان موضع الكعبة قد خفي ودرس زمن الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ؛ فكان موضعه أكمة حمراء مدورة لا تعلوها السيول ؛ غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه ، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ، ويدعو عنده المكروب ؛ فقل من دعا هنالك (١) إلا استجيب له ، وكان الناس يحجّون إلى مكة ، إلى موضع البيت ، حتى بوا الله تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام . فلم يزل منذ أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظما محترما تتناخضه الأمم والملل أمة بعد أمة ، وملة بعد ملة ، قال : وكانت الملائكة تحجّه قبل آدم عليه السلام

ذكر ما جاء من تخير إبراهيم عليه السلام موضع البيت

قال عثمان بن ساج : بلغنا — والله أعلم — أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عرج به إلى السماء فنظر إلى الأرض مشارقها ومغاريها ، فاختر موضع الكعبة ، فقالت له الملائكة : يا خليل الرحمن اخترت حرم الله في الأرض ، قال : فبناه من حجارة سبعة أجبل (ويقولون تسعة) . وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال .

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج

وحج الأنبياء بعده وطوافهم

قال أبو الوليد عن محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام جاءه جبريل عليه السلام فقال : طّف به سبعا ، فطاف به سبعا هو وإسماعيل

(١) كذا في تاريخ مكة للأزرقي وفي الأصل «والمبعود» وهو تحريف.

يستلمان الأركان كلهما في كل طواف ، فلما أكمل سبعا ، صلياً خلف المقام ركعتين .
قال : فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها : الصفا والمروة ومِنَى ومزدلفة وعرفة ،
فلما دخل مِنَى وهبط من العقبة مثل له إبليس عند بحرة العقبة ، فقال له جبريل :
أرمه ، فرماه بسبع حصيات ، فغاب عنه ، ثم برز له عند الجمرة الوسطى ، فقال له جبريل :
أرمه ، فرماه إبراهيم بسبع حصيات ، فغاب عنه ، ثم برز له عند الجمرة السفلى ، فقال له
جبريل : أرمه ، فرماه بسبع حصيات مثل حصي الحذف ، فغاب عنه إبليس ، ثم مضى
إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفة ،
فلما انتهى إليها ، قال له جبريل : أعرفت مناسكك ؟ قال : نعم ، قال : فسميت
عرفات بذلك . قال : ثم أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال
إبراهيم : يارب وما يبلغ صوتي ؟ قال الله جل ثناؤه : أذن ، وعلى البلاغ . قال :
فعلاً إبراهيم على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها ، فجمعت له الأرض
يومئذ : سهلها ، وجبالها ، وبرها ، وبحرها ، وإنسها ، وجننها حتى أسمعه جميعاً ، فأدخل
إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمين فقال :
”أيها الناس كُتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فأجيبوا ربكم“ فأجابوه من تحت
التخوم السبعة ، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلها :
(لبيك ، اللهم لبيك) . قال : وكانت الحجارة على ما هي اليوم ، إلا أن الله عز وجل
أراد أن يجعل المقام آية ، فكان أثر قدميه في المقام آية إلى اليوم . قال : أفلا تراه
اليوم يقولون : (لبيك ، اللهم لبيك) . فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم .
وأثر قدمي إبراهيم في المقام آية ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ
وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .

قال ابن إسحاق : وبلغني أن آدم عليه السلام كان آستلم الأركان كلها قبل إبراهيم ، وحجّه إسحاق وسارة من الشام . قال : وكان إبراهيم يحجّه كل سنة على البراق . قال : وحجّت بعد ذلك الأنبياء والأئم .

وعن مجاهد ، قال : حج إبراهيم وإسماعيل ماشيين .

وعن عبد الله بن ضمرة السلولي : ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فقبروا هنالك .

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان النبي من الأنبياء إذا هلك أمة لحق بمكة فتعبد بها النبي ومن معه حتى يموت ، فمات بها نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وقبورهم بين زمزم والحجر .

وعن مجاهد : حج موسى النبي عليه السلام على جبل أحر ، فتر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان متترّيا أحدهما مرتد بالأخرى ، فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة ، فبينما هو يلي بين الصفا والمروة إذ سمع صوتا من السماء يقول : «لبيك عبدى ، أنا معك» قال : فخر موسى ساجدا .

وعن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قال : بلغني أن البيت وضع لآدم يطوف به ويعبد الله عنده ؛ وأن نوحا قد حجّه وجاءه وعظمه قبل الغرق ؛ فلما أصاب البيت ما أصاب الأرض من الغرق كان ربوة حمراء معروفا مكانه ؛ فبعث الله هودا إلى عاد ، فتشاغل بأمر قومه حتى هلك ، ولم يحجّه . ثم بعث الله تعالى صالحا إلى ثمود فتشاغل بهم حتى هلك ، ولم يحجّه . ثم بوأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فحجّه وأعلم مناسكه ودعا إلى زيارته . ثم لم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا حجّه .

(١) في الاصل : "فكان" بالفاء .

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لقد سَلَكَ فِجَّ الرُّوحَاءِ سبعون نبيًّا حُجَّاجًا : عليهم لبأس الصُّوف ، مَخْطُمِي إِبِلِهِمْ بِجِبَالِ اللَّيْفِ ، ولقد صَلَّى في مسجد الْخَيْفِ سبعون نبيًّا .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لقد مرَّ بِفِجِّ الرُّوحَاءِ — أولقد مرَّ بهذا الْفِجِّ — سبعون نبيًّا على نُوقٍ حُمْرٍ خُطِمَهَا اللَّيْفُ ، لَبَّوْهُمْ الْعَبَاءُ وتَلَبَّتْهُمْ شَتَّى ، فمنهم يونس بن مَتَّى ، فكان يونس يقول : (لَبَّيْكَ فِرَاجَ الْكُرْبِ ، لَبَّيْكَ) ، وكان موسى يقول : (لَبَّيْكَ ، أنا عَبْدُكَ لَدَيْكَ ، لَبَّيْكَ) . قال : وتَلَبَّى عِيسَى : (لَبَّيْكَ ، أنا عَبْدُكَ ابْنُ أُمِّتِكَ بِنْتِ عَبْدِكَ ، لَبَّيْكَ) " .

وعن عطاء بن السائب أن إبراهيم رأى رجلا يطوف بالبيت فأذكره ، فسأله : من أنت؟ فقال : من أصحاب ذى الْقَرْنَيْنِ ، قال : وأين هو؟ قال : هو بالأبطح ، فتلقاه إبراهيم عليه السلام فاعتقه ، فقال لذي القرنين : ألا تركب؟ قال : ما كنت لأركب وهذا يمشي ، فحَجَّ ماشيا .

ذكر ما جاء من مسألة إبراهيم عليه السلام الأَمْنُ وَالرِّزْقُ لِأَهْلِ مَكَّةَ

وَالْكِتَابُ الَّذِي وَجَدَ فِيهَا تَعْظِيمَ الْحَرَمِ

قال أبو الوليد الأزرقي ، يرفعه إلى محمد بن كعب الْقُرَظِيُّ أنه قال : دعا إبراهيم عليه السلام لِلْمُؤْمِنِينَ ، وترك الْكُفَّارَ لم يدعْ لهم شَيْءًا ، فقال الله تعالى : (وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .

وقال عثمان بن ساج : وأخبرني محمد بن السائب الكلبي قال : قال إبراهيم عليه السلام (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ آمِنَاتٍ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ) . فاستجاب الله عز وجل له بفعله بلدا آمنا وآمن فيه الخائف ورزق أهله من الثمرات، تُحْمَلُ إليهم من الآفاق .

وقال مجاهد : جعل الله هذا البلد آمنا ، لا يخاف فيه مَنْ دخله .

وقال سعيد بن السائب بن يسار : لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات ، نقل الله أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك : رزقا للحرم .
وروى عن محمد بن المنكدر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من الشام .

وعن الزهري أن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف ، لدعوة إبراهيم خليل الله : (وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبا ، ووجد أمراة الآخرة ، وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجهمي ، فوقف وسلم ، فردت عليه السلام وأستنزله وعرضت عليه الطعام والشراب ، فقال : ما طعامكم وشرابكم ؟ قالت : اللحم والماء ، قال : هل من حب أو غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك الله لكم في اللحم والماء .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو وَجَدَ عندها يومئذ حبا لدعا لهم بالبركة فيه ، فكانت تكون أرضا ذات زرع " .
وعن سعيد بن جبيرة مثله ، وزاد فيه : " ولا يخلو أحد على اللحم والماء في غير مكة إلا وجع بطنه ، وإن خلا عليهما بمكة لم يجد ذلك أذى " .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « وَجَدَ في المقام كُتَابٌ فيه » هذا بيت الله الحرام بمكة ، توكل الله برزق أهله من ثلاث سبل ، مبارك لأهله في اللحم واللبن .

ووجد في حجر في الحجر كتاب من خلقة الحجر "أنا الله ذوبكة الحرام صُغتها يوم
صُغت الشمس والقمر وحَفَقَتْها بسبعة أملاك حُنْفاء لا تزول حتى يزول أخشابها
مبارك لأهلها في اللحم والماء".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما هدموا البيت وبلغوا أساس
إبراهيم عليه السلام وجدوا في حجر من الأساس كتاباً ، فدعوا له رجلاً من أهل اليمن ،
وآخر من الرهبان ، فإذا فيه : "أنا الله ذوبكة حرمتها يوم خلقت السموات والأرض
والشمس والقمر ويوم صُغت هذين الجبلين وحَفَقَتْها بسبعة أملاك حُنْفاء لا تزول
حتى يزول أخشابها مبارك لأهلها في الماء واللبن".

وعن مجاهد رضي الله عنه قال : وجد في بعض الزبور "أنا الله ذوبكة جعلتها
بين هذين الجبلين وصغتها يوم صُغت الشمس والقمر وحَفَقَتْها بسبعة أملاك حُنْفاء
وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبُل فليس يؤتى أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى
الوادي وأسفله وكُدَى وباركت لأهلها في اللحم والماء".

ذكر أسماء الكعبة ومكة

عن ابن أبي نجیح قال : إنما سُمِّيَتْ "الكعبة" لأنها مُكَبَّة على خِلْقَةِ الكَعْب .
قال : وكان الناس يَدْنُون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة ، فأول من بنى بيتاً مربعاً
حميد بن زهير ، فقالت قريش : "ربّع حميد بن زهير بيتاً ، إفا حياة وإما موتاً" .
وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : إنما سُمِّيَتْ "بكة" لأنه يجتمع فيها
الرجال والنساء جميعاً . وقالوا : "بَكَّة" موضع البيت ، ومكة القرية .

وقال ابن أبي أنيسة : "بَكَّة" موضع البيت ، ومكة هو الحرم كله .
وكان ابن جريح يقول : إنما سميت "بكة" لتبأك الناس بأقدامهم قدام الكعبة .

ويقال : إنما سميت "بكة" لأنها تبكُ أعناق الجبابرة .

وعن الزهرى : أنه بلغه أنما سُمِّيَ "البيت العتيق" من أن الله تعالى أعتقه

من الجبابرة .

وعن مجاهد والسدي : إنما سُمِّيَ "البيت العتيق" الكعبة ، أعتقها الله من ^(١)

الجبابة ؛ فلا يتجبرون فيه إذا طافوا . وكان البيت يدعى "فادسا" ويدعى "بادرا" .

ويدعى "القرية القديمة" ويدعى "البيت العتيق" .

وعن مجاهد قال : من أسماء "مكة" و "بكة" و "أم رُحْم" و "أم القرى"

و "صَلَّاح" و "كُوَيْ" و "الباسة" .

وعن ابن أبي نجيح قال : بلغني أن أسماء مكة "مكة" ، و "بكة" ،

و "أم رُحْم" ، و "أم القرى" ، و "الباسة" ، و "البيت العتيق" ، و "الحاطمة" : ^{١٠}

(تَحِطُّ من يستخفُّ بها) ؛ و "الناسة" (تُسَّهم ، أى تخرجهم إخراجا إذا غَشَمُوا

وظلموا) .

ذكر ما جاء في فضل الركن الأسود

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس في الأرض من الجنة إلا الركن

الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة ؛ ولولا ما مسَّهما من أهل الشرك ، ^{١٥}

ما مسَّهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال في الركن الأسود :

لولا ما مسَّه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم ، ما مسَّه ذو عاهة إلا برأ . وقال : نزل

الركن ، وإنه لأشدُّ بياضا من الفضة .

(١) هكذا وردت هذه الجملة بالأصل ، والمراد منها ظاهر .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها ، وهي تطوف معه بالكعبة حين استلم الركن : "لولا ما طبع على هذا الحجر ، يا عائشة ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها ، إذا لاستشفي به من كل عاهة ، وإذا لألفى كهيته يوم أنزله الله ، وليعيدنه الله الى ما خلقه أول مرة ، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، ولكن الله غيره بمعصية العاصين ، وسترينته عن الظلمة والأئمة لأنهم لا ينبغي لهم أن ينظروا الى شيء كان بدؤه من الجنة" .

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله يبعث الركن الأسود ، وله عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به : يشهد لمن استلمه بحق" .

وعنه رضي الله عنه : الركن يمين الله في الأرض : يصفح بها عباده كما يصفح أحدكم أخاه .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى مكة ، فلما دخلنا الطواف ، قام عند الحجر وقال : والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ، ما قبلتك ، ثم قبله ومضى في الطواف ، فقال له علي رضي الله عنه : بل يا أمير المؤمنين هو يضر وينفع ، قال : وبم قلت ذلك ؟ قال : بكتاب الله ، قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال : قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ ، فلما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره وأخرج ذريته من صلبه فقرّرهم أنه الرب وهم العبيد ، ثم كتب ميثاقهم في رق ، وكان هذا الحجر له عينان ولسان ، فقال له : أفتح فاك ، فألقمه ذلك الرق وجعله في هذا الموضع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم ، يا أبا الحسن .

وعن عكرمة : أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الركن فقد بايع الله ورسوله .

وعن مجاهد : يأتي الركن والمقام يوم القيامة ، كل واحد منهما مثل أبي قبيس : يشهدان لمن وافاهما بالموافاة .

والله أعلم .

ذكر ما جاء في فضل استلام الركن الأسود ، واليماني

عن عطاء بن السائب أن عبيد بن عمير قال لابن عمر رضي الله عنهما : إني أراك تُزاحم على هذين الركنين ، فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إِنَّ أَسْتَلِمَهُمَا يُحُطُّ الْخَطَايَا حَطًّا " .

وسئل رضي الله عنه ، ف قيل له : إنا نراك تفعل خصالا أربعا لا يفعلها الناس : ١٠
نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجر والركن اليماني ، ونراك لا تلبس من النعال إلا السبئية ، ونراك تصفر شعرك وقد يصبغ الناس بالحناء ، ونراك لا تُحرم حتى تستوى بك راحلتك وتوجه ، فقال عبد الله : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك .

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يدع ١٥
الركن الأسود والركن اليماني أن يستلمهما في كل طواف أتى عليهما . قال : كان لا يدعهما في كل طواف طاف بهما حتى يستلمهما ، لقد زاحم على الركن مرة في شدة الزحام حتى رَعَفَ . فخرج فغسل عنه ثم رجع ، فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتى رَعَفَ الثانية ، فخرج فغسل عنه ثم رجع ، فما تركه حتى استلم .

وعن نافع قال : لقد رأيت ابن عمر رضي الله عنهما ، زاحم مرة على الركن اليماني ٢٠
حتى أنبهر فتسحى بغلس في ناحية الطواف حتى استراح ، ثم عاد فلم يدعه حتى

أستلمه . قالوا : وليس هذا واجبا على الناس ، ولكنه كان يحب أن يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ما جاء في فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ حَسَنَةً وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَةً “ .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إِذَا خَرَجَ الْمَرْءُ يُرِيدُ الطَّوْفَ بِالْبَيْتِ أَقْبَلَ يُرِيدُ الرَّحْمَةَ ، فَإِذَا دَخَلَ غَمْرَتَهُ . ثُمَّ لَا يَرْفَعُ قَدَمًا وَلَا يَضَعُ قَدَمًا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ خَمْسِينَ حَسَنَةً ، وَحَطَّ عَنْهُ خَمْسِينَ سَيِّئَةً (أَوْ قَالَ خَطِيئَةً) ، وَرُفِعَتْ لَهُ خَمْسِينَ دَرَجَةً ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ دُبْرَ الْمَقَامِ ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، وَكُتِبَ لَهُ أَجْرُ عَمَلِ عَشْرِ رِقَابٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاسْتَقْبَلَهُ مَلَكٌ عَلَى الرُّكْنِ فَقَالَ لَهُ : اسْتَأْنِفِ الْعَمَلَ فِيمَا بَقِيَ فَقَدْ كُفِّيتَ مَا مَضَى ، وَشُفِّعَ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ “ .

وعن حسان بن عطية : أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة ينزلها في كل يوم ، فستون منها للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين ، قال حسان : فنظرنا فإذا هي كلها للطائفين ، هو يطوف ويصلي وينظر .

ذكر ما جاء في فضل زمزم

عن وهب بن منبه أنه قال في زمزم : والذي نفسي بيده ، إنها لفي كتاب الله مَضْنُونَةٌ ، وإنها لفي كتاب الله بَرَّةٌ ، وإنها لفي كتاب الله شَرَابُ الْأَبْرَارِ ، وإنها لفي كتاب الله طَعَامٌ طَعْمٌ وَشِفَاءٌ سَقْمٌ .

وعن ابن خثيم قال : قَدِمَ علينا وهب بن منبه مكة فاشتكى ، فحُثناه نعوذه ، فإذا عنده من ماء زمزم ، قال : فقلنا له : لو آستعذبت ، فإن هذا ماء فيه غَلَط ! قال : ما أريد أن أشرب حتى أخرج منها غيره ، والذي نفس وهب بيده ، إنها لفي كتاب الله زمزم لا تُتَرَف ولا تُتَدَم ، وإنها لفي كتاب الله برة شراب الأبرار ، وإنها لفي كتاب الله مَضْنونة ، وإنها لفي كتاب الله طَعَامٌ من طُعْمٍ وشفاءٌ من سُقْمٍ ، والذي نفس وهب بيده لا يعمدُ أحد إليها فيشربُ منها حتى يتصلعَ إلا نَزَعَتْ منه داءٌ أو أحدثتْ له شفاءً .

وعن كعب أنه قال لزمزم : إنا نجدها مَضْنونةً ضَنْ بها لكم ، وإن أولَ مَنْ سَقَى ماءها إسماعيلُ عليه السلام ، طَعَامٌ من طُعْمٍ ، وشفاءٌ من سُقْمٍ .

وعن مجاهد قال : ماءُ زمزمَ لما شُرِبَ له ، إن شربته تريد به شفاءً شفاكَ الله ، وإن شربته لظمًا أرواك الله ، وإن شربته لجُوعٍ أشبعَكَ الله ، وهي هَزْمَةٌ جبريل عليه السلام بعقبه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "التصلعُ من ماءِ زمزمَ براءةٌ من النفاق" .

وعن الضحاك بن مزاحم أنه قال : بلغني أنَّ التصلعَ من ماءِ زمزمَ براءةٌ من النفاق ، وأن ماءها يَذْهَبُ بالصَّدَاعِ ، وأن التطلُعَ فيها يحلو البَصَرَ ، وأنه سيأتي عليها زمان تكون أعذبُ من النيل والفرات . قال : قال لنا الخزاعي : وقد رأينا ذلك في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين ومائتين ، وذلك أنه أصاب مكة أمطارٌ كثيرةٌ وسال وادياها في سنة تسع وسبعين ، وسنة ثمانين ومائتين ، فكثُرَ ماءُ زمزم وارتفع حتى قارب رأسها ، فلم يكن بينه وبين شَقَّتِها العليا إلا سبعُ أذرعٍ .

أونحوها ، وعدّبت حتى كان ماؤها أعذب مياه مكة التي يشربها أهلها ، وإنا رأيناها أعذب من مياه العيون .

وعن الضحاك بن مزاحم أيضا أن الله عز وجل يرفع المياه العذاب قبل يوم القيامة غير زمزم ، وتغور المياه العذبة غير زمزم .

ذكر ما جاء من اتساع منى أيام الحج ولم سميت منى
عن أبي الطفيل ، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يسأل عن منى ،
ويقال له : عجبا لضيقه في غير أيام الحج ! فقال ابن عباس ، إن منى يتسع بأهله
كما يتسع الرحم للولد .

وعن ابن عباس ، قال : إنما سميت منى لأن جبريل حين أراد أن يفارق
آدم ، قال له . تمن ، قال : أتمنى الجنة ، فسميت منى لتمنى آدم .
وقيل : إنما سميت منى لعنى^(١) الدماء بها .

ذكر ما جاء في فضائل مقبرة مكة
عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "نعم
المقبرة هذه !" (لمقبرة أهل مكة) .

وعن محمد بن عبد الله بن صيفي أنه قال : من قبر في هذه المقبرة ، بعث آمنا يوم
القيامة (يعنى مقبرة مكة) .

(١) المنى هو إراقة الدماء .

ذكر شيء من خصائص مكة

§ من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبي ويعارضه ويصيده، فإذا دخل الحرم كَفَّ عنه .

§ ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عليلاً، وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفرق فرقتين ولا تعلوها . والله أعلم .

وأما المدينة المشرفة

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

§ ففضائلها أوسع من أن أحصرها، وأعظم من أن أسبرها، ناهيك بها من بلد اختاره الله تعالى لرسوله، ونص على فضله في محكم تنزيله، قال الله عز وجل: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ .

§ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سُئِلَ: أى مسجد هو؟ فقال: مسجدى هذا، وهو قول ابن المسيب وزيد بن ثابت وابن عمر رضى الله تعالى عنهم، وبه أخذ مالك رحمه الله . وقال ابن عباس: هو مسجد قباء .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "صلاةٌ في مسجدى هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواهُ، إلا المسجد الحرام" .

قال القاضى عياض رحمه الله: اختلف الناس فى معنى هذا الاستثناء على اختلافهم فى المفاضلة بين مكة والمدينة . فذهب مالك [إلى] أن الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فيه بدون

الألف . وأحتج مالك وأشهب وأبن نافع وجماعة أصحابه بما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه " صلاة في المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه " فتأتى فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلى غيره بألف ؛ وهذا مبنى على تفضيل المدينة على مكة ، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين .

§ وذهب أهل مكة والكوفة الى تفضيل مكة ؛ وهو قول عطاء وابن وهب وابن حبيب ، من أصحاب مالك ، وحكاه الباجى عن الشافعى .

§ قال القاضى أبو الوليد الباجى : الذى يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد ، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة .

§ قال القاضى عياض : ولا خلاف [فى] أن موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض .

§ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " ؛ قالوا : هذا يحتمل معنيين : (أحدهما) أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل : " الجنة تحت ظلال السيوف " . (والثانى) أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون فى الجنة بعينها ؛ قاله الداودى .

§ وروى ابن عمر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى المدينة : " لا يصبر على لأوائها وشدتها أحدٌ إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة " .

§ وقال صلى الله عليه وسلم فىمن تجلَّ عن المدينة : " والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " . وقال : " إنما المدينة كالكير تنفى خبثها وتنصع طيبها " .

§ وقال : " لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه " .

§ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسلم : "مَنْ مات في أحد الحرمين حاجاً أو معتمراً، بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب" . وفي طريق آخر : "بُعْثَ مِنَ الْآمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" .

§ وعن ابن عمر رضي الله عنهما : "مَنْ أَسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ، فَلْيُمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا" .

§ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طَلَعَ لَهُ أَحَدٌ فَقَالَ : "هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ . اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَأَنَا أَحَرَّمُ مَا بَيْنَ لَا بَتَيْهَا" ^(١) .

§ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَانْقِلْ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدَّنَا" . ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة فقال : "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَكِيلِهِمْ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدَّهُمْ" .

§ وقال صلى الله عليه وسلم : "مَنْ زَارَ قَبْرِي، وَجَبَتْ لَهُ شِفَاعَتِي" .

§ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ زَارَنِي فِي الْمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا، كَانَ فِي جِوَارِي وَكُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" .

§ وكان مالك رحمه الله لا يركب في المدينة دابةً ، ويقول : أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَطَأَ تُرْبَةً فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَافِرِ دَابَّةٍ .

وروى أنه وهب للشافعي كُرَاعًا كثيرًا، فقال له الشافعي : أَمْسِكْ مِنْهَا دَابَّةً . فأجابه بمثل هذا الجواب .

(١) الضمير للمدينة ، ولا بتاها : حرّتاها .

§ وحكى القاضي عياض في "كتاب الشفاء" قال : حُذِّثَ أَن أَبَا الْفَضْلِ
الْجَوْهَرِيِّ لَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ زَائِرًا وَقَرَّبَ مِنْهَا ، تَرَجَّلَ وَمَشَى بِأَيْكَا مُنْشِدًا :
وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعُ لَنَا * فُوَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبًّا
نَزَّلْنَا عَنِ الْكَوَارِثِ نَمَشَى كِرَامَةً * لَمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَبًّا
قال : وحكى بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، أنشأ يقول متمثلاً :

رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَا حَ لَنَاظِرٍ * قَرَّرَ تَقَطُّعُ دُونِهِ الْأَوْهَامُ
وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَا بَلَغَ مَجْدًا * فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى * فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةً وَذِمَامُ

§ وأفتى مالك رحمه الله فيمن قال "تربة المدينة رديّة" بضرب ثلاثين دِرَّةً ،
وأمر بحبسها ، وكان له قَدَرٌ ، وقال : "مَا أَحْوَجَهُ إِلَى ضَرْبِ عُنُقِهِ ، تَرَبَةً دُفِنَ فِيهَا
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يُزْعَمُ أَنَّهَا غَيْرُ طَيِّبَةٍ ! " .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في المدينة : "مَنْ
أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ
اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا " .

ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

§ من خصائصها ، أن العِطْرَ وَالْبَخُورَ يَوْجَدُ لَهَا فِيهَا مِنَ الصُّوْعِ وَالرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ
أَضْعَافٌ مَا يَوْجَدُ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ ، وَلَهَا فِي قِصْبَتِهَا فَعْمَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَائِحَةُ عِطْرَةٍ ، وَإِنْ لَمْ
يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الطَّيِّبِ الْبَتَّةَ ، وَلِهَذَا سَمِيَتْ "طَيِّبَةً" وَ"طَابَةً" .

قال الشاعر :

مَاذَا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ * أَلَا يَشْمُ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا
وهذا البيت ينسب لفاطمة الزهراء رضى الله عنها .

§ ومن أسمائها "طَيِّبَةُ" و"طَابَةُ" و"يُثْرِب" و"المدينة" و"الدار" .

- § قال القاضى عياض رحمه الله : وَجَدِيرٌ بِمَوَاطِنِ عَمَرَتْ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَتَرَدَّدَ
بِهَا جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ؛ وَعَرَّجَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ، وَصَحَّتْ عَرَصَاتُهَا بِالتَّقْدِيسِ
وَالْتَسْبِيحِ ؛ وَاشْتَمَلَتْ تَرْبُتُهَا عَلَى جَسَدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَانْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَسُنَّةِ
رَسُولِهِ مَا آتَنَشَرَ ؛ مَدَارِسُ آيَاتٍ ، وَمَسَاجِدُ جَمَاعَاتٍ وَصَلَوَاتٍ ، وَمَشَاهِدُ الْفَضْلِ
وَالْخَيْرَاتِ ، وَمَعَاهِدُ الْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ ، وَمَنَاسِكُ الدِّينِ ، وَمَشَاعِرُ الْمُسْلِمِينَ ؛
وَمَوَاقِفُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَتَبَوُّوا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ؛ حَيْثُ انْفَجَرَتْ النَّبُوءَةُ ، وَأَيْنَ فَاضَ
عُبَابُهَا ، وَمَوَاطِنُ مَهَبِّطِ الرِّسَالَةِ ، وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِ الْمُصْطَفَى تَرَابُهَا — أَنْ تُعْظَمَ
عَرَصَاتُهَا ، وَتُنْتَسَمَ نَفَحَاتُهَا ، وَتُقْبَلَ رُبُوعُهَا وَجُدَارَاتُهَا .

وقال :

- يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ * هُدَى الْإِنَامِ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ
عِنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةٌ وَصَبَابَةٌ * وَتَشْوُقٌ مُتَوَقِّدٌ الْجَمَرَاتِ
وَعَلَى عَهْدٍ إِنْ مَلَأْتُ مُحَاجِرِي * مِنْ تِلْكَ الْجُدُرَاتِ وَالْعَرَصَاتِ
لَأَعْقُرَنَّ مَصُونِ شَيْئِي بَيْنَهَا * مِنْ كَثْرَةِ التَّقْيِيلِ وَالرَّشَفَاتِ
لَوْلَا الْعَوَادِي وَالْأَعَادِي زُرُّهَا * أَبَدًا وَلَوْ تَحَبَّبًا عَلَى الْوَجَنَاتِ
لَكِنْ سَأَهْدِي مِنْ حَفِيلِ تَحِيَّتِي * لِقَطِينِ تِلْكَ الدَّارِ وَالْمُحْجَرَاتِ
أَذْكِي مِنَ الْمِسْكِ الْمَفْتَقِ نَفْحَةً * تَغْشَاهُ بِالْأَصَالِ وَالْبُكْرَاتِ
وَتُخَصِّصُهُ زَوَاكِي الصَّلَوَاتِ * وَنَوَائِي التَّسْلِيمِ وَالْبَرَكَاتِ

وأما البيت المقدس والمسجد الأقصى

فَالْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ أَحَدُ الْقِبْلَتَيْنِ ، وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى ثَالِثُ الْحَرَمَيْنِ ؛ إِلَيْهِ تُسَبِّدُ الرِّجَالُ ، وَيَكْثُرُ النُّزُولُ وَالْأَرْتِحَالُ ؛ وَفِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ تُحْشَرُ الْخَلَائِقُ لِيَوْمِ الْعَرْضِ ، وَيَسُطُّ اللَّهُ تَعَالَى الصَّخْرَةَ الشَّرِيفَةَ حَتَّى تَكُونَ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؛ وَتَجْتَمِعُ النَّاسُ هُنَاكَ لِفَصْلِ الْحِسَابِ ، وَيُضْرَبُ بَيْنَهُمْ بِسُورِهِ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ .

ولنبداً بذكر الأرض المقدسة

§ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . قَالَ الزَّجَّاجُ : وَالْمُقَدَّسَةُ : الْمُطَهَّرَةُ .
وَقِيلَ لِلسُّطَلِّ " الْقَدْسُ " لِأَنَّهُ يُتَطَهَّرُ مِنْهُ . وَسُمِّيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ لِأَنَّهُ يُتَطَهَّرُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ . وَقِيلَ : سَمَّاها مُقَدَّسَةً لِأَنَّمَا طُهِرَتْ مِنَ الشِّرْكِ وَجَعَلَتْ مَسْكَنًا لِلأنبياءِ وَالْمُؤْمِنِينَ .

§ وَقَدْ اختلف في الأرض المقدسة ما هي ؟

فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أريحا .

وَقَالَ السُّدِّيُّ : أَرِيحَا هِيَ أَرْضُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هِيَ الطُّورُ وَمَا حَوْلَهُ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : هِيَ إِيلِيَاءُ وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : دِمَشْقُ وَفِلَسْطِينَ وَبَعْضُ الْأَرْدُنِّ . وَقَالَ قَتَادَةُ : هِيَ الشَّامُ كُلُّهَا .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو : وَالْحَرَمُ مُحَرَّمٌ مِقْدَارُهُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ مِقْدَارُهُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

§ وقال ابن قتيبة . وقرأت في مناجاة موسى عليه السلام أنه قال : اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائئة، ومن الطير الحمامة، ومن البُيوت مكة وإيلياء، ومن إيلياء بيت المقدس .

§ وقال الله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ .

والمسجد الأقصى بيت المقدس . سمي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار ، وقيل : لبعده المسافة بين المسجدين . وقوله عز وجل : "الذي باركنا حوله" قيل : بالماء والأنهار والأشجار والثمار . وقال مجاهد : سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء، وفيه مهبط الملائكة والوحى، وهو الصخرة، ومنه يُحشَر الناس يوم القيامة .

§ وقال تعالى : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سَيْنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ .

قال الثعلبي في تفسيره : قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وعبد الرحمن بن غنم : «التين مسجد دمشق، والزيتون بيت المقدس» . وقال الضحاك : «هما مسجدان بالشام» . وقال محمد بن كعب : «التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء» ومجازه على هذا التأويل : منابت التين والزيتون .

وروى عطية عن ابن عباس : «التين مسجد نوح عليه السلام الذي بنى على الجودي، والزيتون بيت المقدس» .

وروى نهشل عن الضحاك : «التين المسجد الحرام، والزيتون المسجد الأقصى» قال : «وطور سينين، يعنى جبل موسى عليه السلام» .

قال عكرمة : «السَّيْنَيْنِ الحسن بلغه الحبشة» . وعنه : كل جبل يُنبت فهو

سَيْنَيْنِ .

وقال مجاهد : ” الطُّور : الجبل ، وسينين : المبارك “ .

وقال قتادة : ” المبارك : الحسن “ .

وقال مقاتل : ” كل جبل فيه شجر فهو سينين ، وسيناء وهو بلغة النبط “ .

وقال الكلبي : ” يعنى الجبل المشجر “ .

§ وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أربعة أجدال مقدسة بين يدي الله

تعالى : طورتينا ، وطورزيتا ، وطورسينا ، وطورتيمانا .

فأما طورتينا : فدمشق .

وأما طورزيتا : فبيت المقدس .

وأما طورسينا : فهو الذى كان عليه موسى عليه السلام .

وأما طورتيمانا : فمكة .

§ والبلد الأمين : مكة بلا خلاف “ .

§ ومسجد بيت المقدس أحد المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها ،

لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما ورد فى الصحيح : ” لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة

مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى “ .

وفى الصحيح أيضا : ” أن موسى عليه السلام ، لما حضرته الوفاة سأل الله تعالى

أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر “ .

وكانت عمارة مسجد البيت المقدس بأمر الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام

أن يعمره ثم لم يقدر له عمارته وقدر الله تعالى ذلك على يدى سليمان بن داود عليهما

السلام ، فهو الذى عمره ؛ وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبينا فى الفن

الخامس فى التاريخ .

٥

١٠

١٥

٢٠

§ وقد وردت آثارٌ وأحاديثٌ في فضل بيت المقدس ، وفضل زيارته ، وثواب الصلاة فيه ، ومضاعفة الحسنات والسيئات فيه ، وفضل السكنى فيه ، والإقامة به ، والوفاء فيه ، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومحراب داود ، وعين سلوان ، وما ورد في أن الحشر منه ، وما ورد في فضل الصخرة والصلاة الى جانبها ، وما ورد من أن الله عز وجل عرج بنييه من بيت المقدس الى السماء ، وثواب الإهلال من بيت المقدس ، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة .

(١١٥)

وسند ذكر من ذلك طرفاً تقف عليه إن شاء الله تعالى ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبة في الاختصار فنقول ، وبالله التوفيق :

أما فضل بيت المقدس

- § فقد ورد عن الزهري أنه قال : لم يبعث الله عز وجل نبياً ، إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس . وقد صلى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته سبعة عشر شهراً ، كما روى في الصحيحين ، حتى أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .
- وتحويل القبلة أول ما نسخ من أمور الشرع ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أمره الله تعالى أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة .
- هذا قول عامة المفسرين ، على ما حكاه الثعلبي عنهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد: قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنَّمَا تُولُوا
فَتْحَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هؤلاء يهود يستقبلون بيتي
من بيوت الله". فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم. قالوا جميعا: فصلى النبي صلى
الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرا، وكانت الأنصار قد صلت
قبل بيت المقدس ستين يوما، قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم.

وكانت الكعبة أحب القبلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وآختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة
بيت المقدس ويهوى قبلة الكعبة.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليهما السلام.

وقال مجاهد: من أجل أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا، ويتبع قبلتنا!

وقال مقاتل بن حيان: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي نحو
بيت المقدس، قالت اليهود: يزعم محمد أنه نبي، وما نراه أحدث في نبوته شيئا!
أليس يصلي إلى قبلتنا ويستسنن بسمتنا! فإن كانت هذه نبوة فنجح أقدم
وأوفر نصيبا.

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشق عليه وزاده شوقا إلى الكعبة.

وقال ابن زيد: لما استقبل النبي صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، بلغه
أن اليهود تقول: والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم، قالوا جميعا:
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: وددت أن الله صرّفي عن قبلة اليهود
إلى غيرها، فإني أبغضهم وأبغض موافقتهم، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك،
ليس لي من الأمر شيء، فسئل ربك، فخرج جبريل، وجعل رسول الله صلى الله

عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن يَنْزِلَ جبريل بما يُحِبُّ من أمر القبلة .
فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ۖ الْآيَةَ .

فَلَمَّا صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ قَالَ مُشْرِكُو مَكَّةَ : قد تردّد على مجد أمره ،
وأشتاق إلى مولده ومولد آبائه ، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلى دينكم عاجلاً ،
وتكلم اليهود والمنافقون في تحويلها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ۖ
مَا وَلَاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ ۝

§ وروى عن كعب أنه قال : إن الله عز وجل ينظر إلى بيت المقدس كل

يوم مرتين .

وأما فضل زيارته وفضل الصلاة فيه

١٠

§ فقد روى عن مكحول أنه قال : مَنْ زَارَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ شَوْقًا إِلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ
وزاره جميع الأنبياء في الجنة وغبطوه بمنزلته من الله تعالى . وأيضاً رُفِقَةٌ خَرَجُوا يَرِيدُونَ
بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، شَبَّعَهُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ ،
وَلَهُمْ مِثْلُ أَعْمَالِهِمْ إِذَا أَتَوْهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَلَهُمْ بِكُلِّ يَوْمٍ يَقِيمُونَ فِيهِ صَلَاةٌ سَبْعِينَ مَلَكًا .

١٥

وَمَنْ دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ طَاهِرًا مِنَ الْكِبَائِرِ ، تَلَقَّاهُ اللَّهُ بِمَائَةِ رَحْمَةٍ ، مَا مِنْهَا رَحْمَةٌ إِلَّا وَلَوْ
قَسَمْتَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ لَوَسِعَتْهُمْ . وَمَنْ صَلَّى فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَكْعَتَيْنِ يقرأ فِيهِمَا
بِـ "فَاتِحَةِ الْكِتَابِ" وَ"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، وَكَانَ لَهُ بِكُلِّ
شَعْرَةٍ عَلَى جَسَدِهِ حَسَنَةٌ . وَمَنْ صَلَّى فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ، مَرَّةً عَلَى الصِّرَاطِ
كَالْبَرْقِ وَأُعْطِيَ أَمَانًا مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَمَنْ صَلَّى فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ
سِتَّ رَكَعَاتٍ ، أُعْطِيَ مِائَةَ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ ، أَذْنَاهَا بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَوُجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ .

٢٠

وَمَنْ صَلَّى فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ ، كَانَ رَفِيقَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ . وَمَنْ صَلَّى فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَشْرَ رَكَعَاتٍ ، كَانَ رَفِيقَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ فِي الْجَنَّةِ . وَمَنْ أَسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، كَانَ لَهُ مِثْلُ حَسَنَاتِهِمْ ، وَدَخَلَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ مِنْ دَعَائِهِ سَبْعُونَ مَغْفِرَةً وَغُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ كُلُّهُ .

§ وَرَوَى عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ صَلَّى بَيْتَ الْمَقْدِسِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ نَافِلَةً ، كُلُّ صَلَاةٍ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ يَقْرَأُ فِي الْخَمْسِ الصَّلَوَاتِ عَشْرَةَ آلَافٍ مَرَّةً (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ، فَقَدْ اشْتَرَى نَفْسَهُ مِنْ اللَّهِ عِزَّ وَجَلًّا ، لَيْسَ لِلنَّارِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ “ .

وعنه أيضا ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ بِصَلَاةٍ وَاحِدَةٍ ، وَصَلَاتُهُ فِي مَسْجِدِ الْقِبَالِ بِسِتٍّ وَعَشْرِينَ ، وَصَلَاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُجْمَعُ فِيهِ بِخَمْسَائَةِ صَلَاةٍ ، وَصَلَاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِخَمْسِينَ أَلْفَ صَلَاةٍ ، وَصَلَاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفَ صَلَاةٍ “ .

وعن مكحول أن ميمونة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس قال : ” نَعَمْ الْمَسْكُنُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ ! وَمَنْ صَلَّى فِيهِ صَلَاةً بِأَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ ، قَالَتْ : فَمَنْ لَمْ يُطِيقْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : يُهْدَى لَهُ زَيْتَانٌ (١) “ .

(١) يظهر أن بعض الكلمات قد سقطت في هذا الموضع . ولذلك رأيت إيراد الحديث بلفظ آخر عن ابن الفقيه الهمداني في كتابه ” مختصر كتاب البلدان “ المطبوع في ليدن سنة ١٣٠٢ هـ (سنة ١٨٨٥ م) وهذا نصه : ” قالت ميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفتنا عن بيت المقدس ، قال : نعم المصلى هو أرض المحشر وأرض المُنشَر ، إيتوه فضلوها فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة ؛ قلتُ بأبي وأُمِّي أنت ، من لم يطيق أن يأتيه . قال فليهد إليه زيتا يسرح فيه ، فإنه من أهدى إليه ، كان كمن صلى فيه “ .

§ وعن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : لا يسمع أهل السماء من كلام بنى آدم شيئاً غير أذان مؤذن بيت المقدس .

وأما ما ورد

في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

- فقد روى عن نافع ، قال : قال ابن عمر رضي الله عنهما ونحن في بيت المقدس :
يا نافع ، أخرج بنا من هذا البيت ، فإن السيئات تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسنات .
وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو : الحسنة في بيت المقدس بألف ،
والسيئة بألف .

وأما فضل السكنى فيه والإقامة والوفاء به

- § فقد روى عن ذى الأصابع أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرايت
يا رسول الله إن آتينا بالبقاء بعدك ، فأين تأمرنا؟ قال : "عليك بيت المقدس ،
لعل الله يرزقك ذرية تغدو إليه وتروح" .

- § وعن أبي أمامة الباهلي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تزال طائفة
من أمتي ظاهرين على الحق ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتيهم
أمر الله عز وجل وهم كذلك ، قالوا : يا رسول الله ، وأين هم؟ قال : بيت المقدس
وأكثاف بيت المقدس" .

§ وعن عطاء ، قال : لا تقوم الساعة حتى يسوق الله عز وجل خيار عباده الى بيت
المقدس والى الأرض المقدسة ، فيسكنهم إياها .

§ وعن كعب ، قال : قال الله عز وجل لبیت المقدس : أنت جنتي وقُدسي وصفوتي من بلادى ، مَنْ سَكَنَكَ فبرحمة منى ، وَمَنْ خرج منك فبسخط منى عليه .

§ وعن وهب بن منبه ، قال : أهل بيت المقدس جيرانُ الله ، وحقُّ على الله عز وجل ألاَّ يعدَّب جيرانَه ؛ ومن دُفِن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضيقه .

§ وعن كعب ، قال : اليوم في بيت المقدس كَأَلْفِ يومٍ ، والشهر فيه كَأَلْفِ شهرٍ ، والسنة فيه كَأَلْفِ سنةٍ ؛ وَمَنْ مات فيه فكأنما مات في السماء ، وَمَنْ مات حوله فكأنما مات فيه .

وعن خالد بن معدان قال : سمعت كعباً يقول : مقبورُ بيت المقدس لا يعدَّب .

وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سلوان

§ وفي الأرض المقدسة قبرُ إبراهيم الخليل ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف عليهم السلام .

§ وفي الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرته الوفاة سأل الله عز وجل أن يُدنيه من الأرض المقدسة ، رميةً حَجَرٍ .

§ وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بشر بن بكر عن أم عبد الله عن ابنها أنه قال : من أتى بيت المقدس ، فليأت محراب داود ، فليصل فيه ، ويسبح في عين سلوان فإنها من الجنة .

§ وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز ، قال : كان في زمان بني إسرائيل في بيت المقدس عند سلوان عينٌ ، وكانت المرأة إذا قُذِفَتْ ، أتوا بها فشربت منها ،

فإن كانت بريئة لم تضرّها، وإن كانت نطفة^(١) ماتت. فلما حملت مريم حملوها، فشربت منها فلم تزد إلا خيرا، فدعت الله ألا يفصح بها امرأة مؤمنة؛ فغارت العين.

وأما ما ورد

في أن الحشر من البيت المقدس

- ٥ § فقد روى عن أبي ذر رضى الله عنه أنه قال: "قلت يا رسول الله أخبرنا عن بيت المقدس؛ قال: أرض الحشر والمشر، إيتوه فصلوا فيه وليأتين على بيت المقدس^(٢) ! ولبسطة قوس أو مسجة قوس في بيت المقدس أو من حيث يرى بيت المقدس خير من كذا وكذا".

§ وعن كعب قال: العرض والحساب من بيت المقدس.

- ١٠ § وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: من صخرة بيت المقدس.

§ وعن يزيد بن جابر "يَوْمَ يَنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ" قال: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول: أيتها العظام النخرة، والجلود المتمزقة، والأشعار المتقطعة؛ إن الله تعالى أمرك أن تجتمعى للحساب.

(١) نطفة: مريّة مهملة.

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة. وقد روى ابن فضل الله العمري في "مسالك الأبصار" المطبوع بدار الكتب المصرية (ج ١ ص ١٣٦) حديثا تقرب ألفاظه جدا من هذا الحديث أن لم يكن حديثا واحدا؛ فلاجل تكملة النقص الموجود في نسخ النويري في هذا الموضع نورد ما رواه ابن فضل الله وهو: وعن أبي ذر قال: قيل يا رسول الله صلاة في البيت المقدس أفضل أم صلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه؛ ولنعم المصل هو أرض المحشر والمشر! وليأتين على الناس زمان، ولبسطة قوس من حيث يرى بيت المقدس أفضل وخير من الدنيا جميعا.

§ وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾
هو أن إسمرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي : ”يأيها الناس ، هلموا الى
الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ، وهذه هي النفخة الأخيرة“ .
والمكان القريب صخرة بيت المقدس .

§ قال كعب ومقاتل : هي أقرب الى السماء ثمانية عشر ميلا . وقال ابن السائب :
بأثنى عشر ميلا .

§ وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا لِهَبَابٍ بِأَظُنُّهُ
فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قال : هو حائط بيت المقدس الشرقي الذي
من ورائه وادٍ يقال له وادي جهنم ، ومن دونه بابٌ يقال له باب الرحمة .

وأما ما ورد

في فضل الصخرة والصلاة إلى جانبها

§ فقد روى عن أنس بن مالك ، قال : إن الجنة ليحترق شوقاً الى بيت المقدس ،
وإن بيت المقدس من جنة الفردوس ، وهي سرّة الأرض^(١) .

§ وعن أبي إدريس الخولاني : قال : يحول الله صخرة بيت المقدس مرجانةً
بيضاء كعرض السماء والأرض ، ثم ينصب عليها عرشه ، ثم يقضي بين عباده :
يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار .

§ وعن أبي العالسة في قوله تعالى : ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال : من
بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس .

(١) أي الصخرة .

§ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس».

§ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صخرة بيت المقدس من صخور الجنة.

§ قال الزجاج: يقال إنها في وسط الأرض.

§ وعن كعب قال: من أتى بيت المقدس فصلّى عن يمين الصخرة وشمالها ودعا عند موضع السلسلة، وتصدّق بما قلّ أو كثر، استجيب دعائه، وكشف الله حرّته، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه؛ وإن سأل الله الزيادة أعطاه إياها.

وأما ماورد

في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس الى السماء

١٠ فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي الخطيب رحمه الله بسنده الى سواده بن عطاء الحضرمي، قال: نجد في الكتاب مكتوباً أن الله عز وجل لما أن خلق الأرض وشاء أن يعرج الى السماء وهي دُخان، استشرف لذلك الجبال، أيها يكون ذلك عليه، وخشعت صخرة بيت المقدس تواضعاً لله عز وجل، فشكر الله لها ذلك وجعل المعراج عنها، وكان عليهما ما شاء الله أن يكون. قال: فقد الجبار يديه حتى كانتا حيث يشاء أن تكونا، ثم قال: «هذه جنتي غرباً، وهذه نارى شرقاً، وهذا موضع ميزاني طرف الجبل، وأنا الله ديان يوم الدين» وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة.

وروى أيضاً بسنده إلى هاني بن عبد الرحمن، ورديج بن عطية عن إبراهيم ابن أبي عبلة أحسبه كذا قال: وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن خديج، وكانا عقيين

(١١٨)

بدرين، ف قيل لهما : أرايتما ما يقول الناس في هذه الصخرة أحقا هو فنأخذ به ،
أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندعه؟ فقال كلاهما : سبحان الله ! ومن يشك
في أمرها ! إن الله عز وجل لما استوى إلى السماء قال لصخرة بيت المقدس :
« هذا مقامي وموضع عرشي يوم القيامة ، ومحشر عبادي ، وهذا موضع ناري عن
يسارها وفيه أنصب ميزاني أمامها ، وأنا الله ديان يوم الدين » ثم استوى إلى عليين .

وروى أيضا بسنده عن كعب ، قال : إن في التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس
« أنت عرشي الأدنى ومنك أرتفعت إلى السماء ، ومن تحتك بسطت الأرض
وكل ما يسيل من ذروة الجبال من تحتك ، من مات فيك فكأنما مات في السماء ،
ومن مات حولك فكأنما مات فيك ، لا تنقضي الأيام والليالي حتى أرسل عليك نارا
من السماء فتأكل آثارا وكف بنى آدم وأقدامهم منك ، وأرسل عليك ماء من تحت
العرش فأغسلك حتى أتركك كالمرآة ، وأضرب عليك سورا من غمام غلظه اثنا عشر
ميلا ، وسيابجا من نار ، وأجعل عليك قبة جبلتها بيدي ، وأنزل فيك روي وملائكتي
يسبحون لي فيك ، لا يدخلك أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة ، فمن يرضوء تلك
القبة من بعيد ، يقول : طوبى لوجه يختر فيك لله ساجدا ، وأضرب عليك حائطاً من نار ،
وسيابجا من الغمام ، وخمسة حيطان من ياقوت ودر وزبرجد ، أنت البيدر ، وإليك
المحشر ، ومنك المنشر » .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمه الله في ذلك
حديثين ، ثم تكلم عليهما وضعف رواتهما .

أما أحدهما ، فقال : أخبرنا المبارك بن أحمد ، قال أخبرنا أبو الحسين محمد بن
محمد ، قال أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النضبي ، قال أخبرنا أبو بكر

أحمد بن صالح بن عمر المقرئ ، قال حدثنا عيسى بن عبيد الله ، قال حدثنا على
 ابن جعفر الرازي ، قال حدثنا العباس بن أحمد بن عبد الله ، قال حدثنا عبد الله
 ابن عمر المقدسي ، قال حدثنا بكر بن زياد الباهلي ، عن عبد الله بن المبارك ، عن
 سعيد بن أبي عمرو ، عن قتادة ، عن زرارة بن أوفى ، عن أبي هريرة رضي الله
 عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لما أُسْرِىَ بى الى بيت المقدس
 مرّ بى جبريل عليه السلام الى قبر إبراهيم ، فقال : أنزل ، فصلّ هاهنا ركعتين ،
 هاهنا قبر أبيك إبراهيم ، ثم مرّ بى ببيت لحم ، فقال : أنزل ، صلّ هاهنا ركعتين ،
 فإن هاهنا ولد أخوك عيسى ، ثم أتى بى الى الصخرة فقال : من هاهنا عرج ربك
 الى السماء “ .

١٠ قال الحافظ أبو حاتم بن حبان ، هذا حديث لا يشك عوام أصحاب الحديث
 أنه موضوع . وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات .

وأما الحديث الثانى ، فرواه بسند الى إبراهيم بن أعين عن رديج بن عطية بن
 النعمان ، عن عبد الله بن بسر الحمصى ، عن كعب الأحبار ، قال : يقول الله عز وجل
 لبيت المقدس : ” أنت عرشي الذى منك آرتفعت الى السماء ، ومنك بسطت الأرض ،
 ومن تحتك جعلت كل ماء عذب يطلع فى رؤوس الجبال “ .

١٥ قال أبو حاتم الرازي : إبراهيم بن أعين منكر الحديث .
 هذا ما ورد فى هذا الفصل ، وقد نهينا على ما فيه من المأخذ . والله أعلم .

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

فقد روى عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم قال : ” مَنْ أَهَلَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ “ .

قال سالم : وأهلّ آبن عمر رضى الله عنهما من بيت المقدس بعُمرَة .

وروى عن آبن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
”مَنْ أَحْرَمَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، قَدِمَ مَكَّةَ مَغْفُورًا لَهُ“ .

وأما ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة
فقد روى عن كعب الأحبار قال : لا تقوم الساعة حتّى يزور البيت الحرام
بيت المقدس ، فينقادان جميعا إلى الجنة وفيهما أهلوهما .

وروى عن خالد بن معدان قال : يحشر الله الكعبة إلى الصخرة زفًا إليهما زفًا ، متعلقين
بجميع من حج إليهما ، تقول الصخرة : مرحبا بالزائرة والمزور إليهما .

هذا ما أتفق إيراده في فضائل البيت المقدس ، وسنذكر إن شاء الله تعالى من
أخباره طرفا آخر ، وهو في الباب الثانى ، من القسم الثالث ، من الفن الخامس فى التاريخ ،
عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما السلام . فلنذكر خلاف ذلك .

وأما اليمن وما يختص به

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”الإيمانُ يمانُ . والحكمةُ
يمانية“ .

وقال الجاحظ : من خصائص ايمن السيوف ، والبرود ، والقروء .

﴿١١٩﴾

ويقال : إن السيف متى قُلع بالهند وطُبع باليمن ، فناهيك به !

وقال الأصمعى : أربعة ملاء الدنيا ولا تكون إلا باليمن ، وهى الورس ،
والكنندر ، والخضض ، والعقيق .

وأما الشام وما يختص به

فمن ذلك أن الشام موطن الأنبياء عليهم السلام، ومعدن الزهاد والعباد .

وحكى أن الأبدال السبعين بأرض الشام، بجبل لكّام وجبل لبنان .

ومن خصائص الشام :

مسجد دمشق

الذي ما عمّر على وجه الأرض مثله، وكانت عمارته في سنة ست وثمانين، عمره الوليد بن عبد الملك . ووقع الحريق فيه في سنة إحدى وستين وأربعمائة، فدمرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة .

وعن قتادة، قال : أقسم الله تعالى بمساجد أربعة، قال : ”والتين“ وهو مسجد دمشق، ”والزيتون“ وهو بيت المقدس، ”وطور سينين“ وهو حيث كلم الله موسى، ”وهذا البلد الأمين“ وهو مكة .

وقال محمد بن شعيب : سمعت غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التين مسجد دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجرة من تين قبل أن يبنيه الوليد .

وعن هشام بن عبد الملك قال : لما أمر الوليد ببناء مسجد دمشق، وجدوا في الحائط القبلي من المسجد لوحا فيه نقش فأتوا به الوليد، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم فلم يستخرجوه، فدلّ على وهب بن منبه فبعث إليه، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذي وجد فيه بناء هود عليه السلام .

وعن زيد بن واقد قال : وكلّني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مغارة فعترفنا الوليد ذلك . فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع، فنزل فإذا

هي كنيسة لطيفة : ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففتح فإذا فيه سَفَطٌ ، وفي السَفَطِ رأس يحيى بن زكريا عليهم السلام ، مكتوب عليه : "هذا رأس يحيى بن زكريا" ، فأمر الوليد ، فردَّ إلى مكانه ، وقال آجعلوا العمود الذي فوقه مغيرًا من الأعمدة ، فجعلوا عليه عمودًا مَسْفَطَ الرأس ، وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير .

٥

وقال أبو زرعة : مسجد دمشق خَطَّه أبو عبيدة بن الجراح ، وكذلك مسجد حمص . وقيل : لما قدم المهدي يريد بيت المقدس ، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعري كاتبه ، فقال : يا أبا عبد الله سبقنا بنو أمية بثلاث : قال : وما هنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (يعني المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبُنِيَ الموالى فإن لهم موالى ليس لنا مثلهم ، وبِعمر بن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبدا ! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة .

١٠

وحكى عمرو بن مہاجر الأنصاري قال : حَسَبُوا ما أنفق على الكوفة التي في قبلة مسجد دمشق ، فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصى : أنفق في عمارة مسجد دمشق أربع مائة صندوق ، كل صندوق أربعة عشر ألف دينار .

١٥

وقال بعض شعراء المُحدِّثين في وصفه :

دِمَشْقُ قد شاع ذِكْرُ جامعها * وما حَوَتْهُ رُبِّي مَرابعها
بديعةُ المُدُنِ في الكمالِ لما * يَدْرِكُهُ الطَّرْفُ من بدائعها
طَيِّبَةُ أرضها مَبَارَكَةٌ * باليمن والسَّعد أخذ طالعها
جامعُها جامعُ الحَاسِ قَدْ * فاقت به المُدُنُ في جَوامعها

٢٠

تُذَكَّرُ فِي قَضَائِهِ وَرَفَعَتِهِ * أَخْبَارُ صَدِيقٍ رَأَتْ لِسَامِعِهَا
 قَدْ كَانَ قَبْلَ الْحَرِيقِ مَذْهَبَةً * فَغَيَّرَتْهُ نَارٌ ^(١) بَلَاغِهَا
 فَأَذْهَبَتْ بِالْحَرِيقِ بَهْجَتَهُ * فَلَيْسَ يُرْجَى إِيَابُ رَاجِعِهَا
 إِذَا تَفَكَّرْتَ فِي الْفُصُوصِ وَمَا * فِيهَا تَيَقَّنْتَ حَقِّقَ وَاضِعِهَا
 أَشْجَارُهَا لَا تَزَالُ مَثْرَةً * لَا تَرْهَبُ الرِّيحُ فِي مَدَائِعِهَا
 كَأَنَّهَا مِنْ زُمْرِدٍ غُرُسَتْ * فِي أَرْضٍ تَبْرُ تَعْشَى بِفَاقِعِهَا
 فِيهَا ثِمَارٌ تَخَالُهَا يَنْعَتُ * وَلَيْسَ يُحْشَى فُسَادُ يَانِعِهَا
 تُقَطِّفُ بِاللَّحْظِ لَا بِمُجَارِحَةِ الْأَيْدِي وَلَا تُجْتَنِي لِبَائِعِهَا
 وَتَحْتَمَى مِنْ رُخَامِهِ قِطْعٌ * لَا قَطَعَ اللَّهُ كَفَّ قَاطِعِهَا
 أَحْكَمَ تَرْخِيمَهَا الْمَرْخَمُ قَدْ * بَانَ عَلَيْهَا إِحْكَامُ صَانِعِهَا
 وَإِنْ تَفَكَّرْتَ فِي قَنَاطِرِهِ * وَسَقَفِهِ بَانَ حَقِّقَ رَافِعِهَا
 وَإِنْ تَبَيَّنَتْ حُسْنُ قَبْتِهِ * تَحْيِرُ اللَّبُّ فِي أَضَالِعِهَا
 تَخْتَرِقُ الرِّيحُ فِي مَخَارِمِهَا * عَصْفًا فَتَقْوَى عَلَى زَعَاذِعِهَا
 وَأَرْضُهُ بِالرُّخَامِ قَدْ فُرِشَتْ * يَنْفَسِحُ الطَّرْفُ فِي مَوَاضِعِهَا
 مَجَالِسُ الْعِلْمِ فِيهِ مُوَنْقَةٌ * يَنْشِرُحُ الصُّنْدُورُ فِي مَجَامِعِهَا
 وَكُلُّ بَابٍ عَلَيْهِ مَطْهَرَةٌ * قَدْ أَمِنَ النَّاسُ دَفْعَ مَانِعِهَا
 يَرْتَفِقُ الْخَلْقُ مِنْ مَرَاغِقِهَا * وَلَا يُصَدُّونَ عَنْ مَنَافِعِهَا
 وَلَا تَزَالُ الْمِيَاهُ جَارِيَةً * فِيهَا لَمَّا شُقَّ مِنْ مَشَارِعِهَا
 وَسَوْفَهَا لَا تَزَالُ أَهْلَةً * يَزْدَحِمُ النَّاسُ فِي شَوَارِعِهَا
 لَمَّا يَشَاءُونَ مِنْ فَوَاكِهَها * وَمَا يُرِيدُونَ مِنْ بَضَائِعِهَا

(١) في الأصل: «بلاغها» بالقاف وهو تحريف وما وضعناه هو المناسب، والآفَع من النار: ما شملك من نواحيك. وفي الحديث: لفعنك النار: أي شملتك من نواحيك وأصابك لهبها.

كَأَنَّهَا جَنَّةٌ مَعْجَلَةٌ * فِي الْأَرْضِ لَوْلَا سُرَىٰ بِفَائِعِهَا
دَامَتْ بِرَغْمِ الْعَدَا مُسَلِّمَةً * وَحَاطَهَا اللَّهُ مِنْ قَوَارِعِهَا

وقال عبد الله بن سلام : بالشَّام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعائة قبر ، وقبر موسى بدمشق ، ودمشق معقل الناس في آخر الزمان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ : ﴿ وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ فليأت النِّيرَبَ الْأَعْلَى بدمشق بين النهرين ، وَلْيَصْعَدِ الْغَارَ فِي جَبَلِ قَاسِيُونَ فليَصِلْ فِيهِ ، فَإِنَّهُ بَيْتُ عِيسَى وَأُمِّهِ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى إِرَمَ ، فليأت نهرا في دمشق يقال له بَرْدَى . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ الَّتِي فِيهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَالْحَوَارِيُّونَ ، فليأت مَقْبَرَةَ الْفَرَادِيسِ .

ومن خصائصها التَّفَاحُ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحَسَنِ وَالطَّيِّبِ ، وَكَانَ يَحْمَلُ مِنْهُ إِلَى الْخُلَفَاءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ثَلَاثُونَ أَلْفَ تَفَاحَةٍ .

وبها الْغُوطَةُ ، وَهِيَ أَحَدُ مَتَنَزَّهَاتِ الدُّنْيَا الْأَرْبَعَةِ ، وَهِيَ أَجْلُهَا .

وسنذكر وصفها في باب الرياض إن شاء الله تعالى .

وَأَمَّا مِصْرٌ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنَ الْفَضَائِلِ

فمن فضلها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعا ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلَّت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ ، فقوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ .

٢٠

وقوله عز وجل مخبرا عن يوسف عليه السلام: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ .
 وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا
 بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ .

وأما ما دلت عليه القرائن ، فمنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِصْرًا
 صَدَقَ﴾ .

وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ . قال ابن عباس
 وسعيد بن المسيب ووهب بن منبه وغيرهم : هي مصر .

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ .
 وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا
 الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ . يعني مصر .

وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا
 فِيهَا فَأَكْهَنَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ . يعني قوم فرعون ، وأن بني إسرائيل
 ورثوا أرض مصر .

وقوله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
 أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
 مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ
 الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ
 فِي الْأَرْضِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون : ﴿أَنذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ .
يعنى أرض مصر .

وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن بنى إسرائيل : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِذُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿أَوَّٰنَ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب : ﴿فَلَنُأْرِجَّ الْأَرْضَ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ .

وذكر ابن عباس مصر، فقال : سميت مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن . والله تعالى أعلم .

§ وأما ما ورد فيها من الحديث النبوى صلوات الله وسلامه على قائله .

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرُ ، فَاسْتَوْصُوا بِقَبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا" .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِصْرَ فَأَتَّخِذُوا بِهَا جُنْدًا كَثِيفًا ، فَذَلِكَ الْجُنْدُ خَيْرُ أَجْنَادِ الْأَرْضِ" فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يا رسول الله ؟ فقال : "لأنهم وأزواجهم في رِبَاطٍ إلى يوم القيامة" .

وعنه صلى الله عليه وسلم ، وذكر مصر : "مَا كَادَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا كَفَاهُمُ اللَّهُ مَوْنَتَهُ" .
وتكررت الأحاديث في فضلها .

وقال عبدالله بن عمرو : وأهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقرش خاصة .

وقال أيضا : لما خلق الله عز وجل آدم ، مثل له الدنيا : شرقها ، وغربها ، وسهلها ، وجبلها ، وأنهارها ، وبحارها ، وبناءها ، وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ؛ فلما رأى مصر ، رآها أرضا سهلة ذات نهر جار ، مادته من الجنة ، تتحدر فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة ، في سفحه أشجار مثمرة ، فروعها في الجنة ، تسقى بماء الرحمة .

فدعا آدم في النيل بالبركة ، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى ، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات ، وقال : « يَا أَيُّهَا الْجَبَلُ الْمَرْحُومُ ، سَفْحُكَ جَنَّةٌ وَتَرَبَّتْكَ مِسْكَةٌ تَدْفِنُ فِيهَا عِرَاسُ الْجَنَّةِ ، أَرْضٌ حَافِظَةٌ مَطْبَقَةَ رَحِيمَةٍ . لَا خَلَّتِكَ يَا مِصْرَ بَرَكَتٌ ، وَلَا زَالُ بَكَ حِفْظٌ ، وَلَا زَالُ مِنْكَ مُلْكٌ وَعِزٌّ ، يَا أَرْضُ مِصْرَ فَيْكِ الْخَبَايَا وَالْكُنُوزُ ، وَلِكِ الْبَرِّ وَالْثَرْوَةُ ، سَالُ نَهْرِكَ عَسَلًا . كَثُرَ اللَّهُ زَرْعُكَ ، وَدَثُرَ ضَرْعُكَ ،

(١) كذا بالأصل ، وهي غير واضحة .

وزكاً نبأتك، وعظمت برّك وخصبت، ولا زال فيك يامصر خير ما لم تتجبري
وتكبري أو تخوني؛ فإذا فعلت ذلك، عمرك شر، ثم تغور خيرك .

فكان آدم أول من دعا لها بالخصب والرحمة والرأفة والبركة .

وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : دعا نوح عليه السلام لابن ابنه بيصر
ابن حام وهو أبو مصر، فقال : اللهم إنه قد أجاب دعوتي، فبارك فيه وفي ذريته
وأسكنه الأرض الطيبة المباركة التي هي أم البلاد .

قال عبدالله بن عمرو : لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده، جعل لحام
مصر وسواحلها والمغرب وشاطئ النيل . فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العريش،
قال : « اللهم إن كانت هذه الأرض التي وعدتنا على لسان نبيك نوح عليه السلام
وجعلتها لنا منزلاً فأصرف عنا وباءها، وطيب لنا ثراها، واجمع ماءها، وأنبت كلاًها،
وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد »
وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به . والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام بن نوح .
وسند ذكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر وبنيه عند ذكرنا لملوك مصر، وهو
في الفن الخامس في التاريخ .

وعن كعب الأحبار : لولا رغبتي في بيت المقدس لما سكنت إلا مصر؛
فقليل له : ولم ؟ فقال : لأنها معافاة من الفتن، ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه،
وهو بلد مبارك لأهل فيه .

وقال أبو بصرة الغفاري : سلطان مصر سلطان الأرض كلها .

قال وفي التوراة مكتوب : مصر خزائن الأرض كلها، فمن أرادها بسوء
قصمه الله تعالى .

وقال عمرو بن العاص : ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة .

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز ، قاضي العراق : سألت أحمد بن المدبر عن مصر فقال : كشفتها فوجدت غامرها أضعاف عامرها . ولو عمَّرها السلطان ، لو فت له بخراج الدنيا .

• ذكر من ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ومن كان بها منهم

ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جماعة ، منهم : موسى وهارون ، ويوشع بن نون ودانيال ، وأرميا ، ولقيان ، وعيسى بن مريم ، ولدته أمه بأهناس ، وبها النخلة التي ذكرها الله تعالى لمريم على أحد الأقوال .

١٠ ولما سار عيسى إلى الشام أخذ على سفح المقطم ماشيا ، عليه جبة صوف ، مربوط الوسط بشريط ، وأمه تمشي خلفه ، فالتفت إليها وقال : يا أقماء ، هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما من كان بها منهم ، فكان : إبراهيم الخليل ، وإسماعيل ، ويعقوب ، ويوسف عليهم السلام ، وأثنا عشر سبطا .

١٥ ذكر من كان بها من الصديقين والصديقات

رضى الله عنهم

كان بها من الصديقين مؤمن آل فرعون الذي ذكره الله عز وجل في القرآن ، وقيل : إنه ابن فرعون لصلبه ، آمن بموسى وخلق به وجعله الله نبيا وآية .

وكان بها وزراء فرعون الذين وصفهم الله تعالى وفضلهم على قوم نمرود حين قالوا : (أرجئه وأخاه) وقال وزراء النمرود : (اقتلوه أو حرّقوه) .

وأخرجت مصر السحرة الذين أحضرهم فرعون لموسى . وكانت عدتهم مائتي ألف واثنتين وثلاثين ألفا وقيل أكثر من ذلك ، آمنوا كلهم في ساعة واحدة . ولم نعلم من آمن في ساعة واحدة مثل هذا العدد .

ومن فضائل مصر ونبل أهلها أنهم لم يُفْتَنُوا بعبادة العجل .

وكان بها من الصديقات آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وأم إسحاق ، ومريم بنت عمران ، وماشطة بنت فرعون ، التي مشطها فرعون بأمشاط الكنان لما آمنت بموسى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شَهِدْتُ لَيْلَةَ أُسْرِى بى فِي الْجَنَّةِ رَائِحَةٌ مَا شَهِدْتُ أَطْيَبَ مِنْهَا ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا ؟ فَقَالَ : هَذَا رَائِحَةُ مَاشِطَةِ بِنْتِ فِرْعَوْنَ » .

ذكر من صاهر أهل مصر من الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام

منهم :

إبراهيم الخليل عليه السلام ، تزوج بهاجر أم إسماعيل .

ويوسف الصديق ، تزوج بنت صاحب عين شمس ، وتزوج زليخا بعد أن عجزت وعميت . دعا الله لها فردّها الله إلى حالتها الأولى ، ورزق منها الولد .

وسمى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في السيرة النبوية .

ذكر من أظهرته مصر من الحكماء

(١) الذين عمروا الدنيا بكلامهم وحكمهم وتديبرهم ، وأظهروا ما خفي من العلوم

قال الحسن بن إبراهيم ، صاحب تاريخ مصر :

منهم : ذو القرنين وهو الإسكندر^(٢) ، من قرية يقال لها لُويَّة^(٣) . وهو الذي

قتل داراً بن داراً . وسيأتى خبره إن شاء الله تعالى في التاريخ في ذكر ملوك اليونان .

ومنهم : هرمس وهو المثلث بالنعمة : نبي ، وحكيم ، ومليك : وهو الذي

صير الرصاص ذهباً ، وبني الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال . وقيل : هو إدريس

عليه السلام .

ومنهم تلميذاه : أغاثانذيمون وفيثاغورس ولهما من العلوم الموروثة صناعة

الكيمياء ، والنجوم ، والسحر ، وعلم التارنجيات ، والطلسمات ، والبرابي ، وأسرار

الطبيعة .

ومنهم : أوسلا ، وسيزوارس ، وبندقليس ، أصحاب الكهانة والزجر .

ومنهم : سقراط ، صاحب الحكمة ، والكلام على البارئ جل ذكره ، وهو

صاحب البلاغة .

ومنهم : أفلاطون ، صاحب السياسة ، والنواميس ، والكلام على المذنب

والمملوك .

(١) بعض الحكماء المذكورين في هذا الفصل ليسوا من أهل مصر بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدة قليلة

أو كثيرة .

(٢) هو الاسكندر الأكبر ، ابن فيلبوس وهو ليس من مصر وإنما غزاها بجيوشه وأسس فيها مدينة

الاسكندرية التي صارت بعده مدينة العلم والحكمة .

٢٠

(٣) هذا اللفظ مخوف عن "بيل" وهي إحدى مدائن أغريقية ، وفيها كانت ولادة الاسكندر الأكبر .

ومنهم : بطليموس ، صاحب الرصد ، والمساحة ، والحساب ؛ وهو صاحب كتاب المجسطى من كتب الأفلاك ، وحركة الشمس ، والقمر ، والكواكب المتحركة والثابتة ، وصورة فلک البروج . وله صفة الأمم الذين يعمرون الأرض ، وكتاب الثمرة في علم النجوم وتسطيح الكرة .

ومنهم : أرسطاطاليس ، صاحب المنطق ، والآثار العلوية ، والحس والمحسوس ، والكون والفساد ، والسماء والعالم ، وسمع الكيان والسمع الطبيعي ، ورسالة تبث الذهب ، قالوا : وليعقوب بن إسحاق الكندي نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس .

ومنهم : أراطس ، صاحب البيضة ذات الثمان والأربعين صورة في تشكيل صورة الفلك ، والألف كوكب ، وأثنان وعشرون كوكبا من الكواكب الثابتة ، والزيج .

ومنهم : أنطوليوس^(١) ، صاحب الفلاحة .

ومنهم : إبرخس ، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق .

ومنهم : ثاون ، صاحب الزيج المنسوب إليه .

ومنهم : أسطنيس ، ودروثيوس ، ووالنس ، أصحاب كتب أحكام النجوم ، وعندهم انتشر ذلك .

ومنهم : إيرن ، صاحب الهندسة والمقادير ، وكتاب جر الأثقال ، والحيل الروحانية ، وعمل البنائين والآلات لقياس الساعات .

(١) ورد هذا الاسم في الأصل هكذا : "أفطوبوس" وليس هناك رجل بهذا الاسم . وإنما المشهور بكتابه في الفلاحة هو "أنطوليوس الإغريق" وقد ذكره آن العوام في كتاب الفلاحة الأندلسية ، ونقل عنه .

ومنهم : فيلون البرنطى ، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة .

ومنهم : أرشميدس ، صاحب الحيل والهندسة والمرايا المحرقة وعمل المجانيق ورمى الحصون ، والحيل على الجيوش والعساكر براً وبحراً .

ومنهم : ماريه ، وقلبطره ، أصحاب الطلسمات ، والخواص للطبائع .

ومنهم : أبلونيوس ، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط .

ومنهم : ثيودوسيس ، وهو صاحب كتاب الأكر .

ومنهم : ذيوفنطس ، وله كتاب الحساب .

ومنهم : أوطوقيس ، وله كتاب الكرة والأسطوانة .

ومنهم : المشاءون^(١) ، أصحاب الرواق .

١٠

وبمصر من العلوم التي عَمَرَتْ بها الدنيا علم الطب اليوناني ، وعلم النجوم ، وعلم المساحة ، وعلم الهندسة ، وعلم الكيمياء ، وغير ذلك وبها الطلسمات العشرة .

وبادى الإسكندراني صاحب الزيج^(٢) .

والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس ، صاحب الطب تعلمه بمصر ، ومن كتبها أخذ .

١٥

ومنهم : ديسقوريد : صاحب الحشائش ، وديوچانس ، واركاغانس ،

وأرباسيوس ، وفريقونوس ، وروفس ، هؤلاء أصحاب الطب اليوناني .

(١) في الأصل : "المشائير" ولعله يشير إلى أتباع أرسطو الذين يسميهم العرب "المشائين" .

(٢) لعل هذا الاسم محرف عن "ثاون" الذي سبقت الإشارة إليه .

فهؤلاء حكماء الأرض وعلمائهم الذين ورثوا الحكمة، من مصر خرجوا، وبها ولدوا، ومنها انتشرت علومهم في الأرض .

قال الحسن بن إبراهيم : وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأول طلباً للعلم وأصحاب العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء ودقة الفطنة .
والله تعالى أعلم .

ومن فضائل مصر

أنها تميز الحرمين الشريفين، ولولا مصر لما أمكن أهل الحرمين وأعمالها المقام بهما، ولما توصل إليهما من يرد من أقطار الأرض .

ومنها أنها فرضة الدنيا، يحمل من خيرها إلى سواحلها، وذلك أن من ساحلها بالقلم ينقل إلى الحرمين، وإلى جدة، وإلى عُمان، وإلى الهند، وإلى الصين، وصنعاء، وعدن، والشَّحْر، والسَّند، وجزائر البحر .

ومن جهة تَنِيْس، ودِمِيَّاط، والفرما فرضة بلد الروم، وأقاصي الإفرنجية، وقبرس، وسائر سواحل الشام، والثغور إلى حدود العراق .

ومن جهة الاسكندرية فرضة أَقْرِيطُس، وصِقْلِيَّة، وبلد الروم، والمغرب كله إلى طَنْجَة، ومغرب الشمس .

ومن جهة الصعيد فرضة بلد النَّوْبَة، والبُجَّة، والحَبْشَة، والمِجَاز، واليمن . وفيها من ثغور الرِّباط : البَرَّس، ورَشِيد، والإسكندرية، ورباط ذات الحمام،

ورباط البُحَيْرَة، ورباط إخنأ، ورباط دِمِيَّاط، وشَطَا، وتَنِيْس، والأشْتوم، والفرما، والورادة، والعَرِيش، والشَّجَرَتَيْن، ورباط الحَرَس . وجهة الحَبْشَة، والبُجَّة . ورباط أُسْوَان على النَّوْبَة . ورباط الواحات على البَرِّبر والسُّودَان . ورباط قُوص .

وبها من المساجد والمشاهد والاثار الصالحة، ما لم يكن في غيرها. ولو استقصينا ذلك، لطال به الشرح وأنبسط القول.

وقال سعيد بن عقبة: كنتُ بحضرة المأمون حتى قال، وهو في قبة الهواء: لعن الله فرعونَ حين يقول: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» فلورأى العراق! . فقلت: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال: «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ». فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقيته! .

قال: ثم قلت: لقد بلغني أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها. وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفئدتهم: يحبسونه متى شاءوا، ويرسلونه متى شاءوا. وكانت البساتين بحاقي النيل من أوله إلى آخره، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع.

ولقد كانت الأمة تضع المِخْلَ على رأسها فيمتلئ مما يسقط من الشجر. وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى نِمار لكثرة الشجر.

ومن فضائلها النيل، وقد تقدّم ذكره في باب الأنهار.

ومن عجائبها الهرمان وسيأتي ذكرهما في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى.

ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا.

وفيها ما ليس في غيرها، وهو حيوان السَّقَنْقُور، والثَّمس. ولولاه لأكلت الثعابين أهلها، وهو لها كقنفاذ سجستان لأهلها.

وفيها سمك يسمى الرَّعَاد. وهو سمك إذا أمسكه إنسان أو أمسك ما يتصل به من خيط الصنارة أو الشبكة التي يقع فيها، ارتعدت يده.

والحَطَبُ السَّنَطُ الذي لو وُقِدَ منه يوما وُجِمِعَ ما وُجِدَ من رَماده كان مَلءَ كَفِّ . وهو صُلبُ العُودِ، سَريعُ الوُقُودِ، بَطِيءُ الخُمودِ . ويقال : إنه الآبَنُوسُ، وإنما البُقعة قَصَّرت عن اليَكِّانِ فجاء أحمر شديد الحمرة .

ودُهْنُ البَلَسَانِ . والآفِيُونُ، وهو عُصارة الخَشِخَاشِ . وكان بها اللَّبَخُ، وهو ثمر في قَدَرِ اللوز الأخضر إلا أن المأكول منه الظاهر . ورأيتُه أنا بها وأكلت منه سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وبها الأَثَرُجُ الأَبَقُ .

وبها من المعادن : مَعْدِنُ الزُّمُرُودِ، ومَعْدِنُ النَّفْطِ، والشَّبَّ، والبرَامُ، والرَّخَامُ . وقيل : إن بها سائر المعادن كلها .

وأهلها يا كلون صَيِّدُ بَحرِ الرُّومِ وبَحرِ فارس طَريقاً^(١) .

وفي كل شهر من شهور القَبِيطِ صِنْفٌ من المأكول والمشروب والمَشْمُومِ، يوجد فيه دون غيره . فيقال : رُطَبُ توت، ورُمانُ بابه، ومَمُوزُ هاتُور، وسمَكُ كِهَك، وماء طُوبَة، وخُروفُ أمشير، ولَبَنُ برمهات، وورْدُ برمودة، ونَبَقُ بَشَنَس، وتينُ بَشُونَة، وعسل أَيْب، وعنب مسرى .

ومنها أن صيفها خَرِيفٌ، وشتاءها ربيعٌ، وما يَقْطَعُه الحَرُّ والبرد في سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها في الحَرِّ والبرد : لأنها في الإقليم الثالث والرابع، فسلمت من حَرِّ الأول والثاني، وبرْدِ السادس والسابع^(٢) .

ويقال : لو لم يكن من فضل مصر إلا أنها تغني في الصيف عن الخيش والتلج ويطون الأرض، وفي الشتاء عن الوقود والفراء [لكفى] .

(١) يشير إلى البحر الأحمر المتصل بالخليج الفارسي بواسطة بحر الهند .

(٢) قارن ذلك بما ورد في المقرئ (طبع بولاق ج ١ ص ٢٨) .

ومما وصفت به

أن صعيدها حجازي : حَجَره كحجر الحجاز ينبت النخل والدوم (وهو شجر المقل)،
والعُشْر، والقَرْظ، والإِهْلِيلَج، والفُلْفُل، والخيار شَنْبَر. وأسفل أرضها شامي : يُمطر
كمطر الشام، وتقع فيه الثلوج، ويُنبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز
والفستق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين .

وهي ما بين أربع صفات : فضة بيضاء، أو مسكة سوداء، أو زبرجدة خضراء،
أو ذهبية صفراء . وذلك أن النيل يعم أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصب
عنها فتصير مسكة سوداء، ثم تُزرع فتصير زبرجدة خضراء، ثم تستحصد فتصير
ذهبية صفراء .^(١)

- ١٠ وحكى ابن زولاق في "فضائل مصر" أن أميرها موسى بن عيسى [الهاشمي^(٢)]
وقف بالميدان عند بركة الحبش، فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن كان معه : أترون
ما أرى؟ قالوا : وما يرى الأمير؟ قال : أرى عجبا ما في الدنيا مثله ! فقالوا : يقول
الأمير ! فقال : أرى ميدان رهان، وحيطان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى،
وذروة جبل، وجبانة أموات، ونهرات تجاجا، وأرض زرع، ومراعى ماشية،
١٥ ومراتع خيل، وساحل بحر . [وصائد نهر] وقانص وحش، وصائد سمك، وملاح
سفينة، وحادي إبل، ومفازة رمل، وسهلا، وجبلا ! فهذه ثمانية عشر منزلا
في أقل من ميل في ميل .

(١) قارن ذلك بما ورد في المقرئ (طبع بولاق ج ١ ص ٢٦) .

(٢) هو والى مصر في أيام الرشيد سنة ١٧٥ هجرية . والزيادة عن المقرئ (طبع بولاق

وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنس بالبصرة حيث يقول :

زُرْ وَاْدَى الْقَعْمِرِ نَعْمَ الْقَصْرُ وَالْوَادِي * لَا بُدَّ مِنْ زَوْرَةٍ مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ
زُرْهُ فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَشَاكِلُهُ * مِنْ مَنَزَلٍ حَاضِرٍ إِنْ شِئْتَ أَوْ بَادِي
تَرَى بِهِ السُّفْنَ وَالظَّلْمَانَ حَاضِرَةً * وَالضَّبَّ وَالنُّونَ وَالْمَلَّاحَ وَالْحَادِي

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، يصف جبل الرصد مثل

ما وُصِفَ بِهِ قَصْرُ أَنْس :

يَا نُزْهَةً الرَّصْدِ الْمَصْرَى قَدْ جَمَعَتْ * مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَاً فِي جَانِبِ الْوَادِي ^(١)
فَذَا غَدِيرٌ وَذَا رَوْضٌ وَذَا جَبَلٌ * فَالضَّبُّ وَالنُّونُ وَالْمَلَّاحُ وَالْحَادِي

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة في الاختصار، لكانت فضائلها تكون

كتاباً مفرداً .

١٠

وأما جزيرة الأندلس

فقد اقتصرْتُ في وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها، فقال :

”...أرضها شامية في طبيعتها، تهايمية في اعتدالها واستوائها، أهوازية في عظم خراجها
وجبايتها، عدنية في منافع سواحلها، صينية في معادنها، هندية في عطرها وطبيعتها
وذكاؤها . وأهلها عرب في الأنساب والعزة والأنفة، وفصاحة الألسن، وطيب
النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل والإهانة، والتزاهة عن الخضوع، هندیون
في فرط عنايتهم بالعلوم وحُبهم لها، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم، ورقّة أخلاقهم

١٥

(١) هذه رواية المقرئ . أما الأصل فقد ورد فيه الشطر الأول غير موافق في الوزن للبقية هكذا :

يا نُزْهَةً الرَّصْدِ الَّتِي قَدْ نَزَهَتْ * عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَلْجَ

ونباهتهم ، ولطافة أذهانهم ، وحدة أفكارهم ؛ نَبَطِيُون في استنباط المياه ، ومُعَانَتهم
لِلْغِرَاسَةِ ، وتركيب الشجر والفلاحة ؛ صِينِيُون في إتقان الصنائع العلمية ، وإحكام
المهَن الصورية ؛ تُرْكِيُون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر في مهماتها .
قال إبراهيم بن خفاجة ، يصفها :

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ * مَجْتَلَى عَيْنٍ وَرِيًّا نَفْسٍ
فَسَنَا صُبْحَتَهَا مِنْ شَنْبٍ * وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسٍ

وقد أظهرت الأندلس جماعة من الفضلاء والأعيان والأكابر ، ذكركم ابن بسام
في كتابه المترجم "بالذخيرة" في محاسن أهل الجزيرة . وذكركم الفتح بن خاقان
في كتابه "المطمح" و"قلائد العقيان" وغيرهما .

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وابتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا
فتحها ، وهو في الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس في التاريخ من أخبار
الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة ٩٢ من الهجرة .

وأما البصرة وما آخضت به

فمن خصائصها أن للغربان بها ضربا من العجب . وذلك أنها تقع إليها بالخریف
حتى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أضرم ثمرها ، ولا تقع على ما لم
تُضرم ، ولو بقي عليها عذق واحد .
ومن عجائبها أيضا ، أن التمر يكون مصبوبا في بيادره ، فلا يقع عليه شيء من
الذباب لا في الليل ولا في النهار .

وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة خوفاً عليها من الخفّاش . ومن
عادة الذباب الفِرَار من الشمس إلى الظل ، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه .

ألبتة . فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طَلَسَمَ ، له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب . وليس كذلك ، وإنما هو من حماية الله ووقايته .

ووصف خالد بن صفوان البصرة ، فقال : منابتها قصب ، وأنهارها عجب ، وسمائها رطب ، وأرضها ذهب .

وفي الكوفة عدم الوفاء .

وأما بغداد وما أختصت به

فإنه يقال : إنها جنة الأرض ، ومجتمع الوافدين : دجلة والفرات ، وواسطة الدنيا ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، لأنها غمرة البلاد ، ودار السلام والخلافة ، ومجمع الطوائف والطيبات ، ومعدن المحاسن واللطائف ، وبها أرباب النهايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع .

وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا ، وما عداها بادية .

وكان أبو الفضل بن العميد إذا طرأ عليه أحد وأراد امتحان عقله سألته عن بغداد . فإن فطن لفضائلها وخواصها ، جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله .

وقال ابن زريق الكوفي ، الكاتب :

سافرت أبغى لبغداد وساكنها * مثلاً حاولت شيئاً دونه اليأس
هيات بغداد الدنيا بأجمعها * عندى وسكان بغداد هم الناس

وقال آخر :

سقى الله بغداد من جنة * غدت للورى نزهة الأنفس
على أنها منية المؤسرين * وليكنها حسرة المفلس

وأما الأهواز وما آختصت به

فقال أبو عثمان "عمرو بن بحر الجاحظ" : إن قَصَبَةَ الأهواز مخصوصة بالحمى الدائمة اللازمة، حتَّى إنها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب .

وقال إبراهيم بن العباس عن مَشِيخَةٍ من أهلها عن القوابل بها : إنهن ربما قَبِلْنَ الطَّفْلَ المولود بها فيجِدْنَهُ محمومًا ، ولا تكاد تُوجَدُ بها وجنةٌ حمراء لصبي ولا صبية، ولا دمٌّ ظاهر .

ومن عجائب خصائصها : أن جميع أصناف الطَّيْبِ يستحيلُ رائحته فيها جدًّا، حتَّى لا تكاد توجد له رائحةٌ . وذلك من كثرة الرُّطوبات ، وغلظ الهواء ، والأبخرة الفاسدة . (وهذا موجود بأنطاكية والقُسطنطينية) . ويقال : إن الخيل لا تتزوَّجها ولا تَضَلُّ ، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن ، لما يلحقها من الرُّبُو، لنداوة البلد وعفونته .

وأما فارس وما آختصت به

فمن خصائصها : ماء الورد الذي لا يُوجَدُ مثله في سائر البلاد طيبًا، والجوِّرى الموصوف من أحد بلادها يُجَلَّبُ إلى أقاصي البلاد، ويُضَرَّبُ به المثل .
ولشيراز من بلاد فارس فَعْمَةٌ طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس .

وأما أصفهان وما آختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء، وجودة التربة، وعذوبة الماء .
وحكى أن الحجاج ولَّى بعض خواصه أصفهان، فقال له : قد وليتكَ بلدةً حَجَرُها الكحل، وذُبَابُها النحل، وحشيشُها الزعفران .

ومن خصائص الرّى : برودها موصوفة كبرود اليمن ، وتسمى العدنات تشبيها
لها ببرود عدن . وفيها الثياب المنيرة .
قالوا : واللص الخاذق يُنسب إلى الرّى .

وأما جرجان وما اختصت به

فهى سهيلة جبلية ، برية بحرية ، وأهلها يعدّون زيادة على مائة نوع من أنواع
الرياحين ، والبقول ، والحشائش الصّحراوية ، والثمار والحبوب السهلة التى هى
مبدولة بها للفقراء والغرباء .

ومن خصائصها : العناب الذى لا يكون فى سائر البلاد مثله ، ويقال : هى بغداد
الصغرى ، إلا أنها وبة ، مختلفة الهواء فى اليوم الواحد ، قتالة للغرباء ، كثيرة الأنداء .
ويقال : جرجان مقبرة أهل خراسان .

وفى بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان ، يُساق إليها قصار
الأعمار من الناس .
وكان أبو تراب النيسابورى يقول : لما قُسمت البلاد بين الملائكة ، وقعت
جرجان فى قسم أبى يحيى (يعنى ملك الموت) .

وأما نيسابور وما اختصت به

فحكى عن عمرو بن الليث الصّفّار أنه كان يقول : كيف لا أقاتل عن بلدة
حشيشها الرّيباس ، وترباها النّقل ، وحجرها الفيروزج . أراد بقوله : "ترباها النّقل"
طين الأكل الذى لا يوجد مثله فى الأرض ، ويحمل منها إلى أقاصى البلاد وأدانيها ،
ويُتخف به الملوكة . قالوا : وربما بيع الرّطل منه بدينار . قال المأمون يصفه :

جُدِّي مِنَ الثَّقَلِ فَذَٰكَ الَّذِي * مِنْهُ خُلِقْنَا وَإِلَيْهِ نَصِيرُ
ذَٰكَ الَّذِي يُحْسَبُ فِي شَكْلِهِ ^(١) * أَحْجَارَ كَافُورٍ عَلَيْهَا عَبِيرُ

قالوا : والفَيْرُ وَزَجْجٌ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي نَيْسَابُورٍ ، وَرَبَّمَا بَلَغَتْ قِيَمَةُ الْفَصِّ مِنْهُ —
الَّذِي إِذَا أَرَبَى وَزَنَهُ عَلَى مِثْقَالٍ ، وَجَمَعَ الْخَضِرَةَ وَالْأَسْتَدَارَةَ ، وَصَبَرَ عَلَى النَّارِ ، وَامْتَنَعَ
عَلَى الْمُبَرَّدِ ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ بِالْمَاءِ الْحَارِّ — مَائَتِي دِينَار .

وَيُقَالُ إِنَّ لَهُ خَاصِيَةً فِي تَقْوِيَةِ الْقَلْبِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، كَمَا أَنَّ لِلْيَاقُوتِ خَاصِيَةً
فِي مَسَرَّةِ النَّفْسِ .

وَلَمَّا دَخَلَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَحْمَدَ السَّامَانِيُّ ، مَلِكٌ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَخُرَاسَانَ ،
أَسْتَحْسَنَهَا وَأَسْتَطَابَهَا ، وَقَالَ : يَا لَهَا مِنْ بَلَدَةٍ جَلِيلَةٍ ، لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا عِيَانٌ ! كَانَ
يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مِيَاهُهَا الَّتِي فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ عَلَى ظَاهِرِهَا ، وَأَنْ تَكُونَ مَسَاحِلُهَا ^(٢)
الَّتِي عَلَى ظَهْرِهَا فِي بَطْنِهَا .

وَمِنْ خَصَائِصِهَا الثِّيَابُ النَّيْسَابُورِيَّةُ الرَّقَاقُ .

وَأَهْلُهَا لَا يَكْرُمُونَ الْغَرِيبَ . قَالَ الْمُرَادِيُّ :

لَا تَنْزِلَنَّ بَنِيْسَابُورَ مُغْتَرِبًا * إِلَّا وَحَبْلُكَ مَوْصُولٌ بِسُلْطَانِ
أَوَّلًا فَلَا أَدَبٌ يُغْنِي وَلَا حَسَبٌ * يُجْدِي وَلَا حُرْمَةٌ تُرْعَى لِإِنْسَانِ

وَقَالَ أَيْضًا فِيهَا :

قَالَ الْمُرَادِيُّ قَوْلًا غَيْرَ مَتَّهِمٍ * وَالنُّصْحُ مَا كَانَ مِنْ رِي اللَّبِّ مَقْبُولُ
لَا تَنْزِلَنَّ بَنِيْسَابُورَ مُغْتَرِبًا * إِنَّ الْغَرِيبَ بِنَيْسَابُورَ مُحَذُولُ

(١) فِي الْأَصْلِ "مِثْلُهُ" وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَاهُ .

(٢) فِي الْأَصْلِ "مَسَاحِلُهَا" .

(١٢٧)

وأما طُوس وما آختصت به

فمن خصائصها السَّبَج الذي لا يكون إلا بها، ومنها يُنقل إلى الآفاق، والحجر الأبيض الذي تتخذ منه القُدُور .

ويقال : إن الله عز وجل ألان لأهلها الحجارة كما ألان لداود الحديد، حتى إنهم يتخذون منها ما يتخذ غيرهم من الزجاج من سائر الأواني .

وأما بَلْخ وما آختصت به

فيقال : هي من أقدم البلاد وأخصها بالملوك، وهي شبيهة بالعراق، وخراسان، والهند . وإليها ينسب جِيحُون، فيقال : نهر بلخ .

وكان سعيد بن الحسن يقول : العيش في الصيف ببلخ كتصحيحها .^(١)

ومن خصائصها البخاق والتيلوفر .^(٢)

وأما بُسْت وما آختصت به

فيقال : إن هواءها كهواء العراق، وماءها كماء الفرات، ومن خصائصها الإجاص الذي لا يوجد مثله في غيرها . ويقال : إن من مات بُسْت مغفوراً له فقد آنتقل من جنة إلى جنة .

(١) أي مثل تلج .

(٢) في الأصل : النجادي وهو تحريف . "والبخاق" هي نوع من النوق اشتهرت بها هذه المدينة . قال ابن حوقل الرحالة البغدادي الشهير في كتابه "المسالك والممالك" (ص ٣٢٨ ، ٣٢٩) ما نصه :

"ويرتفع من بلخ وأعمالها في نفسها النوق المتقدمة على ما في جنسها وتعرف بالبخاق ولا نظير لها من جنسها في جميع الأرض . وبها الأترج والتيلوفر وقصب السكر وما لا يكون إلا في البلدان الحارة إلا أنه لا نخيل بها" .

وأما غَزَنَةُ وما آخَتَصَتْ بِهِ

فهى موصوفة بصحة الهواء ، وجودة التربة ، وعذوبة الماء ، وهى جبليّة شماليّة ، ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة ، والأمراض قليلة . قالوا : وهى أرض تُنبت الذهب ، ولا تولد الحيات والعقارب والحشرات المؤذية . ومنها خرج الأجلّاء الأتجاد من الرجال .

وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان : لم أر بلدة فى الصيف أطيب ، وبالربيع أشبه ، ومن الحشرات أنظف من غَزَنَة . ثم قال : إن قلة ثمارها من مناقبها ، لأن كثرة الثمار مقترنة بكثرة الأمراض . وقد وصفها صاحب كتاب "لطائف المعارف" فقال :

- ١٠ وَاهاً لَغَزَنَة إِذْ غَدَتْ * لِلْمَلِكِ وَالْإِسْلَامِ دَارًا
من كَعْبَةٍ قَدْ أَصْبَحَتْ * لِلجِدِّ وَالْعَلِيَّ مَدَارًا
فِي صَدْرِهَا الْمَلِكُ الَّذِي * قُطِبَ السُّعُودُ عَلَيْهِ دَارًا

وقال أيضا فيها :

- ١٥ يَا دَارَ مُلْكٍ نَرَى كُلَّ الْجَمَالِ بِهَا * وَأَسْعَدَ الدَّهْرِ تَبَدُّو مِنْ جَوَانِبِهَا
كَأَنَّما جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ قَدْ نَزَلَتْ * بِأَرْضِ غَزَنَةِ تَعْجِيلًا لِصَاحِبِهَا

وأما سَجِسْتَانُ وما آخَتَصَتْ بِهِ

فيقال فيها : ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل .

ومما تختص به الطائسات وجلاجل البزاة ، والطبول الموكية ، والفُرُش الديباج .

(١) كذا فى لطائف المعارف وفى الأصل "مناقبها" .

وأما الهند وما آختصت به

فيقال : الهند بحرها دُرّ، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر .

وعود الهند يذكّر مع أمّهات الطيب .

وفي الهند الفيل، والكرّكدن، والبر، والطاوس، والبنّاء .

وفيه الياقوت الأحمر، والصندل الأبيض، والعاج، وأصناف العطر، والثياب

المحمّلة وغيرها، والألانس^(١)، والأقمشة .

وأما الصين وما آختصّ به

فإن العرب تقول لكل طرفة من الأواني : صينيّة كائنة ما كانت : لاختصاص

الصين بالطرائف .

وأهل الصين خُصّوا بصناعة الطّرف، والمُلاح، ونحَط التماثيل، والإبداع

في عمل النقوش والتصاوير، حتّى إن مصوّرهم يصوّر الإنسان فلا يغادر شيئاً إلا

الروح، ثم لا يرضى بذلك حتّى يفصل بين ضحك الشامت وضحك النّجل، وبين

المتبسّم والمستغرب، وبين ضحك المسرور والهازي، ويركّب صورة في صورة .

وفيه مناديل الغمر التي إذا أتنّخت وألقيت في النار، نُقيت ولم تحترق .

وفيه الحديد . وربما اشترى بأضعاف وزنه فضة .

وفيه السّنجاب الفارحانيّ الذي هو من أنفاس الأوبار . وفيه اللُّبود الجياد .

قال الجاحظ في كتاب "النظر في التجارة" : إن خير اللُّبود الصينيّة، ثم المغربيّة

الحمر، ثم الطالقانيّة البيض .

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن القلائس .

وأما سمرقند وما اختصت به

قال قتيبة بن مسلم، لما أشرف على سمرقند لأصحابه : شبهوها، فلم يأتوا فيها بشيء، فقال : كأنها السماء في الخضر، وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن أنهارها المجرة . فاستحسنوا هذا التشبيه .

- ومن خصائصها الكواغد التي عطّأت قراطيس مصر، والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها، لأنها أحسن وأنعم وأرق وأرق . ولا تكون إلا بها وبالصين .
ومن خصائصها : الثياب الودارية، والنشادر، والزئبق، والبندق .

وأما بلاد الترك وما اختصت به

- فإنه يقال . إنها توازن بلاد الهند في كثرة الخصائص .
وفيها المسك والسنجاب والسمور والقاقم والفنك والتمالب السود والأرانب البيض وغير ذلك . وفيها البزة البيض والخيل .
ولتبت من بلاد الترك خاصية : أنه من أقام بها أعتراه سرور لا يدري ما سببه، ولا يزال متبسما ضاحكا، وأن الميت إذا مات فيها لا يدخل على أهله كبير حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب .

وأما خوارزم وما اختصت به

- فإنها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها في الخصائص والمتاجر .
ومن خصائصها البطيخ الذي يقال له " النارنج " يقال إنه أحلى البطاطيخ وأطيبها . وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق في قوالب الرصاص معبأة في الثلج، فكانت تقوم الواحدة منه — إذا سلمت ووصلت — بسبعائة درهم . والله أعلم .
(١) تبت : بلاد مشهورة تعتبر اليوم من بلاد الصين . وفي الأصل : « وتبت » .

ذكر الخصائص التي تجرى مجرى الطلسمات

منها :

مدينة "خييص" من مَدَن كَرْمَان . لا يُمَطَّر المطر فيها داخل السور أبداً حتى
 إن الرجل يُخْرِج يده من سوردا الى خارجها ، فتبتل يده ولا يبتل ساعده .
 وبقرية من قُرَى كَرْمَان أيضاً "حصن عادى" ليس فيه فأر . وإذا دخل اليه
 فأر مات .

ومدينة "حمص" لا يُوجَد فيها عَقْرَب . وإذا نُثِرَ ترابها على ظهر عَقْرَب
 ماتت . وكذلك قلعة أعزاز من أعمال حلب . ويقال : إنه لا يدخل مدينتها حية^(١)
 ومتى نُثِرَ عليها من ترابها ماتت لوقتها ، ولا يوجد فيها بَعُوضُ البتة . وإن الرجل
 متى أخرج يده من السور وقع عليها ، فإذا أدخل يده طار عنها .
 و"بمصر" أن التماسيح اذا ساقها الماء اليها وحاذتها آنقلت على ظهرها ، فإذا
 بعُدت عنها لا تضر أحدا . بخلاف ما هي في بلاد الصعيد ، فإنها تفترس جميع
 ما تظفر به من الحيوان حتى الخيل . ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس .
 ومدينة "سجلماسة" لا يوجد فيها ذباب البتة .

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة

(وهي العلم ، والعمل ، والجواهر ، والملابس ، والأوبار ، والفُرش ، والمراكب ،
 والحيوانات ذوات السموم ، والخلوى ، والثمار ، والرياحين ،
 والخلق ، والأخلاق ، والأمراض ، والآثار العلوية)

أما خصائصها العلمية والعملية ، فيقال : حكماء اليونان ، وأطباء جنديشابور ،
 وصاغة حران ، وحكمة اليمن ، وكُتَّاب السواد .

(١) كذا ذكرها أيضاً في التقويم بالهمزة . وفي المعجم "عزاز" بدونها .

(٢) يعني مصر العتيقة أى القسطنطينية .

ومن خصائصها في الجواهر، يقال: فيروزج نيسابور، وياقوت سرنديب، ولؤلؤ عُمان، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجَزَع ظَفَارٍ وبخاتى^(١) بلخ، ومَرْجَانُ إفريقية.

ومن خصائصها في الملابس، يقال: برود ايمن، ووشى صنعاء، ورَيط الشام، وقَصَب مصر، وديباج الرُّوم، وقَزَّ السُّوس، وحرير الصين، وأَكْسِيَّة فارس، وحُلَل أصهبان، وسَقْلَاطُون بغداد، وعمائم الأبلَّة، ومِنِير الرى، وملحَم مَرُو، وتَكَّك إرمينية، ومَنَادِيل الدَّامغان، وجَوَارِب قَزْوِين.

ومن خصائصها في الأوبار، يقال: سنجاب خرخيز، وسَمُور بُلغار، وتغالب الخَزَر، وفَنَك كاشغر، وحَوَاصِل هَرَاة^(٢)، وقاقم تغرغر.

ومن خصائصها في الفرش، يقال: بُسْط إرمينية، وزَلَالَى قَالِقَلَا، ومَطَارُح مِيسَان، وحُصْر بغداد^(٣).

(١) في الأصل: «نجادى بلخ» والصواب ما أثبتناه كما تقدّم في صحيفة ٣٦٤ من هذا الجزء.

(٢) ورد هذا اللفظ في كثير من كتب العرب بمعنى الجلود السنية التي يتدفأ بها أهل الترف والنعيم فقد ذكر الهمداني (ص ٢٣٥) الفنك والسمور والقاقم والحواصل والوشق والدلق الخ. وذكر ابن البيطار فقال:

«إنه طائر يكون بمصر كثيرا يعرف بالكُي (بضم الكاف واسكان الياء المنقوطة باثنتين من أسفل)
ولباسه يصلح للشباب وذوى الأمزاج الحارة ومن يغلب عليه الصفراء». وذكر السيرطى في الجزء الثاني من
«حسن المحاضرة» لطائف مصر وأورد من جملتها الحوصل (بغير ألف في النسخة المطبوعة طبع حجر بمصر،
ص ١٧٦) حيث قال مانصه: «وطير الحوصل يعمل من جلده الخفاف الناعمة والفراء الأبيض الذي
يقوم مقام الفنك في لبته ورقته».

(٣) لعله مصحف عن «حصر عبادان» لأن المقرئى طالما يتكلم عن الحصر العبدانية في مواضع كثيرة جدًا من خطه. وكذلك السيوطى قال في لطائف مصر: «وبها من الحصر العبدانى ومن سائر أصناف الحصر مالا يوجد في غيرها». وقال المقدسى ص ١١٨: «إن أكثر أهل عبادان صنّاع الحصر من الحلفاء» ودلت هذه الحصر في غاية من الجمال حتى كان أهل مصر يقلدونها كما رأينا من عبارة السيوطى.

ومن خصائصها في المراكب، يقال : عَتَاقُ البادية، وَنَجَائِبُ الحجاز، وَبَرَاذِينُ طَخَارِسْتَان، وَحَمِيرُ مصر، وَيَغَالُ بَرْدُعة .

ومن خصائصها في الحيوانات ذوات السموم، يقال : أَفَاعِي سَجِسْتَان ، وَحَيَّاتُ إِصْفَهَان ، وَثَعَالِيْنُ مصر ، وَعَقَارِبُ شَهْرَزُور ، وَجَرَّارَاتُ الْأَهْوَازِ ، وَبَرَاغِيثُ إِرْمِينِيَّة ، وَفَارُ أَرْزَن ، وَنَمَلٌ مِيَّافَارِقِيْن ، وَذَبَابُ تَلْفَافَان ، وَأَقْدَاحُ نَلْد .
ومن خصائصها في الحلواء، يقال : سُكَّرُ الْأَهْوَازِ ، وَعَسَلُ أَصْفَهَان ، وَفَانِيذُ مَا كِسَانٍ وَدِبْسُ أَرْجَان .

ومن خصائصها في الثمار، يقال : رُطَبُ الْعِرَاقِ ، وَتَمْرُ كَرْمَانَ ، وَغَنَابُ جُرْجَانَ ، وَإِجَاصُ بُسْتِ ، وَسَفَرَجَلُ نَيْسَابُور ، وَتَفَّاحُ الشَّامِ ، وَمِشْمِشُ طُوس ، وَكُمَثْرِي نَهَاوَنْد ، وَأُتْرُجُ طَبْرِسْتَان ، وَنَارَنْجُ الْبَصْرَةِ ، وَتَيْنُ حُلُوان ، وَغَنَبُ بَغْدَاد ، وَمِشْمِشُ هَرَاة ، وَمَوْزُ الْيَمَنِ ، وَجَوْزُ الْهِنْدِ ، وَيَطِيخُ خَوَارِزْم ، وَبَاقِلَاءُ الْكُوفَةِ .

ومن خصائصها في الرياحين، يقال : تَرْجِسُ جُرْجَانَ ، وَوَرْدُ جُور ، وَنِيلُوفَرُ السَّيْرَوَان ، وَمِثْوُورُ بَغْدَاد ، وَزَعْفَرَانُ قُمْ ، وَشَاهِسْفَرَمُ سَمَرْقَنْد .

(١) مفردة "قدح" وقال في القاموس : «والقدح والقادح أكال يقع في الشجر والأسنان ... والقادحة الدودة» . وقال آبن البيطار في كلامه على "التربد" نوع من النبات مانصه : «والتربد اذا طال به الزمان عمل فيه القادح كما يعمل في الخشب ... تراه مثقبا كأنه ثقب برأس إبرة» . ثم قال في بقية الكلام مانصه : «لا يجب أن يستعمل منه (أى التربد) إلا السليم من السوس» .

(٢) هكذا في الأصل وربما كان محرفا عن "بلد" المدينة المشهورة في العراق .

(٣) كذا بالأصل وصوابه "مَاسْكَان" وقد أوردتها ياقوت فقال : «إنها بلد مشهورة بالنواحي المجاورة لمُكْرَانَ وراء سَجِسْتَان» ثم قال «ولا يوجد الفانيذ بغير مكان إلا بهذا الموضع ... وإليه ينسب الفانيذ الماسكاني» .

١٥

٢٠

ومن خصائصها في الخلق والأخلاق، يقال : سُقْرَةُ الروم، وَسَوَادُ الزَّبَجِ،
وغلظ الترك، وجَفَاءُ الحِيلِ، ودَمَامَةُ الصِّينِ، وقِصَرُ يَأْجُوجَ .

ومن خصائصها في الأمراض، يقال : طواعينُ الشام، وطِحالُ البحرين،
ودَمَامِيلُ الجزيرة، وحمى خَيْبَرَ، وجُنُونُ حَمَصَ، وعَرَقُ اليَمَنِ، ووباءُ مصر،
وَبُرْسَامُ العراق، والنَّارُ الفارسية، وقُرُوحُ بَلَخَ .

ومن خصائصها في الآثار العلوية، يقال : شِتَاءُ أَرْمِينِيَّةَ، ومَصِيفُ عُثْمَانَ،
وصواعقُ تِهَامِهِ، وزَلَايِلُ دَيْبِلَ .

(١٢٩)

وقال الجاحظ في "كتاب الأمصار" : الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة،
والتَّخْنِيتُ ببغداد، والطَّرْمَذَةُ بِسَمَرْقَنْدَ، والغَيَّ بِالرِّيِّ، والْحَفَاءُ بَنِيْسَابُورَ، والحُسْنُ
بِهَرَاةَ، والمُرُوءَةُ بِبَلَخَ، والبُخْلُ بِمَرُوءَ، والعجائبُ بِمِصْرَ .

١٠

وحكى عن عمرو بن عامر مُزْبِقِيًّا، أنه قال لقومه لما تحقق كون سيل العرم :
مَنْ كَانَ ذَا شَاءٍ وَبَعِيرٍ وَجَمَلٍ غَيْرَ شَرُودَ، فليَلْحَقْ بِالشَّعْبِ مِنْ كُوفَانَ، فليَحْقُتْ بِهِ
هَمْدَانَ، وَمَنْ كَانَ ذَا سِيَّاسَةٍ وَصَبْرٍ عَلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ فليَلْحَقْ بِبَطْنِ مَرٍّ، فليَحْقُتْ بِهِ
خُرَاعَةَ . وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الرَّاسِخَاتِ فِي الْوَحْلِ، الْمُطْعِمَاتِ فِي الْحُلِّ، فليَلْحَقْ بِبَيْثَرِ
ذَاتِ النَّخْلِ، فليَحْقُتْ بِهَا بَنُو قَيْلَةَ، وَهُمْ الْأَوْسُ وَالْخَزَرَجُ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الْخَمْرِ
وَالْخَمِيرِ وَالْأَمْرِ وَالتَّامِيرِ فليَلْحَقْ بِبُصْرَى وَسَدِيرَ (وهي من أرض الشام)، فليَحْقُتْ بِهِ
غَسَّانَ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الثِّيَابَ الرَّقَاقَ، وَالْخُيُولَ الْعَتَاقَ، وَالذَّهَبَ وَالْأُورَاقَ،
فليَلْحَقْ بِالْعِرَاقِ، فليَحْقُتْ بِهِ نَحْنُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

١٥

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الأول

(في المباني القديمة)

والمباني القديمة كثيرة، فلنذكر منها ما عظم خطره، وشاع في الآفاق ذكره .

ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض

قيل : أول ما بنى على وجه الأرض "الصرح" ويسمى "المجدل" بناه الثمود الأكبر
 ابن كوش بن حام بن نوح، بكوني ربي من أرض بابل . قيل : وبها إلى هذا العصر
 من أثره كالجبال . وكان طوله في الهواء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف
 ذراع . وكان مبنيًا بالحجارة والرصاص والكس والشمع واللبن . بناه لينمسه وقومه
 من بأس الله عز وجل . وكان قد كفر وطغى وادعى الألوهية ، فأرسل الله تعالى
 إليه جبريل ، فضربه بخافضة جناحه فهدمه ، وهام من كان حوله على وجهه ، وقد
 تبليت ألسنتهم من الدهش والدعس ، فكانت عنه هذه اللغات التي يتكلم بها سائر
 الأمم ، وهي اثنتان وسبعون لغة ، وسميت تلك الأرض التي كان بها بابل .

ذكر خبر إرم ذات العماد

وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
 بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

(١) بخافضة جناحه ، أي إحدى خوافي جناحه وهي الريشات الصغيرة تخفى حينما يطوى الطائر
 جناحه وتكون تحت القوادم . وفي الأصل : « بخافضة جناحه » ،

وكان سبب عمارتها أن شدّاد بن عاد بن إرم لما سمع وصف الجنة سَوَّلَ له نفسه أن يبني مثلها . فبنى مدينة بين حَضْرَمَوْت وصَنْعَاء ، طُولُهَا اثْنَا عَشَرَ فَرْسَخًا ، وعَرْضُهَا مِثْلُ ذَلِكَ . وأحاط بها سورا ارتفاعه خمسمائة ذراع ، غَشَّاه بصَفَائِحِ الفضة المَمْوَّهَةِ بالذهب ، فلا يُدْرِكُهُ البصر إذا أشرقت عليه الشمس . وبنى داخلها مائة ألف قصر (بعدد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفضَّة ، وكذلك جُدُوع سُقُوفِهَا . وأعمدتها . وأجرى في وسطها نهرا صَفَّحَ أرضه بالذهب ، وجعل على حافتيه أنواع الجواهر واليواقيت بدلًا من الحصباء وألقى فيه المسك والعنبر بدلًا من الحمأة . وفرغ منه جداول إلى تلك القصور والمنازل ، وغرس على شُطُوطِهَا من الأشجار ما كان لَزَهْرِهِ عَرَفَ طَيِّبٌ ورائحةٌ ذكيَّةٌ .

- ١٠ زعموا أنه أقام في بنائها ثلثمائة سنة ، فلما تَمَّ بناؤها ، زاد في طغيانه ونرج من حضرموت إليها ليسكنها . فلما أشرف عليها جاءته صَيِّحَةٌ من السماء فأهلكته هو وجنوده .

- ويروى أن عبد الله بن قلابة خرج في طلب إبل له نَدَّتْ فوقه عليها ، فحمل ما قَدَّرَ عليه ، فبلغ معاوية خبره ، فاستحضره وسأله فقَصَّ عليه قصته . فبعث معاوية إلى كعب الأخبار ، فقال : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك : أحمر قصير ، على حاجبه خالٌّ ، وعلى عقبه خالٌّ ، يخرج في طلب إبل له نَدَّتْ . ثم ألتفت فرأى ابن قلابة فقال : هذا والله ذاك الرجل .

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربع مائة ألف وأربعون ألف عمود ، ولهذا سميت ذات العماد . وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق .

- ٢٠ وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شديد وشداد ، أبني عاد ، وهو في الباب الخامس من القسم الأول ، من

الفن الخامس في التاريخ، وذلك في السفر الحادي عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك . والله تعالى أعلم .

ذكر خبر سدّ ياجوج وماجوج

هو في الإقليم السادس في آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء .

(١٢٠)

قال صاحب كتاب "ترجمة المشتاق إلى آخترق الآفاق" إن الواثق بالله لما رأى في المنام كائن السدّ الذي بناه ذو القرنين مفتوح، أحضر سلاّما الترجمان وقال له : أذهب فانظر إلى هذا السدّ وجئني بخبره وحاله وما هو عليه، ثم أمر له بأصحاب يسرون معه، عددهم خمسون رجلاً، ووصله بخمسة آلاف دينار، وأعطاه ديتة عشرة آلاف درهم، وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم وريزق ستة، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد . قال سلام الترجمان : فشخصنا من سامراً بكتاب الواثق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب إرمينية بالنظر إلى تنفيذنا من هناك؛ فكتب لنا كتاباً إلى ملك السّيرير وأنفذنا إليه . فلما وردنا عليه، أشخصنا إلى ملك الآن . فلما وصلنا إليه، أشخصنا إلى صاحب فيلان شاه . فلما وردنا عليه [أرسلنا إلى ملك الخزرو هو] اختار لنا خمسة أدلاء يدلّون على الطريق . فسيرنا من عنده سبعة وعشرين يوماً في تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض

١٠

١٥

(١) ان ابن خرداذبه هو أوّل من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم استملاه منه من الكتاب الذي كان كتبه في هذا المعنى للخليفة الواثق بالله (انظر المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦هـ = سنة ١٨٨٩م من صفحة ١٦٢ — ١٧٠) . وعن ابن خرداذبه نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعده مثل الإدريسي وأبن رسته وأبن الفقيه الحمذاني والمقدسي . وقد نقل النويري عن الإدريسي . وكلهم قد يزيد وينقص بعض الكلمات أو يبدلها بغيرها .

٢٠

(١) في الأصل : «قبلاه شاه» . والتصويب عن ابن خرداذبه .

- سوداء طويلة ممتدة كريهة الرائحة، فشققناها في عشرة أيام . وكذا قد تزودنا لقطعها أشياء نسمها خوفاً من أذى روائحها الكريهة . ثم انفصلنا عنها . فسرنا مدة شهر في بلاد خراب قد درّست أبنيتها ولم يبق منها إلا رسوم يُستدل بها عليها . فسألنا من معنا عن تلك المَدُن ، فأخبرونا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخرّبونها .
- ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شُعبة السدّ وذلك في ستة أيام .^٥
- وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية . وهناك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش ، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب . فسألونا من أين أقبلنا ؟ فأخبرناهم أننا رُسل أمير المؤمنين الواصل بالله ، فعجبوا منا ومن قولنا "أمير المؤمنين" .
- ثم سألونا عن أمير المؤمنين : أشيخ هو أم شاب ؟ فقلنا : شاب ، فعجبوا أيضاً .
- ثم قالوا : وأين يكون ؟ قلنا : هو بالعراق بمدينة سُرّ من رأى . فعجبوا أيضاً^{١٠}
- من ذلك ، وقالوا : ما سمعنا هذا قط . فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومن علمهم لهم ؟ فقالوا : وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العنق طويلة اليدين والرجلين ، لها في موضع صلها حذبة ، (فعلما أنهم يصفون الجمل) قالوا : فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علمنا شرائع الإسلام فقبلناها ، وعلمنا أيضاً القرآن ومعانيه فتعلمناه وحفظناه . قال سلام : ثم خرجنا بعد هذا إلى السدّ لنُبصره ، فسرنا عن المدينة نحواً من فرسخين ، فوصلنا السدّ . فإذا جبل مقطوع بوادٍ عرضه مائة وخمسون ذراعاً ، وله في وسط هذا الفناء باب من حديد طوله خمسون ذراعاً قد آكته عضادتان ، عرض كل عضادة منهما خمسة وعشرون ذراعاً . والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب . وكله مبنى بلّين الحديد مغيب بالنحاس . وارتفاع العضادتين خمسون ذراعاً ، وعلى أعلى العضادتين درّوند حديد ، طوله مائة وعشرون ذراعاً . والدّرّوند للعتبة العليا ، وقد رتب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار

عشرة أذرع. ومن فوق الدروند بئان متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر. وفوقه شُرَفَات حديد، في طَرَف كل شُرْفَةٍ قرنتان تَتَنِي أطراف كل واحدة منهما على الأخرى، وللباب مصراعان مُغَلَقَان، عرض كل مصراع خمسون ذراعاً في ثَنٍّ خمسة أذرع، وقائمتاهما في دَوَّارَةٍ على قدر الدروند. وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غَلَط ذراع في الأستدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً. وفوق القفل بخمسة أذرع غَلَق طوله أكثر من طول القفل، وعلى الغَلَق مِفْتَاح طوله ذراع ونصف، وله اثنتا عشرة دنداجة، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دساتج الهواوين، مُعَلَّق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق. وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ماتحت العضادتين، الظاهر منها خمسة أذرع، وكلها مكشاة بالذراع السوادى. ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة مع عشرة فوارس، مع كل فارس إرزة حديد، كل إرزة خمسة أمتان. فيضرب القفل بتلك الإرزبات في كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب، فيعلم أن هناك حفظة، وليعلم هؤلاء أن يأجوج وماجوج لم يحدثوا في الباب حدثاً. وإذا ضرب أصحاب الإرزبات القفل، وضعوا آذانهم ليسمعوا

(١) هذه رواية ابن خرداذبه. وفي الأصل «قرنان مثنى الأطراف بعضها الى بعض». ورواية المقدسى: «قرنان يثنى كل واحد الى صاحبه».

(٢) هذه رواية الإدريسي. والذي في ابن خرداذبه «دندانكة» وهي كلمة فارسية معناها «سن» والمراد أسنان المفتاح.

(٣) الدستج: كلمة فارسية معناها «يد الهاون» أى المدق الذى تدق به الأشياء فى الهاون.

(٤) فى ابن خرداذبه ما يفيد أن المفتاح وحده هو المعلق فى السلسلة وهذا نص روايته: «معلق فى سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمانى أذرع فى أستدارة أربعة أشبار والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق» وهى رواية معقولة أكثر مما ورد فى المتن لأن المفتاح فقط هو الذى يصح تعليقه دون القفل والغلق.

١٥

٢٠

ما وراء الباب ، فيسمعون من ورائه دويًّا يدلُّ على أن خلفه بشرا . وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة [فراخ] في عشرة [فراخ] . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع ؛ وبين هذين الحصنين عين ماء عذبة ، في أحد الحصنين آلة البناء التي بُني بها السد من قدور الحديد ومغارف الحديد ؛ والقُدور فوق ديكدانات على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور الصابون ؛ وهناك أيضا بقايا من لبن الحديد التي بُني بها السد وقد ألصق بعضها ببعض من الصدا ، وطول اللبنة ذراع ونصف في ارتفاع شبر .

قال سلام الترجمان : وقد سألنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رأوا أحدا من ياجوج ومأجوج قط ، فأخبرونا أنهم رأوا منهم [مرة] عددا فوق شُرَفات الردم ، فهبَّت عليهم ريح عاصفة ، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا . وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا .

قال سلام : فكتبت هذه الصفات كلها ، ثم أنصرفنا مع الأدلاء من تلك الحصون ، فأخذوا بنا على ناحية خراسان . فسرنا إلى مدينة بختان ، إلى غريان ، إلى مدينة برساخان ، إلى انطارار ، إلى سمرقند ، فوصلنا إلى عبد الله بن طاهر ، ثم وصلنا إلى الري ، ثم رجعنا إلى سر من رأى بعد خروجنا عنها . فكان مغينا ١٥ في سفرنا ثمانية وعشرين شهرا .

قال : فهذا جميع ما حدث به سلام .

(١) كلمة فارسية يقابلها عند العرب "الأنافي" .

(٢) في ابن خرداذبه : « فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم » أي إلى الجهة التي ظهر منها أولئك الناس ، وهو المعقول ، لأنه عقب بأن طول الرجل كان شبرين ونصفا ، ومعنى ذلك في رأي العين من هذا العلق فتنبه .

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي في تفسيره : إن ارتفاع السد مائتا ذراعاً وخمسون ذراعاً . قال : وروى في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ ، وفي عرضه خمسون ذراعاً . نقله عن وهب بن منبه .

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار السد وكيفية بنائه وطوله وعرضه ، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذي القرنين . فتأمله هناك ، وهو في الباب الأول من القسم الرابع من الفن الخامس في التاريخ ، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا .

ذكر مباني الفُرس المشهورة

ومباني الفرس كثيرة : قديمة وحديثة .

فمن قديمها "سدّ اللّين" . بناه قباد بن فيروز ، وقيل إن الذي بناه أبوه كسرى ابن قباد بن فيروز . كذا ورد في التاريخ .

وهذا السد من أرض شروان إلى بلاد الألان ، وبينهما مائة فرسخ ، بين شعاب جبل القبق ، وهو جبل عظيم قد أشتمل على آثنتين وسبعين أمة ، لكل أمة لسان وملك ، لا يعرف بعضهم بعضاً لكثرة غياضه وأشجاره ، وفيه عيون وأنهار ، وتقدير مسافته طولاً وعرضاً نحو شهرين .

ومبدأ السور من جوف بحر الخزر على مقدار مسافة ميل ماثراً إلى البر ، ثم يمر إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان . وهو مبنى بالصخر والحديد والرصاص . بناه على زقاق البقر المنفوخة ، فكان كلما ارتفع البناء نزلت تلك الزقاق إلى أن آسسترت في قعر البحر ، فغاصت الرجال بالخناجر فشقوقوها فتمكن البناء . وجعل بين كل ثلاثة

أميال من السور وأقل وأكثر بابا من الحديد على حسب الطريق التي تجعل من أجله، وبني عليه حصنا وأسكن فيه من يحفظ ذلك الباب ويحرسه .

وزعم المؤرخون أن سبب بنائه لهذا السور أن الخزر كانت تغير على بلد فارس إلى أن تبلغ همدان والموصل، فجزهم بهذا السور .

ومن مباني الفرس إيوان كسرى

زعم المسعودي أن سابور ذا الأكتاف بناه في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين ذراعا في ارتفاع مائة ذراع، وطول كل شرفة منه خمسة عشر ذراعا .

ولما ملك المسلمون المدائن، أحرق ستر هذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف

دينار ذهباً .

ولما بنى المنصور بغداد، أحب أن ينقضه ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمك في ذلك فنهاه، وقال : "هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذي بناه لا يزال ملكه إلا نبى والمؤونة على نقضه أكثر من الارتفاق به" . فقال له : "أبيت إلا ميلا إلى العجم" فهدمت منه ثلثة . فبلغت النفقة عليها مالا كثيرا، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد : "أنا الآن يا أمير المؤمنين، أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس بعجزك عن هدم ما بناه غيرك" فلم يفعل .

وحكى مثل هذه القصة أنها وقعت ليحيى بن خالد مع الرشيد، وهو إذ ذاك في اعتقاله . وكان الرشيد بلغه أن تحته كثر فأراد هدمه واستشار يحيى فأشار عليه بمثل هذا .

ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شرفاته هُدمت وجُعِلت
في أساس سور بغداد .

وقال ابن الأثير في تاريخه : إن الإيوان باقٍ إلى الآن . (وكان يوم ذاك في سنة
خمس وعشرين وستمائة) ، والله أعلم .

ومن المباني القديمة الحضر

وكان حصننا حصينا مبنياً بالرَّخام ، يسكنه ملوك الضيَّازن . وهو بين دجلة
والفرات بحيال تكريت .

ويقال إن بانيه الساطرون . وذِكر أن قصر ملكه قائمٌ إلى وقتنا هذا في وسط
المدينة، وفي وسطه هيكلٌ مربعٌ مبنى بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني .

حكى أن سابورَ الجنودِ حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه . واتفق أن بنت ملكه
وهي النضرة بنت الضيَّازن حاضت ، فأُخرجت من القصر إلى رُبضه لأجل ذلك .
فرأت سابورَ ، وكان جميل الصورة ، فعشقتَه . فأرسلت إليه تقول : إن ملكك الحصن
فما تجعل لي ؟ قال : حَكَمْتُكَ . قالت : تتزوج بي . فأجابها إلى ذلك ، فقالت له : خُذْ
حمامة ورقاء مطوقةً ، فاخضب رجلها بدم حيض جارية بكر زرقاء وأرسلها . فإنها تقع
على سور البلد فيقع لوقتِه . وكان ذلك حلَّ طَلَسِمٍ له . ففعل ذلك ، فوقع السور
ودخل سابور الحصن وقتل ملكه وأصحابه وأصطفى أخته لنفسه . فلما كانت ليلة
دخولها عليه ، لم تزل متململة قلقلة طول ليلتها ، فالتمس سابور ما الذي قلقَتْ من أجله ،
فإذا ورقة آس قد لصقت بعُكْنَةٍ من عُكْنِها ، فقال لها : ما كان أبوك يغدوك ؟

(١) في ياقوت : "النضرة" .

فقلت : الزبد والمخّ وشهد أبكار النحل والخمر، فقال لها : أنا أحقّ منك بشأرك، ثم أمر رجلا أن يركب فرسا جموحا وأن يربط غداثها في ذنبه ويركض به . ففعل ذلك ، فتقطعت .

وهذا الحصن قد اختلف في موضعه . فقيل : بحيال تكريت بين دجلة والفرات ، وقيل : بالجزيرة . ويقال إنه كان حاجزا بين الروم والفرس ، وملكوته الزباء بنت ملبح^(١) وأسمها فارعة .

وفيه يقول عدى بن زيد العبادي من قصيدة :

وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دج * مله تُججي إليه والخابور
شاده مرمرا وكلله كد * ساء فلطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فبادله * ملك عنه فبأبه مهجور

ومن المباني القديمة القليس

وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح ملك اليمن بصنعاء . ونقل إليها الرخام المجزّع والملون ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس . وكان أراد أن يرفع بناءها حتى يشرف منها على بحر عدن . فلما أهلكه الله تعالى وفترق ملكه ، أقفر ما حول هذه الكنيسة ، وكثرت حولها السباع والحشرات وبقيت إلى زمن السقّاح فذكر له أمرها ، فبعث إليها من خربها وأخذ ما كان فيها . حكى ذلك السهميلي في "الروض الأنف" .

(١) في الأصل "بنت فريخ" . وذكر في تاج العروس في مادة زب أنها بنت عمرو بن الطرب وأن اسمها بارعة أو ميسون أو نابلة وجاء في أقرب الموارد "أنها بنت الريان الغساني ملكة الجزيرة وكانت تعد من ملوك الطوائف واسمها هند ولقبها الزباء" فنبه .

9

1.

10

1994 - 1995

ومن المباني القديمة ملعبا بعلبك

وهما كبير وصغير .

فالكبير ، يُحكى أنه من بناء سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليهما السلام ، وهو مبنى على عمدة شاهقة ، وحجارتها منها ما هو عشرة أذرع وأكثر .

والمَلْعَب الصغير تهتم أكثره ، وبقي منه حائط طوله عشرون ذراعا وارتفاعه كذلك ، ليس فيه إلا سبعة أبحار : واحد من أسفله ، وحجران فوقه ، وأربعة أبحار فوقهما .

ويقال إنه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى "بعلا" .

ذكر مباني العرب المشهورة

وهي عُمدان ، وحصن تيماء ، والخورنق ، والسدير ، والغريان .
قال الجاحظ : أحببت العرب أن تشارك الفرس في البناء وتنفرد بالشعر ، فبنوا : عُمدان ، وكعبة تجران ، وحصن مارد ، والأبلق الفرد .

فأما عُمدان

فكان بصنعاء ؛ زعم بعض المؤرخين أن بانيه حام بن نوح ؛ وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على اسم الزهرة .

وقال ابن هشام إن الذي أسسه يعرب بن خَطَّان ، وأكله بعده وائل بن خُيمر ابن سبيل بن يعرب ؛ وخربه عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه .

وقيل في صفتها إنه كان مُرَبَّعا ، أحد أركانه مبني بالرخام الأبيض ، والثاني بالرخام الأصفر ، والثالث بالرخام الأخضر ، والرابع بالرخام الأحمر ؛ وفيه سبعة سُقُوف

طباقاً، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعاً . وعلى كل ركن تمثال أسدٍ من نحاس ،
إذا هبت الريح دخلت من دُبره وخرجت من فيه ، فيسمع لها صوت كزئير الأسد .
وقال ابن الكلبي : كان على كل ركن من أركان عُمدان مكتوب " اسلم
عُمدان ، مُعاديك مقتول بسيف العدو " .

ويقال : إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطين أن ينوا لبليس
أربعة قصور : عُمدان ، وصروح ، وبينين ، وسلحين . وكلها باليمن .
ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : لا يستقيم أمر العرب ما دام
فيها عُمدانها . وهذا القول هو الذى حُصَّ عثمان على هدمه .
ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا ، وإنه تل عالٍ مطلٌ على صنعاء .

وأما حصن تيماء

فهو الأبلق الفرد ، سُمي بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيًا بحجارة مختلفة الألوان وهو
بأرض تيماء .

بناه السموءل بن عادياء اليهودي ، ويقال : إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام ؛
وبه تضرب العرب المثل في المنعة والحصانة ؛ وفيه يقول الشاعر :
طَلَبَ الأَبْلَقُ العُقُوقَ فَلَمَّا * لم يَنْسِلْهُ أَرَادَ بَيْضَ الأَنْوَقِ^(٢)

(١) الأبلق العقوق : الفحل الذى يحمل : أى يلتقح ، وهذا غير موجود فهو كبيض الأنوق الذى
يضرب به المثل في الندرة . ولا معنى للتمثل بهذا البيت في هذا الموضع ، ولعل المصنف يريد بيت السموءل
في قصيدته المشهورة :

هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره * يعز على من رامه و يطول
(٢) في الأصل : « فرام » والصواب ما أثبتناه لأن الفاء لا تقع في جواب « لما » وقد ورد هذا
البيت في أمالي القالى (ج ١ ص ١٢٨ طبعة دار الكتب المصرية) وجمع الأمثال لليداني ولسان العرب
(ج ١٢ ص ١٣١) كما أثبتناه .

وقصدت الزبأ هذا الحصن وحصن مارد، فلم تقدر عليهما، فقالت: "تمرد مارد وعز الأبلق".

ومارد حصن كان بدومة الجندل، مبنى بحجارة سود، ويقال: إنه أيضا من بناء السموعل بن عاديا، اليهودي.

وأما الخورنق والسدير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحيرة، والسدير في بزية بالقرب منها؛ بناهما النعمان بن أمراء القيس، وهو النعمان الأكبر، ويقال في سبب بناءه لهما: إن يزيد جرد بن سابور كان لا يعيش له ولد، فسأل عن مكان صحيح الهواء، فذكر له ظهر الحيرة، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق، فبناه على نهر سنداد في عشرين سنة؛ بناه له رجل يسمى سينمار.

فلما فرغ من بناءه، عجب النعمان من حسن بناءه وإتقانه، فأمر أن يلقى سينمار من أعلاه حتى لا يبني مثله لأحد؛ ويقال: إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أعجبه شكره على عمله ووصله، فقال: لو علمت أن الملك يحسن إلى هذا الإحسان، لبنيت له بناء يدور مع الشمس كيفما دارت، فقال له النعمان: وإنك لتقدر على أن تبني أفضل منه، ولم تبنيه! فأمر به فطرح من أعلاه.

وقيل: بل قال: أنا أعرف فيه حجرا متى أخذ من موضعه، تداعى البناء. فخاف النعمان إن هو لم ينصفه في أجرته فعل ذلك، فقتله.

والعرب تضرب المثل بفعل النعمان مع سينمار في المكافأة على الفعل الحسن بالقبيح، فيقال: جازاه مجازاة سينمار.

وفيه يقول بعض الشعراء :

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ * جَزَاءَ سِنِمَارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ
سَوَى رَفْعِهِ الْبُنْيَانِ عَشْرِينَ حِجَّةً * يُعَلِّي عَلَيْهِ بِالْقَرَامِيدِ وَالسَّكَبِ
وَالْخَوَرَنَقِ تَعْرِيبُ خَوَرَنْقَاهُ^(١)، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُؤْكَلُ فِيهِ وَيَشْرَبُ . وَالسِّدِيرُ
تَعْرِيبُ سَادِلٍ، أَيْ قُبَّةٌ فِي ثَلَاثِ قِبَابٍ مُتَدَاخِلَةٍ .

وفي هذه الأبنية يقول الأسود بن يعْفُر :

مَاذَا أُؤْمَلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ * تَرَكُّوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَهْلِ الْخَوَرَنَقِ وَالسِّدِيرِ وَبَارِقٍ * وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ مِنْ سِنَادِ
وَقَالَ عَدِيَّ بْنُ زَيْدِ الْعِبَادِيِّ :

وَتَفَكَّرَ رَبَّ الْخَوَرَنَقِ إِذْ أَشْهُ * رَفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفَكُّيرُ
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَحْ * بِرِيهِ وَالْبَحْرِ مُعْرِضًا وَالسِّدِيرُ
فَارَعَوَى قَلْبُهُ فَقَالَ فَمَا غَبِ * نَظَةً حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ

وَأَمَّا الْغَرِيَّانِ

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة .

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قَيْنَتَيْنِ تَغْنِيَانِ بَيْنَ
يَدَيْهِ فَمَاتَا، فَأَمَرَ بِدَفْنِهِمَا وَبَنَى عَلَيْهِمَا الْغَرِيَّيْنِ .

ويقال : إن المنذر غزا الحارث بن أَبِي شَمِيرٍ الْغَسَّانِيَّ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا وَقْعَةٌ عَلَى عَيْنِ
أَبَاغٍ، وَهِيَ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورَةِ، فَقُتِلَ لِلْحَارِثِ وَلَدَانِ، وَقُتِلَ الْمُنْذِرُ وَأَنْهَزِمَتْ
جِيُوشُهُ، فَأَخَذَ الْحَارِثُ وَلَدَيْهِ وَجَعَلَهُمَا عَدْلَيْنِ عَلَى بَعِيرٍ، وَجَعَلَ الْمُنْذِرَ فَوْقَهُمَا،

(١) والأصح خَوَرَنْقَاهُ . (من هامش الأصل) .

وقال : "ما العاوة يدون العدلين !" فذهبت مثلاً ، ثم رحل إلى الحيرة فاتتها وحرّقها
ودفن آبنه بها ، وبني الغريين عليهما ، حكاه ابن الأثير في تاريخه "الكامل" .
وأمر المنصور بهدم أحدهما ، لكنز توهم أنه تحتها ، فلم يجد شيئاً ،
وقيل في سبب بنائهما غير ذلك ، والله أعلم .

ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية

وهي الأهرام ، وحائط العجوز ، وملعب أنصنا ، ومدينة عين شمس ، والبرابي ،
وحنية اللازورد ، ومنارة الإسكندرية ، ورؤاق الإسكندرانيين .

فأما الأهرام

التي بأرض مصر فهي كثيرة ، وأعظمها الهرمان اللذان بالجيزة غربى مصر ،
وقد اختلف في بانيهما :

فقال قوم : بانيهما سُوريد بن سهلوق بن سرناق ، بانيهما قبل الطوفان لرؤيا
رأها ، فقصّها على الكهنة ، فنظروا فيما تدلّ عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث
في العالم ، فأقاموا مراكرها في وقت المسألة ، فدلّت على أنها نازلة من السماء تحيط
بوجه الأرض ، فأمر حينئذ ببناء البرابي والأهرام ، وصوّر فيها صور الكواكب
ودرجها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة .

ويقال : إن هرمس المثلث بالحكمة (وهو الذى يسميه العبرانيون أَخْنُخْ ، وهو
إدريس عليه السلام) استدلّ من أحوال الكواكب على كون الطوفان ، فأمر ببناء
الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم وما يُخاف عليه الذهاب والدثور .

وكل هَرَم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع
وسبعة عشر ذراعا، يحيط به أربعة سطوح متساويات الأضلاع، كل ضلع منها
أربعائة ذراع وستون ذراعا، ويرتفع إلى أن يكون سطحه مقدار ستة أذرع
في مثلها.

ويقال: إنه كان عليه حجر شبه المِكْبَةِ فرمته الرياح العواصف.

وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث
إنه لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزعزعة الزلازل، وطول
الحجر منه خمسة أذرع في سَمَك ذراعين.

ويقال: إن بانيهما جعل لهما أبوابا على آراج مبنية بالحجارة في الأرض طول كل
أَرَج منها عشرون ذراعا، وكل باب من حجر واحد يدور بلولب إذا أطبق لم يعلم
أحد أنه باب. فَأَرَجُ الشرق منها في ناحية الجنوب، وَأَرَجُ الغربى في ناحية الغرب؛
يُدْخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت منها على اسم كوكب من
الكواكب السبعة؛ وكلها مُقْفَلَةٌ بأقفال؛ وحذاء كل بيت منها صنم من ذهب
مَجُوف، إحدى يديه على فيه، وفي جبهته كِتَابَةٌ بِالْمُسْنَدِ إذا قرئت أنفتح فوه فتوجد
فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها.

والقبط يزعمون أنها والهرم الصغير الملقون قبور: فالهرم الشرقى فيه سور يد الملك،
وفي الهرم الغربى أخوه هوحيت^(١).

والصابئة تزعم أن أحدها قبر أغاثدِيمُون، والآخر قبر هرمس، والملقون قبر صاب
ابن هرمس؛ وإليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم؛ وهم يحججون إليها

(١) كذا بالأصل وكذلك في خطط المقرئى. وفي ياقوت "هوحيب".

ويذبجون عندها الديكة والعجول السود ، وَيَخْرُونَ بِدُخْنٍ ؛ ويزعمون أنهم يعرفون
عند اضطراب ما يذبجون حالة الذبح ما يريدون عمله من الأمور الطبيعية .

وقصرت همم الملوك والخلفاء عن معرفة ما في هذين الهرمين ، إلى أن ولي
عبد الله المأمون الخلافة وورد مصر ، فأمر بفتح واحد منها ففتح بعد عناء طويل ،
وأتفق لسعادته أنه وقع النقب على مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب ، وهو
زلاقة ضيقة من الحجر الصوان الماتع الذي لا يعمل فيه الحديد ، بين حاجزين
ملتصقين بالحائط قد نُقِرَ في الزلاقة حُفْرٌ ، يمسك السالك بتلك الحفرة ، ويستعين بها
على المشي في الزلاقة لئلا يزلق ، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر ، ويقال :
إن أسفل البئر أبواب يُدْخَلُ منها إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب .
وأنتهت بهم الزلاقة إلى موضع مربع في وسطه حوض من حجر صلد مغطى ، فلما
كُشِفَ عنه غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية ، فأمر المأمون بالكف عما سواه ،
وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا .

١٣٥

وسند ذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين
كانوا قبل الطوفان وبعده ، وذلك في الباب الثاني من القسم الرابع من الفن الخامس ،
وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك .

١٥

وقال بعض أهل النظر ، وقد عاين الأهرام : "كل بناء يخاف عليه من
الدهر ، إلا هذا البناء فإني أخاف على الدهر منه" .

ونظم عمارة اليمنى هذا القول ، فقال :

حَلِيلِي مَا تَحْتَ السَّمَاءِ بَنِيَّةٌ * ثُمَائِلُ فِي إِنْقَانِهَا هَرَمِي مِصْرِ
بِنَاءٌ يَخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ وَكُلُّ مَا * عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ
تَتَرَهُ طَرَفِي فِي بَدِيعِ بِنَائِهَا * وَلَمْ يَتَرَهُ فِي الْمُرَادِهَا فِكْرِي

٢٠

وقال بعض الشعراء :

حَسَرْتُ عَقُولَ ذَوِي النَّهْيِ الْأَهْرَامِ * وَأَسْتَصْغَرْتُ لِعَظِيمِهَا الْأَعْلَامِ
مَلَسْتُ مُنِيفَةَ الْبِنَاءِ شَوَاهِقَ * قَصُرْتُ لِعَالِ دُونِ رَبِّ سِهَامِ
لَمْ أَدْرِ حِينَ بَكَ التَّفَكُّرُ دُونَهَا * وَاسْتَبْهَمْتُ لِعَجِيبِهَا الْأَوْهَامِ
أَقْبُرُ أَمْلَاكَ الْأَعَاجِمِ هُنَّ أَمْ * طَلَسْتُ رَمْلَ هُنَّ أَمْ أَعْلَامِ

وقال أبو الطيب المتنبي :

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانُ مِنْ بُنْيَانِهِ * مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَصْرَعُ
تُخْلَفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا * حِينًا وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَنْبَعُ

وقال أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَنْدَلُسِيُّ :

بَعِثْكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَحْسَنَ مَنْظَرًا * عَلَى طُولِ مَا عَايَنْتَ مِنْ هَرَمٍ مِصْرٍ
أَنَا فَا بَأَعْنَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفَا * عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوْ النَّسِيرِ
وَقَدْ وَافِيََا نَشْرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيَا * كَأَنَّهُمَا تَذْيَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ

وقال آخر :

انْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ إِذْ بَرَزَا * لِلْعَيْنِ فِي عُلُوِّ وَفِي صَعْدِ
وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ الْعَرِيضَةُ إِذْ * ظَمِئَتْ لِفَرْطِ الْحَرِّ وَالْوَمَدِ
حَسَرْتُ عَنِ الثَّيْدَيْنِ بَارِزَةً * تَدْعُو إِلَهَ لَفْرِقَةِ الْوَلَدِ
فَأَجَابَهَا لَيْيَكِ يُوسِعُهَا * رِيًّا وَيَشْفِيهَا مِنَ الْكَمَدِ

وقال ابن الساعاتي :

وَمِنَ الْعَجَائِبِ، وَالْعَجَائِبُ بَجْمَةٍ * دَقَّتْ عَنِ الْإِثْكَارِ وَالْإِسْهَابِ،
هَرَمَانٍ قَدْ هَرِمَ الزَّمَانُ وَأَدْبَرَتْ * أَيَّامُهُ وَتَزِيدُ حُسْنَ شَبَابِ

لله أَى بَنِيَّةٍ أَزَلِيَّةٍ * تَبْنِي السَّمَاءَ بِأُطُولِ الْأَسْبَابِ
وَلَرُبَّمَا وَقَفَتْ وَقُوفٌ تَبْلُدُ * أَسَفًا عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَحْقَابِ
كَتَمَتْ عَنِ الْأَسْمَاعِ فَضْلَ خَطَابِهَا * وَغَدَتْ تُشِيرُ بِهِ إِلَى الْأَلْبَابِ
وقال سيف الدين بن جُبَّارة :

لله أَى غَرِيبَةٍ وَعَجِيبَةٍ * فِي صَنْعَةِ الْأَهْرَامِ لِلْأَلْبَابِ
أَخْفَتْ عَنِ الْأَسْمَاعِ قِصَّةَ أَهْلِهَا * وَنَضَتْ عَنِ الْإِبْدَاعِ كُلِّ نِقَابِ
فَكَأَنَّمَا هِيَ كَالْخِيَامِ مُقَامَةً * مِنْ غَيْرِ مَا عَمَدٍ وَلَا أَطْنَابِ
ومن رسالة لضيء الدين بن الأثير الجزري في ذكر مصر ووصف الأهرام ، جاء منها :

« ... بَلَدٌ أَشْهَدُ بِفَضْلِهِ عَلَى الْبِلَادِ ، وَوَجَدْتُهُ هُوَ الْمَصْرَ وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ السَّوَادُ ، فَمَا رَأَى
رَأَى إِلَّا مَلَأَ عَيْنَهُ وَصَدْرَهُ ، وَلَا وَصَفَهُ وَاصِفٌ إِلَّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْهُ قَدْرَهُ ، وَبِهِ
عَجَائِبُ مِنَ الْأَثَارِ ، لَا يَضْبِطُهَا الْعِيَانُ وَلَا الْإِخْبَارُ ، فَمِنْ ذَلِكَ الْهَرَمَانُ ، اللَّذَانِ هَرَمِ
الدَّهْرِ وَهُمَا لَا يَهْرَمَانُ ، قَدْ اخْتَصَّ كُلُّ مِنْهُمَا بِعَظَمِ الْبِنَاءِ ، وَسَعَةِ الْفِنَاءِ ، وَبَلَغَ مِنْ
الْأَرْتِفَاعِ غَايَةً لَا يَبْلُغُهَا الطَّيْرُ عَلَى بُعْدِ تَحْلِيْقِهِ ، وَلَا يَدْرِكُهَا الطَّرْفُ عَلَى مَدَّةِ تَحْدِيقِهِ ، فَإِذَا
أُضْرِمَ بِرَأْسِهِ قَبَسُ ظَنِّهِ الْمُتَأَمِّلِ نَجْمًا ، وَإِذَا اسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ قَوْسُ السَّمَاءِ كَانَ لَهَا سَهْمًا .
وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان ، تسميه العاقمة "أبا الهول"
لعظمه ، والقبط يزعمون أنه طَلَسَمَ لِلرَّمْلِ الَّذِي هُنَاكَ ، لِثَلَا يَغْلِبَ عَلَى أَرْضِ الْجِيزَةِ .

وَأَمَّا حَائِطُ الْعِجُوزِ

والعجوز هي دُلُوكَا مملكة مصر .

وهذا الحائط من العريش (وهو حد مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهي

حد مصر من جهة النوبة) ، شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقي .

وزعمت القبط أن سبب بنائها أن الله عز وجل لما أغرق فرعون وقومه ،
خافت دُلُوكا على مصر أن يطمع الملوك فيها فبنته ، وزوجت النساء بالعبيد حتى
يكثر النسل والذرية .

وقيل في سبب بنائه : إن دُلُوكا ولدت ولدا فأخذت لمولده رسدا ، فرأت أن
التساح يقتله ، فبنت هذا الحائط وقاية له من التساح . فلما شب الغلام رأى
في مولده ذلك ، فأحب أن يراه ، فصوّره من خشب ؛ فلما رآه هاله منظره
وأستولى على نفسه الوهم والفرع ^(١) فمات .

وأما ملعب أنصنا

فإنه كان مقياسا للنيل .

ويقال : إنه من بناء دُلُوكا ؛ وكان بناؤه كالطيسان ، وعليه أعمدة بعدد أيام
السنة من الصوّان الأحمر المانع ، بين العمود والعمود خطوة ؛ وكان النيل يدخل إليه
من فوهة فيه عند زيادة النيل ؛ فاذا بلغ الحد الذي يحصل به الرى جلس الملك
في مُشترف له ، ويصعد قوم إلى رؤوس الأعمدة فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت ،
فمن زلّت به قدمه منهم سقط إلى البركة .

وأما مدينة عين شمس

فهى من المباني التى درّست .

وكانت مصر فرعون موسى ، ومنها خرج يحنوده فى طلب موسى وبني إسرائيل ؛
وكانت عدّتهم ستمائة ألف ، ليس فيهم أبن عشرين سنة ولا أبن ستين سنة .

(١) لم يرض ابن فضل الله بذكر هذه الخرافة فى كتابه ، وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (أنظر مسالك
الأبصار المطبوع ، ج ١ ص ٢٣٩) .

وَأَسْتَقْلَّ فرعون هذا العدد وقال كما أخبر الله تعالى عنه : ((إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)) .

وكان بها هيكل الشمس فخرّب .

والفرس تزعم أن هرسيك بناها .

ويقال : إنه كان قد بقي منها عمودان من حجر صلد ، فَلَكَتْ طَوِيلُ كل عمود

منهما أربعة وثمانون ذراعا ، على رأس كل عمود صورة إنسان على دابة ، وعلى رأسيهما

شبه الصومعتين من نحاس ؛ فإذا كان (اللَّيْلُ) قَطَرَ من رأس كل واحد منهما ماء

لا يتجاوز نصف العمود الذي هو مركب عليه ؛ والموضع الذي يصل إليه الماء

لا يزال أخضر رطباً .

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستمائة .

وأما البرابي

وهي بيوت حكمة القبط ؛ ويقال : إنه كان لكل كورة من كُور مصر ربابة

يجلس فيها كاهن على كرسي من ذهب .

ومن أعجب البرابي وأعظمها (ربابة إنحيم) . وهي مبنية بحجر المرمر ، طول كل

حجر خمسة أذرع في ستم ذراعين ، وهي سبعة دهايز سقوفها حجارة ؛ طول كل حجر

منها ثمانية عشر ذراعا في عرض خمسة أذرع ، مدهونة بالآزورد وسائر الأصباغ ،

يخالها الناظر إليها كأنما فرغ الدهان منها ؛ يقال : إن كل دهايز منها على اسم كوكب

من الكواكب السبعة ؛ وجدران هذه الدهاليز منقوشة بصُور مختلفة الهيئات

والمقادير ، يقال : إنها رموز على علوم القبط ، وهي : الكيمياء ، والسِّيمياء ، والطَّلسمات ،

والطب ، وأودعوها هذه الصور .

ويقال : إن ذا النون المصري العابد فكّ منها علم الكيمياء .

وأما حَنِية اللَّازورد

وهي بأرض مَنْف، وَمَنْف هذه هي التي تسمى مصر القديمة .

يقال إن عَقْد الحَنِية أحسنُ من عَقْد قنطرة صَنْجَة التي تقدّم ذكرها، والحَنِية معقودة من حجارة مهندمة، طول كل حجر منها أكثر من خمسة عشر ذراعا، وفيها نقوش وكتّابة وطلسمات مموّهة باللّازورد، وهي من الشرق إلى الغرب، وفي صدرها قِصَاء فيه بناء مرتفع، عليه بلاطة من الصّوّان الأسود، مكتوب فيها بالقلم الرّباوي ثلاثون سطرا، يقال : إنه قبر الذي بنى الحَنِية، وإنه ديساره : ملك كان بمصر، حكيم .

وللقبط عيد يسمى ديساره : وهو عيد هذا الملك، ويسمى عيد العنب .

وأما منارة الإسكندرية

فهى مبنية بحجارة مهندمة مضبّبة بالرصاص على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس، وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض، تصعد الدابة بجملها إلى سائر البيوت من داخلها، وللبیوت طاقات يُنظر منها إلى البحر .
وبين أهل التاريخ خلافٌ فيمن بناها .

فزعم بعضهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبس المقدوني، وزعم آخرون أنها من بناء دَلوكا ملكة مصر . ويقال : إن على جانبها الشرقى كتّابة، وإنها نقلت إلى اللسان العربى فوجدت " بنت هذه القنطرة فرتنا بنت مريتوس اليونانية لرصد الكواكب " .

ويقال : إن طولها كان ألف ذراع .

وكان فى أعلاها تماثيل من نحاس .

منها تَمَثَّل قد أشار بسببته اليمنى نحو الشمس ، أينما كانت من الفلك يدور معها حيثما دارت .

ومن هنا تَمَثَّل وجهه في البحر ، متى صار العدو منهم على نحو من ليلة ، سَمِعَ له صوت هائل يَعْلَم به أهل المدينة طُروق العدو .

ومن هنا تَمَثَّل كلما مضى من الليل ساعة ، صوت صوتا مطربا .
ويقال : إنه كان بأعلاها امرأة تُرى منها قُسطنطينية ، وبينهما عرض البحر .
وكلما جهز الروم جيشا رَأَى في المرأة .

وحكى المسعودي في " مروج الذهب " أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية ، وأنها تعد من بناء العالم العجيب ، بناها بعض البطالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر ، لما كان بينهم وبين الروم من الحروب في البر والبحر ، فجعلوا هذه المنارة مَرَقَبًا ، وجعلوا في أعلاها امرأة من الأحجار المَشَقَّة ، تشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها .

ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون ، فاحتال ملك الروم على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الإسلام ، فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام ، وأخرج كنوزا ودفائن كانت في الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدعيه ، ثم قال له : إن تحت المنارة أموالا ودفائن وأسلحة دفنها الإسكندر ، فصدقه وجّهه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية ، فهدم ثلث المنارة وأزال المرأة ، ثم فطن الناس أنها مكيدة ، فاستشعر ذلك فهرب في مركب كانت معدة له ، ثم بُنِيَ ما هُدم بالجص والآجر .

ثم قال المسعودى : وطول المنارة في هذا الوقت (يعنى الوقت الذى وضع فيه كتابه ، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة) مائتان وثلاثون ذراعا ، وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع .

وهى في عصرنا هذا ثلاثة أشكال : فمنها تقدير الثلث مربع مبنى بالحجارة ، ثم بعد ذلك بناء مئمن الشكل بالآجر والجص نحو ستين ذراعا ، وأعلىها مدور الشكل .

ويقال : إن أحمد بن طولون بنى في أعلاها قبة من الخشب فهدمتها الرياح ، فبنى في مكانها مسجدا في الدولة الظاهرية الركنية ببيرس صاحب مصر رحمه الله تعالى ، ثم هُدم في ذى الحجة سنة اثنتين وسبعمئة بسبب الزلزلة الحادثة ، ثم بنى في شهرور سنة ثلاث وسبعمئة في دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور ، ثبت الله دولته ، وكان المندوب لذلك الأمير ركن الدين ببيرس الدوادار المنصورى نائب السلطنة الشريفة في الغيبة .

وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية .

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدروى :

وسامية الأرجاء تهدى أبا السرى * ضياء إذا ما حنّ دس الليل أظلمها
ليست لها بردا من الأنس ضافيا * فكانت بدكار الأجابة معلما
وقد ظلمتني من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحاى أنجبا
خفيت أن البحر تحتي غمامة * وأنى قد خيمت في كيد السما

وقال أبو الفتح الأغبر بن قلافس :

ومنزل جاوز الجوزاء مرقيا * كائما فيه للنسرين أوكار

رَاسِي الْقَرَارَةِ سَامِي الْفَرْعِ فِي يَدِهِ * لِلنُّورِ وَالنُّوبِ أَخْبَارٌ وَأَخْيَارٌ^(١)
أَطْلَقْتُ فِيهِ عِنَانَ الْقَوْلِ فَاطْرَدْتُ * خَيْلٌ لَهَا فِي بَدِيعِ الشَّعْرِ مِضْمَارٌ

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو مَلْعَبٌ كان بالإسكندرية .

- كانوا حكماءً يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئاً دون الآخر، ووجه كل واحد منهم - وإن اختلفت جهاتهم - تلقاء وجه الآخر ؛ وإن عمل أحد منهم شيئاً أو تكلم سمعه الآخر، ونظر القريب والبعيد فيه سواء .
- وقد بقيت منه بقايا عمدة تكسرت غير عمود منها يسمى عمود السوارى فى غاية الطول والغلظ من الحجر الصوان الأحمر .

ذكر شيء من عجائب المباني

١٠

قال صاحب كتاب "مباحج الفكر ومناهج العبر" :

ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب أن الفرس تزعم أن أوشمنج بنى بأرض بابل سبع مدائن، جعل فى كل مدينة منها أعجوبة ليست فى الأخرى .

فكان فى الأولى - التى يكون فيها الملك - مثلاً أنهار الدنيا كلها ؛ فإذا

- آلتوى عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم خرج نهر من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية فغرقوا، فإذا أدوا الخراج سد عليهم من عنده فأئسدت عنهم .

(١) هكذا فى الأصل . وفى بدائع البدائى "أخبار وآثار" وفى مسالك الأبصار "إخبار وأخبار"

وهذا الوجه الأخير أولى، ويكون المعنى أن هذه المنارة تخبر عن المراكب المضيفة القادمة الى الإسكندرية وأن فيها أخباراً عن السمك الساج فى البحر حولها .

وفي الثانية حوض، فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب، أتى من أحبّ منهم بشراب له خاص فيصبه في الحوض، يفعل ذلك كل إنسان منهم، فيختلط الجميع، ثم تقوم السقاة فتأخذ الأواني ويُسقى كل واحد من شرابه الذي جاء به .

وفي الثالثة طبل، فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره أحنّ هو أم ميت، ضربوا الطبل : فإن كان حيا صوّت، وإن كان ميتا لم يصوّت .

وفي الرابعة المرأة، فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حاله نظروا في المرأة فراؤوه في الحالة التي هو عليها .

وفي الخامسة إوزة نحاس، فإذا دخل المدينة غريب صقرت، فيعلمون أن غريبا دخلها .

وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء، فيجىء الحقّ والمبطل ليجلسا معهما، فيجلس الحق، ويرسب المبطل .

وفي السابعة شجرة، لا تظل إلا ساقها، فإذا جلس تحتها واحد أطلته إلى ألف، فإن زاد على الألف واحد قعدوا كلهم في الشمس .

وكنّت قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها، فرأيت ابن الجوزي وضعها في كتابه الذي سماه "سلوة الأحران" فأوردتها .

وحكى أنه كان بمدينة قيسارية — لما كانت في أيدي الروم — كنيسة بها امرأة، إذا آتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرأة، فيرى وجه المتهم فيها، وأن بعض الناس آتهم فراؤوه فيها فقتله الملك، فجاء أهله إلى المرأة حمية فكسروها .

وحكى الواقدي في فتوح السند : أن عبد الله العبدى عامل معاوية على السند غزا بلد القيقان، فأصاب منهم غنائم كثيرة، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه الفداء وحمل إليه هدايا كان فيها قطعة من امرأة، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها

على آدم عليه السلام لما كثر ولده وانشروا في الأرض ، فكان ينظر فيها فيرى من بعد منهم على الحالة التي هو عليها من خير أو شر ، فحملها عبد الله إلى معاوية ، فبقيت في ذخائر بني أمية إلى أن انتقل الملك عنهم إلى بني العباس ، فضاعت فيما ^(١) فقد من الذخائر .

- ٥ وقيل إن ينهأوند حجرا يسمى الكيلان ، بالقرب منه صخرة ، من أراد أن يتعترف حال غائب أو آبق أو سارق ، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها ، فيرى في النوم حال ما تعترف به على ما هو عليه . وعجائب المباني كثيرة ، سنذكر إن شاء الله تعالى منها جملة في أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده ، فتأمل هناك تجده .

الباب الرابع

- ١٠ من القسم الخامس من الفن الأول
فيما وصفت به المعادل والحصون

وهذا الباب قد ترجمت عليه في الفن الثاني الذي يلي هذا الفن فيما يحتاج إليه الملك . وإنما ضمته إلى هذا الفن لمناسبته له وشبهه به ، وأستثنيت من الفن الثاني واقتصر فيه على مجرد الترجمة ، وبالله التوفيق .

- ١٥ وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتاب والبلغاء القول في هذا المعنى وتواردوا فيه ، فاقصرنا على ما نورد من ذلك ، وهو قليل من كثير .

فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار :

« ... وهذه القلعة التي آتينا إلى قرارها ، وأستولينا على أقطارها ، أرحب

المدن أمدا للعيون ، وأخصبها بلدا إذا أمحلت السنون ، فروعها فوق الثريا شاحنة ،

- ٢٠ (١) بهامش الأصل ما نصه : "ذكر أبو جعفر الطبري في تاريخه أن هذه المرأة كانت عند أبي جعفر المنصور قاله أعلم أين صارت بعده" .

وعروقتها تحت الثرى راسخة ؛ ثباهى بأزهارها نجوم السماء ، وتناجى بأسرارها أذن
الجوزاء ؛ وكانت فى الزمن الغابر ، عتت على عظيم القياصر ؛ فنازلها بأكثر من
النجوم عددا ، وطاولها بأوفى من البحر مددا ؛ فأبت على طاعته كل الإباء ،
وآستعصت على مقارعتة أشد آستعصاء ، ومردت مرود مارِد على الزبأ ؛ فأمكننا
الله من ذروتها ، وأنزل رُكَّابها لنا عن صهوتها .

وقال القاضى الفاضل عبدالرحيم اليسانى رحمه الله ، يصف آمدا من رسالة ، جاء منها :

« ... وَاَمِدْ ذِكْرَهَا بَيْنَ الْعَالَمِ مُتَعَالِمٌ ، وَطَالَمَا صَادَمَ جَانِبَهَا مِنْ تَقَادَمٍ ؛ فَرَجَعَ عَنْهَا
مَقْدُوعاً أَنْفَهُ وَإِنْ كَانَ خِفَافاً ، وَفَرَّ عَنْهَا فَرِيذاً بِهِمَّةً وَإِنْ آسْتَصَحَبَ خِيلاً وَرَجُلًا ؛
وَرَأَى حَجَرَهَا فَقَدَّرَ أَنَّهُ لَا يُفَكُّ لَهُ حَجَرٌ ، وَسَوَادَهَا فَظَنَّ أَنَّهُ لَا يَنْسَخُهُ حَجَرٌ ، وَحِمَّةَ أَنْفِ
أَنْفَتِهَا فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَزَجَرٍ ؛ مِنْ مَلُوكٍ كُلِّهِمْ قَدْ طَوَى صَدْرَهُ عَلَى الْغَلِيلِ
إِلَى مَوْرِدِهَا ، وَوَقَفَ وَقْفَةً الْمَحَبِّ السَّائِلِ فَلَمْ يَقْزُ بِمَا أَمَّلَ مِنْ سُؤَالِ مَعْهَدِهَا . »
وقال من أخرى يصفها :

« ... وَهِيَ الْعَقِيلَةُ الَّتِي صَدَّرَ الصُّدُورِ الْأَوَّلَ مُحَلَّاةً عَنْ وَرْدِهَا ، وَالطَّرِيدَةُ الَّتِي
حَصَلَ مِنْهَا عَلَى رَاحَةِ يَأْسِهِ وَتَعَبِ طَرْدِهَا ؛ وَالْمَحْجَبَةُ الَّتِي كُشِفَتْ سِتُورُهَا ، وَدَارَ
لِعِصْمَتِهَا كِسُورٌ مَعْصِمِهَا سُورُهَا ، وَغَلَتْ عَلَى أَنَّهَا السُّودَاءُ عَلَى خُطَابِهَا لِأَنَّ الْمُهَاجِ
مُهِوْرُهَا ؛ وَلَرُبَّمَا نَأَى بِجَانِبِهَا الْإِعْرَاضُ ، وَنَبَا جَوْهَرُهَا عَنِ الْأَعْرَاضِ ، وَطَاشَتْ
دُونَ أَوْصَافِهَا سِهَامُ الْأَعْرَاضِ ؛ وَدَرَجَتِ الْمُلُوكُ عَلَى حَسْرَتِهَا فَلَمْ تَحْسِرْ لَهَا لِيَتَامَا ،
وَمَا آسْتَطَاعَتْ لِثَغْرِهَا ثَلَمًا وَلَا لَهُ آلَتِيَامَا . »

وقال من أخرى يصف قلعة نجم ، وهى من عيون الرسائل ، جاء منها :

« ... هِيَ نَجْمٌ فِي سَحَابٍ ، وَعُقَابٌ فِي عِقَابٍ ؛ وَهَامَةٌ لَهَا الْغَامَةُ عِمَامَةٌ ، وَأَنْمَلَةٌ
إِذَا خَضِبَهَا الْأَصِيلُ كَانَ الْهَلَالُ لَهَا قُلَامَةٌ ؛ عَاقِدَةٌ حُبُوءَ صَالِحِهَا الدَّهْرُ لَا يُحِلُّهَا

بقرعه ، بادية عَصمة صاحبها الزمن على ألا يروّعها بجلعه ، فاستنقت بها عقاربُ
منجنِقات لم تُطبع طبعِ حمص في العقارب ، وضربت بها بحجارة أظهرت فيها العداوة
المعلومة في الأقارب ، فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثرت فيها الحجارة جُدرياً بضرها ،
ولم يصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقها ، فاتسع الخرق على الرافع ، وسقط
سعدته عن الطالع ، إلى مولد من هو إليها طالع ، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً ،
وسيرت الجبال فكانت سراباً .

وقال من أخرى في فتح بيت المقدس ، جاء منها :

« ... زاول المدينة من جانب ، فإذا هو أويّة عميقة ، ولجج وغير غريقة ،
وسور قد أعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار ،
وقدم المنجنِقات التي تتولى عقاب الحصون عصيها وحبائها ، وأوتر لهم قسيها التي
تضرب ولا تفارق سهامها ولا سهامها نصالها ، فصاحت السور فاذا سهامها في ثنيا شرفاتها
سواك ، وقدم النصر بشرى من المنجنِقات تُخلد إخلاده إلى الأرض وتعلو علوه إلى
السمك ، فشج مرابع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ورفع مشارعها ، وأسفر
النقاب عن الحراب النقاب ، وأعاد الحجر إلى خلقته الأولى من التراب ، ومضغ سرد
حجارته بانياب مِعوله ^(١) ، وأظهر من صناعته الكثيفة مايدل على لطافة عمله ، وأسمع
الصخرة الشريفة أنينه إلى أن كادت ترق لمقتله .

وقال أيضا من أخرى :

« ... فنصبنا عليها المنجنِقات تمطر سماءها نبل الوبال ، وتملأ أرضها بالنكاية
والنكال ، وتهذب ساريات حجارتها راسيات الجبال ، وتُنزل نوازل الأسواء بالأسوار ،
وتوسع مجال الدوائر في الديار ، وتخطف بخطافات أعمار الأغمار ، وتطير حمامها بكُشْب
الحمام ، وتديم إغراء سهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام ، وكشف النقابون نقاب السور
المحجوج المحجوب ، فتهدم بنيانه وتداعت أركانه بتظاهر المنجنِقات عليها والنقوب .

(١) المعول : الفأس العظيمة . وفي الأصل : "معوله" بالعين المعجمة . والمعول : ما يهلك به
الشيء ، لكنا رأينا الأنسب في تهديم الحجارة أن يكون "معوله" بالعين المهملة .

ووصف القاضي الفاضل المنجنيق من رسالة فقال :

« فَسَلَّمْتُ كَأَنَّهَا بَنَانٌ ، وَنَضَّضْتُ كَأَنَّهَا لِسَانٌ ، وَأَطَّتْ كَأَنَّهَا مِرْنَانٌ ، وَاهْتَرَّتْ كَأَنَّهَا جَانٌ ، وَتَقَوَّمتْ كَأَنَّهَا سِنَانٌ ، وَانْعَطَفَتْ كَأَنَّهَا عِنَانٌ ، وَأَقْدَمْتُ كَأَنَّهَا شُجَاعٌ وَأَحْجَمْتُ كَأَنَّهَا جَبَانٌ ، وَرَمْتُ رُءُوسَهُمُ الْمَوْقُورَةَ مِنْ أَحْجَارِهَا بِأَمْثَالِ الرُّءُوسِ الْمُحَلَّقَةِ ، فَأَعَادْتُهُمْ إِلَى الْخَلْقَةِ الْأُولَى مُخَلَّقَةً وَغَيْرَ مُخَلَّقَةٍ » .

ووصف النامي المنجنيق فقال :

وَحِصْنٌ زِيَادُ غُدُوَّةِ السَّبْتِ نَافِئًا * سِمَامًا أَرَاكَ أَبْنَ الْأَرَاقِمِ أَرْقَا
نَضَبْتُ لَهُ فِي الْأَرْضِ بِنْتُ حَدِيقَةٍ * تَمُدُّهَا فِي الْجَوْكَفَا وَمِعْصَمَا^(١)
لَهَا أَخَوَاتٌ لِلنَّيَا كَوَامِنٌ * وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا أَضْمَرْتَهُ مُكْتَمًا
عَذَارَى وَلَكِنْ قَدْ وَجَدْنِ حَوَامِلًا * بَعْرُسٌ تَرَاهُ لِلْجَنَادِلِ مَأْتَمًا
تَرَى الصَّخْرَ فِيهِ الصَّخْرَ وَهُوَ نَسِيبُهُ * عَدُوًّا بِيَوْمِ أَرْضِهِ تَمْطُرُ السَّمَاءُ
إِذَا أَقْعَدَتْ جُدْرًا قِيَامًا رَأَيْتَهَا * تُنَبِّئُهُ قِيَعَانًا مِنَ التُّرْبِ نُومًا
وَمَا وَصَفَتْ بِهِ الْمَعَاقِلَ وَالْحَصُونِ نَظْمًا .

فمن ذلك قول كعب الأشقرى ، يصف قلعة :

مُحَلَّقَةٌ دُونَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا * غَمَامَةٌ صَافِيَةٌ زَالَتْ عَنْهَا سَحَابُهَا
وَلَا يَبْلُغُ الْأَرَوَى شِمَارِيحَهَا الْعُلَى * وَلَا الطَّيْرُ إِلَّا نَسْرُهَا وَعُقَابُهَا
وَلَا خُوفَتْ بِالذَّنْبِ وَلِدَانُ أَهْلِهَا * وَلَا نَجَتْ إِلَّا النُّجُومُ كَلَابُهَا

وقال أبو تمام ، يصف عمورية :

وَبَرَزَةُ الْوَجْهِ قَدْ أَعْيَتْ رِيَاضَتُهَا * كَسْرَى وَصَدَّتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرِبٍ
بِكُرٍّ فَا أَفْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ * وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النُّوبِ
مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَدْ * شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبْ

(١) في الأصل " بيت حديقة " بالياء بدل النون ، ولعل الصواب ما أئتمناه .

وقال الخالديان :

وَحَلَقَاءَ قَدْ تَاهَتَ عَلَى مِنْ يَرُومُهَا * بِمَرْقَبِهَا الْعَالَى وَجَانِبِهَا الصَّعْبِ
يَزُرُّ عَلَيْهَا الْجَوُّ جَيْبَ غَمَامِهِ * وَيُلَيْسُهَا عَقْدًا بِأَنْجَمِهِ الشَّهْبِ
إِذَا مَا سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ * كَمَا لَاحَتْ الْعَذْرَاءُ مِنْ خَلَلِ الْحُجُبِ
سَمَوَتْ لَهَا بِالرَّأْيِ يَشْرِقُ فِي الدُّجَى * وَيَقْطَعُ فِي الْجُلَى وَيَصْدَعُ فِي الْهَضْبِ
فَأَبْرَزَتْهَا مَهْتُوكَةَ الْجَيْبِ بِالْقَنَا * وَغَادَرَتْهَا مَلْصُوقَةَ الْحَدِّ بِالتَّرْبِ

وقالا أيضا في قلعة :

وَقَلْعَةٍ عَاتِقَ الْعَيْشِ سَافِلَهَا * وَجَازَ مِنْطَقَةَ الْحَوَازِ عَلَيْهَا
لَا تَعْرِفُ الْقَطَرَ إِذْ كَانَ الْغَمَامُ لَهَا * أَرْضًا تَوَطَّأُ قُطْرِيَهُ مَوَاشِيَهَا
إِذَا الْغَمَامَةُ لَاحَتْ خَاضَ سَاكِنُهَا * حِيَاضُهَا قَبْلَ أَنْ تَهْمِيَ عَنِهَا
يَعْدُ مِنْ أَنْجَمِ الْأَفْلَاكِ مَرْقَبُهَا * لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَجْرَى فِي مَجَارِيهَا
عَلَى ذُرَى شَامِخٍ وَعَيْرٍ قَدِ امْتَلَأَتْ * كِبَرًا بِهِ وَهُوَ مَمْلُوءٌ بِهَا تِيهَا
لَهُ عِقَابٌ عِقَابُ الْجَوِّ حَامِيَةٌ * مِنْ دُونِهَا فَهِيَ تَخْفَى فِي خَوَافِهَا

وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَبِكْرِ تَحَامَتِهَا الْبُعُولُ مَخَافَةً * فَقَدْ تُرِكَتْ مِنْ كَثَرَةِ الْمَهْرِ أَيْمًا
مَمْنَعَةً لَمْ يَغْلِطِ الدَّهْرُ بِأَسْمِهَا * وَلَمْ يَرَهَا فِي النَّوْمِ إِلَّا تَوَهَّمًا
تَزَلُّ عِقَابُ الْجَوِّ عَنْ شُرُفَاتِهَا * وَتَبْغِي إِلَيْهَا الرِّيحُ مَرَقًى وَسَلَامًا
وَيُسْمَعُ فِي الْأَفْلَاكِ صَيْحَةُ دِيكِهَا * فَتَحْسَبُ دِيكَ الْعَرْشِ صَاحَ تَرْتَمًا
عَجُوزًا تَرَى فِي صِحَّةِ الْجِسْمِ كَاعِبًا * وَلَوْ أُرْخَتْ كَانَتْ مِنَ الدَّهْرِ أَقْدَمًا
تَوَارِي أَسَاسًا بِالتَّخُومِ مُؤَزَّرًا * وَتُبْرُزُ رَأْسًا بِالنُّجُومِ مَعَمًا
تَسْأَلُهَا الْأَرْضُ السَّمَاءَ وَتَدْعَى * لَدَيْهَا بِهَا حَقًّا لَهَا مُتَهَضَّمًا
وَتَحْسَبُهَا زُهْرُ الْكَوَاكِبِ كَوَكَبًا * هَوَى خَلْفَ شَيْطَانِ رَجِيمٍ نَحِيمًا

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الأول

(فيما وصفت به القصور والمنازل)

ولنبداً بذكر ما بناه المتوكل من القصور وما أنفق عليها، ثم نذكر ما قيل في وصفها،
وما وصفت به المنازل الخالية، وما قيل في حب الوطن . ٥

فأما قصور المتوكل، فهي : الكامل، والجعفرى، وبركوانا، والعروس،
والبركة، والجوسق، والمختار، والغريب، والبديع، والصبيح، والمليح، والقصر،
والبرج، والمتوكلية، والقلاية .

حكى المؤرخون أنه أنفق في بنائها ألف دينار وخمسون ألف دينار عينا،
ومائتا ألف ألف وثمانية وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم . ١٠

قالوا : وكان "البرج" من أحسنها . كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة،
وبركة عظيمة غشي ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة، وجعل عليها شجرة من الذهب
فيها طيور تصوت وتصفر سماها "طوبى"، باغت النفقة على هذا القصر ألف ألف
دينار وسبعمائة ألف دينار .

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السرى :

مجلس في فناء دجلة يرتأ * ح إليه الخليع والمستور
طائر في الهواء فالبرق يسرى * دون أعلاه والجمام يطير
فاذا الغيم سار أسيل منه * حلال دون جذره وسور
وإذا غارت الكواكب صبحا * فهو الكوكب الذي لا يغور

وقال أيضاً :

منزل كالربيع حلت عليه * حاليات السحاب عقد النطاق

(١) كذا بالأصل : وفي معجم ياقوت "يزكوار" .

يُمْتَعِ الْعَيْنَ فِي طَرَائِفِ حُسْنِ * نَحَامِي بِهَا عَنْ الْإِطْرَاقِ
بَيْنَ سَاحِجٍ كَأَنَّهُ ذَائِبُ التَّيْبِ * عَلَى مِثْلِ ذَائِبِ الْأَوْرَاقِ

وقال أيضا :

وَالْقَصْرِ يَنْسِمُ عَنْ وَجْهِ الضُّحَى فَتَرَى * وَجْهَ الضُّحَى عِنْدَ مَا أَبْدَى لَهُ شُعْبَا
يَبِيتُ أَعْلَاهُ بِالْجُوزَاءِ مُتَطَقَا * وَيَغْتَدِي بِرِدَاءِ الْغَيْمِ مُحْتَجِبَا
وقال أبو سعيد الرستمي ، يصف دارا بناها الصاحب بن عباد :

وَسَامِيَةِ الْأَعْلَامِ تَلْحَظُ دُونَهَا * سَنَا النِّجْمِ فِي آفَاقِهَا مُتَضَائِلَا
نَسِخَتْ بِهَا إِيوَانَ كِسْرَى بْنِ هُرْمِزٍ * فَأَصْبَحَ فِي أَرْضِ الْمَدَائِنِ عَاطِلَا
فَلَوْ أَبْصَرْتَ ذَاتُ الْعَادِ عِمَادَهَا * لَأَمَسْتَ أَعَالِيهَا حَيَاءً أَسْفَلَا
وَلَوْ لَحَظْتَ جَنَاتُ تَدْمَرُ حُسْنَهَا * دَرْتُ كَيْفَ تَبْنِي بَعْدَهُنَّ الْمَجَادِلَا
مَتَى تَرَهَا خَلَّتِ السَّمَاءُ سُرَادِقَا * عَلَيْهَا وَأَعْلَامُ النُّجُومِ تَمَائِلَا

وقال علي بن يوسف الإيادي ، يذكر دارا بناها المعز العبيدي بمصر وسمها
”العروسين“ .

بَنَى مَنَظَرًا يُسَمَّى ”الْعُرُوسَيْنِ“ رِفْعَةً * كَأَنَّ الثُّرَيَّا عَرَّسَتْ فِي قِبَايِهِ
إِذَا اللَّيْلُ أَخْفَاهُ بِحُلْكِهَ لَوْنِهِ * بَدَأَ ضَوْؤُهُ كَالْبَدْرِ تَحْتَ سَحَابِهِ
تَمَكَّنَ مِنْ سَعْدِ السُّعُودِ مَحَلَّهُ * فَأَضْحَى وَمِفْتَاحُ الْغِنَى فَتَحَ بَابَهُ
وَلَوْ شَادَهُ عَزَمَ الْمُعِزُّ وَرَأْيَهُ * عَلَى قَدْرِهِ فِي مُلْكِهِ وَنِصَابِهِ
لَكَانَ حَصَى الْيَاقُوتِ وَالتَّيْبِ مُفْرَعًا * عَلَى الْمُسْكَ مِنْ أَجَرِهِ وَثَرَابِهِ

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلي ، يصف دارا بناها المعتمد بن عباد من أبيات :

وَيَا حَبَّذَا دَارَ قَضَى اللَّهِ أَنَّهَا * يُحَدِّدُ فِيهَا كُلُّ عِزٍّ وَلَا يَيْلَى
وَمَا هِيَ إِلَّا خَطَّةُ الْمَلِكِ الَّتِي * يُحِطُّ إِلَيْهَا كُلُّ ذِي أَمَلٍ رَحَلَا
إِذَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا خَلَّتْ أَنَّهَا * تَقُولُ بِتَرْحِيبٍ لِدَاخِلِهَا أَهْلَا

وقد نَقَلَتْ صُنَاعُهَا مِنْ صِفَاتِهِ * إِلَيْهَا أَفَانَيْنَا فَأَحْسَنَتِ النَّقْلَا
فَمِنْ صَدْرِهِ رُحْبًا وَمِنْ نُورِهِ سَنًا * وَمِنْ صِيَتِهِ قَرْدًا وَمِنْ حِلْمِهِ أَصْلًا
فَاعْلَتْ بِهِ فِي رُتْبَةِ الْمُلْكِ نَادِيًا * وَقَلَّ لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ كَيْنٌ أَنْ يُعْلَى
نَسِيتَ بِهِ إِيوَانَ كِسْرَى لِأُنْثَى * أَرَاهُ لَهُ مَوْلَى مِنَ الْحُسْنِ لَا مِثْلًا
تَرَى الشَّمْسَ فِيهِ لَيْقَةً تَسْتَمِدُّهَا * أَكُفِّ أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شَكْلًا
لَهَا حَرَكَاتٌ أَوْدَعَتْ فِي سُكُونِهَا * فَمَا تَبِعَتْ مِنْ ثَقَلِهَا يَدَ رَجُلًا
وَلَمَّا عَشِينَا مِنْ تَوَقُّدِ نُورِهَا * تَخَذْنَا سَنَاهُ فِي نَوَاطِرِنَا كُحْلًا

وقال أيضا من قصيدة يصف فيها دارا بناها المنصور بيجاية، جاء منها :

وَأَعْمُرْ بِقَصْرِ الْمُلْكِ نَادِيكَ الَّذِي * أَضْحَى يَجِدُكَ بَيْتُهُ مَعْمُورًا
قَصْرٌ لَوْ أَنَّكَ قَدْ كَلَّمْتَ بُنُورَهُ * أَعْمَى لَعَادَ عَلَى الْمَقَامِ بِصِيرًا
وَأَشْتَقُّ مِنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ نَسِيمَهُ * فَيَكَادُ يُحْدِثُ لِلْعِظَامِ نُشُورًا
فَلَوْ أَنَّ بِالْإِيوَانِ قُوْبَلٍ حُسْنُهُ * مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكُورًا
لَسَى "الصَّبِيحُ" مَعَ "المَلِيحِ" بِذِكْرِهِ * وَسَمَا فَفَاقَ "خَوْرَنَقًا" وَ"سَدِيرًا"
أَعْيَتْ مَطَالَعُهُ عَلَى الْفُرْسِ الْأُلَى * رَفَعُوا الْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوا التَّنْذِيرَا
وَمَضَتْ عَلَى الْقَوْمِ الدُّهُورُ وَمَا بَنَوْا * لِمُلُوكِهِمْ شَبَهَا لَهُ وَنَظِيرَا
أَذْكُرْتَنَا الْفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا * غُرَفًا رَفَعَتْ بِنَاءَهَا وَقُصُورَا
فَلَكَ مِنَ الْأَفْلَاكِ إِلَّا أَنَّهُ * حَقَّرَ الْبُدُورَ فَأُطْلِعَ "الْمَنْصُورَا"
أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظَرَا * ثُمَّ أَنْتَنَيْتُ بِنَاطِرِي مُحْشُورَا
وَوَظَنْتُ أَنْى حَالِهِمْ فِي جَنَّةٍ * لَمَّا رَأَيْتُ الْمُلْكَ فِيهِ كَبِيرَا
وَإِذَا الْوَلَانِدُ فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا * جَعَلَتْ تُرَحِّبُ بِالْعُفَاةِ صَرِيرَا
عَضَّتْ عَلَى حَلَقَاتِهَا صَرَاعِمٌ * فَغَرَّتْ بِهَا أَفْوَاهَهَا تَكْشِيرَا
فَمَكَانَهَا لَبَدَتْ لَهَا عِنْدَهَا * مَنْ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهِ مَأْمُورَا

تَجْرَى الْخَوَاطِرُ مُطْلَقَاتٍ أَعْنَى * فِيهِ فَتَكْبُو عَنْ مَدَاهُ قُصُورِ
 بِرَحْمِ السَّاحَاتِ تَحْسَبُ أَنَّهُ * فُرْشَ الْبَهَا وَتَوَسَّحَ الْكَافُورِ^(١)
 وَمُحْصَبٍ بِالْذَّرِّ تَحْسَبُ تَرْبَهُ * مِسْكَ تَضَوَّعَ نَشْرُهُ وَعَبِيرِ
 يَسْتَخْلِفُ الْإِصْبَاحُ مِنْهُ إِذَا أَنْقَضَى * صُبْحًا عَلَى غَسَقِ الظَّلَامِ مُبِيرِ
 صَحَّكَتْ مَحَاسِنُهُ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا * جُعِلَتْ لَهُ زُهْرُ النُّجُومِ نُفُورِ
 وَمُصَفَّحَ الْأَبْوَابِ تَبْرًا نَظَرُوا * بِالنَّقِشِ بَيْنَ شُكُوكِهِ تَنْظِيرِ
 تَبْدُو مَسَامِيرُ النَّضَارِ كَمَا عَلَتْ * فَلَكُ الْهُودِ مِنَ الْحِسَانِ صُدُورِ
 خَالَعَتْ عَلَيْهِ غَلَاثِلًا وَرُسِيَّةً * شَمْسُ تَرْدُ الطَّرْفِ عَنْهُ حَسِيرِ
 فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ حُسْنِهِ * أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءِ نَضِيرِ
 وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَافِ عَسْجَدِهِ الَّتِي * حَامَتْ لَتَبْنِي فِي ذُرَاهِ وَكُورِ
 وَضَعَتْ بِهِ صُنَائِهِ أَقْلَامَهَا * فَأَرَتْكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصُورِ
 فَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لَيْقَةٌ * مَشَقُّوا بِهَا التَّرْوِيقَ وَالتَّشْجِيرِ
 وَكَأَنَّمَا فَرَّشُوا عَلَيْهِ مِلَاءً * تَرَكُوا مَكَانَ وَشَاحِهَا مَقْصُورِ
 يَا مَالِكَ الْمُلْكِ الَّذِي أُضْحِيَ لَهُ * مَلِكُ السَّمَاءِ عَلَى الْعُدَاةِ نَصِيرِ
 كَمْ مِنْ قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ * فَاسْتَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ التَّأْخِيرِ
 فَعَمَّرَتْهَا وَمَلَكَتْ كُلَّ رِيَاسَةٍ * مِنْهَا وَدَمَّرَتْ الْعِدَا تَدْمِيرِ

وقال عمارة اليمني، يصف دارا بناها فارس الإسلام من أبيات :

فَتَمَلَّ دَارًا شَيْدَتْهَا هَوَاهُ * يَغْدُو الْعَبِيرُ بِأَمْرِهَا مَتَسِيرًا
 فَاقَتْ عَلَى الْإِطْلَاقِ كُلَّ بَنِيَّةٍ * وَنَمَتْ بِسَعْدِكَ عِزَّةً وَتَكْبَرًا
 أَنْشَأَتْ فِيهَا لِلْعُيُونِ بَدَائِعًا * دَقَّتْ فَأَذْهَلَ حُسْنُهَا مَنْ أَبْصَرَ
 فَمِنْ الرُّخَامِ مُسَيَّرًا وَمَسَهَّمًا * وَمِنْهُمْ وَمَدْرَهُمَا وَمُدَّرَا
 وَسَقَيْتَ مِنْ ذَوْبِ النَّضَارِ سَقُوفَهَا * حَتَّى يَكَادَ نَضَارُهَا أَنْ يَقْطُرَا

(١) كذا في الأصل، ونحن نرجح أن تكون * فُرْشَ الْبَهَا وَتَوَسَّحَ الْكَافُورِ *

لم يَبْقَ نَوْعٌ صَامِتٌ أَوْ نَاطِقٌ * إِلَّا غَدَا فِيهَا الْجَمِيعُ مُصَوِّرًا
فِيهَا حَدَائِقُ لَمْ تَجِدْهَا دِيمَةً * كَلَّا وَلَا نَبَتَتْ عَلَى وَجْهِ الشَّرَى
لَمْ يَبْدُ فِيهَا الرُّوضُ إِلَّا مُزْهِرًا * وَالنَّخْلُ وَالرَّمَانُ إِلَّا مُثْمَرًا
وَالطَّيْرُ مَذْ وُقِعَتْ عَلَى أَغْصَانِهَا * وَثَمَارُهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْفَرَا
وَيَهَا مِنْ الْحَيَوَانِ كُلِّ مُشَبَّهِ^(١) * لَيْسَ الْحَرِيرُ الْعَبْقَرَى مُصَوِّرًا
لَا تَعْدَمُ الْأَبْصَارُ بَيْنَ مَرْوَجِهَا * لَيْثًا وَلَا ظَبْيًا بَوَجْرَةِ أَغْفَرَا
أَنْسَتِ نَوَافِرُ وَحْشِهَا لِسَبَاعِهَا * فَظَبَاؤُهَا لَا تَتَّقِي أَسَدَ الشَّرَى
وَكَأَنَّ صَوْلَتَكَ الْخُفَيْةَ أَمْنَتْ * أَسْرَابُهَا أَلَا تَخَافُ فَتُدْعَرَا
وَيَهَا زَرَافَاتُ كَأَنَّ رِقَابَهَا * فِي الطُّولِ أَلْوِيَةً تَوْمُ الْعَسْكَرَا
نُوبِيَّةُ الْمُنْشَأِ تُرِيكَ مِنَ الْمَهَا * رَوْقًا وَمِنْ بَزْلِ الْمَهَارَى مِشْفَرَا
جَبَلَتْ عَلَى الْإِقْعَاءِ مِنْ أَعْجَازِهَا * فَتَخَالُفُ فِي التَّيِّهِ تَمْشِي الْقَهْقَرَى

٥

١٠

وقال أبو الصلت أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، يَصِفُ قَصْرًا بَنَاهُ عَلِيُّ بْنُ تَيْمٍ بْنِ الْمُعْزِ بِمِصْرَ:

لِللَّهِ مَجْلِسُكَ الْمُنِيفُ فَبَابُهُ * بِمَوْطِدٍ فَوْقَ السَّمَاءِ مُؤَسَّسِ
مُوفٍ عَلَى حُبِّكَ الْمَجْرَّةَ تَلْتَقِ * فِيهِ الْجَوَارِي بِالْجَوَارِي الْكُنُوسِ
تَتَقَابَلُ الْأَنْوَارُ فِي جَنَابَتِهِ * فَالْلَّيْلُ فِيهِ كَالنَّهَارِ الْمُشْمِسِ
عُطِفَتْ حَنَائِيهِ دُورِينَ سَمَائِهِ * عَطَفَ الْأَهْلَةَ وَالْحَوَاجِبَ وَالْقِسِي
وَأَسْتَشْرَفَتْ عَمْدُ الرُّخَامِ وَظُوهِرَتْ * بِأَجَلٍّ مِنْ زَهْرِ الرَّيِّعِ وَأَنْفَسِ
فَهَوَاؤُهُ مِنْ كُلِّ قَدِّ أَهْيَفٍ * وَقَرَارُهُ مِنْ كُلِّ خَدِّ أَمْلَسِ
فَلَكْ تَحْيِيرٍ فِيهِ كُلِّ مُنْجِمٍ * وَأَقْرَبَ بِالتَّقْصِيرِ كُلِّ مُهَنْدِسِ
فَبَدَا لِلْحَظِّ الْعَيْنِ أَحْسَنَ مَنَظَرَا * وَغَدَا لِطَيْبِ الْعَيْشِ خَيْرَ مَعَرَسِ
فَأُطْلِعَ بِهِ قَمَرَا إِذَا مَا أُطْلَعَتْ * شَمْسُ الْخُدُورِ عَلَيْكَ شَمْسُ الْأَكْوَاسِ
فَالنَّاسُ أَجْمَعُ دُونَ قَدْرِكَ رُبَّةً * وَالْأَرْضُ أَجْمَعُ دُونَ هَذَا الْمَجْلِسِ

١٥

٢٠

(١) في الأصول: "مُسَبَّهٍ". ولعلها تصحيف.

وقال الوزير أبو سليمان بن أبي أمية :

يا دارَ آمَنِكَ الزَّما * نَ خطوبه ونوائيه
وجرت سَعُودُكَ بِالَّذِي * يَهْوَى نَزِيلُكَ دَائِبَهُ
فلنعم مأوى الضَّيفِ أذ * يت إذا تحاموا جانبَهُ
خطر شأوت به الدِّيا * ر فأذعنت لك قاطبَهُ

وقال أبو صخر القرطبي :

ديارُ عليهما من بَشَاشَةِ أَهْلِهَا * بَقَايَا تَسْرُ النَّفْسَ أَثْثَا وَمَنْظَرَا
رُبُوعٌ كَسَاها المَزْنُ من خَلَعِ الحَيَا * بُرُودًا وحَلَاها من النُّورِ جَوْهَرَا

وقال الشريف الرضي :

١٠ ما زلتُ أَطْرِقُ المَنَازِلَ بِاللَّوَى * حَتَّى نَزَلْتُ مَنَازِلَ النُّعَمِ
بالْحَيْرَةِ الْيَضَاءِ حَيْثُ تَقَابَلَتْ * شُمُ الْعِمَادِ عَرِيضَةِ الْأَعْطَانِ
شَهِدْتُ بِفَضْلِ الرَّأْيِ قِبَابَهَا * وَبَيْنَ الْبُنْيَانِ فَضْلُ الْبَانِي
مَا يَنْفَعُ الْمَاضِينَ أَنْ بَقِيَتْ لَهُمْ * خِطَطُ مَعْمَرَةٍ بَعْمَرٍ فَانِي

وأما ما وصفت به المنازل الخالية

١٥ فمن ذلك ما قاله البحريّ يشير إلى "الكُرمان" الذي بناه كسرى أنوشروان
من أبيات :

فَكَانَ الْكُرْمَانُ مِنْ عَدَمِ الْأُذ * سِ وإِخْلَاقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسٍ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي * جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ
وَهُوَ يُنْيِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ * لَا يُشَابُّ الْبَيَانَ فِيهَا بَلْبَسُ
وإذا ما رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا * كَيْةَ آرَتَعَتَ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسٍ
وَالْمَنَآيَا مَوَائِلُ وَأَنُوشَر * وَأَنْ يُزِيحِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَقَسِ

وقال أيضا من قصيدة يرثي فيها المتوكل ، ويذكر قصره "الجعفرى" :
 محلّ على القاطول^(١) أخلق داره * وعادتُ صروفُ الدهرِ جيشاً تعاوِره
 كأنَّ الصَّبَا تُوفى نُدُورا إذا أنبرت * تجرُّ به أذيالها وتبَاكره
 وربَّ زمانٍ ناعِمٍ تمَّ عَهْدُهُ * ترقُّ حواشيه ويونقُ ناظره
 تغيرُ حُسنُ "الجعفرى" وأنسه * وقوَّضَ بادى "الجعفرى" وحاضره
 تحمّل عنه ساكنوه جُفاءً * فعادت سَواءُ دُورِهِ ومقارِهِ
 إذا نحنُ زُرناه أجد لنا الأسى * وقد كان قبل اليوم يهيج زائره
 ولم أنس وحش القصر إذ ريع سريره * وإذ دُعرت أطلاؤه وجاذره
 وإذ صبح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أسناره وسريره
 وأوحشه حتى كأن لم يكن به * أنيس ولم تحسن لعين منظره
 كأن لم تبت فيه الخلافة طلقه * بشاشتها والملك يشرق زاهره
 ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها * وبهجتها والعيش غص مكاسره
 فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت * بهيبتها أبوابه وستاره
 وأين عمود الملل في كل نوبة * تنوب وناهى الدهر فيه وأمره

١٥

١٠

وقال عمر بن أبى ربيعة :

يا دار أمسى دارساً رسمها * وحشاً قفاراً ما بها أهل
 قد جرت الرّيح بها ذيلها * وآسن في أطلالها الوايل

١٥

وقال شاعر أندلسي :

قلت يوماً لدار قوم تفانوا * أين سكّانك الكرام لدينا
 فأجابت هنا أقاموا قليلاً * ثم ساروا ولست أعلم أيناً

٢٠

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسي :

يا دار علوة قد هيّجت لى شجناً * وزدتنى حزناً حييت من دار

(١) نهر مشهور معروف كأنه مقطوع من دجلة .

كَمْ يَتُّ فِيكَ عَلَى اللَّذَاتِ مُعْتَكِفًا * وَاللَّيْلُ مُدَّرَعٌ ثَوْبًا مِنَ الْقَارِ
كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي الْمَسْجِ مُتَحِفٌ * شَدَّ الْحِجْرَ لَهُ وَسْطًا بِزُنَّارِ

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكي :

إِنَّ رَبْعًا عَرَفْتُهُ مَأْلُوفًا * كَانَ لِلْبَيْضِ مَرْبَعًا وَمَصِيفًا
غَيَّرْتُ آيَهُ صُرُوفَ اللَّيَالِي * وَغَدَا عَنْهُ حُسْنُهُ مَضْرُوفًا
مَا مَرَرْنَا عَلَيْهِ إِلَّا وَقَفْنَا * وَأَطْلَنَّا شَوْقًا إِلَيْهِ الْوُقُوفَا
أَلِفًا لِلْبُكَاءِ فِيهِ كَأَنِّي * لَمْ أَكُنْ فِيهِ لِلْغَوَايِ أَلِيفَا
حَاسِدًا لِلْخُفُونِ لَمَّا أَذَلَّتْ * فِي مَعَانِيهِ دَمْعُهَا الْمَذْرُوفَا

وقال الشريف الرضي من أبيات :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِدَيْرٍ هِنْدٍ مَنَزِلًا * أَلَمَّا مِنَ الضَّرَاءِ وَالْحَدَثَانِ
بِأَلِي الْمَعَالِمِ أَطْرَقَتْ شُرْفَاتُهُ * إِطْرَاقَ مُنْجَذِبِ الْقَرِينَةِ عَانِي
أَمْقَاصِ الْغَزَلَانِ غَيْرِكَ الْبَلَى * حَتَّى غَدَوْتَ مَرَاتِعَ الْغَزَلَانِ
وَمَلَاعِبِ الْأَنْسِ الْجَمِيعِ طَوَى الرَّدَى * مِنْهُمْ فَصُرْتَ مَلَاعِبَ الْجَنَانِ

وقال أبو الحسن علي القابوسي نثرا :

«قد كان منزله مألف الأضياف، ومأنس الأشراف، ومُتَجَعِّع الركب، ومقصود
الوقد، فاستبدل بالأُنس وحشيه، وبالنضارة غُبرة، وبالضيء ظلمة، واعتاض
من تراحم المواقب، بالأُدْمِ التَّوَادِبِ، ومن ضجيج النداء والصهيل، عجيح البكاء
والعويل» .

ومن رسالة لضيء الدين بن الأثير الجزري، جاء منها :

«... دارٌ لعبت بها أيدي الزمن، وفترت بين الساكن والسكن، كانت مقاصير
جنة، فأضحت وهي ملاعب جنة، ولقد عميت أخبار قُطَّانها، وعفت آثارها آثار
وطَّانها، حتى شابهت إحداهما في الجفاء، الأخرى في العفاء، وكنت أظن أنها لا تُسقى

بعدهم بغام، ولا يُرفع عنها جلبابُ ظلام؛ غير أن السحاب بكاهم وأجرى بها سوافح
دموعه، والليل شق عليهم جيو به فظهر الصّباح من خلال صدوعه .

ومما قيل في حب الأوطان

قال ابن الرومي (وهو أول من بين السبب في حب الوطن) :
ولي منزل آليت ألا أبيعهُ * وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة * كنعمة قوم أصبَحُوا في ظلالكا
فقد ألقته النفس حتى كأنه * لها جسد إن غاب غودرت هالكا
وحب أوطان الرجال إليهم * مارب قضاها الشباب هالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم * عهد الصبا فيها فحنوا لذليكا

ذكر شيء مما قيل في الحمام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :
أهلاً بيئت النار من منزل * شيد لأبرار وبُجار
يدخله ملتئم لذة * فيدخل الجنة في النار
وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسي :
إنهم أبا عامر يلدته * وأعجب لأمرين فيه قد جمعا
نيرانه من زنادكم قدحت * وماؤه من بنانكم نبعا
وقال علي بن عطية البلنسي :

رُبَّ حَمَامٍ تَلَطَّى * كتَلَطَّى كُلِّ وَاِمِقْ
ثم أذرت عبرات * صوبها بالوجد ناطق
فغدا مني ومنه * عاشق في جوف عاشق

وقال أبو طالب المأموني، شاعر اليتيمة :
وبيت كأحشاء الحب دخلته * ومالي ثياب فيه غير إهابي

أرى مُحَرَّمًا فيه وليس بَكَعْبَةٍ * فَمَا سَاعَ إِلَّا فِيهِ خَلْعُ ثِيَابِي
 بماءٍ كَدَمَعِ الصَّبِّ فِي حَرِّ قَلْبِهِ * إِذَا آذَنْتُ أَحْشَاءَهُ ^(١) بِذَهَابِ
 تَوَهَّمْتُ فِيهِ قِطْعَةً مِنْ جَهَنَّمَ * وَلَكِنَّهَا مِنْ غَيْرِ مَسِّ عِقَابِ
 يُشِيرُ ضَبَابًا بِالْبُخَارِ مَجْلَلًا * ^(٢) بُدُورَ زُجَاجٍ فِي سَمَاءِ قِبَابِ
 وقال آخر :

إِنَّ حَمَامَكَ هَذَا * غَيْرُ مَذْمُومِ الْحَوَارِ
 مَا رَأَيْنَا قَبْلَ هَذَا * جَنَّةً فِي وَسْطِ نَارِ
 وأنشدني جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه :

قالوا نَرَاكَ دَخَلْتَ حَمَامًا وَمَا * حَلَفَ الْهَوَى يَلْتَذُّ بِالْأَهْوَاءِ
 فَأَجِبْتُهُمْ لَمْ تَكْفِ أَدْمَعُ مُقَلَّتِي * حَتَّى بَكَيْتُ بِجُمْلَةِ الْأَعْضَاءِ

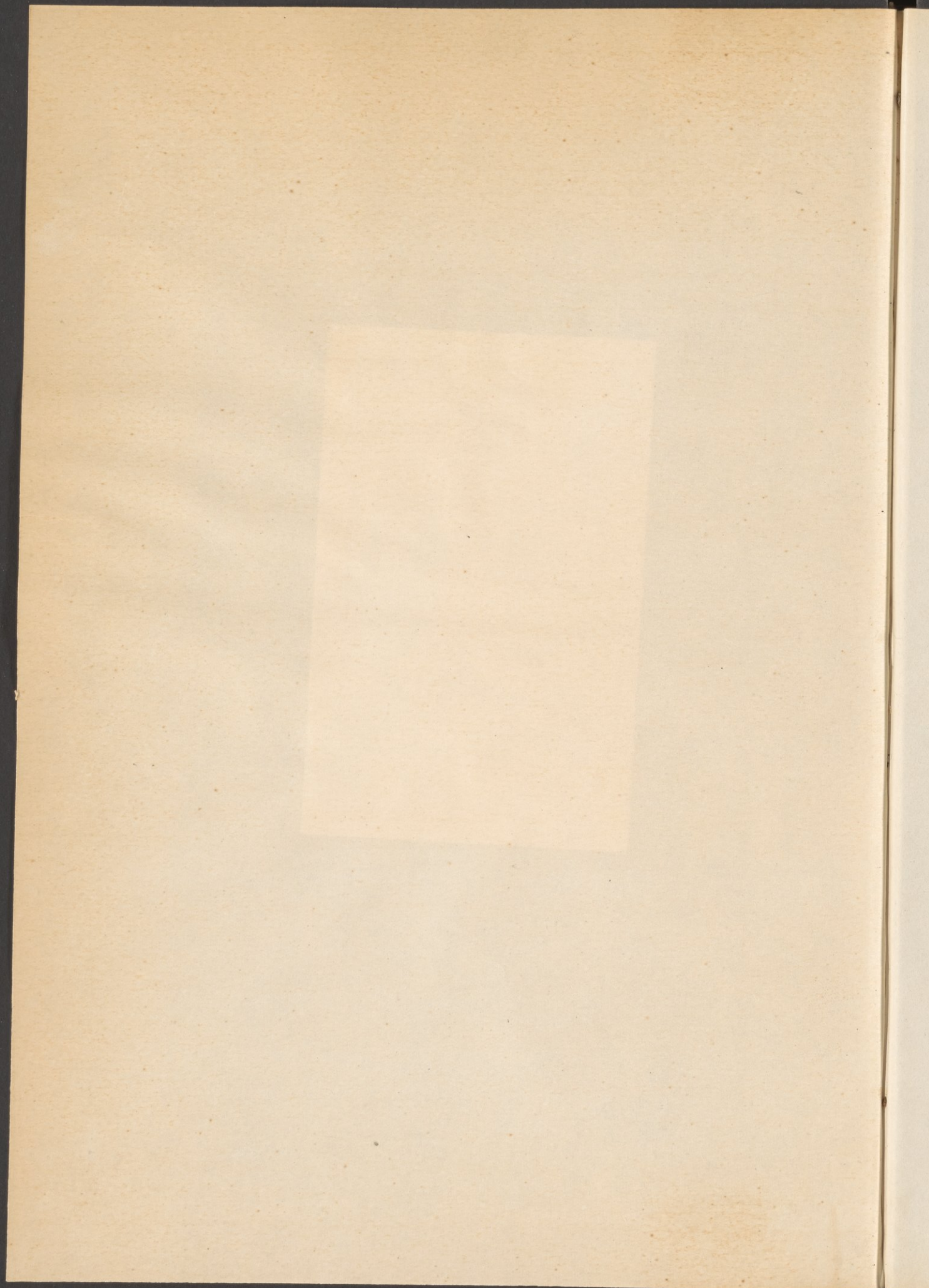
(١) في اليتيمة (ج ٤ ص ٩٥) : « أحبابه » .

(٢) كذا في اليتيمة . وفي الأصل : « مجتدلا » وهو تحريف .

تم السفر الأول

(نسخة ما هو مكتوب في آخر الأصل بخط المؤلف)

تُجَزَّ السَّفَرُ الْأَوَّلُ مِنْ "كِتَابِ نَهَايَةِ الْأَرْبِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ" عَلَى يَدِ مُؤَلِّفِهِ
 فَقِيرِ رَحْمَةِ رَبِّهِ أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الدَّائِمِ الْبَكْرِيِّ "الْتِيْمِي" الْقُرَشِيُّ ،
 عَرَفَ بِالنُّوَيْرِيِّ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ، وَوَافَقَ الْفَرَاغَ مِنْ كِتَابَتِهِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ
 لِعَشْرِ بَقِيَيْنِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ عَامِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ أَحْسَنَ اللَّهُ تَقْضِيَهُ ،
 وَذَلِكَ بِالْقَاهِرَةِ الْمُعْزِيَةِ عَمَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، يَتْلُوهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ السَّفَرِ
 الثَّانِي "الْفَنَّ الثَّانِي فِي الْإِنْسَانِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ" . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
 سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ آمِينَ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .





**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

From the Library of
George C. Miles
Gift of Marian Miles McCredie



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

